هنري شارير

مؤلف رواية الفراشة

الترجمة عن الفرنسية:

يارا شعاع

بانكو

الجزء الثاني
من مغامرات
بابيون

رواية

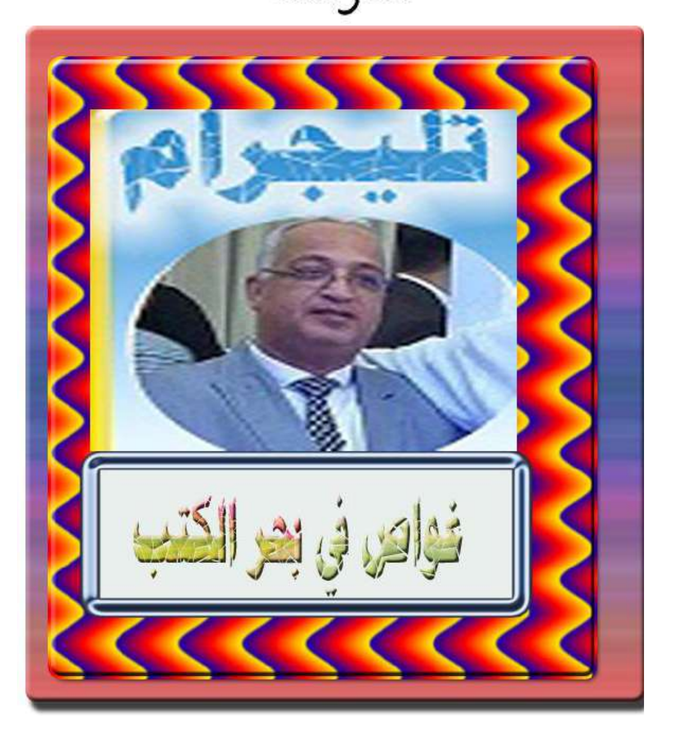


بــانكــو

الجزء الثاني

من مغامرات بابيون

الفراشة



عنوان الكتـــاب: **بانكو - الجزء الثاني من مغامرات بابيون**
اســـم المؤلـــف: **هنري شاريير**
اســـم المترجـم: **يارا سميح شعاع**
المـوضــــــوع: **روايـــة**
عدد الصفحات: **400 ص**
القيــــــــاس: **14.5 × 21.5 سم**
الطبعـة الأولى: **1000 /كانون الثاني 2021 م – 1442 هـ**
ISBN: 978-9933-38-317-6





t.me/soramnqraa

سورية . دمشق . ص ب 4650
تلفاكس: **+963 11 2314511**
هاتـــف: **+963 11 2326985**

E-mail: info@ninawa.org
ninawa@scs-net.org
www.ninawa.org


دار نينوى للدراسات والنشر والتوزيع
Ayman ghazaly

العمليات الفنية:

التنضيد والتدقيق والإخراج والطباعة – القسم الفني: دار نينوى

هنري شاريير

بــانكــو

الجزء الثاني

من مغامرات بابيون



ترجمه عن الفرنسيَّة:

يــارا سـميح شـعاع

Henri Charrière

Banco

S.A.S Editions Robert Laffont
Paris, 1972

وُلد هنري شارير، صاحب كتاب بابيون، في جنوبيّ فرنسا، عام ١٩٠٦. عام ١٩٣٣، بعد إدانته بجريمة قتل، أصرَّ بثبات على أنّه بريء منها. نُقل إلى مستعمرة العقوبات الفرنسيّة في غيانا. إبّان الاثني عشر عاماً التالية، نفّذ تسع محاولات هروب - كانت الأخيرة من جزيرة الشيطان المخيفة - ومُنح أخيراً ملاذاً في فنزويلا عام ١٩٤٥.

مجلّد سيرته الذاتيّة الأوّل، بابيون، نُشر في فرنسا عام ١٩٦٩، ومنذ ذلك الحين تمّت ترجمته إلى العديد من لغات العالم الرئيسة. كما صُوِّر كفيلم من بطولة ستيف ماكوين (بابيون) وداستن هوفمان. توفّي هنري شارير في مدريد، في ٢٩ يوليو ١٩٧٣.

إلى ذكرى الدكتور أليكس غويبيرت جيرمان،

إلى مدام أليكس غويبيرت جيرمان،

إلى أبناء بلدي الفنزويليين،

إلى آلاف الأصدقاء الفرنسيين، الإسبان، السويسريين، البلجيكيين، الإيطاليين، اليوغسلافيين، الألمان، الإنجليز، اليونانيين، الأمريكيين، الأتراك، الفنلنديين، اليابانيين، السويديين، التشيكيين، الدانماركيين، الأرجنتينيين، الكولومبيين، البرازيليين، وجميع الذين نسيتهم، وجميع الأصدقاء الذين منحوني شرف الكتابة أقول:

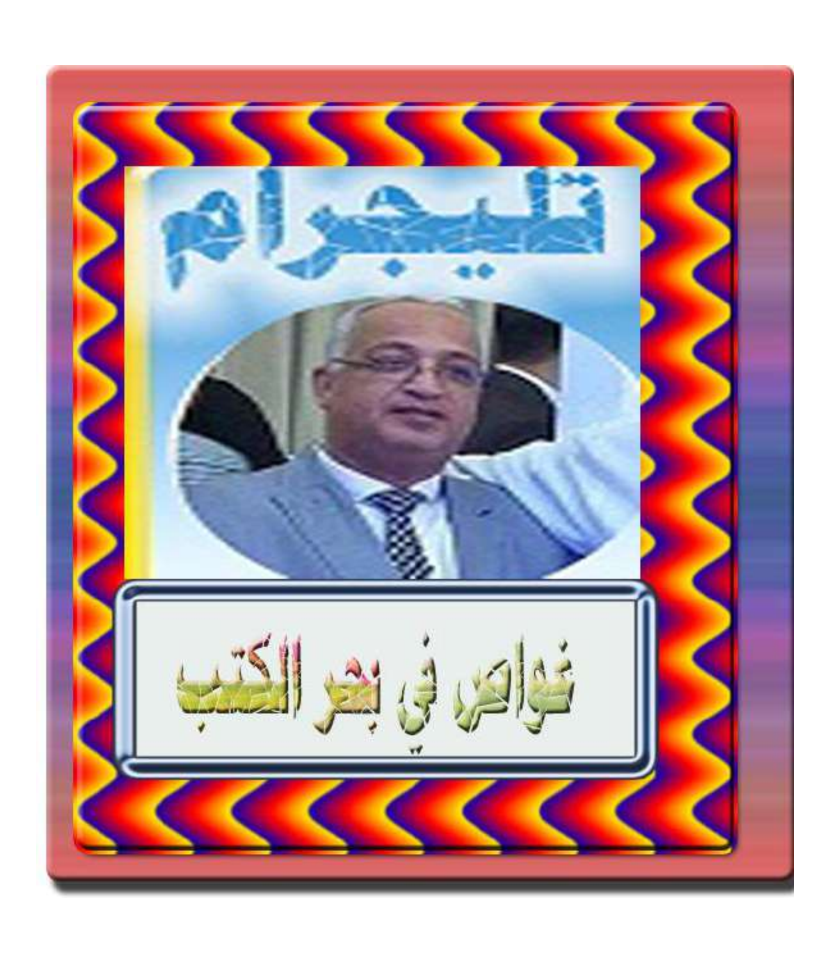
«من أنتَ أيُّها الفراشة؟ وماذا فعلتَ ليصلَ إلينا كتابكَ الأخير؟».

«ما تعتقده عن نفسك، أهمُّ ممَّا يعتقده الآخرون عنك».

(مؤلف مجهول للفراشة)


تليجرام
هنا
سور الأزبكية

الفهرس


تليجرام
غواص في بحر الكتب

الفصل الأول

الخطوات الأولى نحو الحريَّة

«حظّاً سعيداً، أيّها الفرنسيُّ! منذ هذه اللحظة، أنت حرٌّ. وداعاً!».

ولوَّح ضابط مستوطنة ألدو رادو العقابيَّة، وأدار ظهره.

لم يكن من الصعب التخلُّص من السلاسل التي كنت أجرّها منذ أربعة عشر عاماً. أمسكتُ بيكولينو من ذراعه، وسرنا بضع خطوات على الطريق الحادّ لضفَّة النهر، حيث غادرَنا الضابط نحو قرية ألدو رادو. الآن، وأنا جالس هنا في منزلي الإسبانيّ القديم ليلة ١٨ أغسطس ١٩٧١، على وجه الدقّة، أستطيع أن أرى نفسي على ذلك المسار المرصوف بالحصى بوضوح لا يصدَّق. ولا يقتصر الأمر على أنَّ صوت الضابط يرنّ الآن في أذنيَّ بالطريقة نفسها عميقاً وواضحاً، لكنّي أقوم بالحركة نفسها التي قمت بها قبل ستّة وعشرين عاماً – أن أديرَ رأسي.

إنَّه منتصف الليل: الخارج تلفّه العتمة. لكن، بالنسبة إليَّ، وحدي، فإنَّ الشمس مشرقة: إنَّها الساعة العاشرة صباحاً، وأنا أحدِّق إلى أجمل ظهر رأيته في حياتي – ظهر سجَّاني وهو يتحرَّك بعيداً، ويرمز إلى نهاية الحذر، الذي لم أتوقَّف كلَّ يوم وليلة ودقيقة وثانية مدَّة أربعة عشر عاماً عن ممارسته.

أدير رأسي لإلقاء نظرة أخيرة إلى النهر، نظرة أخيرة إلى ما وراء الحراسة، نظرة أخيرة إلى الجزيرة مع مستوطنتها العقابيَّة الفنزويليَّة، ونظرة أخيرة إلى ماضٍ بشع دهسني، وجعلني أشعر بتدهورٍ كبير.

على وجه السرعة، وعلى ضفاف النهر، في حجاب البخار المتصاعد من الماء شديد الحرارة تحت أشعَّة الشمس المداريَّة، أدير ظهري إلى الصورة وأسير سريعاً في الطريق. علامةً على الرفض، أهزُّ جسدي أولاً للتخلُّص من قذارة الماضي إلى الأبد. أمسكتُ بيكولينو من ذراعه. إنَّه يدير ظهره إلى هذه اللوحة الغريبة. وهذه خطوة حيَّة اتّخذتها بعد هزِّ كتفي، للتخلُّص بالتأكيد من مستنقع الماضي.

الحريَّة؟ لكن أين؟ في الطرف البعيد من العالم، في طريق العودة إلى هضاب غيانا الفنزويليَّة، في قرية صغيرة في أعماق أكثر الغابات العذراء الممكن تخيّلها. كنت في الطرف الجنوبيّ الشرقيّ لفنزويلا، بالقرب من الحدود البرازيليَّة: بحر هائل من الخضرة، تتخلّله شلّالات الأنهار والجداول التي تمرُّ عبره – محيط أخضر تنتشر فيه مجتمعات صغيرة، يتجمَّع كلّ منها حول كنيسة صغيرة. غالباً ما يجري ربط هؤلاء البويبلتو بالآخرين بوساطة شاحنة أو اثنتين فقط، وحين النظر إلى الشاحنات، تتساءل كيف وصلوا إلى هذا الحدِّ. يعيش هؤلاء الأشخاص البسطاء والشاعريّون في عزلتهم تماماً، كما عاش الناس منذ مئات السنين، متحرِّرين من كلِّ شوائب الحضارة.

لمَّا كنَّا قد تسلَّقنا حافَّة الهضبة؛ حيث تبدأ قرية ألدو رادو، توقَّفنا تقريباً؛ ثمَّ ببطء، ببطء شديد، واصلنا المسير. سمعت صوت أنفاس بيكولينو، ومثله، تنفَّست بعمق شديد، وأجبرتُ الهواء على النزول إلى أسفل رئتي، وأخرجته برفق، كما لو كنت خائفاً من عيش هذه الدقائق الرائعة بسرعة كبيرة، هذه الدقائق الأولى للحريَّة.

كانت الهضبة الواسعة أمامنا. انتشرت، إلى اليمين واليسار، منازل صغيرة، مشرقة ونظيفة ومحوطة بالزهور.

لقد شاهدنا بعض الأطفال، وكانوا يعرفون من أين أتينا. لقد اقتربوا منّا، بودٍّ كبير؛ لا، لقد كانوا طيبين، وساروا إلى جوارنا بصمت، وبدا أنَّهم يفهمون مدى خطورة هذه اللحظة، وقد احترموها.

أمام المنزل الأوّل، وجدنا طاولة خشبيَّة صغيرة؛ حيث كانت امرأة سوداء بدينة تبيع القهوة وكعك الذرة.

«صباح الخير سيّدتي».

«صباح الخير يا رجال!».

«كويين من القهوة، من فضلك».

«نعم، أيُّها السادة».

قدَّمت لنا السيّدة البدينة كويين من القهوة اللذيذة، وشربناها واقفين، ولم يكن ثمَّة كراسٍ.

«بمَ أُدين لكِ؟»

«لا شيء».

«كيف؟»

«إنَّه لمن دواعي سروري أن أقدِّم لكما القهوة الأولى بعد حريَّتكما».

«شكراً جزيلاً. متى موعد الحافلة الثانية؟»

«اليوم عطلة، لذا لا توجد حافلات؛ لكن هناك شاحنة في تمام الساعة الحادية عشرة».

«حسناً. شكراً».

خرجتْ من المنزل فتاة سوداء العينين فاتحة البشرة. قالت بابتسامة جميلة: «تعالَ واجلس».

دخلنا وجلسنا مع عشرات الأشخاص الذين كانوا يشربون الروم.

«لماذا يُدلّي صديقك لسانه؟»

«إنَّه مريض».

«هل يمكننا أن نفعل له أيَّ شيء؟»

«لا، لا شيء: إنَّه مشلول. يجب أن يذهبَ إلى المستشفى».

«مَن سيطعمه؟»

«أنا».

«هل هو أخوك؟»

«لا يا صديقي».

«هل حصلت على المال، أيُّها الفرنسيّ؟»

«قليل جدّاً. كيف عرفتِ أنّني فرنسيّ؟»

«كلّ شيء يصبح معروفاً هنا في لمح البصر. علمنا أمس أنّه سيُسمَح لكَ بالخروج، وأنّكَ هربتَ من جزيرة الشيطان، وأنَّ الشرطة الفرنسيَّة تحاول القبض عليكَ لإعادتكَ إلى هناك مرَّة أخرى. لكنَّهم لن يبحثوا عنك هنا. إنَّهم لا يعطون أوامر في هذا البلد. نحن الذين سنعتني بك».

«لماذا؟»

«لأنَّ...»

«ماذا تقصدين بذلك؟»

«تفضَّل، اشرب جرعة من شراب الرُّوم، وناولها إلى صديقك».

أخذت امرأة في الثلاثين من عمرها المبادرة. كانت سوداءَ تقريباً. سألتني إن كنت متزوّجاً. إن كان والدايَ لا يزالان في قيد الحياة. فقط والدي.

«سيكون سعيداً لسماع أنّك في فنزويلا».

«هذا صحيح».

تحدَّث رجل أبيض طويل وجافّ - كانت عيناه كبيرتين محدِّقتين، لكنَّهما كانتا طيبتين: «لم يكن قريبي يعرف كيف يخبرك لماذا سنعتني بك. حسناً، سأخبرك. لأنَّه ما لم يكن غاضباً - وفي هذه الحالة لا يمكننا فعل أيِّ شيء حيال ذلك - يمكن للرجل أن يتأسَّف لما فعله، ويمكن أن يتحوَّل إلى رجل صالح إذا ما جرت مساعدته. لهذا السبب سيُعتنى بك في فنزويلا. لأنَّنا نحبُّ الرجال الآخرين، وبعون الله نؤمن بهم».

«باعتقادك، لماذا كنت أنا سجيناً في جزيرة الشيطان؟»

«لسبب خطير للغاية، بالتأكيد. ربَّما لقتل شخص ما، أو لسرقة كبيرة حقّاً. كم سنة حُكم عليك؟»

«مؤبَّد».

«هنا، الحكم الأشدّ يكون ثلاثين عاماً. كم سنة حُكم عليك؟»

«أربعة عشر عاماً. لكنَّني الآن حرٌّ».

«انسَ كلَّ ذلك، بأسرع ما يمكن. انسَ، بأسرع ما يمكن، كلّ ما عانيته في السجون الفرنسيَّة، وهنا في الألدو رادو. انسَ الأمر، لأنَّك إذا فكَّرت في الأمر كثيراً، فستشعر بسوء نيَّة تجاه الرجال الآخرين، وربَّما تكرههم أيضاً. وحده النسيان سيجعلك تحبّهم مرَّة أخرى وتعيش بينهم. تزوَّج بأسرع ما يمكن. النساء في هذا البلد ذوات دم حارّ، وحبّ المرأة التي تختارها يمنحك السعادة والأطفال، ويساعدك في نسيان كلِّ ما عانيته في الماضي».

وصلت الشاحنة. شكرت هؤلاء الأشخاص الطيبين، وخرجت متأبِّطاً بيكولينو من ذراعه. كان هناك نحو عشرة ركّاب جالسين على مقاعد في مؤخِّرة الشاحنة. لقد تركوا لنا أفضل المقاعد، إلى جانب السائق.

بينما كنَّا نتحرَّك على طول المسار الممتلئ بالحفر، فكَّرتُ في هذه الأمَّة الفنزويليَّة الغريبة. لم يحصل صيّادو خليج باريا، ولا جنود ألدو رادو البسطاء، ولا العامل المتواضع الذي تحدَّث معي في هذا الكوخ المبنيّ من القشّ، على أيِّ تعليم. بعناءٍ يستطيعون القراءة والكتابة. إذاً، كيف حصلوا على معاني الصداقة والنبل لمسامحة الرجال الذين أخطؤوا؟ كيف يمكنهم أن يجدوا كلمات التشجيع المناسبة بدقَّة، وأن يعرضوا مساعدة على المحكوم عليه السابق بنصائحهم، ولو بالقليل الذي يملكونه؟ كيف حدث أنَّ رؤساء المستوطنة العقابيَّة في ألدو رادو، كلّ من الضبَّاط والمحافظ - الرجال المتعلّمين، هؤلاء - لديهم أفكار الأشخاص البسطاء نفسها، الإيمان بإعطاء كلِّ رجل فرصة ثانية، أيّاً كان، ومهما فعل؟ لا يمكن أن يأتي هذا الكرم من الأوروبيين. لذلك، يجب أن يكون الفنزويليّون قد حصلوا عليه من الهنود.

وصلنا إلى الكالاو. هناك ساحة كبيرة، وموسيقا. طبعاً: كان يوم ٥ يوليو، يوم العيد الوطني. الناس كلّهم يرتدون أفضل ملابسهم، مشكّلين حشداً متنوّعاً، أنموذجياً في البلدان الاستوائيَّة؛ حيث يجري خلط العديد من الألوان - الأسود والأصفر والأبيض والهنود، الذين يظهر عرقهم دائماً في العيون المائلة قليلاً والبشرة الفاتحة. نزلنا، أنا وبيكولينو، مع بعض الركَّاب من مؤخِّرة الشاحنة. اقتربت منّي إحدى الفتيات، وقالت: «لا تدفع، لقد فعلنا ذلك». تمنَّى لنا السَّائق حظّاً سعيداً، وانطلقت الشاحنة مرَّة أخرى. كنت أمسك حزمة صغيرة في إحدى يديَّ، في حين كان بيكولينو يمسك بالأصابع

الثلاث الباقية بيدي اليسرى، مفكّراً طفيها يمكننا عمله. لقد حصلت على بعض الجنيهات الإنجليزيّة من جزر الهند الغربيّة، وبضع مئات من البوليفارات، هديّة من تلاميذي في الرياضيّات كتسوية جزائيّة، وبعض الماس الخام الذي عُثِر عليه بين الطماطم في حديقة الخضراوات التي أنشأتها.

سألتني الفتاة، التي طلبت إلينا ألّا ندفع، إلى أين نحن ذاهبان. أخبرتها أنّ فكرتي هي العثور على منزل صغير.

«تعالَ إلى منزلي أولاً؛ ومن ثمّ نبحث في الأمر».

عبرنا السّاحة معها، وبعد بضع مئات من الأمتار وصلنا إلى شارع غير معبّد، تصطفُّ على جانبيه منازل منخفضة؛ كانت جميعها مصنوعة من الفخّار، وكانت أسطحها من القشّ أو الصفيح المموّج. توقّفنا عند أحد هذه المنازل.

قالت الفتاة: «ادخل. هذا هو المنزل». لا بدَّ أنّها في الثامنة عشرة من عمرها.

أدخلتنا قبلها. غرفة نظيفة مع أرضيّة؛ مائدة مستديرة مع عدد قليل من الكراسي. رجل في الأربعين من العمر، متوسّط الطول، ذو شعر أسود ناعم، وعينين هنديتين، ذو بشرة بنيّة محمرَّة اللون. ثلاث فتيات في سنّ الرابعة عشرة والخامسة عشرة والسادسة عشرة.

قالت: «هؤلاء والدي وأخواتي». وتابعت مخاطبة والدها: «لقد أحضرتُ معي هذين الغريبين إلى المنزل. لقد خرجا من سجن ألدو رادو، ولا يعرفان إلى أين يمكنهما الذهاب. أطلب إليكَ استقبالهما».

قال الوالد: «أهلاً وسهلاً». وكرّر الجملة نفسها: «احسبا المنزلَ منزلكما. تفضّلا بالجلوس هنا، حول المائدة. هل تشعران بالجوع؟ هل تريدان احتساء القهوة أو الروم؟»

لم أكن أرغب في الإساءة إليهم برفضي، لذلك قلت إنَّني أحبُّ بعض القهوة. استطعت أن أرى من الأثاث البسيط أنَّهم فقراء.

«ابنتي ماريا، التي أحضرتك إلى هنا، هي الكبرى. وهي تحلّ محلَّ والدتها التي تركتنا منذ خمس سنوات وذهبت مع منقّب عن الذهب. سأخبركَ بذلك في أقرب وقت، قبل أن تسمع القصَّة من شخص آخر».

سكبت ماريا القهوة لنا. الآن، يمكنني أن أنظرَ إليها عن كثب، لأنَّها جلست إلى جوار والدها، أمامي. وقفت الشقيقات الثلاث خلفها. لقد نظرنَ إليَّ عن كثب أيضاً. كانت ماريا فتاة من المناطق الاستوائيَّة، ذات عينين كبيرتين سوداوين لوزيَّتي الشكل. تهدَّل شعرها الأسود المتعرِّج، المنقسم في المنتصف، على كتفيها. كانت تتمتَّع بملامح رائعة. وعلى الرَّغم من أنَّه يمكنك اكتشاف قطرة الدَّم الهنديّ من لون بشرتها، إلَّا أنَّه لم يكن هناك شيء منغوليّ في وجهها. كان لها فم مغرٍ وأسنان رائعة. بين الحين والآخر، كانت تكشف عن طرف لسان ورديّ للغاية. كانت ترتدي بلوزة بيضاء مزهرة ومفتوحة على مصراعيها تظهر كتفيها وبداية ثدييها، وترتدي حمَّالة صدر كانت مرئيَّة خلف البلوزة. كانت هذه البلوزة، والتنورة السوداء الصغيرة، والحذاء ذو الكعب المسطَّح، أفضل ما ارتدته في العطلة - أفضل ما لديها. كانت شفتاها مطليتين باللون الأحمر الفاتح، وقد رسمت خطّين في زاويتَي عينيها الكبيرتين لجعلها تبدوان أكبر.

«هذه إسميرالدا [إميرالد]» قالت، مقدِّمة أختها الصغرى. «ندعوها بهذا الاسم بسبب عينيها الخضراوين. هذه كونشيتا. والأخرى روزيتا، لأنَّها تشبه الوردة. إنَّها أخفّ بكثير من بقيتنا، وتحمرُّ خجلاً لأقلّ الأشياء.

الآن، أنت تعرف الأسرة بأكملها. والدي يدعى خوسيه. نحن الخمسة شخص واحد، لأنَّ قلوبنا تنبض معاً. وأنت ما اسمك؟»

«إنريكي»*. [إنريكي هو اللفظ الإسبانيّ لهنري]*.

«هل مكثتَ في السجن طويلاً؟»

«ثلاثة عشر عاماً».

«يا للمسكين. لا بدَّ أنَّكَ عانيتَ كثيراً».

«نعم، كثيراً».

«بابا، ماذا يمكن لإنريكي أن يعمل هنا، برأيك يا والدي؟»

«لا أعرف. هل لديك مهنة؟»

«لا».

«حسناً، لنذهب إلى منجم الذهب. سيعطونك وظيفة».

«وماذا عنك يا خوسيه؟ ماذا تفعل؟»

«أنا؟ لا شيء. أنا لا أعمل – لأنَّهم يدفعون القليل من المال».

حسناً. كانوا فقراء، بالتأكيد. ومع ذلك، كانوا يرتدون ملابس جيّدة. لم أستطع سؤاله عمّا يفعله للحصول على المال - هل يسرق بدلاً من العمل. قلت لنفسي: فلننتظر.

قالت ماريا: «إنريكي، ستنام هنا الليلة». «هناك غرفة كان ينام فيها شقيق والدي. لقد رحل، لذا يمكنك الحصول على مكانه. سنعتني بالرجل المريض في أثناء ذهابك إلى العمل. لا تشكرنا. نحن لا نمنحك شيئاً - الغرفة فارغة في أيِّ حال».

لم أكن أعرف ما أقول. سمحت لهم بأخذ حزمتي الصغيرة. نهضت ماريا وتبعتها الفتيات الأخريات. كانت تكذب: يمكنني القول إنَّ الغرفة كانت قيد الاستخدام، لأنهنَّ أحضرنَ أشياء نسائيَّة ووضعنَها في مكان آخر، لكنَّني تظاهرت بعدم ملاحظة أيِّ شيء. لم يكن هناك سرير في الغرفة، لكن كان هناك شيء أفضل، شيء تراه غالباً في المناطق الاستوائيَّة - أراجيح شبكيَّة من الصوف الناعم. نافذة كبيرة مع مصاريع فقط – من دون زجاج - تفتح على حديقة ممتلئة بأشجار الموز.

بينما كنت أتأرجح هناك في الأرجوحة الشبكيَّة، لم أصدِّق ما حدث لي. كم كان هذا اليوم الأوّل من الحريَّة سهلاً! إنَّه سهل جدّاً. أصبحت لديَّ غرفة مجانيَّة وأربع فتيات جميلات لرعاية بيكولينو. لماذا تركت نفسي تقودني؟

كنت سجيناً لفترة طويلة، ولم أعد أعرف سوى الخنوع. أمّا الآن، فأنا حرٌّ، وعليَّ أن أبدأ في اتخاذ القرارات من جديد، تماماً على غرار الطائر الذي نفتح له باب القفص، لكنَّه لا يعرف كيفيَّة الطيران. يجب أن يتعلَّم من جديد.

خلدتُ إلى النوم من دون التفكير في الماضي، تماماً كما نصحني رجل ألدو رادو المتواضع. الشيء الوحيد الذي فكَّرت فيه قبل أن أخلدَ إلى النوم، هو أنَّ استقبال هؤلاء الأشخاص كان أمراً رائعاً.

كنت قد أكلت للتوّ بيضتين مقليّتين، وموزتين مقليّتين مغطّستين بالسَّمن والخبز الأسود. كانت ماريا في الغرفة توشك أن نعمل على تنظيف بيكولينو. ظهر رجل عند عتبة الباب. كان يضع منجلاً في حزامه.

قال: «رجال السلام»، وهي طريقتهم في القول، أنا صديق.

«ماذا تريد؟» سأل خوسيه، الذي تناول الطعام معي.

«رئيس الشرطة يريد أن يرى الرجلين القادمين من جزيرة الشيطان».

«لا يمكنك أن تطلق عليهما هذا الاسم. يمكنك أن تدعوهما باسميهما».

«حسناً، يا خوسيه. ما اسماهما؟»

«إنريكي وبيكولينو».

«سيّد إنريكي، تعالَ معي. أنا رجل شرطة، وقد أرسلني رئيس الشرطة».

«ماذا يريد منهما؟»، سألت ماريا التي خرجت من الغرفة لاستبدال ملابسها والذهاب معه لمقابلة رئيس الشرطة.

في غضون بضع دقائق، كانت ماريا جاهزة. وما إن خرجنا من الشارع، حتّى تأبّطت ذراعي. فوجئتُ، نظرتُ إليها فابتسمتْ لي. لمّا وصلنا إلى المبنى الإداريّ الصغير، كان هناك المزيد من رجال الشرطة بملابس مدنيّة، باستثناء اثنين يرتديان الزيّ الرسميّ مع منجل معلّق في حزام كلٍّ منهما. كان ثمّة رجل أسود بقبّعة مضفرة بالذهب يترأس غرفة ممتلئة بالبنادق. قال لي: «أنت الفرنسيّ؟»

«نعم».

«والآخر؟»

قالت ماريا: «إنّه مريض».

«أنا قائد الشرطة. أنا هنا لمساعدتكَ إذا ما احتجتَ إلى المساعدة. اسمي ألفونسو». ومدّ يده.

«شكراً. وأنا إنريكي».

«إنريكي، المدير الإداريّ يريد أن يراك». وأضاف: «لا يمكنكِ الدخول يا ماريا»، لأنّه رأى أنّها توشك أن تلحق بي. ذهبتُ إلى الغرفة المجاورة.

«صباح الخير أيُّها الفرنسيّ. أنا المدير العامّ. اجلس. نظراً لأَنّك تقيم إجبارياً هنا في إل كالاو، فقد أرسلت في طلبك إلى هنا كي أتمكَّن من التعرُّف إليك. أنا المسؤول عنك».

سألني عمَّ سأفعل - أين أريد أن أعمل. بعد أن تحدَّثنا قليلاً، قال: «إذا كان هناك أيُّ شيء، على الإطلاق، فتعالَ وأخبرني. سأساعدك في الحصول على حياة جيّدة قدر الإمكان».

«شكراً جزيلاً».

«أوه، هناك شيء واحد. يجب أن أحذِّرك من أَنّك تعيش مع فتيات لطيفات وصادقات؛ لكنَّ والدهم، خوسيه، قرصان. إلى اللقاء».

كانت ماريا في الخارج، عند باب المخفر، بقيت في هذا الوضع الذي يتَّخذه الهنود عندما ينتظرون، لا يتحرَّكون ولا يتحدَّثون مع أيِّ شخص على الإطلاق. على الرَّغم من أنَّها ليست هنديَّة، لكن بسبب قطرة الدَّم الهنديَّة الصغيرة التي كانت لديها، فقد غلب العِرق. سلكنا طريقاً آخرَ للعودة إلى المنزل، وسرنا عبر القرية بأكملها وذراعها في ذراعي.

«ماذا يريد الزعيم منك؟» سألتني ماريا، ونادتني بالضمير المألوف للمرَّة الأولى.

«لا شيء. أخبرني أنّه يمكنني الاعتماد عليه لمساعدتي في العثور على وظيفة أو في حال واجهتني أيّ مشكلةٍ أخرى».

«إنريكي، لست في حاجة إلى أحد الآن. ولا حتَّى صديقك».

«شكراً ماريا.»

مررنا بكشك بائع متجول مملوء بالحليّ النسائيّة - عقود، أساور، أقراط، ودبابيس زينة، إلخ.

- انظري إلى هذه الأشياء.

- نعم إنّها جميلة.

أخذتها ومررنا إلى جانب الكشك، واخترت لها قلادة جميلة وأقراطاً متشابهة، وثلاث مجموعات أخرى أصغر لأخواتها. دفعت مئة ورقة وثلاثين غلياناً مقابل هذه الأشياء الصغيرة. تزيّنت ماريا بالقلادة والأقراط على الفور. لمعت عيناها السوداوان الكبيرتان من السعادة، وشكرتني كما لو أنّ الجواهر كانت قيّمة حقّاً.

لمّا عدنا إلى المنزل، صرخت الفتيات الثلاث من الفرحة بهداياهنّ. ذهبت إلى غرفتي، وتركتهنّ. كان عليّ أن أكون وحدي للتفكير. لقد قدّمت لي هذه الأسرة كرم الضيافة على نحو رائع. إنّما، هل يجب أن أقبله؟ كان لديّ بعض المال، ناهيك عن الماس. حين حساب كلّ ذلك معاً، يمكنني العيش لأربعة أشهر وأكثر دون قلق، ويمكنني الاعتناء ببيكولينو، أيضاً.

كانت كلّ هؤلاء الفتيات جميلات، كالأزهار الاستوائيّة، كنّ بالتأكيد دافئات ومثيرات ومستعدّات لتقديم أنفسهنّ بسهولة شديدة، من دون تفكير تقريباً. لقد رأيت ماريا تنظر إليّ اليوم كما لو كانت في حالة حبّ. هل يمكنني مقاومة الكثير من الإغراءات؟ سيكون من الأفضل لي أن أغادر هذا المنزل الترحيبيّ للغاية قبل أن يجلب ضعفي المتاعب والمعاناة. أنا في السابعة والثلاثين من عمري، على الرّغم من أنّني أبدو أصغر سناً، إلّا أنّ ماريا لم تبلغ الثامنة عشرة من العمر، ولا تزال شقيقاتها أصغر سنّاً. اعتقدت أنّ عليّ المغادرة. أفضل شيء هو ترك بيكولينو في رعايتهنّ، ودفع تكاليف إقامته بالطبع.

«سيّد خوسيه، أودّ التحدُّث إليك على انفراد. هل نذهب ونأخذ شراب الرّوم في المقهى في الساحة؟»

«حسناً. لكن لا تدعُني بالسيّد. نادِني «خوسيه» وأنا أناديك إنريكي. لنذهب. ماريا، سنخرج إلى الساحة».

قالت ماريا: «إنريكي، غيّر قميصك المتّسخ».

ذهبتُ وبدّلتُ قميصي في غرفة النوم. قبل مغادرتنا، قالت لي ماريا: «لا تجلس هناك طويلاً يا إنريكي؛ ولا تشرب كثيراً!» وقبل أن يتاح لي الوقت للتراجع، قبّلتني على خدّي.

انفجر والدها ضاحكاً وقال: «إنّها مغرمة بك بالفعل».

بينما كنّا نسير نحو الحانة، بدأت الحديث: «خوسيه، أنت رجل، لذا ستفهم أنّه إذا عشتُ بين بناتك، فسيكون من الصعب عليّ ألّا أقع في حبّ إحداهنّ. إنّ عمري ضعف عُمر أكبرهنّ، وأنا متزوّج قانونيّاً في فرنسا. لذلك دعنا نذهب ونشرب كأساً أو كأسين، ثمّ تأخذني إلى منزل صغير رخيص؛ حيث يمكنني تحمُّل المصاريف».

قال خوسيه وهو ينظر في عينيّ مباشرة: «أنت رجل فرنسيّ حقيقيّ. دعني أصافح يدك كأخ لما قلته للتوّ لرجل فقير مثلي. في هذا البلد، كما ترى، لا أحد تقريباً يتزوّج على نحو قانونيّ. يحبُّ أحدهم الآخر ويمارسون الحبّ معاً، وإذا كان هناك طفل، يبنيان أسرةً معاً. يمكننا الارتباط أو الانفصال بالسهولة عينها. الجوّ حارّ جدّاً هنا، لهذا السبب تكون النساء ذوات دم ناريّ على الدّوام. ينضجنَ في وقت مبكر. ماريا استثناء. لم تكن لها علاقة غراميّة، على الرّغم من أنّها في الثامنة عشرة تقريباً. أعتقد أنّ أخلاق بلدك

أفضل من أخلاق بلدنا، لأنَّ العديد من النساء هنا لديهنَّ أطفال من دون أب، وهذه مشكلة خطِرة للغاية. لكن ما العمل؟ يقول الربُّ أحبُّوا بعضكم بعضاً، ولتُنجبوا أطفالاً. النساء في هذا البلد لا يتمتعنَ بالطموح، يُردنَ فقط أن يعشنَ قصَّة حبٍّ. يتمتعنَ بالوفاء لطالما أنَّك تشبعهنَّ جنسيّاً. وغالباً ما يكنَّ أمَّهات مثاليَّات تجاه أولادهنَّ. وهنَّ على استعداد دائم للتضحية كثيراً من أجل أبنائهنَّ. لذلك، على الرَّغم من أنَّني أراك محاطاً بالإغراء طوال الوقت، أطلب إليك مرَّة أخرى البقاء معنا. يسعدني وجود رجل مثلك في المنزل».

كنَّا في الحانة قبل أن أجيب. كان عشرات الرجال جالسين. شربنا قليلاً من مشروب الرّوم والكوكاكولا. جاء العديد من الأشخاص لمصافحتي والترحيب بي في قريتهم. كان خوسيه يعرِّفُني في كلِّ مرَّة بأنَّني صديقه، وأنَّني أعيش في منزله. شربنا كثيراً. لمَّا سألتهم عن الحساب، تضايق خوسيه بعض الشيء؛ أراد دفع الحساب بأكمله. ومع ذلك، تمكَّنت أخيراً من إقناع النادل بقبول أموالي بدلاً من ذلك.

لمسني شخص ما على كتفي. كانت ماريا. «تعالَ إلى المنزل. حان موعد الغداء. كفاك شرباً. لقد وعدتني ألَّا تشرب كثيراً».

كان خوسيه يتجادل مع رجل آخر. لم تقل له شيئاً، لكنَّها أخذتني من ذراعي وأخرجتني.

«ماذا عن والدكِ؟»

«دعه. لا يمكنني أبداً أن أقول له أيَّ شيء عندما يشرب، ولا آتي لأجلبه من المقهى أبداً. في أيِّ حال، لن يقبل».

«لماذا أتيتِ وجلبتني إذاً؟»

«أنت، الوضع مختلف».

كانت عيناها تلمعان، وقالت لي ببساطة عندما وصلنا إلى المنزل: «أنتَ تستحقُّ قُبلة». ووضعت شفتيها على خدّي بالقرب من فمي.

عاد خوسيه بعد أن تناولنا الطعام معاً على المائدة المستديرة. ساعدت الأخت الصغرى بيكولينو في تناول الطعام، وأعطته طعامه رويداً رويداً.

جلس خوسيه بمفرده. كان منتشياً، لذلك تحدَّث من دون تفكير. قال: «إنريكي خائف منكنَّ، يا بناتي، وهو خائف للغاية، إلى درجة أنَّه يريد المغادرة. أخبرته أنَّه، برأيي، يمكنه البقاء، وأنَّ فتياتي كبيرات بما يكفي لمعرفة ما يفعلنَ».

حدَّقت ماريا إلى وجهي. بدت دَهشة، وربَّما خائبة الأمل. «إذا كان يريد الذهاب، يا والدي، فدعه. لكنَّني لا أعتقد أنَّه سيكون أفضل حالاً في أيِّ مكان آخر، فهنا يحبُّه الجميع». ثمَّ التفتت نحوي، وقالت: «إنريكي، لا تكن جباناً. إذا أعجبتك واحدة منَّا، وهي معجبة بك، فلماذا يجب أن تهرب؟»

قال والدها: «لأنَّه متزوّج في فرنسا».

«متى رأيتَ زوجتك آخر مرَّة؟»

«منذ ثلاثة عشرَ عاماً».

«نحن، أيضاً، لا نجبر أحداً على أن يتزوّجنا. إذا قدَّمنا أنفسنا لرجل ما، فهذا دليل على حبِّنا له، لا شيء أكثر من ذلك. إنَّما، كان من الصواب أن تخبرَ والدنا أنَّك متزوّج، لأنَّه على هذا النحو لا يمكنك أن تَعِدَ أيّاً منّا بأيِّ شيء على الإطلاق، باستثناء حبِّها فحسب».

طلبت إليَّ البقاء معهم من دون أن ألزم نفسي بشيء. سيعتنينَ بيبكولينو، وسأكون حرّاً أكثر، وبإمكاني العمل. كما أنَّها قبلت، كي أكون مرتاحاً أكثر، أن أدفع قليلاً من المال، كما لو كنت أقيم في متنزَّه. هل أوافق؟

لم يكن لديَّ وقت للتفكير على نحو صحيح. كان كلُّ شيء جديداً وسريعاً جدّاً بعد ثلاثة عشرَ عاماً من العيش خلف القضبان.

«حسناً يا ماريا. لنبدأ منذ الآن».

«هل تريدني أن أذهب معك إلى منجم الذهب هذا المساء لطلب وظيفة؟ يمكننا الذهاب في الخامسة، عندما تكون الشمس أقلَّ حدَّةً. إنَّه على بعد ميل ونصف الميل من القرية».

«حسناً».

أظهرت حركات بيكولينو وتعبيراته مدى سعادته لأنَّنا سنبقى. لطفُ الفتيات ورعايتهنَّ فازا بقلبه. كانت إقامتي هنا على نحو رئيس بسببه؛ فأنا هنا كنت متأكِّداً تماماً من أنَّني سأقيم علاقة غراميَّة قبل فترة طويلة، ولم أكن متأكِّداً من أنَّها ستناسبني.

مع كلِّ ما كان يجري داخل رأسي إبَّان الأعوام الثلاثة عشر الماضية، مع كلِّ ما منعني من النوم طوال تلك الليالي في السجن، لم أكن لأُسقطَ كلَّ شيء وأستقرَّ في قرية بعيدة في نهاية العالم، فقط بسبب وجه فتاة جميلة. كان أمامي طريق طويل، وأيّ محطَّات توقُّف يجب أن تكون قصيرة، فقط لفترة كافية لالتقاط أنفاسي. لقد كافحت طوال ثلاثة عشر عاماً للحصول على حريَّتي، التي حصلت عليها في النهاية. وهذا السبب كان *انتقاماً*. محامي النيابة وشاهد الزور والشرطيّ: لديَّ حسابات طويلة معهم، أريد تصفيتها. وهذا الأمر لا يمكنني نسيانه على الإطلاق.

تجوَّلتُ في ساحة القرية. لقد لاحظتُ متجراً باسم بروسبيري. من الممكن أن يكون المالك كورسيكيّاً أو إيطاليّاً. في الواقع، كان المتجر الصغير يعود بالفعل إلى سليل كورسيكيّ. يتحدَّث السيّد بروسبيري الفرنسيَّة بطلاقة. لقد اقترح عليَّ كتابة رسالة إلى مدير شركة لا موكوبيا الفرنسيَّة التي عملت في منجم ذهب كاراتال. عرض هذا الرجل الرائع عليَّ بعض المال لمساعدتي. شكرته على كلِّ شيء وخرجت.

«ماذا تفعل هنا، بابيون؟ من أين أتيت يا رجل؟ من القمر؟ أسقطت من المظلَّة؟ تعالَ ودعني أقبّلك!». قفز رجل ضخم، أصيب بحروق شديدة من الشمس، واضعاً قبَّعة ضخمة من القشِّ على رأسه، واقفاً على قدميه. «أنت لا تعرفني؟» وخلع قبَّعته.

«شارلوت الكبير!»

شارلوت الكبير، الرجل الذي حطَّم الخزنة في صالة سينما غومونت، في ميدان كليشي في باريس، وخزنة محطَّة باتيغنول في باريس! تعانقنا كشقيقين. اغرورقت أعيننا بالدموع، وتأثَّرنا كثيراً. حدَّق أحدُنا الآخر.

«نحن بعيدان كلَّ البعد هنا عن السّاحة البيضاء والسجن، وصديقي! لا، لكن من أين أتيت بحقِّ الجحيم؟ أنت ترتدي زيَّ اللورد الإنجليزيّ: وتبدو كأنَّك أصغر منّي سنّاً».

«لقد خرجت للتوّ من إلدو رادو».

«ما المدَّة التي مكثتها هناك؟»

«أكثر من عام».

«لماذا لم تخبرني؟ كنت سأخرجك على الفور، لمجرد أن أوقِّع على ورقة تقول إنَّني مسؤول عنك. يا إلهي! كنت أعرف أنَّ هناك بعض الحالات الصعبة في إلدو رادو، لكنَّني لم أتخيّل قطّ للحظة أنَّك كنت هناك، أنت، يا صديقي!».

«لقاؤنا هذا معجزة».

«لا تصدِّق ذلك، بابي. تمتلئ غيانا الفنزويليَّة بأكملها بالمتَّهمين الذين يقطعون الطريق. وبما أنَّ هذا هو الجزء الأوّل من الأراضي الفنزويليَّة التي تصادفها عندما تهرب، فلا توجد معجزة في مقابلة أيِّ شخص على الإطلاق بين خليج باريا وهنا - الأمر يجري بهذه الطريقة. أين تقيم؟»

«مع زميل محترم اسمه خوسيه. لديه أربع بنات».

«نعم أعرفه. إنَّه رجل طيّب، قرصان. دعنا نذهب لنأخذ حاجياتك: أنت ستقيم معي بالطبع».

«أنا لست وحيداً. لديَّ صديق مشلول وعليَّ الاعتناء به».

«هذا لا يهمّ. سأرسل إليه حماراً. لديَّ منزل كبير، وهناك نيجريَّة ستعتني به مثل الأمّ».

لمَّا وجدنا الحمار، ذهبنا إلى منزل الفتيات. كان ترك هؤلاء الناس الطيبين مؤلماً للغاية، لكنَّنا وعدناهنَّ بالعودة لزيارتهنَّ، كما وعدنَنا بالقدوم ورؤيتنا في كاراتال، فهدأنَ قليلاً. لقد كان استقبال هؤلاء الناس حافلاً، إلى درجة أنَّني شعرت بالخجل لمغادرة هذا المنزل.

بعد ساعتين كنَّا في «قصر» شارلوت، كما أسماه. منزل كبير وفسيح يطلُّ على كامل الوادي الممتدّ من قربة كاراتال إلى إل كالاو تقريباً. إلى يمين هذه الغابة البكر كان منجم الذهب موكوبيا. تمَّ بناء منزل شارلوت بالكامل من

جذوع الأخشاب الصلبة من الأدغال: ثلاث غرف نوم وغرفة طعام فاخرة ومطبخ؛ حمّامان: واحد في الداخل والآخر في الخارج، في حديقة مصونة تماماً. كانت جميع الخضراوات التي كانت لدينا في المنزل تنمو هناك. كانت لديه مدجنة تحتوي أكثر من خمسمئة دجاجة، بالإضافة إلى الأرانب والخنازير الهنديّة واثنين من الماعز وخنزير. كلّ هذا كان الثروة والسعادة الحالية لشارلوت، المحتال السابق والخبير السابق في سرقة الخزائن، والعمليّات الدقيقة للغاية التي جرى تنفيذها بدقّة متناهية.

«حسناً، بابي، هل أحببت كوخي؟ أعيش هنا منذ سبع سنوات. كما قلت لك في إل كالاو، إنّه بعيد كلّ البعد عن مونمارتر والسجن! مَن كان ليصدّق يوماً أنّني سأكون سعيداً بهذه الحياة الهادئة والهانئة؟ ماذا تقول يا صديقي؟».

«لا أعرف، شارلوت. لم أعد قادراً مؤخّراً على التركيز في فكرة واضحة. ما لا شكّ فيه أنّنا عشنا مغامرين وكانت حياتنا الشبابيّة أكثر نشاطاً! من المحيّر بعض الشيء أنّني أراك هادئاً وسعيداً في هذه القرية البعيدة. إنّها، في جميع الأحوال، بالتأكيد، لقد فعلت كلّ شيء بمفردك. وأستطيع أن أرى أنّ هذا يمثّل جرعة من الطاقة والتضحية النادرة. كما ترى، حتّى الآن، لا أشعر بالقدرة على فعل ذلك».

لمّا كنّا نجلس حول المائدة في غرفة الطعام ونشرب المارتينيك، تابع شارلوت الكبير قائلاً: «نعم، بابيون، أستطيع أن أرى أنّك دَهِشٌ لأنّني أعيش من عملي الخاصّ، بثمانية عشر بوليفاراً في اليوم، إنّها حياة متواضعة، لا تخلو من الملذّات. دجاجة تعطيني حفنة من الأفراخ، أرنب يجلب مكانة جميلة، جديٌ صغير يُولد، طماطم جيّدة... كلّ هذه الأشياء الصغيرة، التي احتقرناها لفترة طويلة، تضفي على حياتي كثيراً من الرضا. ها هي ذي فتاتي

السوداء. كونشيتا! هذان صديقايَ. هذا الشخص مريض. عليكِ الاعتناء به. هذا يدعى إنريكي، أو بابيون. إنَّه صديق من فرنسا، صديق قديم».

قالت الفتاة السوداء: «مرحباً بكما في هذا المنزل». «لا تقلق يا شارلوت، سأعتني بصديقيك على النحو الأمثل. سأذهب وأرى غرفتهما».

أخبرني شارلوت عن ماضيه، الذي لم يكن سهلاً. لمَّا وصل إلى المستعمرة العقابيَّة للمرَّة الأولى، احتجز في سان لوران دو ماروني، وبعد ستّة أشهر هرب من هناك مع كورسيكيّ آخر يدعى سيمون، «كنَّا محظوظين بما يكفي للوصول إلى فنزويلا بعد أشهر قليلة من وفاة الديكتاتور جوميز. ساعدنا هؤلاء الأشخاص الكرماء في صنع حياة جديدة لأنفسنا. كان لديَّ عامان من الإقامة الإجباريَّة في إل كالاو، وبقيت فيها. شيئاً فشيئاً، اعتدت أن أحبَّ هذه الحياة البسيطة. لقد فقدتُ زوجتي وابنتي في أثناء الولادة. ثمَّ هذه الفتاة السوداء التي تراها للتوّ، كونشيتا، تمكَّنت من مواساتي بحبِّها الحقيقيّ وتفهّمها، وقد أسعدتني. إنَّما، ماذا عنك يا بابي؟ لا بدَّ أنَّك مررت بأوقات قاسية وصعبة في هذه الأعوام الثلاثة عشر الطويلة. حدِّثني عنها».

لقد تحدَّثت إلى هذا الصديق القديم لأكثر من ساعتين، وأفرغتُ كلَّ ما تركته السنوات الماضية في داخلي. كان من الرائع أن نكون قادرَين على التحدُّث عن ذكرياتنا. إنَّما، الغريب أنَّه لم تكن هناك كلمة واحدة عن مونمارتر، ولا كلمة واحدة عن العالم السفليّ، ولا نذكير بالوظائف التي عملنا أو أخفقنا فيها، ولا شيء عن المحتالين الذين لا يزالون طلقاء. بدا الأمر كما لو أنَّ الحياة قد بدأت لدينا عندما صعدنا متنَ لا مارتينير، أنا عام ١٩٣٣، وشارلوت عام ١٩٣٥.

سلطة طيبة، دجاجة مشويَّة، جبن ماعز ومانجو لذيذة، وضعتها كلّها على الطاولة كونشيتا المبتهجة، ما يعني أنَّ شارلوت سعيد بوجودي في منزله. اقترح عليَّ النزول إلى القرية لاحتساء الشراب. قلت له إنَّني أستمتع بوجودي هنا ولا أرغب في الخروج.

قال لي الكورسيكيّ: «شكراً يا صديقي» - غالباً ما كان يتحدَّث بلكنة باريسيَّة. «هذا صحيح: نحن مرتاحون هنا. كونشيتا، عليكِ أن تجدي صديقة لإنريكي».

«حسناً، إنريكي، سأقدِّم لك صديقات أجمل منّي».

قال شارلوت: «أنتِ الأجمل منهنَّ جميعاً».

«نعم، لكنَّني سوداء اللون».

«هذا هو سبب كونك جميلة جدّاً، كونشيتا. لأنَّك أصيلة».

تألَّقت عينا كونشيتا الكبيرتان بالحبِّ والسرور؛ كان من السهل اكتشاف أنَّها تعبد شارلوت.

مستلقياً بهدوء على سرير كبير جميل، استمعتُ إلى أخبار إذاعة بي بي سي الإنكليزيَّة عبر المذياع. إلَّا أنَّ انغماسي في الحياة في العالم الخارجيّ، كان يقلقني قليلاً - لم أعد معتاداً الأمر. أدرت المقبض. الآنَ بدأت الموسيقا الكاريبيَّة: كاراكاس تغنّي. لم أكن أريد أن أسمعَ نداءات المدن العظيمة. ليس هذا المساء، في أيِّ حال. توقَّفت بسرعة، وبدأت أفكِّر في الساعات القليلة الماضية.

هل تعمَّدنا تجنُّب الحديث عن السنوات التي عشناها في باريس؟ لا، هل لم نذكر عمداً رجال عالمنا الذين حالفهم الحظّ بما فيه الكفاية كي لا يجري اصطحابهم؟ لا مجدَّداً. فهل ما حدث قبل المحاكمة لم يعد مهمّاً؟

تقلَّبت وتحوَّلت إلى السرير الكبير. لقد كان الجوُّ حارّاً؛ لم أستطع تحمُّل الحرارة بعد الآن، فخرجت إلى الحديقة. جلستُ على حجر كبير، حيث كان بإمكاني النظر إلى الوادي ومنجم الذهب. كان كلُّ شيء مُضاءً هناك. كان بإمكاني رؤية شاحنات، فارغة أو محمَّلة، تأتي وتذهب.

الذهب، الذي تحوَّل الكثير منه إلى سبائك أو إلى أوراق نقديَّة، الذهب الذي يخرج من أعماق ذلك المنجم، سيمنحك أيَّ شيء على وجه الأرض. هذا المحرِّك الرئيس للعالم، الذي يكلِّفني القليل جدّاً، نظراً لأنَّ العمَّال كان لديهم مثل هذه الأجور البائسة، وهذا الشيء الوحيد الذي كان عليك أن تعيشه على نحو جيّد. وشارلوت، الذي فقد حريَّته لأنَّه كان يريد الكثير منه، لكنَّه لم يذكره حتَّى اليوم. لم يخبرني ما إذا كان المنجم يحتوي كثيراً من الذهب أو لا. كانت سعادته هذه الأيَّام تتمحور حول هذه الفتاة السوداء ومنزله وحيواناته وحديقته. لم يشر قطُّ إلى المال. لقد أصبح فيلسوفاً. كنت في حيرة.

قبضوا على شارلوت لأنَّ رجلاً اسمه لويس الصغير أبلغ الشرطة؛ وفي أثناء اجتماعاتنا القصيرة في سانتي شارلوت لم يتوقَّف عن القسم قطّ أنَّه سيقبض على لويس في أوّل فرصة سانحة. ومع ذلك، لم ينبس هذا المساء باسمه. وبالنسبة إليَّ - في سبيل المثال، هذا مدهش- لم أقل كلمة واحدة عن رجال الشرطة، أو غولدشتاين، أو محامي الادّعاء أيضاً. كان يجب أن أتحدَّث عنهم! لم أهرب فقط لينتهيَ بي الأمر بالخلط بين بستانيٍّ وعامل باليوميَّة.

كنت قد وعدت بالذهاب مباشرة إلى هذا البلد، وسأفي بوعدي. إلَّا أنَّ هذا لا يعني أنَّني تخلَّيت عن خططي للانتقام. يجب ألَّا تنسى، بابي، أنَّ سبب وجودك هنا اليوم هو أنَّ فكرة الانتقام أبقتك في قيد الحياة مدَّة ثلاثة عشر عاماً.

كانت فتاته السوداء الصغيرة جميلة جدّاً، لكنّني كنت أتساءل عمّا إذا كان شارلوت الكبير لن يكون أفضل حالاً في مدينة كبيرة من هذه الحفرة في نهاية الخليقة البعيدة. أو ربّما كنت في الساحة، ولا أرى أنّ حياة صديقي لها سحرها؟ أو ربّما كان خائفاً من مسؤوليّات الحياة العصريّة في المدن، هذا الأمر إجباريّ ومفروض عليه؟ كان هذا شيء يجب استيعابه.

كان شارلوت في الخامسة والأربعين من عمره، فلم يكن كبيرَ السنِّ. كان ضخماً، قويّاً جدّاً، لديه بنية فلّاح كورسيكيّ تغذّى على كثير من الطعام الجيّد والصحيّ طوال أيّام شبابه. لقد أحرقته شمس هذا البلد بحروق عميقة. يضع على رأسه قبّعته الضخمة المصنوعة من القشّ، وإطارها بظهر على الجانبين، ويبدو رائعاً. لقد كان مثالاً ممتازاً للريادي في هذه الأراضي البكر، فكثير من أفراد الشعب وأهل البلد لم يبرزوا على الإطلاق. بعيداً عن ذلك: إنّه مُنتمٍ حقّاً.

سبع سنوات قضاها هنا، ولا يزال شابّاً في كسارة الخزائن في مونمارتر! من المؤكّد أنّه عمل لأكثر من عامين لتطهير هذه الهضبة وبناء منزله. كان عليه أن يخرج إلى الأدغال، ويختار الأشجار، ويقطعها، ويعالجها ويركّبها معاً. كلّ عارضة من عوارض منزله مصنوعة من أقسى وأثقل الأخشاب في العالم، من النوع الذي يسمّونه الخشب الحديديّ. كنت متأكّداً من أنَّ كلَّ ما كان يكسبه في المنجم كان يضعه في بناء المنزل، لأنّه بالتأكيد كان قد حصل على مساعدة، ويجب أن يكون قد دفع أجور العمّال، والإسمنت (المنزل الخرسانيّ)، والبئر، وطاحونة الهواء لضخّ المياه إلى أعلى خزّان.

تلك النغريتا الصغيرة ذات التصميم الجيّد بعينيها الكبيرتين المحبّتين: يجب أن تكون الرفيق المثاليّ لكلب البحر القديم هذا. لقد رأيت ماكينة

خياطة في الغرفة الكبيرة. من المؤكَّد أنَّها هي التي تصنع تلك الفساتين الصغيرة التي تناسبها جيّداً.

ربَّما كان السبب وراء عدم ذهاب شارلوت إلى المدينة، أنَّه لم يكن واثقاً بنفسه، في حين أنَّه يتمتَّع هنا بحياة خالية من المشكلات على الإطلاق. أنت رجل رائع يا شارلوت! أنت الصورة الحقيقيَّة لما يمكن أن يتحوَّل المحتال إليه. أهنِّئك. وأهنِّئ أيضاً الأشخاص الذين غيَّروا طريقتك في رؤية ما يمكن أن تكون عليه الحياة أو ما يجب أن تكون عليه.

إنَّما، لا يزال هؤلاء الفنزويليّون خطرين، مع كرم ضيافتهم. اللطف والنوايا الحسنة يحوّلانك إلى سجين إن تركتهما يسيطران عليك. أنا حرٌّ، وأبتغي البقاء على هذه الحال إلى الأبد.

من الأفضل أن أشاهده. قبل كلِّ شيء، عدم الإقامة في منزل مع فتاة. يحتاج الرجل إلى الحبِّ عندما ينقطع عنه لفترة طويلة، لكن لحسن الحظ كان لديَّ فتاة في جورج تاون قبل عامين. كانت هندوسيَّة، وتدعى إندارا. لذلك لم أكن عرضة للخطر كما لو كنت قد أتيت مباشرة من السجن، كما فعل شارلوت. كانت إندارا جميلة، وكنت سعيداً معها؛ لكن لم يكن ذلك سبب استقراري في جورج تاون. إذا كانت الحياة هادئة للغاية، على الرَّغم من أنَّها سعيدة، فهي ليست لي: أنا أعرف ذلك جيّداً.

مغامرة! يحتاج الرجل إلى المغامرة ليشعر بأنَّه في قيد الحياة! هذا هو سبب مغادرتي لجورج تاون، وانتهى بي المطاف في إلدو رادو. وهذا هو سبب وجودي حيث أنا اليوم.

حسناً. كانت الفتيات جميلات، ذوات دماء حارَّة وساحرات، وبالتأكيد لا أستطيع العيش من دون حبٍّ. كان الأمر متروكاً لي لتجنُّب المضاعفات.

يجب أن أعدَ نفسي بالبقاء هناك مدَّة عام، لأنَّني اضطررت إلى فعل ذلك في أيٍّ حال. كلَّما قلَّ امتلاكي، كان من الأسهل لي مغادرة هذا البلد وشعبه الساحر. لقد كنت مغامراً، نعم: يجب أن أحصل على أموالي بصدق، أو في الأقلّ من دون إيذاء أيٍّ شخص: كان هذا هدفي: باريس ذات يوم، أن أقدِّم فاتورتي إلى الأشخاص الذين وضعوني في معاناة شديدة.

كنت أكثر هدوءاً الآن، وكانت عينايَ تتطلَّعان إلى القمر في أثناء هبوطه نحو الغابة البِكر، بحر من رؤوس الأشجار السُّود مع موجات من ارتفاعات مختلفة - لكنَّ الأمواج لم تتحرَّك قطّ. عدتُ إلى غرفتي وتمدَّدت على السرير.

كانت باريس لا تزال بعيدة جدّاً، لكن ليست بعيدة إلى درجة أنّني لا أستطيع العودة إلى هناك مرَّة أخرى، يوماً ما، والسير على شوارعها الإسفلتيَّة.

الفصل الثاني

المَنْجَم

بعد أسبوع، وبفضل الرسالة التي كتبها لأجلي بروسبيري، وهو بقّال كورسيكيّ، جرى اصطحابي إلى منجم موكوبيا. أصبحت أهتمُّ بعمل المضخَّات التي تمتصُّ الماء من الفتحات.

بدا المنجم كحفرة الفحم، مع صالات العرض تحت الأرض. لم يكن هناك عروق من ذهب، بل بعض شذرات الذهب. عُثِر على الذهب في الصخور الصلبة جدّاً. عمدوا إلى تفجير هذه الصخرة بالديناميت، ثمَّ كسروا الكتل الضخمة بمطرقة ثقيلة. وُضعت القطع في شاحنات، ونقلوها إلى السطح بوساطة مصاعد؛ ثمَّ حوّلت الكسَّارات الصخور إلى مسحوق أنعم من الرمل. خُلِط بالماء، ما جعل الطين سائلاً يجري ضخُّه في خزَّانات في حجم خزَّانات مصفاة النفط. كانت هذه الخزَّانات تحتوي السيانيد. تحوَّل الذهب إلى سائل أثقل من البقيَّة وغرق في القاع. تبخَّر السيانيد تحت الحرارة حاملاً جزيئات الذهب. تجمَّدتْ ثمَّ التُقطت بوساطة مرشِّحات مثل الأمشاط في أثناء مرورها. ثمَّ جُمِع الذهبُ وصُهِر وسُكب سبائك، وفُحص بعناية للتأكُّد من نقاوته، ومن كونه من عيار ٢٤ قيراطاً. ثمَّ وُضِع في متجر تحت حراسة مشدَّدة. لكن، مَن الذي كان يحرس؟ لا أزال لا أستطيع تجاوز الفكرة. سيمون، المحتال الذي انفصل عن مستعمرة العقوبات مع شارلوت الكبير.

لَمَّا انتهى عملي، ذهبت لألقي نظرة على المشهد. ذهبت إلى المتجر وحدَّقت إلى الكومة الضخمة من سبائك الذهب التي عمل سيمون، المحكوم عليه سابقاً، على صفِّها. إنَّها حتَّى ليست غرفة قويَّة، مجرَّد مخزن خراسانيّ بجدران ليست أكثر سمكاً من المعتاد، وباب خشبيّ.

«كلّ شيء على ما يرام، سيمون؟»

«حسناً. وماذا عنك يا بابي؟ أأنت سعيد لدى شارلوت؟»

«نعم، أنا بخير».

«لم أكن أعرف قطّ أنَّك كنت في إلدو رادو. لو علمت ذلك لكنت أخرجتُك».

«هذا لطفٌ منك. هل أنت سعيد هنا؟»

«نعم، لديَّ منزل: ليس كبيراً كمنزل شارلوت، لكنَّه مصنوع من الطوب والإسمنت. لقد بنيته بنفسي. ولديَّ زوجة شابَّة حلوة جدّاً. وقد أنجبنا فتاتين صغيرتين. تعالَ وزرنا متى تشاء. أريدك أن تعدَّ منزلي منزلك، أيضاً. أخبرني شارلوت أنَّ صديقك مريض. تعرف زوجتي كيفيَّة إعطاء الحقن، لذا إذا احتجت إليها فلا تتردَّد».

تحدَّثنا. هو أيضاً كان سعيداً تماماً. هو أيضاً لم يتحدَّث عن فرنسا على الإطلاق، عن مونمارتر، على الرَّغم من أنَّه عاش هناك. تماماً على غرار شارلوت. الشيء الوحيد الذي كان يهمّ هو الحاضر - الزوجة، الأطفال، المنزل. أخبرني أنَّه يكسب عشرين بوليفاراً في اليوم. لحسن الحظّ، أعطتهم دجاجاتهم البيض من أجل العجَّة، وكان الدّجاج في المنزل؛ وإلَّا لما كفتهم العشرون بوليفاراً، سيمون وأسرته.

حدَّقت إلى كتلة الذهب الموجودة هناك، المخزَّنة بلا مبالاة خلف باب خشبيّ، والجدران الأربعة بسماكة قدم فقط. هذه الكومة من الذهب، بثلاث غليان وخمسين غراماً أو خمسة وثلاثين دولاراً للأوقية، ستضيف بسهولة ما يصل إلى ثلاثة ملايين وخمسمئة ألف غليان، أو ما يقرب من مليون دولار. وهذه الثروة التي لا تصدَّق كانت في متناول اليد! وسيكون إيقافها بمنزلة لعب أطفال تقريباً.

«أليست هذه الكومة من السبائك أنيقة يا بابيون؟»

«ستكون أكثر أناقة، يا لها من ثروة!»

«ربَّما، لكنَّها ليست لنا. هذا أمر مقدَّس، لأنَّهم قد ائتمنوني عليها».

«أوكلها إليك بالتأكيد؛ لكن ليس لي. يجب أن تعترف أنَّه من المغري أن ترى شيئاً كهذا وأن تتركه».

«الأمر لا يتعلَّق فقط بالابتعاد، لأنَّني أعتني به».

«يمكن. لكنَّك لست هنا لمدَّة أربع وعشرين ساعة في اليوم».

«لا. فقط من السَّادسة مساءً حتَّى السَّادسة صباحاً. إنَّما، في أثناء النهار يوجد حارس آخر: ربَّما تعرفه - ألكساندر، من إدارة البريد».

«نعم، أعرفه. حسناً، سأراك لاحقاً يا سيمون. بلّغ تحيّاتي إلى أسرتك».

«ستأتي لتزورنا؟»

«بالتأكيد. مع السلامة».

غادرت بسرعة، وبأسرع ما يمكن كي أهربَ من مشهد الفتنة هذا. كان لا يصدَّق! سيقول أيُّ شخص إنَّهما يتوقان إلى السرقة، الرجلان المسؤولان عن

هذا المنجم. متجر يكاد لا يمكن أن يثبت نفسه، واثنان من المحتالين من ذوي الرتب العالية مرَّة واحدة يعتنيان بكلِّ هذا الكنز! لم أرَ طيلة حياتي شيئاً كهذا!

مشيت ببطء في الطريق المتعرِّج إلى القرية. كان عليَّ أن أعبرها مباشرة لأصل إلى الأرض حيث كان قصر شارلوت. تباطأتُ. كانت هذه الساعات الثماني صعبة للغاية. في الرواق الثاني، الموجود تحت الأرض، كان الهواء قليلاً، بل حتّى كان حارّاً ورطباً، على الرَّغم من أجهزة التنفُّس. توقَّفت مضخَّاتي عن الامتصاص ثلاث أو أربع مرَّات، واضطررت إلى ضبطها مرَّة أخرى. كانت السّاعة الثامنة والنصف حينها، وكنت قد ذهبت إلى المنجم في تمام الساعة الثانية عشرة ظهراً. لقد ربحت ثمانية عشر بوليفاراً. لو كان لديَّ عقل عامل، لما كان ذلك سيّئاً للغاية. كان كيلو اللحم بـ٢.٥٠ بوليفار؛ السكّر بـ٠.٧٠، البنّ بـ٢ بوليفار. لم تكن الخضراوات غالية الثمن، أيضاً. كان كيلو الأرز بـ٠.٥٠ والشيء نفسه للفاصولياء المجفَّفة. يمكن أن تعيش بثمن بخس، كان هذا صحيحاً. إنَّما، هل كان لديَّ الإحساس بأن أتحمَّل هذا النوع من الحياة؟

بينما كنت أتسلَّق الطريق الصخريَّ حيث أستطيع السير بسهولة بالأحذية الثقيلة ذات المسامير، التي قدَّموها لي في المنجم – ورغماً عنّي، وعلى الرَّغم من أنّني بذلت قصارى جهدي لعدم التفكير في الأمر، ظللت أرى مليون الدولار هذا من سبائك الذهب يناديني فقط لعمل شيءٍ من المغامرة للاستيلاء عليها. لم يكن من الصعب، في أثناء الليل، القفز على سيمون والكلوروفورم من دون تعرُّفه. كان كلُّ شيء مضموناً، حتَّى إنَّهم تركوا له مفتاح المتجر كي يتمكَّن من الاحتماء إذا ما هطل المطر. يعبِّر هذا الأمر عن الإحساس بعدم المسؤوليَّة! كلّ ما كان عليَّ فعله بعد ذلك، هو

حمل مئتَي سبيكة من المنجم وتحميلها في شاحنة أو عربة. كان عليَّ إعداد العديد من المخابئ في الغابة، على طول الطريق، لضمّ السبائك في حزم صغيرة، كلّ منها عبارة عن مئة كيلوغرام. إذا كانت شاحنة، فبمجرَّد تفريغها سأضطرُّ إلى الاستمرار في السير قدر الإمكان، واختيار أعمق مكان في النهر وإلقائه. عربة؟ كان هناك الكثير في ساحة القرية. حصان؟ سيكون من الصعب العثور على ذلك، لكن ليس مستحيلاً. ليلة من ليالي المطر الغزير ستمنحني كلَّ الوقت الذي أحتاج إليه للعمل، وقد تسمح لي حتّى بالعودة إلى المنزل والذهاب إلى الفراش الوديع كراهب.

بحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى أضواء ساحة القرية، كانت فكرة السرقة قد سيطرت على ذهني، وكنت أنزلق في ملاءات سرير شارلوت الكبير.

«ليلة سعيدة»، ألقيت التحيَّة على مجموعة من الرجال الجالسين في حانة القرية.

«مرحباً! ليلة سعيدة يا رفاق».

«تعالَ وانضمَّ إلينا لبعض الوقت. تناول بيرة مثلَّجة».

كان من الوقاحة أن أرفض، لذلك وجدت نفسي جالساً بين تلك النفوس الطيبة، ومعظمهم من عمَّال المناجم، الذين أرادوا معرفة ما إذا كنت بخير، وما إذا كنت قد وجدت امرأة، وما إذا كانت كونشيتا تعتني ببيكولينو على نحو صحيح، وما إذا كنت في حاجة إلى المال من أجل الدواء أو أيّ شيء آخر. أعادتني هذه العروض السخيَّة والعفويَّة إلى الواقع. قال لي أحد منقّبي الذهب إنَّه إذا لم يرُقْ لي العمل في المنجم، فيمكنني الذهاب معه: «الأمر صعب، لكن بإمكانك الحصول على المزيد

من المال. ومن ثمَّ هناك دائماً احتمال أن تكون ثريّاً في يوم واحد». شكرتهم جميعاً. وأردت أن أدفع عنهم.

«لا، أيُّها الفرنسيّ، أنت ضيفنا. مرَّة أخرى، حينما تكون ثريّاً. حفظك الله».

ذهبتُ نحو القصر. نعم، سيكون من السهل جدّاً أن تتحوَّل إلى رجل متواضع وصادق بين كلِّ هؤلاء الذين عاشوا على المال الزهيد، والذين كانوا سعداء بلا شيء تقريباً، والذين تبنّوا رجلاً من دون أن يقلقوا في التفكير من أين أتى أو ما كان عليه.

رحَّبت بي كونشيتا مرَّة أخرى. كانت وحيدة. كان شارلوت في المنجم. لمَّا غادرت، كان قد حان وقت عودته. كانت كونشيتا مرحة وفي غاية اللطف؛ أعطتني زوجاً من النعال كي أتمكَّن من إراحة قدميَّ بعد ارتداء هذه الأحذية الثقيلة.

«صديقك نائم. لقد أكل جيّداً، وقد أرسلت رسالة طلبت فيها نقله إلى المستشفى في تومرينو، وهي بلدة صغيرة ليست بعيدة عن هنا».

شكرتها وأكلت الوجبة الساخنة التي كانت تنتظرني. جعلني هذا الترحيب، الأسريّ والبسيط والسعيد، أشعر بالراحة؛ لقد منحتني راحة البال التي أحتاج إليها بعد إغراء ذلك الطنِّ من الذهب. فُتح الباب.

«مساء الخير جميعاً». دخلت فتاتان الغرفة، كما لو كانتا في المنزل.

قالت كونشيتا: «مساء الخير. هذا صديقنا، بابيون».

كانت إحداهما سوداء، طويلة القامة ونحيلة؛ كانت تسمّى غراسيلا، وكانت إلى حدٍّ كبير من النوع الغجريِّ. كان والدها إسبانيّاً. اسم الفتاة الأخرى مرسيدس. كان جدُّها ألمانياً، وهذا ما يفسّر لون بشرتها الفاتح

وشعرها الأشقر الناعم جدّاً. كانت غراسيلا ذات عينين أندلسيتين سوداوين مع لمسة من نار استوائيَّة. كانت مرسيدس ذات عينين خضراوين، وفجأة ذكَّرتني بلالي، الهنديَّة. لالي... لالي وشقيقتها زورالما: ما مصيرهما؟ نحن في عام ١٩٤٥ الآن، وقد مرَّ اثنا عشر عاماً، لكن على الرَّغم من كلِّ تلك السنوات، شعرت بألم في قلبي عندما تذكَّرت تينك الفتاتين الجميلتين. لا بدَّ أنَّهما تزوَّجتا رجلين من عِرقهما، وبصراحة لم يكن لديَّ الحقّ في إحداث أيِّ مشكلة لهما في حياتهما الجديدة.

«صديقتاكِ رائعتان يا كونشيتا! شكراً جزيلاً لك لأجل تقديمي إليهما».

علمت أنَّهما كانتا حرَّتين، وليس لدى أيّ منهما خطيب. في مثل هذه الصحبة الجيّدة، مرَّت الأمسية مثل ومضة. اصطحبناهما، أنا وكونشيتا، إلى مدخل القرية، وبدا لي أنَّهما كانتا تتكئان بشدَّة على ذراعيَّ. في طريق العودة، سألتني كونشيتا ما إذا نالت الفتاتان إعجابي، وسألت قائلةً: «أيُّهما تفضِّل أكثر؟»

«كلتاهما ساحرة، يا كونشيتا؛ لكنَّني لا أريد أيَّ مضاعفات».

«هل تسمّي ممارسة الحبِّ، مضاعفات؟ الحبُّ بمنزلة الأكل والشرب. هل تعتقد أنَّه يمكنك العيش من دون أكل وشرب؟ حينما لا أمارس الحبَّ أشعر بالمرض حقاً، وأنا الآن في الثانية والعشرين من عمري. إنَّهما في السادسة عشرة والسابعة عشرة فقط. إذا لم تُسعدا جسديهما فستموتان».

«وماذا عن ذويهما؟» أخبرتني، كما فعل خوسيه، أنَّ بنات الناس العاديين يحببنَ فقط أن يكنَّ محبوبات. يسلّمنَ أنفسهنَّ للرجل الذي يحببنَه تلقائياً، تماماً، من دون أن يطلبنَ أيَّ شيء في المقابل سوى الإثارة.

«أفهمك، أيّتها الجميلة. أنا على استعداد كرجل آخر أن يمارس الحبّ من أجل الحبّ. أخبري صديقتيك أنَّ العلاقة الغراميَّة لا تلزمني على أيِّ نحو كان، على الإطلاق، بمجرَّد أن يتمَّ تحذيرهنَّ، فهذه مسألة أخرى».

عزيزي الربّ أعلاه! لم يكن من السهل الابتعاد عن جوّ كهذا. شارلوت، سيمون، ألكساندر، وممَّا لا شكَّ فيه أنَّ كثيرين آخرين قد تمَّ سحرهم على نحو إيجابيّ. رأيت لماذا كانوا سعداء للغاية بين هؤلاء الناس المبتهجين، المختلفين جدّاً عن شعبنا. خلدت إلى النوم.

«انهض يا بابي! إنَّها الساعة العاشرة. وهناك من يريد رؤيتك».

«صباح الخير سيّدي».

رجل أشيب في الخمسين من عمره. عاري الرأس، ضخم، ذو عينين صريحتين، كثّ الحاجبين. مدَّ لي يده.

«أنا دكتور بوغرات. أتيت لأنَّهم قالوا لي إنَّ أحدكما مريض. لقد ألقيت نظرة على صديقك، ولا يوجد شيء يمكن فعله ما لم يذهب إلى المستشفى في كاراكاس. سيكون من الصعب علاجه».

قال شارلوت: «ستتناول الطعام معنا يا دكتور؟»

«بكلِّ سرور. شكراً».

صُبَّ شرابُ الأنيسيت. وبينما كنَّا نشرب، قال لي بوغرات: «حسناً، بابيون، هل من جديد؟»

«في الحقيقة، يا دكتور، أنا أتّخذ خطواتي الأولى في الحياة. أشعر كأنَّني وُلدت من جديد. أو بالأحرى كما لو كنت قد ضللت طريقي كصبيّ. لا يمكنني الخروج من الطريق الذي يجب أن أسلكه».

«الطريق واضح بما فيه الكفاية. انظر حولك وسترى. باستثناء واحد أو اثنين، سار جميع رفاقنا القدامى في طريقهم الصحيح. أنا في فنزويلا منذ عام ١٩٢٨. لم يرتكب أيٌّ من المدانين الذين أعرفهم جريمة منذ حضوره في هذا البلد. جميعهم تقريباً متزوّجون ولديهم أطفال، ويعيشون بصدق، وتقبّلهم المجتمع. لقد نسوا الماضي تماماً إلى درجة أنَّ بعضهم لم يتمكَّن من إخبارك بتفاصيل الوظيفة التي أدَّت إلى سقوطهم. كلّ شيء بعيد جدّاً، مدفون في ماضٍ ضبابيٍّ لا يهمّ».

«ربّما الأمر مختلف لديَّ، يا دكتور. لديَّ حساب طويل جدّاً مع الأشخاص الذين أرسلوني وحكموا عليَّ ظلماً: ثلاثة عشر عاماً من النضال والمعاناة. كي أصفّي حسابي، يجب أن أعودَ إلى فرنسا؛ لهذا أحتاج إلى كثير من المال. من خلال العمل كعامل لن يكون في استطاعتي ادّخار ما يكفي لرحلة الذهاب والعودة - إذا كانت هناك أيّ عودة، دون حساب التكاليف لتنفيذ مخطّطي. ومن ثمَّ أمضي حياتي في إحدى تلك القرى الصغيرة التائهة... تجذبني كاراكاس».

«وهل تعتقد أنَّك الوحيد بيننا الذي لديه حساب يجب تسويته؟ استمع فقط إلى قصَّة صبيٍّ أعرفه. اسمه جورج دوبوا. طفل من الأحياء الفقيرة في لا فيليت - أب مدمن على الكحول، غالباً ما يُحبَس، الأمُّ التي لديها ستة أطفال: كانت فقيرة جدّاً إلى درجة أنَّها تجوَّلت في حانات شمالي أفريقيا المنتشرة في الحيّ. منذ أن كان جوجو في الثامنة من عمره، كان ينتقل من إصلاحيَّة إلى أخرى. بدأ في قطع الفاكهة خارج المتاجر - فعل ذلك مرَّات عدَّة. في البداية، تحت رعاية رئيس الدير روليه، ثمَّ لمَّا كان في الثانية عشرة من عمره، أمضى فترة صعبة حقّاً في الإصلاحيَّة. يجب ألَّا أخبركم أنَّ جوجو، البالغ من العمر أربعة عشر عاماً،

كان محاطاً بزملاء شبَّان يبلغون من العمر ثمانية عشر عاماً، وكان عليه حماية نفسه. لقد كان طفلاً ضعيفاً، لذلك لم يجد سوى طريقة واحدة للدفاع عن نفسه - السكّين. طعن أحدَ أولئك البلطجيّة الصغار المنحرفين في بطنه، فأرسلت السلطات جوجو إلى مركز أساي، الإصلاحيّة الأصعب، إنَّها إصلاحيَّة للحالات اليائسة، حتَّى سنّ الحادية والعشرين. لقد دخل الإصلاحيَّة وهو في الثامنة عشرة من عمره، وخرج من هناك وقد بلغ التاسعة عشرة من عمره، بعد أن أصدروا أوامرهم بانضمامه إلى الكتائب الأفريقيَّة التأديبيَّة، لأنَّه بماضيه هذا، لا يمكنه الانضمام إلى الجيش العاديّ. سلَّموه القليل من الفرنكات، وودَّعوه! كانت المشكلة أنَّ هذا الصبيّ كان صاحب قلب طيّب. ربَّما تصلَّب، لكن لا يزال لديه بعض الزوايا الحسَّاسة. في المحطَّة رأى قطاراً متَّجهاً إلى باريس. كان الأمر كما لو أنَّ مفتاحاً حرَّك داخله الكثير. قفز بسرعة مضاعفة، ووصل إلى باريس. كانت السماء تمطر عندما خرج من المحطَّة. وقف تحت سرادق لمعرفة كيف سيصل إلى لا فيليت. تحت هذا المكان نفسه كانت هناك فتاة، أيضاً، تحتمي من المطر. نظرت إليه بلطف. كلّ ما كان يعرفه عن النساء هو الزوجة السمينة لرئيس سجن أساي، وما قاله له الأولاد الأكبر سنّاً في الإصلاحيَّة - صحيح إلى حدٍّ ما. لم يرَ قطّ مثل هذه الفتاة، وبدأا يتجاذبان أطراف الحديث.

«من أيّ بلد حضرتك؟»

«من المقاطعة».

«أنا معجبة بك يا فتى. لِمَ لا نذهب إلى فندق؟ سأكون لطيفة معك وسنشعر بالدّفء».

شعر جوجو بشيء غريب. بدت له هذه «الفرخة» شيئاً رائعاً - والأكثر من ذلك أنَّ يدها اللطيفة لمست يده. كان اكتشاف الحبّ تجربة رائعة ومدهشة

له. كانت الفتاة شابَّة وعاطفيَّة للغاية. بعد أن مارسا الحبَّ، جلسا على السرير للتدخين، وقالت له: «هل هذه هي المرَّة الأولى التي تنام فيها مع فتاة؟»

«نعم».

«لماذا انتظرت كلَّ هذا الوقت؟»

«كنت في السجن».

«لمدَّة طويلة؟»

«طويلة جدّاً».

«وأنا أيضاً، لكنَّني استطعت الهرب».

سأل جوجو: «كم عمرك؟»

«ستة عشرَ عاماً».

«من أين؟»

«من فيليت».

«من أيِّ حيٍّ؟»

«من حيٍّ روان».

كذلك كان جوجو. كان خائفاً أن يفهم. صرخ: «ما اسمكِ؟»

«جينيت دوبوا».

إنَّها شقيقته. لقد طغت عليهما الأمور تماماً، ويدأ كلاهما في البكاء من الخجل والبؤس. ثمَّ وصف كلٌّ منهما للآخر الطريق الذي سلكه. عاشت جينيت وأخواتها الأخريات نوعيَّة الحياة نفسها التي عاشها جوجو - بين المنازل والإصلاحيَّات. كانت والدتهم قد خرجت لتوّها من المصحَّة.

كانت الأخت الكبرى تعمل في بيت دعارة لأبناء شمالي أفريقيا في لا فيليت. قرَّرا الذهاب لرؤيتها.

حين خروجهما من الفندق، ناداها رجل يشبه الخنزير، مرتدياً زيّاً عسكريّاً، قائلاً: «ألم أحذّرك من الاقتراب من منطقتي؟» وتوجَّه نحوهما. «سماح هذه المرَّة، أيّتها العاهرة الصغيرة القذرة».

كان هذا الأمر فوق طاقة احتمال جوجو. بعد كلِّ ما حدث للتوّ، لم يعد يعرف حقّاً ما كان عليه فعله. أخرج شفرة كهربائيَّة كان قد اشتراها للجيش وغرسها في صدر الخنزير. تمَّ القبض عليه، وحكمه اثنا عشرَ محلّفاً من المحلّفين «المؤهّلين» بالإعدام. لم يوافق رئيس الجمهوريَّة على القرار، وأرسل إلى تسوية جزائيَّة.

الآنَ، لقد هرب، وهو يعيش حالياً في كومانا، وهو ميناء بحجم معقول. إنَّه صانع أحذية، متزوّج ولديه تسعة أطفال، يعتني بهم جيّداً، ويذهبون جميعاً إلى المدرسة. في الواقع، إنَّ أحد أبنائه، البكر، في الجامعة منذ العام الماضي. في كلِّ مرَّة أكون في كومانا أذهب إليهم وأراهم. هذا مثال جيّد جدّاً، أليس كذلك؟ ومع ذلك، صدّقوني، فقد قدَّم تنازلات كبيرة للتعايش مع المجتمع. أنت لست استثناءً، يا بابيون. كثيرٌ منَّا لديه أسباب للانتقام، لكن، حسب علمي، لم يغادر أيٌّ منّا هذا البلد لينتقم. أنا أثق بك يا بابيون. بما أنَّك تحبّ فكرة كاراكاس، فاذهب إلى هناك؛ لكن آملُ أن يكون لديك الإحساس بأن تعيشَ حياة المدينة من دون الوقوع في أفخاخها».

خرج بوغرات في وقت متأخّر بعد ظهر ذلك اليوم. كانت أفكاري مضطربة بعد ذلك. لماذا ترك مثل هذا الانطباع لديَّ؟ من السهل معرفة

السبب. في هذه الأيّام الأولى من الحريَّة، قابلت مدانين كانوا سعداء ومتكيّفين، لكنَّهم يعيشون حياة لم تكن في الأقلّ استثنائيَّة. لقد كانت نهاية حكيمة ومتواضعة للغاية. كان مركزهم متواضعاً - كانوا عمّالاً أو فلّاحين. كان بوغرات مختلفاً. للمرَّة الأولى، رأيت محتالاً سابقاً أصبح الآن رجلاً نبيلاً. هذا ما جعل قلبي يدقُّ بسرعة. هل سأكون رجلاً نبيلاً أيضاً؟ هل يمكنني أن أصبح على مثاله؟ بالنسبة إليه، كطبيب، كان الأمر سهلاً نسبيّاً. ربَّما يكون الأمر أصعب لي؛ لكن حتّى لو لم أكن أعرف حتّى الآن كيفيّة البدء في الأمر، كنت متأكّداً من أنّني سأصبح في يوم من الأيّام رجلاً نبيلاً أيضاً.

بينما كنت جالساً على مقعدي في أسفل الرواق رقم ١١، شاهدت المضخَّات الخاصَّة بي؛ التي تعمل اليوم من دون عوائق. بدأت الأفكار تتصارع في رأسي: «بابيون، أنا أثق بك». إنَّما، هل يمكنني تحمُّل العيش على غرار رفاقي؟ لم أكن أعتقد ذلك. بعد كلِّ شيء، كان هناك الكثير من الطرائق الأخرى للحصول على أموال كافية بصدق. لم أجبر على قبول حياة كانت صغيرة جدّاً لديَّ. يمكنني الاستمرار في المغامرة - يمكنني البحث عن الذهب أو الماس، والتلاشي في الأدغال، والخروج يوماً ما بما يكفي ليضعني في الوضع الذي كنت أبحث عنه.

نعم، أشعر بذلك، لن يكون من السهل التخلّي عن المغامرة والمخاطر. ومع ذلك، على الرَّغم من هذا الاستفزاز الذي هو كومة الذهب هذه، إذا كنت تفكّر على نحو صحيّ، فيجب عليك ألَّا تفعل ذلك، فليس لك الحقّ. مليون دولار... بابي، هل تدرك؟ ولا سيّما أنَّ العمليّة مضمونة هذه المرَّة. لا حاجة إلى الدراسة، إنَّما تتمُّ قبل البدء بها، لا يمكن أن تفشل. يا إلهي! لا يحقّ للمرء أن يضع تحت يد رجل عصابة جبلاً من الذهب شبه المهجور

وأن يقول له: «لا يمكنك أن تمسَّه». عُشر هذا الذهب يكفيني لإكمال كلِّ شيء، ولأنفِّذ كلَّ ما حلمت بفعله إبَّان آلاف الساعات التي دفنت فيها.

في تمام السّاعة الثامنة، صعدت بوساطة الرافعة إلى السطح. قطعت شوطاً طويلاً كي لا أذهب إلى المخزن. كلَّما قلَّلت من الذهاب إلى هناك، كان الأمر أفضل. مررت بسرعة عبر القرية، كنت ألقي التحيَّة على الناس وأعتذر إلى أولئك الذين يريدون التحدُّث إليَّ- كنت في عجلة من أمري، وصعدت بسرعة إلى المنزل. كانت كونشيتا تنتظرني، سوداء ومرحة كالمعتاد.

«حسناً، بابيون، كيف حالك؟ أخبرني شارلوت أن أقدِّم لك كأساً من الأنيسيت قبل العشاء. قال إنَّ من الظاهر أنَّك تعاني من مشكلات. ما بك يا بابي؟ يمكنك أن تخبرني، فأنا زوجة صديقك، هل تريدني أن أحضرَ لك غراسيلا، أو ربَّما مرسيدس إذا كنت تفضّلها؟ ألا تعتقد أنَّ هذه ستكون فكرة جيّدة؟»

«كونشيتا، لؤلؤة سوداء صغيرة من كالاو، أنت رائعة، لهذا فإنَّ شارلوت يعبدك. ربَّما تكونين على صواب: ربَّما أحتاج إلى فتاة إلى جانبي لأستعيدَ توازني».

«بالتأكيد. إلَّا إذا كان شارلوت على حقّ».

«ماذا تقصدين؟»

«حسناً، كنت أقول له إنَّك في حاجة لأن تحبَّ وأن تكون محبوباً. فقال لي إنَّ عليَّ الانتظار قبل أن أضع فتاة في سريرك - ربَّما هناك شيء آخر».

«ماذا، شيء آخر؟»

تردَّدت للحظة ثمَّ صرخت: «لا يهمّني إذا أخبرت شارلوت؛ لكنَّه سيصفعني».

«لن أخبره أيَّ شيء. أعدُك».

«حسناً، يقول شارلوت إنَّك لا ترغب في عيش الحياة عينها التي يعيشها هو والفرنسيّون الآخرون هنا».

«ماذا بعد؟ أخبريني يا كونشيتا».

«وقال إنَّه لا بدَّ أنَّك تفكِّر في وجود كثير من الذهب عديم الفائدة في المنجم، وأنَّك ستجد شيئاً أفضل لتفعله به. وأضاف قائلاً إنَّك لست من النوع الذي يمكنه العيش من دون إنفاق الكثير؛ وإنَّك تريد الانتقام ولا يمكنك التخلّي عن هذا الأمر، لهذا تريد قدراً كبيراً من المال».

نظرتُ مباشرة في عينيها.

«حسناً، يا كونشيتا، لقد أخطأ شارلوت. أنت من كان على حقّ. أمَّا بالنظر إلى مستقبلي - فلا مشكلة على الإطلاق. لقد خمَّنت ذلك: ما أريده هو امرأة أحبُّها. لا أحبُّ أن أقول ذلك، لأنَّني خجول إلى حدٍّ ما».

«لا أصدِّق هذا يا بابيون».

«حسناً. اذهبي وأحضري الفتاة الشقراء، وسترين بأمِّ عينك كيف سأصبح سعيداً عندما يكون لديَّ فتاة أحبُّها وتحبّني».

قالت وهي تدخل غرفة النوم لتغيير ملابسها: «سأذهب في الحال». «أوه، كم ستكون مرسيدس سعيدة!». قبل خروجها، قرع الباب. قالت كونشيتا: «تفضَّل». فُتح الباب، ووجدت ماريا وهي تبدو مرتبكة.

«أنت، ماريا، في هذا الوقت من الليل؟ يا لها من مفاجأة رائعة! كونشيتا، هذه ماريا، الفتاة التي استضافتني وبيكولينو عندما نزلنا للمرَّة الأولى في كالاو».

قالت كونشيتا: «دعيني أقبّلكِ». «أنت جميلة كما قال بابيون».

«من بابيون؟»

«هذا أنا. إنريكي أو بابيون. اجلسي إلى جانبي على الأريكة وأخبريني بكلِّ شيء».

ضحكت كونشيتا بخبثٍ، وقالت: «لا أعتقد أنَّ من الضروريّ الخروج الآن».

بقيت ماريا طوال الليل. كانت خجلى كعشيقة، لكنَّها كانت تتفاعل مع أدنى مداعبة. كنت أوّل رجل لها. الآنَ هي نائمة. الشمعتان اللتان أشعلتهما بدلاً من الضوء الكهربائيّ كانتا تتناثران. أظهر وهجهما الخافت جمال جسدها الشاب بشكل أفضل، ولا يزال ثدياها يذكِّران باحتضاننا. نهضتُ برفق لأعدَّ لنفسي بعض القهوة وأنظر إلى الساعة. الساعة الرابعة. طرقت قِدراً فاستيقظت كونشيتا. خرجت من غرفتها مرتديةً رداءً.

«هل تريد قهوة؟»

«نعم».

«لك وحدك، أنا متأكِّدة من هذا، لأنَّها الآن نائمة في حضرة الملائكة الذين عرَّفتها إليهم».

«أنت خبيرة يا كونشيتا».

«شعبي لديه نار تسري في عروقه. لا بدَّ أنَّك لاحظت ذلك الليلة. تتمتَّع ماريا بلمسة من الزنوج، ولمستين من الهنود، أمَّا ما تبقّى فيها فمسبوغ بسبغة إسبانيَّة». قالت ضاحكة: «إذا لم تكن سعيداً بمزيج من هذا القبيل، فاذهب واقتل نفسك».

كانت الشمس الرائعة ساطعةً في أعالي السماء عندما استيقظت ماريا. أحضرت إليها قهوتها في السرير. كان ثمَّة سؤال، بالفعل، عالقٌ على حافة شفتي، فسألتها قائلاً: «ألا يقلقون عندما لا يجدونك في المنزل؟»

«لقد أخبرت شقيقاتي أنَّني قادمة إلى هنا، لذلك لا بدَّ أنَّ والدي قد عرف بالأمر بعد ساعة. لن ترسلني إلى هناك اليوم؟»

«لا يا عزيزتي. أخبرتك أنَّني لا أرغب في إنشاء أسرة، لكن إرسالك بعيداً هذا شيء آخر. إذا كنت ترغبين في البقاء من دون أيِّ مشكلة، فابقي طالما أردتِ ذلك».

أصبحت السّاعة الثانية عشرة، واضطررت إلى الذهاب إلى المنجم. قرَّرت ماريا أن تذهب إلى منزلها في شاحنة وتعود في المساء.

قال شارلوت: «مرحباً». كان يقف عند باب غرفته مرتدياً منامته، وتحدَّث إليَّ بالفرنسيَّة: «وجدت الفتاة التي تحتاج إليها بنفسك. واحدة فاتنة، أهنّئك». وأضاف، بما أنَّ اليوم التالي هو الأحد، فقد نشرب بهذه المناسبة.

«ماريا، قولي لوالدك وأخواتك أن يأتوا ويقضوا يوم الأحد معنا للاحتفال. وعودي متى شئت – يمكنك عدُّ منزلنا مثل منزلك. أتمنّى لك يوماً سعيداً يا بابي؛ احترس من المضخَّة رقم ثلاثة. وحينما تنهي العمل، لست مضطرّاً إلى الذهاب وإلقاء التحيَّة على سيمون. إذا كنت لا ترى الأشياء التي يعتني بها على نحو سيّئ للغاية، فسوف تشعر أنَّها أقلّ قيمة».

«أيّها المحتال العجوز القذر. لا، لن أذهب لرؤية سيمون. لا تقلق. مع السلامة».

مشيت أنا وماريا عبر القرية، أحدنا إلى جانب الآخر، لتُظهر للفتيات أنّها امرأة.

كانت المضخّات تعمل بلطف، حتّى رقم ثلاثة. إنّما، لم يمنعني الهواء الساخن الرطب ولا إيقاع المحرّك من التفكير في شارلوت. لقد فهم لماذا كنت شديد التفكير، حسناً. لم يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لديه، وهو محتال قديم، ليرى أنّ كومة الذهب هي سبب هذا التفكير. ولا لسيمون أيضاً؛ بالتأكيد قد أخبره بحديثنا. أصدقاء حقيقيّون، متوهّجون بالبهجة، لأنّني كنت قد حصلت على امرأة. كانوا يأملون في أن تجعلني هذه الهبة ذات الشعر الأسود أنسى كومة الغنائم المشتعلة.

قلّبت كلّ هذا مراراً وتكراراً في رأسي، وبمرور الوقت بدأت أرى الموقف على نحو أكثر وضوحاً. أصبح هؤلاء الأخيار الآن مستقيمين ويعيشون حياة خالية من اللوم. إنّما، على الرّغم من أنّهم يعيشون مثل المربّمات، فقد حافظوا على نظرة العالم السفليّ، وكانوا غير قادرين تماماً على إبلاغ الشرطة عن أيّ شخص على الإطلاق، حتّى لو خمّنوا ما هو عليه، وعرفوا بالتأكيد أنّه سيعني مشكلة سيّئة لهم. الشخصان اللذان سيؤخذان على الفور إذا ما حدث الشيء، هما سيمون وألكسندر، وهما الرجلان اللذان كانا يحرسان الكنز. يأتي شارلوت ليحصل على نصيبه من عشّ الدبابير أيضاً، لأنّ كلّ واحد من المدانين السابقين سيجري نقله إلى السجن. ثمّ توديع السلام والهدوء، بيت الوداع، حديقة الخضار، الزوجة، الأطفال، الدّجاج، الماعز والخنازير. لذلك، بدأت أرى كيف أنّ هؤلاء المحتالين

السابقين لا بدَّ أنَّهم ارتجفوا ليس من أجل أنفسهم وإنَّما من أجل منازلهم، عندما فكَّروا في أنَّ فعلتي ستدمّر كلَّ شيء. «كيف آمل ألَّا يذهب ويفسد كلَّ شيء» لا بدَّ أنَّ كلَّ واحد منهم قال هذا. كان بإمكاني رؤيتهم يعقدون مجلس حرب. سأكون فضولياً لمعرفة كيف واجهوا المشكلة وحلُّوها.

اتَّخذت قراري. سأذهب وأرى سيمون هذا المساء، وسأطلب إليه أن أذهب إلى الحفل في الغد مع أسرته، وأطلب إليه دعوة ألكسندر أيضاً، إذا كان بإمكانه الحضور. يجب أن أجعلهم جميعاً يعتقدون أنَّ وجود فتاة مثل ماريا في حياتي هو كلُّ ما أريده.

جلبتني الرافعة إلى الهواء الطلق. قابلت شارلوت وهو في طريقه إلى الأسفل، وسألته: «أما زال الحفل قائماً في الغد؟»

«بالتأكيد يا بابيون. أكثر من أيِّ وقت مضى».

«سأطلب إلى سيمون وأسرته الحضور. وألكسندر، أيضاً، إذا كان بإمكانه الحضور».

كان شارلوت العجوز ذكيّاً. نظر مباشرة في عينيَّ، ثمَّ قال بنبرة متقلِّبة: «هذه فكرة جيدة يا صديقي». من دون أن ينبس بكلمة أخرى، صعد في الرافعة، وأخذته إلى حيث أتيت للتوّ. ذهبت حول المتجر ووجدت سيمون.

«كيف حالك؟»

«الحمد لله».

«لقد جئت لأحييك أوّلاً، ولأدعوك للحضور وتناول الغداء معنا غداً الأحد. أنت وأسرتك بالطبع».

«عن طيب خاطر. أتحتفل بحريَّتك؟»

«لا، بزواجي. لقد وجدت امرأة. ماريا دو كالاو، ابنة خوسيه».

«أهنّئك من كلّ قلبي. كن سعيداً، أتمنّى لك السعادة، بصدق». صافحني بقوّة وأنا أغادر. في منتصف الطريق، وجدت ماريا، التي أتت لمقابلتي، ومن خلال إمساك أحدنا بالآخر من الخصر، ذهبنا معاً نحو «القلعة». سيكون والدها وأخواتها هناك غداً في نحو السّاعة العاشرة للمساعدة في تحضير الوجبة.

«هذا أفضل بكثير، لأنَّ العدد ازداد أكثر ممَّا كان متوقّعاً. وماذا قال لكِ والدكِ؟»

قال لي: «كوني سعيدة يا بنتي، لكن لا تقلقي بشأن المستقبل. أنا أعرف الرجال بمجرَّد النظر إليهم. الرجل الذي اخترتِه جيّد، لكنَّه لن يبقى هنا. ليس من الرجال الذين يرضون بحياة بسيطة كحياتنا».

«بمَ أجبتِه؟»

«أنّني سأفعل ما في وسعي لأمضي معك أطول وقتٍ ممكن».

«دعيني أقبّلك. أنت إنسان جميل يا ماريا. نحن نعيش الحاضر. المستقبل يقرِّر الباقي من حياتينا».

بعد أن أكلنا قليلاً، كان علينا الخلود إلى النوم، لأنَّه يتعيَّن علينا غداً النهوض لمساعدة كونشيتا في قتل الأرانب، وخبز الكعكة الكبيرة، والعثور على النبيذ، وما إلى ذلك. كانت هذه الليلة أكثر جمالاً وعاطفة وأسراً من الأولى. ماريا حقّاً جذَّابة. بسرعة كبيرة تعرف كيف تثير وتزيد المتعة. لقد مارسنا الحبَّ كثيراً، إلى درجة أنّنا غرقنا في نومنا ملتصقين أحدنا بالآخر.

كان الاحتفال ناجحاً نجاحاً باهراً. هنَّأنا خوسيه على حبّ أحدنا للآخر، وهمست شقيقات ماريا بأسئلة في أذنها - ممتلئة بالفضول. كان هناك

سيمون وأسرته الطيّبة، وألكسندر أيضاً، لأنّه وجد شخصاً آخر ينوب عنه في حراسة الكنز. كانت زوجته ساحرة، وجاء معهما صبيّ وفتاة يرتديان ملابس أنيقة. كانت الأرانب لذيذة، بالإضافة إلى الكعكة الضخمة، في شكل قلب. حتّى إنّنا رقصنا على أنغام المذياع والفونوغراف، وعزف أحد كبار السنّ على الأكورديون.

بعد احتساء الكثير من الخمور، تحدّثت إلى المحتالين القدامى، باللغة الفرنسيّة: «حسناً، بمَ كنتم تفكّرون؟ هل كنتم تعتقدون حقّاً أنّني سأفعل شيئاً ما؟»

قال شارلوت: «نعم يا صديقي. ما كنّا لنقول كلمة واحدة لو لم تكن قد طرحت الأمر بنفسك. إنّما، من المؤكّد تماماً أنّ لديك فكرة التخلّص من هذا الطنّ من الذهب، أليس كذلك؟ أجبنا بصراحة يا بابيون».

«أنت تعرف أنّني كنت أنوي الانتقام منذ ثلاثة عشر عاماً. اضرب ثلاثة عشر عاماً في ثلاثمئة وخمسة وستّين يوماً ثمّ بأربع وعشرين ساعة، وكلّ ساعة في ستّين دقيقة، فلن يكون لديك عدد المرّات التي أقسمت فيها على أن يدفعوا ثمن ما جرى لي. لذلك، لمّا رأيت تلك الكومة من الذهب في مثل هذا المكان، صحيح بما فيه الكفاية أنّني فكّرت في مثل هذا العمل».

«ماذا بعد؟»، قال سيمون.

ثمّ نظرت إلى الموقف من كلّ جانب وشعرت بالخجل. كنت أخاطر بتدمير سعادتكم جميعاً. جئت لأرى أنّ سعادتك هذه - السعادة التي أتمنّى أن أحصل عليها ذات يوم - كانت تساوي أكثر بكثير من أن يكون الإنسان غنياً. لذا اختفى إغراء قطع الذهب تماماً. يمكنك أن تأخذ كلامي على محمل الجدّ: لن أفعل أيّ شيء هنا».

قال شارلوت وهو يبتسم ابتسامة عريضة من الأذن إلى الأذن: «ها أنت ذا إذاً». «والآن، يمكننا جميعاً الخلود إلى النوم بسهولة. تحيا بابيون! تحيا ماريا! يعيش الحبّ والحريّة! وتحيا الحكمة! كنّا رجالاً أقوياء، نحن رجال أقوياء. الآن نحن جميعاً على رأي واحد، بما في ذلك بابيون».

ها قد مرّت ستة أشهر منذ أن أتيت إلى هنا. كان شارلوت على حقّ. في يوم الحفل، كنت قد فزت في المعركة الأولى ضدّ شوقي إلى إخراج شيء ما. كنت أنجرف بعيداً عن «مسار العفونة» منذ أن هربت. الآن، بفضل مثال أصدقائي، حقّقت انتصاراً مهماً على نفسي: لقد تخلّيت عن فكرة الحصول على هذا المليون دولار. كان هناك شيء واحد مؤكّد: لن يكون من السهل على أيّ وظيفة أخرى أن تغريني، الآن بعد أن تخلّيت عن ثروة كهذه. ومع ذلك، لم أكن في سلام تامّ مع نفسي. كان عليّ أن أجني أموالي بطريقة أخرى غير أن أقومَ بسرقتها، وهذا عادل بما فيه الكفاية؛ لكن لا يزال يتعيّن عليّ الحصول على ما يكفي للذهاب إلى باريس لتصفية حساباتي. وكان ذلك سيكلّفني.

بوم بوم، بوم بوم، بوم بوم: طوال الوقت تمتصّ مضخّاتي المياه التي تتدفّق إلى صالات العرض. كانت أكثر سخونة من أيّ وقت مضى. كلّ يوم، كنت أقضي ثماني ساعات هناك في أحشاء المنجم. في هذا الوقت، كنت أعمل من السّاعة الرابعة صباحاً حتّى الظهر. لمّا خرجتُ، كان عليّ الذهاب إلى منزل ماريا في إل كالاو. كان بيكولينو موجوداً هناك مدّة شهر، كي يتمكّن الطبيب من رؤيته كلّ يوم. كان يتلقّى العلاج، وكانت ماريا وأخواتها يعتنينَ به على نحو رائع. لذلك، كنت سأقابله، وسأمارس الحبّ مع ماريا: لقد مرَّ أسبوع مُذ رأيتها، وأردتها جسديّاً وعقليّاً. وجدت شاحنة تقلّني.

كان المطر يتساقط عندما فتحتُ الباب في نحو السّاعة الواحدة. كانوا جميعاً جالسين حول الطاولة، باستثناء ماريا، التي بدت كأنَّها تنتظر بالقرب من الباب.

«لماذا لم تأتِ من قبل؟ لقد مرَّ أسبوع. إنَّه وقت طويل. أنت مبتلّ. تعالَ وغيّر ثيابك على الفور».

أخذتني إلى غرفة النوم، وخلعت ملابسي وجفَّفتني بمنشفة كبيرة. قالت لي: «استلقِ على السرير». وهناك مارسنا الحبَّ، ولم نهتمَّ بالآخرين الذين كانوا ينتظروننا على الجانب الآخر من الباب. خلدنا إلى النوم، وكانت إزميرالدا، شقيقتها ذات العينين الخضراوين، هي التي أيقظتنا برفق في وقت متأخّر من بعد ظهر ذلك اليوم، عندما كان الليل قد حلَّ.

لمَّا تناولنا العشاء معاً، اقترح عليَّ خوسيه القبطان الذهاب في نزهة.

«إنريكي، لقد كتبتَ إلى المسؤول الإداريّ تطلب إليه إقناع كاراكاس بوضع حدٍّ للإقامة الإجباريَّة، هل هذا صحيح؟»

«نعم، يا خوسيه».

«هل وصل الردُّ من كاراكاس؟»

«جيّد أم سيئ؟»

«جيّد. لقد انتهى أمر الإقامة الإجباريَّة الخاصّ بك».

«هل تعلم ماريا؟»

«نعم».

«ماذا قالت؟»

«قالت ما تقوله على الدوام، إنَّك لن تبقى هنا». بعد وقفة قصيرة سألني قائلاً: «متى تعتقد أنَّك ستغادر؟»

على الرَّغم من أنَّني شعرت بهذه الأخبار، فقد أجبت على الفور: «غداً. قال سائق الشاحنة الذي أحضرني إنَّه ذاهب إلى سيوداد بوليفار غداً».

حنى خوسيه رأسه. «يا صديقي العزيز، هل أنت غاضب منّي؟»

«لا، إنريكي. لقد قلت دائماً إنَّك لن تبقى هنا. لكنَّه أمر محزن لماريا - ولي أيضاً».

«سأذهب وأتحدَّث إلى السائق إذا كان بإمكاني العثور عليه».

لقد وجدته بالفعل: كان علينا المغادرة في اليوم التالي في تمام الساعة التاسعة. نظراً لأنَّه كان لديه بالفعل راكب واحد، كان بيكولينو يسافر في الكابين وأنا على البراميل الحديديَّة الفارغة خلفي. أسرعت إلى رئيس الإدارة، الذي بادر إلى تسليم أوراقي، وكان رجلاً طيباً بامتياز، قدَّم لي بعض النصائح، وتمنَّى لي حظاً سعيداً. ثمَّ قمت بجولة لرؤية كلّ من قدَّم لي شتَّى أنواع الصداقة والمساعدة.

أوّلاً إلى كاراتال، حيث التقطت الأشياء القليلة التي أمتلكها. تعانقنا أنا وشارلوت، وتأثرنا بشدّة. بكت فتاته السوداء. شكرتها على حدٍّ سواء على كرم الضيافة.

«لا شيء يا صديقي. كنت ستفعل الشيء نفسه معي. حظاً سعيداً. وإذا ذهبت إلى باريس، فقل مرحباً لمونمارتر عنّي».

«سأكتب».

ثمَّ الأصدقاء القدامى؛ سيمون، ألكسندر، مارسيل وأندريه. أسرعت إلى كالاو، وودَّعت جميع عمّال المناجم والمنقّبين عن الذهب والماس، وزملائي العمّال. كلهم، رجالاً ونساءً، ودَّعوني بكلمات من القلب، متمنين لي حظاً

سعيداً. لقد أثَّرت كلماتهم فيَّ كثيراً، ورأيت على نحو أكثر وضوحاً أنّه إذا كنت قد أقمت مع ماريا، كان من الضروريّ أن أكون على غرار شارلوت والآخرين - لم أكن لأتمكَّن قطّ من انتزاع نفسي بعيداً عن هذه الجنَّة.

كان أصعب وداع هو وداعي لماريا. كانت ليلتنا الماضية مزيجاً من الحبِّ والدموع، أكثر عنفاً من أيِّ شيء عرفناه من قبل. حتَّى مداعباتنا حطَّمت قلوبنا. كان الأمر المروِّع أنَّني اضطررت إلى جعلها تفهم أنَّه لن يكون هناك أمل في عودتي. من يستطيع أن يقول ما سيكون عليه مصيري عندما أنفِّذ خططي؟

أيقظني شعاع من ضوء الشمس. كانت الساعة الثامنة بالفعل. لم يكن لديّ قلب للبقاء في الغرفة الكبيرة، ولا حتّى لحظات قليلة لاحتساء فنجان من القهوة. كان بيكولينو جالساً على كرسيّ، والدموع تنهمر على وجهه. كانت إزميرالدا قد غسلته وألبسته. لقد بحثتُ عن أخوات ماريا، لكنّي لم أجدهنَّ. لقد اختبأنَ حتّى لا يشاهدنَني أرحل. لم يكن هناك سوى خوسيه واقفاً عند المدخل. أمسك بي، إذ أمسك يدي بإحدى يديه، ووضع الأخرى حول كتفي، كما تأثَّرت أنا نفسي. لم أستطع التحدُّث، وقال لي: «لا تنسَنا؛ لن ننساك أبداً. وداعاً: ليرافقك الله».

مع كلّ أغراضه النظيفة المطوية بعناية في حزمة، بكى بيكولينو بمرارة، وحركاته وأصواته الصاخبة التي نطق بها تعبّر عن حزنه لعدم قدرته على إخراج كلّ كلمات الشكر والامتنان التي يشعر بها في قلبه. قدته بعيداً.

حملنا أمتعتنا، ووصلنا إلى مكان السائق. خروج رائع من المدينة، حسناً: تعطَّلت شاحنته؛ لا يمكننا المغادرة اليوم. كان علينا انتظار مكربن جديد. ما من حلّ آخر - لقد عدت إلى ماريا مع بيكولينو. يمكنك أن تتخيَّل الصرخات عندما رأونا نعود.

«حسناً فعل الله، إنريكي! اترك بيكولينو هنا ونجوّل في القرية، في حين أحضّر الطعام». وأضافت ماريا قائلةً: «إنَّه شيء غريب. لكن يمكننا القول إنَّ مصيرك ليس في كاراكاس».

بينما كنتُ أتجوّل، فكَّرتُ في ملاحظة ماريا هذه. لقد أقلقتني. لم أكن أعرف كاراكاس، مدينة كبيرة، لكن الناس تحدَّثوا عنها، ويمكنني أن أتخيَّل كيف كانت. جذبتني الفكرة بالتأكيد. إنَّما، ما إن وصلت إلى هناك، ماذا أفعل وكيف يمكنني فعلُ ذلك؟

مشيت ببطء عبر ميدان كالاو ويدايَ خلف ظهري. كانت الشمس متوهِّجة. ذهبت إلى المندرو، شجرة ضخمة مورقة للغاية، للاحتماء من الحرارة الشديدة. تحت الظلِّ كان هناك بغَّالان، ورجل عجوز صغير القامة. لقد لاحظت منخل المنقّب عن الماس وحوض التنقيب عن الذهب، وهو نوع من القبَّعة الصينيَّة التي يستخدمونها في غسل الطين الحامل للذهب. وبينما كنت أحدِّق إلى هذه الأشياء - كانت لا تزال جديدة لديَّ - واصلت التفكير. كانت أمامي هذه الصورة التوراتيَّة لحياة هادئة ومسالمة بلا أصوات باستثناء أصوات الطبيعة وطريقة الحياة الأبويَّة؛ وفكَّرت في ما يجب أن تكون عليه الحال في تلك اللحظة بالذات في كاراكاس، العاصمة المزدحمة التي جذبتني. كلّ الأوصاف التي سمعتها تحوَّلت إلى صور دقيقة. بعد كلِّ شيء، لقد مرَّت أربعة عشر عاماً منذ أن رأيت مدينة كبيرة! بما أنَّني أستطيع الآن أن أفعل ما أشاء، لم يكن هناك شكٌّ في ذلك - كنت سأصل إلى هناك، وبأسرع ما يمكن.

الفصل الثالث

جوجو لا باس

كان العجوز صغيرُ القامة يغنّي باللغة الفرنسيّة! وأنا كنت أنصت.

أسماك القرش القديمة موجودة بالفعل

لقد شموا رائحة جسد رجل.

واحد منهم يمضغ ذراعه مثل تفاحة،

آخر يأكل جذعه وترالالا

الأسرع يحصل عليه، والبقية لا نصيب لهم.

وداع المحكوم عليه، يحيا القانون!

لقد صُدمت. كان يغنّي ببطء، مثل غناء القدّاس. كان لـ «ترا لالا» فرح ساخر، وكلمة «يحيا القانون» ممتلئة بالسخرية من عالم باريس السفليّ: بدا الأمر كأنّه حقيقة لا جدال فيها. لكن، كي تشعر بالسخرية الكاملة من ذلك، يجب أن تكون هناك.

نظرت عن كثب إلى الرجل: يكاد لا يبلغ طوله خمس أقدام. واحد من أكثر الشخصيّات الرائعة التي صادفتها على الإطلاق. شعر أبيض كالثلج مع شعيرات رماديّة طويلة مقطوعة على الحواف. جينز أزرق؛ حزام جلديّ كبير وواسع؛ إلى اليمين، غمد طويل بمقبض منحنٍ يخرج منه عند ارتفاع الفخذ. ذهبت إليه. لم يكن يرتدي قبّعة - كانت ملقاة على الأرض - لذا

استطعت أن أرى جبهته العريضة، ملطَّخة بلون أحمر أغمق من سمرة قرصانه القديم. كان حاجباه طويلين وسميكين إلى درجة أنَّه كان عليه بالتأكيد تمشيطهما. تحتهما، عينان فولاذيتان رماديتان وخضراوان. لم أتقدَّم بأربع خطوات قبل أن يقول لي، «لقد أتيت من القرقرة، أدعى لا باس».

«حقّاً. اسمي بابيون».

«أنا جوجو لا باس.» مدَّ يده وأخذ يدي، تماماً كما ينبغي أن يكون بين الرجال، ليس من الصعب أن تسحق أصابعك كما تفعل المواجهات، ولا مترهلاً جدّاً، مثل المنافقين والجنيات. قلت له: «دعنا نذهب إلى الحانة ونتناول شراباً. على حسابي».

«لا. تعالَ إلى منزلي على الطريق، البيت الأبيض. إنَّه يسمّى بيلفيل، حيث كنت أعيش عندما كنت طفلاً. هناك يمكننا التحدّث بهدوء».

كان المكان نظيفاً في الدّاخل – هذا ما تفعله زوجته الشابَّة، كانت صغيرة جدّاً؛ ربَّما في عمر الخامسة والعشرين. هو - والله أعلم – في الستين، في الأقلّ. كانت تدعى لولا، فنزويليَّة، داكنة اللون.

قالت لي بابتسامة لطيفة: «على الرّحب والسّعة».

«شكراً».

قال جوجو: «اثنان من شراب الأنيسيت. أحضر لي كورسيكيّ مثني زجاجة من فرنسا. سترى ما إذا كان ذلك جيداً أو لا».

صبَّتها لولا، واحتسى جوجو ثلاثة أرباع كأسه في جرعة واحدة.

«حسناً؟»

«إذاً، ماذا؟ أنت لا تعتقد أنَّني سأخبرك قصَّة حياتي، أليس كذلك؟»

«حسناً. لكن اسم جوجو لا باس، ألا يعني لك شيئاً؟»

«لا».

«كيف يمكننا أن ننساك بسرعة! لم يأتِ أحد على بعد أميال منّي لرمي السبعة والأحد عشر بالنرد الذي لمسه للتوّ - لم يتمَّ تحميله بالطبع. لم يكن ذلك بالأمس، بالتأكيد. لكن بعد كلّ شيء، الرجال أمثالنا، يتركون آثاراً وأساطيرَ. والآنَ، وفقاً لما قلته لي، في غضون بضع سنوات، نسي كلَّ شيء. ألم يخبرك نذل واحد عنّي؟» بدا غاضباً بشدّة.

«بصراحة، لا».

مرَّة أخرى، شعرت بالملل في أحشائي. «لم تكن في حالة اضطراب لفترة طويلة؛ لم يكن لديك وجه على الإطلاق».

«ثلاثة عشر عاماً، إلدو رادو. هل تعتقد أنَّ هذا لا شيء؟»

«إنَّه غير ممكن. نادراً ما يجري وضع علامة عليك، ولا يمكن لخداع آخر إلَّا أن يخبرك من أين أتيت. حتّى مع ذلك، فإنَّ المخادع الذي لم يكن قارئاً ذكيّاً للوجه قد يخطئ. لقد كان الأمر سهلاً، أليس كذلك؟»

«لم يكن الأمر بهذه السهولة: الجزر؛ المنعزل».

«الكرات، يا رجل، الكرات! الجزر - إنَّه مخيّم عطلة! كلّ ما ينقصه هو كازينو. بالنسبة إليك، كانت المستعمرة العقابيَّة تعني نسيم البحر، وجراد البحر، وليس البعوض، وصيد الأسماك، وعلاجاً حقيقيّاً بين الحين والآخر».

«لا يزال، كما تعلم...».

«بلاه بلاه بلاه: لا تحاول أن تخدعني. أنا أعرف كلَّ شيء. لم أكن في الجزر، لكنني سمعت عنها».

هذا الرجل، ربَّما كان رائعاً، لكن من المحتمل أن تتحوَّل الأمور إلى حالة سيّئة بالنسبة إليه: شعرت أنَّ أعصابي تُستفزّ بسرعة. وتابع: «السجن، السجن الحقيقيّ، كان على بعد أربعة وعشرين كيلومتراً. هذا لا يقول لك شيئاً؟ لا، ليس كذلك، وهذا أمر مؤكَّد. مع ملامحك الخاصَّة بك، من المؤكّد أنَّك لم تغضب قطّ في تلك الأجزاء. حسناً يا صاحبي. مئة رجل، كلّ واحد منهم مصاب بشجاعة. بعضهم يقف، وبعضهم مستلقٍ، وبعضهم الآخر يئنُّ مثل الكلاب. هناك شجيرة أمامهم، مثل الحائط. لكنَّهم ليسوا هم من سيقطعون الأدغال: الغابة ستقوم بالقطع. هذا ليس معسكر عمل.كما تقول إدارة السجن، إنّه فندق صغير مخفيّ بشكل ملائم في غابة غويانا – حيث يمكنك أن تلقي بالرجال فيه ولن يزعجوك أبداً مرّة أخرى. تعالَ، بابيون، لا تحاول أن تبهرني بجزرك وعزلتك. ليس لديك أيّ شيء من مظهر كلب مع كلّ الروح التي تمَّ ضربها منه، ولا الوجه المجوَّف للجلد والعظام، التي تبدو عليها آثار عقوبة السجن مدى الحياة، ولا الاتّصال الهاتفيّ الذي تراه على كلّ هؤلاء المساكين الذين هربوا من هذا الجحيم من خلال بعض المعجزة - الآلهة المؤسفة التي تبدو كأنَّها قد تمَّ العمل عليها بإزميل لمنحها وجه رجل عجوز على رأس شاب. لا يوجد شيء من هذا القبيل فيك على الإطلاق. لذلك، ليس هناك خطأ محتمل في تشخيصي: بالنسبة إليك، كان السجن يعني عطلة في الشمس».

كان يتذمَّر مراراً وتكراراً، هذا اللقيط الصغير العجوز. تساءلت كيف سينتهي اجتماعنا.

«بالنسبة إليّ، كما قلت لك، كان هذا يعني الجوف الذي لا يخرج منه أحد في قيد الحياة - الزحار الأميبي، وهو المكان الذي تتخلّص منه تدريجياً.

بابيون، يا مسكين: أكرّرها لك: الأصعب، لم تكن تعرف حتّى ما هو. يا صديقي، هذا الوصف صحيح أيضاً، لم أستطع حتّى فعل ذلك بنفسي. لكنّي قرأت ألبرت لوندر، وقد كتبه تماماً كما أخبرتك للتوّ».

نظرت عن كثب إلى هذا الرجل الصغير النشط على نحو رهيب، حيث كنت أعمل على إرسال قبضتي إلى وجهه، ثمَّ تحوَّلت في الحال إلى الخلف وقرَّرت تكوين صداقات. لا جدوى من العمل: قد أحتاج إليه. «أنت محقّ، يا جوجو. لم تكن مهمّتي كبيرة، لأنّني لائق جدّاً، يتطلَّب الأمر شخصاً ذا دراية، على غرارك، لمعرفة من أين أتيت».

«حسناً، نحن متفقان، إذاً. ماذا تفعل الآن؟»

«أنا أعمل في منجم ذهب لا موكوبيا. أتقاضى ثمانية عشر بوليفاراً في اليوم. لكن لديَّ تصريح للذهاب إلى أيِّ مكان أحبّ؛ لقد ألغوا قرار إقامتي الإجباريَّة».

«أراهن أنَّك تريد التوجّه إلى كاراكاس والعودة إلى حياتك القديمة مرَّة أخرى».

«أنت محقّ: هذا ما أريد أن أفعله بالضبط».

«لكنَّ كاراكاس مدينة كبيرة؛ لذا فإنّ محاولة التخلّص من أيِّ شيء هناك تعني خطراً كبيراً. أنت نادراً ما تخرج، وتريد العودة إلى الداخل مرَّة أخرى؟»

«لديَّ فاتورة طويلة للأوغاد الذين سبَّبوا لي كلَّ هذه المتاعب - الخنازير، الشهود، المدَّعي العامّ. فترة ثلاثة عشر عاماً لجريمة لم أرتكبها قطّ: الجزر، بغضّ النظر عن رأيك فيها، وانفرادي في سان جوزيف، حيث مررت

بأبشع أنواع التعذيب التي يمكن للنظام أن يفكِّر فيها. ولا تنسَ أنّني كنت في الرابعة والعشرين فقط عندما عمدوا إلى تأطيري».

«يا للجحيم: لقد سرقوا كلَّ شبابك. بريء، بريء حقّاً».

«بريء يا جوجو. أقسم بأمّي الميتة».

«حسناً، أرى أنَّ ذلك ثقيل على صدرك. إنّما، ليس عليك الذهاب إلى كاراكاس إذا كنت تريد تسوية حساباتك - تعالَ معي».

«إلى أين؟»

«الماس، يا رجل، الماس! هنا الحكومة سخيَّة: هذا هو البلد الوحيد في العالم حيث يمكنك التنقيب في أيِّ مكان تريده بحثاً عن الذهب أو الماس. هناك شرط واحد فقط: لا يمكنك استخدام الآلات. كلّ ما هو مسموح لك باستخدامه: المجرفة والفأس والمصفاة».

«وأين هذه إلدو رادو الحقيقيَّة؟ ليس الكائن الذي تركته للتوّ، آمل ذلك؟»

«بعيدة جدّاً في الأدغال. يحتاج البغل إلى أيّام عدَّة ليصل، ثمَّ يحتاج إلى زورق، ثمَّ يكمل سيراً على الأقدام، والمعدَّات محمولة على الظهر».

«ليس في المتناول».

«حسناً، بابيون، إنَّها الطريقة الوحيدة للحصول على كيس من العجين. تجد قنبلة واحدة فقط، وها أنت ذا رجل ثريّ - رجل لديه نساء يدخنَّ، ويطلق الريح في الحرير. أو، إذا كنت تحبّ ذلك بهذه الطريقة، يمكن لرجل تحمّل تكلفة الذهاب وتصفية حساباته».

حسناً، هنا، لم يتوقَّف جوجو. عيناه تشعّان. كان مشغولاً ولديه شغف كبير. قال لي إنّ القنبلة - وقد سمعتها بالفعل في المنجم - كانت كومة صغيرة ليست أكبر من منديل الفلّاحين، كومة حيث يوجد، ولا نعلم بناءً على أيّ سرٍّ من أسرار الطبيعة، مئة، مئتان، خمسمئة، حتَّى تمَّ تجميع آلاف أقراط الماس معاً. إذا وجد المنقّب قنبلة في زاوية بعيدة، فلن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً قبل أن يبدأ الرجال في القدوم من الشمال والجنوب والشرق والغرب، كما لو أنَّ بعض أشجار العنب أخبرتهم. دزينة، ثمَّ مئة، ثمَّ ألف. لقد شمُّوا الذهب أو الألماس بالطريقة التي يشمُّ بها الكلب الجائع رائحة عظم أو قطعة قديمة من اللحم. جاؤوا يتدفَّقون من كلِّ نقطة من البوصلة.

بدؤوا يأتون من الشمال والجنوب والشرق والغرب، من جميع الجنسيّات. كان الفنزويليون في المقدّمة. رجال خشان الطباع، دون عمل، كان عليهم فعل أيِّ شيء للحصول على اثني عشر بوليفاراً في اليوم لبعض أصحاب العمل. سئموه، ثمَّ سمعوا نداء الغابة. لم يرغبوا في أن تستمرَّ أسرهم في العيش في كوخ الأرانب، لذلك ذهبوا، وهم يعرفون جيّداً ما الذي كانوا فيه - كانوا يذهبون إلى العمل منذ بزوغ الفجر حتَّى صباح اليوم في مناخ قاس وجوّ شديد القساوة، حيث يحكمون على أنفسهم بسنوات عدَّة من الجحيم. سيكون لدى زوجاتهم، مع كلّ ما يعيشونه، منازل صغيرة مضيئة وواسعة، وسيُطعم الأطفال ويُلبَسوا على نحو صحيح. كما يصبح بإمكانهم الذهاب إلى المدرسة - كي يستمرّوا في تعليمهم، ربَّما.

«إذاً، هذا ما يتمُّ الحصول عليه من خلال إنتاج قنبلة؟»

«لا تكن أحمق يا بابيون. الرجل الذي يعثر على قنبلة لا يعود أبداً إلى المنجم. يصبح ثريّاً حتّى آخر يوم في حياته، ما لم يكن مجنوناً للغاية، إلى

درجة أنَّه يغذّي بغله بمئات الأوراق النقديَّة المبلَّلة بالكوميل أو اليانسون. لا، الرجل الذي أتحدَّث عنه، هو رجل عاديّ، يجد القليل من الماس كلَّ يوم، على الرّغم من أنَّها قد تكون صغيرة جداً جدّاً. هذا يعني عشرة أو خمسة عشر ضعفاً ممَّا يحصل عليه في المدينة. ثمَّ مرَّة أخرى، يعيش حياة صعبة نوعاً ما، ولا يمكنه الحصول سوى على ما هو ضروريّ قدر الإمكان؛ لأنَّك تدفع مقابل كلّ شيء من الذهب أو الماس. لكن، إذا كان يعيش بجدّ، فلا يزال بإمكانه الحفاظ على أسرته أفضل من ذي قبل».

«ماذا عن الآخرين؟»

«إنَّهم يأتون من كلّ الأجناس والأشكال؛ برازيليّون ورجال من غيانا البريطانيَّة وترينيداد: كلّهم يهربون من الاستغلال في المصانع أو مزارع القطن أو أيِّ شيء آخر. ثمَّ هناك المغامرون الحقيقيّون، أولئك الذين لا يمكنهم التنفُّس إلَّا عندما لا يطوّقهم الأفق، أولئك الذين سيهتمّون دائماً بكلّ شيء للفوز بالجائزة الكبرى - الإيطاليّون والإنجليز والإسبان والفرنسيّون والبرتغاليّون - رجال من جميع الأشكال. أيُّها الأحمق، لا يمكنك أن تتخيَّل الأنواع التي تأتي مسرعة إلى هذه الأرض الموعودة حيث السيّد المسيح، ربَّما ملأها بأسماك الضاري المفترسة والأناكوندا والبعوض والملاريا والحمّى الصفراء، لكنَّه أيضاً نثر فيها الذهب والماس والتوباز والزمرد، وما إلى ذلك. هناك سرب من المغامرين من كلّ مكان في العالم، وهم يقفون هناك في حفر ممتلئة بالماء، قد تصل إلى بطونهم، يعملون بجدّ إلى درجة أنَّهم لا يشعرون أبداً بالشمس أو البعوض أو الجوع أو العطش، يحفرون ويطرحون الأرض اللزجة ويغتسلون مراراً وتكراراً، دون كلل من خلال الغربال للعثور على الماس. ثمَّ مرَّة أخرى، فنزويلا لها حدود شاسعة،

وهناك لن تقابل أيَّ شخص يطلب إليك تقديم أوراقك. لذلك، ليس هناك سحر الماس فقط، لكن يمكنك التأكّد من أنَّ الخنازير ستتركك بسلام. مكان مثاليّ للتنفّس ولالتقاط أنفاسك إذا ما كنت هارباً».

توقّف جوجو. لم يكن هناك شيء قد نسيه: الآن عرفت القصّة بأكملها. فكَّرت بسرعة ثمَّ قلت: «اذهب وحدك يا جوجو. لا أستطيع أن أرى نفسي أعمل مثل حصان طروادة. يجب أن تكون ممسوساً - عليك أن تؤمن بقنبلتك كما لو كنت تؤمن بالله القدير لتحمل مثل هذا النوع من الجحيم. نعم، اذهب بنفسك. سأبحث عن قنبلتي في كاراكاس».

مرّة أخرى حملق بي بعينيه القاسيتين من الداخل. «فهمت؛ أنت لم تتغيَّر. هل تريد أن تعرف ما أفكِّر فيه حقاً؟»

«تفضَّل».

«أنت تغادر كالاو لأنّك مريض في التفكير بكومة الذهب الموجودة في محميّة لا موكوبيا. أهذا صحيح أم لا؟»

«صحيح».

«أنت تتركها بسلام، لأنَّك لا تريد أن تفسد الأمور لصالح العجائز الذين يعيشون هنا في التقاعد. أصحيح أم خطأ؟»

«صحيح».

«وأنت تعتقد أنّه لإيجاد القنبلة هناك حيث قلت، فإنَّ الأمر يتعلّق بالكثيرين، ويجري اختيار قليل منهم؟ صحيح أم خطأ؟»

«صحيح».

«هل نفضّل أن نجد القنبلة في كاراكاس، على أتمّ الجهوزيّة، أو الماس المقطوع بالفعل - الذي تجده في متجر جواهر أو لدى تاجر جملة للأحجار الكريمة؟»

«ربَّما، لكنّي لست متأكّداً. الموضوع قابل للتفكير».

«أقسم بالله، أنت مغامر حقيقيّ؛ ولا شيء يمكن أن يشفيك».

«هذا ما قد يكون عليه الأمر. إنَّما، لا تنسَ هذا الشيء الذي يأكلني طوال الوقت - هذا الانتقام. لذلك أعتقد حقّاً أنَّ بإمكاني فعل أيِّ شيء على الإطلاق».

«المغامرة أم الانتقام، ما زلت في حاجة إلى المال. لذا تعالَ معي إلى الأدغال. إنَّه لأمر رائع، سترى».

«مع معول ومجرفة؟ هذا العمل ليس لي».

«هل أصبت بالحمّى يا بابيون؟ أو أنّك شعرت منذ الأمس أنّه يمكنك الذهاب إلى حيث تريد؟»

«أنا لا أشعر بهذه الطريقة».

«لقد نسيت الشيء الرئيس - اسمي: جوجو لا باس».

«حسناً، أنت مقامر محترف؛ لا أفهم ما علاقة ذلك بفكرة العمل بعيداً مثل الحيوانات».

قال لي ضاحكاً: «ولا أنا».

«ماذا؟ إن لم نذهب إلى المناجم لاستخراج الماس، فمن أين يمكننا الحصول عليه، إذاً؟»

«من جيوب عمّال المناجم».

«كيف؟»

«بلعب الورق كلَّ ليلة، وفي بعض الأحيان بالخسارة».

«فهمت، أيُّها الخبيث. متى نغادر؟»

«انتظر دقيقة».

كان سعيداً جدّاً بتأثير كلماته. وقف ببطء، وسحب الطاولة إلى منتصف الغرفة، وبسط بطانيّةً عليها وأخرج ستة أزواج من النرد. «انظر جيّداً». فحصتها بعناية شديدة. ليست ثقيلة.

«لا أحد يستطيع أن يقول إنَّ أحجار النرد هذه ليست صحيحة، أليس كذلك؟»

«لا أحد».

أخذ مقياساً من حافظة محسوسة، وأعطاني إيّاه قائلاً: «قس».

حُشيَ أحد الجوانب وصُقل بعناية، ما قلَّل من حجمه ليصبحَ أقلَّ من عُشر المليمتر. كلّ ما يمكن أن تراه هو اللمعان.

«حاول رمي سبعة أو أحد عشر».

رميت النرد. لا سبعة ولا أحد عشر.

«حان دوري».

تعمَّد جوجو عمل تجعّد بسيط في البطانيّة. أمسك النرد بأطراف أصابعه.

قال لي: «لاحظ، هذه هي الحيلة، ثمَّ أخلط النرد، هناك سبعة! وهناك أحد عشر! وأحد عشر! وسبعة! هل تريد ستة؟ بوم، هناك ستة! ستة من خلال أربعة واثنين أو خمسة وواحد؟ انظر. هل السيّد راضٍ؟»

كنت منبهراً تماماً. لم أرَ مثل هذا الشيء من قبل: لقد كان الأمر غيرَ عاديّ. لا يمكنك عمل أدنى خطوة خطأً.

«اسمع، منذ البداية وأنا أعمل على الماضي الإنكليزيّ. لمَّا كنت في الثامنة من عمري، بدأت العمل في البوت، حيث استخدمت أول أسلحتي. لقد سمحت لنفسي برمي نرودٍ كهذه، هل تعلم أين؟ على طاولة هراء في الميناء الشرقيّ، في أيّام روجر سول وشركاه».

«أتذكَّر، تماماً، لقد كان هناك بعض العملاء الأقوياء للغاية».

«ليس عليك أن تخبرني. ومن النظاميين، بالإضافة إلى الرجال الأقوياء والقوادين واللصوص، كان هناك رجال شرطة مشهورون مثل جوجو لو بو، شرطيّ قوّاد من لا مادلين، ومتخصصون من فرقة القمار. حسناً، وأخذهم مثل البقيّة. لذلك ترى أنّه لا توجد طريقة للخسارة إذا ما أطلقت النار على هذه الفضلات في معسكر عمّال المناجم».

«حقيقيّ للغاية».

«ملاحظة: المكانان في غاية الخطورة. في الميناء الشرقيّ، كان المحتالون سريعين في إطلاق النار على غرار عمّال المناجم، مع فارق واحد فقط: في باريس تطلق وتهرب بسرعة. في المنجم، تطلق النار وتبقى. لا توجد خنازير. يضع عمّال المناجم قوانينهم الخاصّة».

توقَّف، أفرغ كأسه ببطء، واستمرَّ في الحديث: «حسناً، الآن، بابيون، هل ستأتي معي؟»

فكَّرت للحظة. لم أستغرق في التفكير طويلاً. لقد أغرتني المغامرة. كانت محفوفة بالمخاطر بلا شكّ. ليس من المعقول أن يكون عمّال المناجم هناك

عبارة عن فرسان جوقة. إنّما، قد تكون هناك أموال طائلة يمكن تحصيلها. تعالَ، يا بابيون، وسألته مرّة أخرى: «متى سنغادر؟»

«بعد ظهر غد، إذا أردت: عند الساعة الخامسة، بعد انقضاء حرارة النهار. سيمنحنا ذلك الوقت لجمع الأشياء التي نريدها. سنسافر مع بداية الليل. هل لديك مسدّس؟»

«لا».

«هل لديك سكّين جيّد؟»

«لا أملك سكيناً، أيضاً».

«لا يهمّ. سأعتني بذلك. إلى اللقاء».

عدت إلى المنزل أفكّر في ماريا. من المؤكّد أنّها تفضّل الذهاب إلى الأدغال بدلاً من الذهاب إلى كاراكاس. سأترك بيكولينو معها. وبعد ذلك، ابتداءً من الغد سأبدأ رحلتي نحو الماس! وسبعة! وأحد عشر!... كنت هناك بالفعل؛ كلّ ما كان عليّ فعله هو تعلُّم الأرقام باللّغات الإسبانيّة والإنجليزيّة والبرازيليّة والإيطاليّة. أمّا بالنظر إلى البقيّة، فنرى لاحقاً.

لقد وجدت خوسيه في المنزل. قلت له إنّني غيّرتُ رأيي، وسأتخلّى عن فكرة الذهاب إلى كاراكاس وأؤجّلها إلى وقت آخر. في الوقت الحالي سأذهب مع رجل فرنسيّ عجوز ذي شعر أبيض يُدعى جوجو إلى مناجم الماس.

«بأيِّ صفة ستذهب معه؟»

«كشريك له بالطبع».

«هو دائماً يعطي شركاءه نصف مكاسبه».

«هذه هي القاعدة. هل تعرف رجالاً عملوا معه؟»

«ثلاثة».

«هل كسبوا كثيراً من المال؟»

«لا أدري، بالتأكيد. كلّ واحد منهم قام بثلاث أو أربع رحلات».

«وماذا بعد تلك الرحلات الثلاث أو الأربع؟»

«بعد؟ لم يعودوا قطّ».

«لِمَ لا؟ هل استقرّوا هناك في المناجم؟»

«لا. لقد ماتوا».

«هل هذا صحيح؟ حمّى؟»

«لا. قتلهم عمّال المناجم».

«آهٍ. يجب أن يكون جوجو رجلاً محظوظاً، كونه ينجو على الدوام».

«نعم. لكنَّ جوجو ذكيّ للغاية. لم يربح كثيراً بنفسه أبداً: إنَّه يعمل حتَّى يربح شريكه».

«حسناً. إذاً، فالرجل الآخر هو مَن في وجه الخطر. ليس هو. من الأفضل معرفة هذا الأمر. شكراً يا خوسيه».

«لن تذهب الآن بعد أن أخبرتك بذلك، أليس كذلك؟»

«سؤال أخير، أعطِني إجابة مباشرة: هل هناك فرصة للعودة مع كثير من المال بعد رحلتين أو ثلاث؟»

«بالتأكيد».

«لذا جوجو غنيّ. لماذا يعود إلى هناك إذاً؟ رأيته يحمِّل البغال».

«لقد قلت لك، في المقام الأول، بأيِّ شيء. ثانياً، من المؤكّد أنّه لم يتكلّف شيئاً. تلك البغال ملك والده. لقد قرَّر الذهاب لأنّه التقاك».

«إنَّما، ماذا عن الأشياء التي كان يحمِّلها، أو يبدو أنَّه مستعدّ لتحميلها؟»

«مَن قال لك إنَّها تعود إليه؟»

«حسناً، حسناً. هل من نصائح أخرى لديك؟»

«لا تذهب».

«هل من نصيحةٍ أخرى. لقد اتَّخذت قراري في الذهاب. ماذا بعد؟»

حنى خوسيه رأسه كما لو كان يفكّر. فكَّر ملياً. لمَّا رفع رأسه، كان وجهه مشرقاً. كانت عيناه تتألقان بالخبث، وكان يستخلص كلماته ببطء، فقد قال: «اسمع النصيحة من رجل يعرف هذا العالم بكلِّ أبعاده: في كلِّ مرَّة تكون هناك لعبة كبيرة، لعبة كبيرة حقيقيَّة - حينما تكون هناك كومة من الماس أمامك وكلّ شيء عند نقطة الغليان، انهض بسرعة ولا تجلس هناك مع مكاسبك. قل إنَّك تشعر بألمٍ في بطنك واذهب مباشرة إلى جون. لا تعد بالطبع. وفي تلك الليلة نَم في مكان آخر، ليس في مكانك الخاصّ».

«جيّد جدّاً، يا خوسيه. وماذا أيضاً؟»

«على الرّغم من أنّ المشترين في المنجم يدفعون مبلغاً أقلّ بكثير من المشترين في كالاو أو في بوليفار سيوداد، فأنت تريد بيع كلّ الماس الذي تربحه - بِعْه كلَّ يوم. ولا تقلق أبداً. اجعلهم يعطونك إيصالات باسمك لصرفها في كالاو أو في بوليفار سيوداد. افعل الشيء نفسه مع الأوراق النقديَّة الأجنبيَّة. قل إنَّك تخشى إضاعتها. قل إنَّك تخشى خسارة كلّ شيء لو فزت بها في يوم واحد، وتالياً فإنّك تتجنَّب المخاطرة من خلال

عدم امتلاك كثير منها. وأنت تخبر الجميع بما تفعله بالضبط، حتّى يصبحَ معروفاً جيّداً».

«بهذه الطريقة سيكون لديَّ فرصة للعودة، أليس كذلك؟»

«نعم. ستكون لديك فرصة للعودة حيّاً، إن شاء الله».

«شكراً يا خوسيه. عمتَ مساءً».

مستلقياً بين ذراعَي ماريا، مرهقاً من ممارسة الحبّ، ورأسي في تجويف كتفيها، شعرت بأنفاسها على خدّي. في الظلام، وقبل أن أغلق عينيَّ، رأيت كومة من الماس أمامي. حملتها بلطف، كما لو كنت ألعب بها، ووضعتها في كيس صغير من القماش الذي يحمله جميع عمّال المناجم؛ ثمَّ نهضت على الفور ونظرت حولي وقلت لجوجو: «احتفظ بمكاني. أنا ذاهب إلى المرحاض. سأعود بعد لحظة». لم تفارق صورة عيني خوسيه اللعوب، المشرقة واللمّاعة – على غرار عيون الأشخاص الذين يعيشون بالقرب من الطبيعة- مخيّلتي.

مرَّ الصباح بسرعة. جرت تسوية كلّ شيء. سيبقى بيكولينو هنا؛ سيحصل على رعاية جيّدة. قبّلت الجميع. كانت ماريا مشرقة ومفعمة بالسعادة. كانت تعلم أنّه إذا ذهبت إلى المناجم فسوف يتعيَّن عليَّ العودة، في حين أنَّ كاراكاس لم تُعِد الرجال الذين ذهبوا للعيش هناك.

ذهبتُ معي إلى مكان الاجتماع. حانت السّاعة الخامسة؛ كان جوجو هناك، وفي حالة جيّدة. «مرحباً يا صديقي! كيف حالك؟ لقد أتيت في السّاعة المطلوبة- هذا أمر جيّد! ستغرب الشمس بعد ساعة. الأمر أفضل بهذه الطريقة. لا أحد يستطيع متابعتك في الليل، بالتأكيد».

قبّلتُ حبيبتي عشرات القبلات الحقيقيّة، ثمَّ امتطيت السرج الموضوع على ظهر البغل. أصلح لي جوجو رِكاب السرج، وبينما كنّا ننطلق، قالت لي ماريا: «قبل كلّ شيء، يا حبيبي، لا تنسَ أن تذهب إلى المرحاض في الوقت المناسب».

انفجرت من الضحك وأنا أحفر كعبي في البغل. «فتاة صغيرة مستترة، تسمعها عند الأبواب!»

«حينما نحبّ، فهذا طبيعيّ».

ها نحن أولاء نغادر، جوجو على حصان وأنا على بغل.

كانت للغابة البكر طرقها الخاصّة، وهي ما يسمّونها بالمجارف. إنَّها عبارة عن ممرٍّ عرضه نحو مترين جرى قطعه تدريجياً بالأشجار؛ والرجال الذين يعبرون هذه الطريق، يبقى أثرهم واضحاً بفضل مناجلهم. ترى على كلا الجانبين جداراً أخضر اللون: أعلاه، سقف يضمّ ملايين النباتات، لكنّه مرتفع جدّاً بحيث لا يمكن الوصول إليه باستخدام منجل حتّى لو كنت تقف على ظهر حصانك. هذه هي الغابة الاستوائيّة. تتكوَّن من تشابك لا يمكن اختراقه من نوعين من النباتات. بدايةً، طبقة من الزواحف والأشجار والنباتات التي لا ترتفع كثيراً عن عشرين قدماً، وفوق ذلك، ترتفع إلى خمس وسبعين أو مئة قدم، قمم رائعة من الأشجار الضخمة التي تتسلّق عالياً لتصل إلى الشمس. على الرَّغم من أنَّ قممها تتعرَّض لأشعَّة الشمس، إلَّا أنَّ أوراق الشجر من فروعها المورقة العريضة تصنع حاجزاً سميكاً، ما يجعلها بعيدة كلَّ البعد عن الضوء الخافت. يا له من منظرٍ رائع، في غابة استوائيَّة تنمو فيها النباتات في كلِّ مكان. كذلك، كي تركب الحصان على طول الطريق، عليك أن تمسك بالزمام بيد واحدة وتستمرَّ في

قطع كلّ ما يعترض طريقك باليد الأخرى. يبدو المجراف الذي يعبره الناس أكثر من غيره، على الدوام، كممرٍّ حقيقيّ يتمّ الحفاظ عليه جيّداً.

لا يوجد شيء يمنح الرجل مثل هذا الشعور بالحريَّة، مثل أن يكون في الأدغال ومسلَّحاً جيّداً. يشعر كأنَّه جزء من هذه المناظر الطبيعيَّة، على غرار الحيوانات البريَّة. يتحرَّك بحذر، لكن بثقة بالنفس لا حدود لها. يشعر كأنَّه موجود في جوهر أكثر العناصر طبيعيَّة على الإطلاق، وكلّ حواسه في حالة تأهُّب - السمع والبصر والشمّ. تتجوَّل عيناه باستمرار من نقطة إلى أخرى، لتحجيم كلّ ما يتحرَّك. لا يوجد في الأدغال سوى عدوّ واحد مهمّ، وحش الوحوش، والأكثر ذكاءً، والأقسى، والأكثر شرّاً، وجشعاً، والأروع أيضاً - الإنسان.

سافرنا طوال تلك الليلة، وكنّا نسير على نحو جيّد. إنَّما، في الصباح، بعد أن شربنا قليلاً من القهوة من قارورة الترموس، بدأ البغل يسحب قائمتيه، وأخذ يتأرجح أحياناً على مسافة تصل إلى مئة ياردة خلف جوجو. لقد طعنت مؤخّرته بكلّ أنواع الأشواك، لكن ما من فائدة. ولتفاقم الأمور، بدأ جوجو يصرخ فيَّ، قائلاً: «لماذا لا تعرف شيئاً عن ركوب الأحصنة، أيُّها الرجل. إنَّه سهل بما فيه الكفاية. راقبني». وكان يلمسه بكعبه فينطلق الفرس. وكان يقف في ركاب سرجه، ويخور: «أنا الكابتن كوك» أو «مرحباً، سانشو! هل أنت قادم؟ ألا يمكنك مواكبة سيّدك، دون كيخوته؟»

أثار هذا الأمر غضبي، وكلّ ما كنت أحاول التفكير فيه هو جعل البغل يسير بسرعة أكبر. أخيراً، خطرت لي فكرة رائعة، وعلى الفور اقتحمتها بالفرس. لقد أسقطت طرف سيجار مشتعل في أذنه. تمزَّق مثل الأصيل، وابتهج. أصبح ممتلئاً بالبهجة؛ حتَّى إنَّني مررت بالقبطان، وأنا ألوّح له،

ماضياً بسرعة. لكنَّ البغل هو مثل هذا الشرير أثار غضبي، وحاولت كلّ ما يمكن أن أفكّر فيه لجعل البغل يسير مسرعاً.

لن أحكي القصَّة الكاملة لمطاردة البغل (ساعتان!)، أو ركله ليسير بسرعة. إنَّما أخيراً، لاهثاً، وبعد أن أصبحت مؤخّرتي ممتلئة بالأشواك، وقد أنهكتني الحرارة، تمكَّنت بالفعل من رفع نفسي على ظهر ذلك اللقيط العنيد. هذه المرَّة يمكن أن تسير الأمور كما اختارت: لن أكون الشخص الذي يعبرها. أوّل ميل ركبته لم أكن فيه جالساً بل مستلقياً على ظهره، ومؤخّرتي في الهواء، محاولاً إخراج الأشواك التي تحرقني منها.

في اليوم التالي، غادرنا الغاشم ذا الرأسين في فندق بوسادا. ثمَّ بعد مضيّ يومين في زورق، تلتهما مسيرة طويلة مع حقائب على ظهرَينا، وصلنا إلى منجم الماس.

ألقيت حمولتي على طاولة في مقهى في الهواء الطلق. كنت قد شارفت على نهايتي، وكان بإمكاني خنق جوجو المجوز - لقد وقف هناك وبضع قطرات من العرق على جبهته، ينظر إليّ مبتسماً وقد قال: «حسناً يا صديقي، كيف تشعر؟»

«حسناً! هل هناك أيّ سبب يمنعني من الشعور بالراحة؟ لكن فقط أخبرني هذا: لماذا جعلتني أحمل مجرفة وفأساً ومنخلاً طوال اليوم، في حين لن نقوم بأيِّ حفر على الإطلاق؟»

وضعت جوجو في جوٍّ حزين. «لقد خيَّبت ظنّي يا بابيون. فكِّر قليلاً. إذا ظهر رجل هنا لا يحمل هذه الأدوات، فلماذا أتى إلى هنا إذاً؟ هذا هو السؤال الذي سيطرحه الجميع - كلّ من شاهدك تأتي إلى القرية، شاهدك

من خلال هذه المجارف والأسقف المصنوعة من الصفيح. لا نريد أن نزرع الشكَّ في عقل أيِّ إنسان، هل فهمت؟»

«لقد فهمت يا صديقي».

«الأمر نفسه بالنسبة إليَّ، أنا الذي لا أحمل شيئاً. لنفترض أنَّني حضرت ويدي في جيبي، وأعددتُ طاولتي من دون فعل أيِّ شيء آخر: ما الذي سيقوله عمّال المناجم وبناتهم، إيه، يا بابي؟ سيقولون هذا الفرنسيّ القديم مقامر محترف. حسناً الآن، سترى ما سأفعله. إذا استطعت، سأحاول العثور على مضخَّة بمحرِّك مستعملة هنا في القرية. وسأفعل الشيء نفسه بالنسبة إلى عشرين باردة من الأنابيب الكبيرة واثنين أو ثلاثة من السدود. السدّ هو صندوق خشبيّ طويل فيه أقسام، وفي هذه الأقسام ثقوب. أنت تضخُّ الطين فيه، ويمكن لفريق من سبعة رجال أن يغسل خمسين مرَّة من الأرض أكثر من فريق مؤلّف من اثني عشر رجلاً يعملون بالطريقة القديمة. كما لا يُعدُّ هذا الأمر «طريقة ميكانيكيَّة». ثمَّ بصفتي مالك المضخَّة، أحصل على ٢٥ في المئة من الماس؛ وأكثر من ذلك، وهذا سبب وجودي هنا. لا أحد يستطيع أن يقول إنَّني أعيش من القمار، لأنَّني أعيش من المضخَّة. وبما أنَّني مقامر أيضاً، فأنا لا أتوقَّف عن لعب القمار ليلاً. هذا طبيعيّ، لأنَّني لا أشارك في العمل الفعليّ. هل فهمت؟»

«الأمر واضح وجليّ».

«لقد أعجبتني. أنت ولد ذكيّ. اثنين من شراب الفريسكو، سينورة».

أحضرت لنا امرأة سمينة وودود فاتحة البشرة كوبين ممتلئين بسائل بلون الشوكولاتة مع مكعّب ثلج وقليل من الليمون يسبح فيه.

«ثمانية بوليفارات، أيّها السادة».

«أكثر من دولارين! يا إلهي، الحياة ليست رخيصة هنا».

دفع جوجو. وسألها قائلاً: «كيف الحال هنا؟»

«لا بأس».

«هل هناك نهب أو لا؟»

«كثير. إنّما قليل جدّاً من الماس. لقد وجدوا هذا المكان منذ ثلاثة أشهر، ومنذ ذلك الحين هرع إليه نحو أربعة آلاف رجل. هذا عدد كبير من الرجال مقابل قليل من الماس. وأضافت قائلةً وهي ترمقني بنظراتها: «وماذا عنه؟ ألمانيّ أم فرنسيّ؟»

«فرنسيّ. إنّه معي».

«يا له من مسكين».

سألتها قائلاً: «كيف هذا، لماذا تقولين إنّي مسكين؟»

«لأنّك أصغر من أن تموت. الرجال الذين يأتون مع جوجو لم يحالفهم الحظ قطّ».

«أغلقي فمك، أيّتها العجوز الحمقاء. تعالَ، بابي، لنذهب».

لمّا وقفنا، قالت لي المرأة السمينة، في سبيل الوداع، «انتبه لنفسك».

بالطبع، لم أقل شيئاً عمّا قاله لي خوسيه، وقد دهش جوجو لأنّني لم أحاول معرفة ما وراء كلمات المرأة. شعرت أنّه ينتظر الأسئلة التي لم تأتِ. بدا مستاءً، وظلّ ينظر إليّ بطرف عينه.

بعد فترة وجيزة، بعد أن تحدّث إلى العديد من الأشخاص، وجد جوجو كوخاً. ثلاث غرف صغيرة وحلقات لتعليق أراجيحنا الشبكيّة؛ وبعض

علب الكرتون. كان على واحدة منها زجاجات بيرة وروم فارغة؛ من ناحية أخرى، وعاء من المينا المهروس وعلبة سقاية ممتلئة بالماء. امتدَّت الأوتار لتعليق ملابسنا. كانت الأرض طينيّة، نظيفة جدّاً. كانت جدران هذا القفص قد صنعت من ألواح من علب التغليف - لا يزال بإمكانك قراءة: صابون كامي، حليب نسله...إلخ. كانت كلّ غرفة حوالي ثلاثة أمتار في ثلاثة. لا نوافذ. شعرت بالفعل بالاختناق وخلعت قميصي.

استدار جوجو بصدمة شديدة وقال لي: «هل أنت مجنون؟ افترض أنَّ أحدهم دخل؟ لديك وجه شرير بالفعل، والآن إذا ذهبت وأظهرت وشمك، يا رجل، يبدو الأمر كما لو كنت تعلن عن حقيقة أنَّك محتال. تصرَّف».

«لكنَّني أشعر بالاختناق يا جوجو».

«ستعتاد ذلك - الأمر كلّه يتعلَّق بالعادة. إنَّما تصرَّف من فضلك، يا إلهي: قبل كلّ شيء، تصرَّف».

تمكَّنت من منع نفسي من الضحك. بالفعل جوجو هذا لا يقدَّر بثمن.

دمجنا غرفتين في غرفة واحدة. قال جوجو مبتسماً: «سيكون هذا هو الكازينو».

أصبحت الغرفة ستة أمتار في ثلاثة. جرفنا الأرض، وخرجنا لشراء ثلاثة صناديق خشبيّة كبيرة، وبعض زجاجات الروم وأكواب ورقيَّة للشرب بها. كنت حريصاً على رؤية شكل اللعبة.

لم يكن عليَّ الانتظار طويلاً. بعد أن زرنا عدداً من أماكن الشُّرب الصغيرة البائسة، من أجل «التواصل»، كما قال جوجو، كان الجميع يعلم أنَّه ستكون هناك لعبة كرابس في مكاننا في الساعة الثامنة من ذلك المساء. في

الخمّارة الأخيرة التي ذهبنا إليها، وكانت عبارة عن سقيفة فيها طاولتان في الخارج وأربعة مقاعد ومصباح كربيد معلّق من الغطاء من الفروع. كان المدير أحمرَ ضخماً دائم الشباب، وكان يخدم من دون أن ينبس ببنت شفة. في أثناء مغادرتنا جاء إليّ وتحدَّث بالفرنسيَّة، قال: «لا أعرف من أنت، ولا أريد أن أعرف، لكنَّني سأقدِّم لك هذه النصيحة فقط. اليوم الذي تشعر فيه أنَّك راغب في النوم هنا، تعالَ وأنا سأعتني بك».

تحدَّث بنوع غريب من الفرنسيَّة، لكن من لهجته أدركت أنَّه كورسيكيّ.

«أنت كورسيكيّ؟»

«نعم. وأنت تعلم أنَّ الكورسيكيَّ لا يخون أبداً». وأضاف بابتسامة، قائلاً: «ليس مثل بعض الرجال من الشمال».

«أشكرك. من الجيّد معرفة هذا».

زهاء الساعة السابعة صباحاً، أشعل جوجو مصباح الكربيد. وُضعت البطانيات على الأرض. لا توجد كراسٍ. إمَّا أن يقفَ المقامرون وإمَّا أن يقرفصوا. قرَّرنا ألَّا ألعب تلك الليلة. فقط عليَّ أن أشاهد كلَّ شيء.

بدؤوا في الوصول. أكواب غير عاديَّة. كان هناك عدد قليل من الرجال قصار القامة: كان معظمهم من الرجال طويلي القامة، الملتحين ومن ذوي الشَّاربين. كانت أيديهم ووجوههم نظيفة، ولم تكن لهم رائحة، لكنَّ ملابسهم كانت كلّها ملطَّخة ومتهالكة تقريباً. ومع ذلك، كان كلُّ قميص لهم نظيفاً للغاية.

في منتصف القماش، تمَّ ترتيب ثمانية أزواج من النرد بدقَّة، كلّ منها في صندوق صغير. طلب إليَّ جوجو أن أعطي كلَّ لاعب كأساً ورقيَّة. كان

هناك نحو عشرين منها. صببتُ الرّوم. لم يكن هناك رجل واحد أغلق عنق الزجاجة ليقول كفى. بعد جولة واحدة فقط، اختفت ثلاث زجاجات.

بتعمّد كلُّ رجل أن يتناول رشفة، ثمَّ يضع كأسه أمامه ويضع أنبوبَ أسبرين إلى جانبه. كنت أعلم أنّه كان ثمَّة ماس في تلك الأنابيب. وضع صينيٌّ عجوز مهتزّ ميزاناً صغيراً أمامه. لا أحد قال الكثير. كان هؤلاء الرجال مرهقين: كانوا يعملون تحت أشعّة الشمس الحارقة طوال اليوم، وبعضهم يقف في الماء حتّى وسطه من السّادسة صباحاً حتّى غروب الشمس.

ها قد بدأت الأمور تتحرّك! واحد، ثمَّ اثنان، ثمَّ ثلاثة لاعبين أخذوا زوجاً من النرد وفحصوه بعناية، وضغطوا عليه بقوّة معاً، ومرّروه إلى جيرانهم. لا بدَّ أنَّ كلَّ شيء بدا على ما يرام، لأنَّ النرد أُلقيَ مرّة أخرى على البطانية دون قول أيِّ شيء. في كلِّ مرّة، كان جوجو يلتقط زوج النرد ويضعه في صندوقه، كلّها باستثناء الأخير، الذي ظلَّ هناك على البطانيّة.

واشتكى بعض الرجال الذين خلعوا قمصانهم بسبب البعوض. طلب إليَّ جوجو أن أحرق بضع حفنات من العشب الرطب، لأنَّ الدخان سيساعد في طرد البعوض.

«دور من؟» سأل رجل ضخم نحاسيّ اللون وله لحية كثيفة سوداء مجعَّدة ووردة غير متوازنة موشومة على ذراعه اليمنى.

ردَّ جوجو قائلاً: «أنت إن أردت».

كانت معلّقة بحزامه الأخضر كالغوريلا المزيّن بمسامير فضيّة اللون - لأنّه كان يشبه الغوريلا إلى حدٍّ كبير - رزمة هائلة من الأوراق النقديّة مثبتة في شريط مطاطيّ.

«كم ستضع في البداية يا تشينو؟»، سأل رجل آخر.

«خمسمئة بولو». اختصار لعبارة «بوليفار».

«حسناً، خمسمئة».

وتدحرج النرد. جاء رقم ثمانية. حاول جوجو التصويب على الثمانية.

قال لاعب آخر: «ألف بولو لا تسدُّدها على الثمانية بأربع مضاعفات».

قال جوجو: «أنا آخذ ذلك».

تمكَّن تشينو من تحقيق الثمانية بخمسة وثلاثة. لقد خسر جوجو. لمدَّة خمس ساعات متتالية، استمرَّت المباراة من دون تعجُّب، ومن دون أدنى نزاع. كان هؤلاء الرجال مقامرين غير مألوفين. في تلك الليلة خسر جوجو سبعة آلاف بولو، وخسر رجل آخر أكثر من عشرة آلاف.

كان قد تقرَّر إيقاف اللعبة عند منتصف الليل، لكنَّ الجميع وافقوا على الاستمرار لمدَّة ساعة أخرى. في تمام الساعة الواحدة، قال جوجو إنَّ هذا كان الشوَّ الأخير.

قال تشينو: «أنا من بدأت اللعبة برمي النرد، وأنا من سينهي اللعبة. سأضع كلَّ أرباحي، تسعة آلاف بوليفار».

كانت أمامه كتلة من الأوراق النقديَّة والماس. لقد غطَّى كثيراً من الرهانات الأخرى، وحصل على رقم سبعة من الرمية الأولى.

أمام ضربة الحظّ الرائعة هذه، دارت الثرثرات للمرَّة الأولى. وقف الرجال قائلين: «دعونا ننم قليلاً».

«حسناً، هل رأيت ذلك يا رجل؟»، قال جوجو عندما كنَّا وحدنا.

«نعم، وأكثر ما لاحظته هو تلك الأرواح الصلبة. جميعهم يحملون مسدَّسات وسكاكين. حتَّى إنَّه كان هناك البعض ممَّن جلسوا على مناجلهم، بحيث يمكن أن يقطعوا رأسك بضربة واحدة».

«هذه حقيقة، لكنَّك رأيت آخرين مثلهم».

«على الرَّغم من كلِّ شيء... ربحت اللعبة مرّةً في الجزر، لكنّي لم أشعر في حياتي قطّ بالخطر مثل تلك الليلة».

«الأمر كلّه يتعلَّق بالعادة، يا صديقي. غداً ستلعب وستنتصر؛ هذا الأمر مضمون». كما أضاف قائلاً: «من وجهة نظرك، من هم الرجال الذين عليك ترقّبهم أكثر؟»

«البرازيليّون».

«أحسنت! هذه هي الطريقة التي يمكنك بها اختبار الرجل - بالطريقة التي يكتشف بها الأشخاص الذين قد يتحوّلون إلى الموت من ثانية إلى أخرى».

لَمَّا أغلقنا الباب (بثلاثة براغٍ ضخمة) ألقينا نفسينا في أرجوحتينا الشبكيَّتين، ورحتُ على الفور في نومٍ عميق، قبل أن يبدأ جوجو في الشخير.

في اليوم التالي، أشرقت شمس رائعة - ليس ثمَّة غيوم أو نسيم خفيف. تجوَّلت حول هذه القرية الغريبة. رحَّب الجميع وألقوا التحيَّة. وجوه مزعجة على محيّا الرجال، بالتأكيد، لكن لديهم طريقة لقول الأشياء (بأيّ لغة يتحدَّثون بها) لذلك، كان هناك اتّصال إنسانيّ دافئ على الفور. لقد وجدت الكورسيكيّ صاحب الشعر الأحمر الهائل مرَّة أخرى. كان اسمه ميغيل. كان يتحدَّث الفنزويليَّة بطلاقة مع وجود بعض الكلمات الإنجليزيَّة أو البرازيليَّة، التي كان يستخدمها بين الحين والآخر، كما لو

كانت تنزل بالمظلّة. فقط لمّا تحدَّث الفرنسيّة، وهو ما يفعله بصعوبة، ظهرت لهجته الكورسيكيّة.

شربنا القهوة التي أحضرتها إلينا فتاة بنية صغيرة وجورب. وبينما كنّا نتحدَّث، سألني قائلاً: «من أين أتيت؟»

«بعد ما قلته بالأمس، لا أستطيع أن أكذب عليك. لقد جئت من مستعمرة العقوبات».

«آه، أنت هاربٌ الآن؟ أنا سعيد لأنّك أخبرتني».

«وماذا عنك؟»

أشار إلى نفسه، ستّ أقدام وأكثر، وظهرت على وجهه الأحمر تعبيرات نبيلة للغاية.

«لقد هربت أيضاً، لكن ليس من غيانا. غادرت كورسيكا قبل أن يتمكّنوا من اعتقالي. أنا لصّ شرف - قاطع طريق مشرف».

وجهه الذي أضاء بفخر، كونه رجلاً أميناً، أثار إعجابي. لقد كان من الرائع حقّاً رؤية هذا اللصّ المشرف. وتابع قائلاً: «كورسيكا هي جنّة العالم، البلد الوحيد الذي يضحّي فيه الرجال بحيواتهم من أجل الشرف. أنت لا تصدِّق ذلك؟»

«لا أعرف ما إذا كانت الدولة الوحيدة، لكنّني أعتقد أنّك ستجد المزيد من الرجال الهاربين بسبب شرفهم أكثر من كونهم مجرّد قطّاع طرق عاديين».

قال بتمعّن: «أنا لا أهتمّ بقطّاع الطرق في المدينة».

أخبرته باقتضاب كيف كانت الأمور معي؛ وقلت إنّني قصدت العودة إلى باريس للانتقام.

«أنت على حقّ؛ لكنَّ الانتقام طبقٌ تريد أن تأكله بارداً. افعل ذلك بعناية قدر المستطاع؛ سيكون الأمر فظيعاً إذا أحضروك قبل أن تحصل على رضاك. هل أنت مع جوجو العجوز؟»

«نعم».

«إنَّه رجل مستقيم. يقول بعض الناس إنَّه ذكيّ جدّاً في التعامل مع النرد، لكنَّني لا أعتقد أنَّه يسرق. هل تعرفه منذ فترة طويلة؟»

«لا؛ لكن هذا لا يهمّ».

«لماذا يا بابي، كلَّما لعبت أكثر، عرفت المزيد عن الرجال الآخرين - هذه هي الطبيعة؛ لكن هناك شيء واحد يقلقني بالنظر إليك».

«ماذا؟»

«اثنان أو ثلاثة ممَّن كانوا مع شريكك قد قُتلوا. لهذا قلت ما قلته مساء أمس. كن حذراً، وحينما لا تشعر بالأمان، تعالَ إلى هنا. يمكنك الوثوق بي».

«أشكرك يا ميغيل».

نعم، قرية غريبة، خليط فضوليّ من الرجال الذين فقدوا في الأدغال، يعيشون حياة قاسية وسط منظر طبيعيّ متفجّر. كان لكلّ واحد قصّته. كان من الرائع رؤيتهم، وكان من الرائع الاستماع إليهم. لم تكن أكواخهم في بعض الأحيان أكثر من سقف من سعف النخيل أو قطع من الصاج المموّج، والله أعلم كيف وصلوا إلى هناك. كانت الجدران عبارة عن شرائح من الورق المقوّى أو الخشب أو حتّى القماش في بعض الأحيان. لا أسرَّة فقط الأراجيح. كانوا ينامون ويأكلون ويغتسلون ويمارسون الحبَّ في الشارع تقريباً. ومع ذلك، لن يرفع أحد زاوية من القماش أو ينظر بين

اللوحين ليرى ما يجري في الدَّاخل. كان لدى الجميع أقصى درجات الاحترام لخصوصيَّة الآخرين. إذا أردت الذهاب لرؤية أيٍّ شخص، فقبل أن تقترب بضعة أمتار تنادي، عن طريق قرع الجرس، «هل يوجد أحد في المنزل؟» إذا كان شخص ما، ولم يكن يعرفك، فقل له: «أنا صديق». ثمَّ يظهر شخص ما ويقول بأدب: «تفضَّل؛ البيت بيتك».

كانت هناك طاولة أمام كوخ صلب مصنوع من جذوع الأشجار المتينة. وُضعت على المنضدة، قلائد من لؤلؤ حقيقيّ من جزيرة مارغريتا، وبعض شذرات الذهب البكر، وعدد قليل من الساعات، وأحزمة ساعات جلديَّة أو معدنيَّة موسّعة، والعديد من المنبِّهات.

هذا محلٌّ جواهر مصطفى.

خلف الطاولة كان ثمَّة رجل عربيٌّ عجوز بوجه لطيف. تحدَّثنا للحظة. لقد كان مغربيّاً، وقد رأى أنَّني فرنسيّ. كانت الساعة الخامسة بعد الظهر، وقال لي: «هل أكلت؟»

«ليس بعد».

«ولا أنا. دعنا نذهب لنأكل. يمكننا تقاسم وجبتي إن أردت...»

«بكلِّ سرور».

كان مصطفى رجلاً لطيفاً ومبتهجاً. قضيت ساعة ممتعة معه. لم يكن فضوليّاً، ولم يسألني من أين أتيت.

قال: «إنَّه أمر غريب، في بلدي لا نحبُّ الفرنسيين، لكنَّني أحبُّهم. هل تعرف أحداً من العرب؟»

«أعرف كثيرين منهم. كان بعضهم جيّداً جدّاً، وبعضهم الآخر كان سيّئاً للغاية».

«الأمر نفسه ينطبق على جميع الأعراق. أنا أصنّف نفسي بين الطيّبين. أنا في الستين من عمري، يمكنني أن أكون بمنزلة والدك. كان لديَّ ابن في الثلاثين من عمره، قُتل قبل عامين - بطلقٍ ناريّ. كان حسن المظهر ولطيفاً».

امتلأت عيناه بالدموع.

وضعت يدي على كتف هذا الأب غير السعيد، الذي تأثَّر بذكرى ابنه، وتذكَّرت والدي، الذي، - هو أيضاً، تقاعد في منزله الصغير في آرديش، والذي تمتلئ عيناه بالدموع كلَّما فكَّر فيَّ. يا أبي المسكين. من يستطيع أن يخبرني بمكانه أو ماذا كان يفعل؟ كنت متأكّداً من أنَّه لا يزال في قيد الحياة - شعرت بذلك. دعونا نأمل ألَّا تكون الحرب قد أثَّرت فيه كثيراً.

دعاني مصطفى إلى الذهاب إلى منزله كلَّما شئت ذلك، لتناول الطعام أو إذا كنت في حاجة إلى أيِّ شيء. أنا من سيقدِّم له خدمة بطلب معروفٍ منه.

كان الليل سيحلُّ، قلت: «شكراً لك لأجل كلِّ شيء»، وانطلقت إلى كوخنا. كانت اللعبة ستبدأ قريباً. إنَّ رؤية ميغيل ومصطفى تفرح قلبي.

لم أكن قلقاً على الإطلاق بشأن لعبتي الأولى. قال لي جوجو: «من لا يغامر بشيء، لا يربح شيئاً»، وكان على حقّ. إذا كنت أرغب في تسليم جذعي المملوء بالديناميت عند رصيف ٣٦ أورفير، وفي التعامل مع الآخرين، كنت في حاجة إلى المال، الكثير من المال. سأضع يدي عليه قريباً؛ كان هذا مؤكَّداً.

نظراً إلى أنَّه كان يوم سبت، وبما أنَّ عمّال المناجم أخذوا إجازة يوم الأحد، فلم تكن اللعبة لتبدأ قبل الساعة التاسعة، لأنَّها ستستمرُّ حتّى

شروق الشمس. أتى عدد كبير من الرجال إلى الكوخ، الذي أصبح مزدحماً، حتَّى إنَّ كثيرين منهم لم يتمكَّنوا من الدخول. كان من المستحيل إيجاد مكان لهم جميعاً، لذا عمد جوجو إلى فرز من يمكنهم اللعب على مستوى عال. كان هناك أربعة وعشرون منهم: البقيّة سيلعبون في الخارج. ذهبت إلى منزل مصطفى، وقد أعارني سجَّادة كبيرة ومصباحَ كربيد. مع انسحاب بعض كبار المقامرين، يمكن استبدالهم من الخارج.

بانكو، بانكو مرَّة أخرى! مراراً وتكراراً: في كلِّ مرَّة كان جوجو يرمي النرد فيها، كنت أغطّي المخاطر. «اثنان ضدّ واحد لن يصوّب ستة بثلاثيّة مزدوجة...- عشرة بخمستين... إلخ». كانت عيون الرجال تقدح شرراً. في كلِّ مرَّة يرفع فيها أحدهم فنجانه، كان ثمَّة صبيٌّ يبلغ من العمر أحد عشر عاماً يملؤه بشراب الرّوم. كنت قد طلبت إلى جوجو السماح لميغيل بتزويدنا بالرّوم والسيجار.

سرعان ما تمَّ تسخين اللعبة إلى درجة الغليان. لقد غيّرتُ تكتيكات جوجو من دون طلب إذنه. لقد وضعت احتمالات ليس فقط عليه، وإنَّما أيضاً على الآخرين، ما جعله يبدو متعكّراً. أشعل سيجاراً، وغمتم بغضب قائلاً: «اتركه يا رجل. لا تزرع حيضاً». بحلول الساعة الرابعة صباحاً تقريباً، كانت أمامي كومة من البوليفار والكروزيروس والدولار الأمريكيّ والغربيّ الهنديّ والماس، بل حتَّى بعض شذرات الذهب الصغيرة.

أخذ جوجو النرد. راهن بخمسمئة بوليفار. وأنا راهنت بألف.

رمى السبعة!

لقد تركتُ الكثير، ما يعادل ألفَي بوليفار. سحب جوجو الخمسمئة التي فاز بها.

وألقى السبعة مرَّة أخرى!

مرَّة أخرى سحب حصَّته. وسبعة مرَّة أخرى!

«ماذا ستفعل، يا إنريكي؟»، سأل تشينو.

«سأترك معي أربعة آلاف».

«بانكو وحده!»

نظرت إلى الرجل الذي تحدَّث للتوّ. رجل غليظ قليلاً، أسود مثل تلميع الحذاء، عيناه محتقنتان دماً بسبب شرب الكحول. إنَّه برازيليّ بالتأكيد.

«ضع أربعة الآلاف بوليفار كلّها».

«هذا الحجر يستحقّ أكثر».

وألقى ماسةً على البطانيّة أمامه مباشرة. جلس هناك في سرواله الورديّ عارياً حتّى الخصر. التقط الصينيّ الماسة ووضعها في ميزانه، وقال: «إنَّها تساوي ثلاثة ونصفاً فقط».

«حسناً، ثلاثة آلاف ونصف»، قال البرازيليّ.

«ارمِ النرد يا جوجو».

رمى جوجو أحجار النرد، لكنَّ البرازيليَّ أمسك بها وهي تتأرجح. تساءلت عمّا سيحدث. نادراً ما نظر إلى النرد، لكنَّه بصق عليها وأعادها إلى جوجو. قال: «ارمِ بها هكذا، وهي مبتلَّة».

«هل تقبل يا إنريكي؟»، قال جوجو وهو ينظر إليَّ.

«إذا كان هذا ما تريده، يا صديقي».

ربط جوجو الطيّة في البطانيّة بشكل أعمق بيده اليسرى، ورمى بالنرد دون مسحه - لفَّة طويلة وطويلة. وأتى الرقم سبعة مرَّة أخرى.

كما لو أنَّ زنبركاً قفز، قفز البرازيليُّ على قدميه ويده على بندقيّته. ثمَّ قال بهدوء: «هذه ليست ليلتي. أنا غير محظوظ اليوم». وخرج.

في اللحظة التي نهض فيها على غرار شيطان يخرج من الصندوق، اندفعت يدي إلى مسدَّسي - الذي كان مزوَّداً بطلقة في المؤخِّرة. لم يُبدِ جوجو أيَّ حركة من حركات الدفاع عن نفسه. ومع ذلك، كان الرجل الأسود يستهدفه. عرفت حينها أنَّ أمامي الكثير لأتعلَّمه قبل أن أعرف تماماً متى أرسم وأطلق النار.

توقَّف اللعب عند شروق الشمس. ما بين دخان العشب الرطب والسيجار والسجائر، بدأت عيناي تدمعان وكأنَّني أبكي. كانت ساقاي مخدَّرتين تماماً من الجلوس لأكثر من تسع ساعات متتالية. إنَّما، كان هناك شيء واحد أسعدني: لم أكن مضطرّاً إلى الاستيقاظ والتبوّل، ليس مرَّة واحدة، وهذا يعني أنَّني كنت متحكِّماً تماماً بأعصابي وحياتي.

نمتُ حتَّى الساعة الثانية من بعد الظهر.

لَمَّا استيقظتُ، لم يكن جوجو موجوداً. ارتديتُ سروالي - ولم أجد شيئاً في جيوبي! كان جوجو قد أخذ كلَّ شيء. لكنَّنا لم نسوِّ حساباتنا حتّى الآن: ما كان عليه أن يفعل ذلك. لقد كان يأخذ على عاتقه الكثير - بصفته الافتراضيَّة كرئيس، كان لا يقبل أيَّ مجال للشكّ. لم أكن رئيساً؛ لكنّي لم أستطع أن أتحمَّل الأشخاص الذين يعتقدون أنَّهم متفوّقون - والذين يعتقدون أنَّ بإمكانهم الإفلات من أيِّ شيء. خرجتُ ووجدتُ جوجو في مطعم ميغيل، يأكل طبقاً من المعكرونة. قال لي: «كيف حالك يا صديقي؟»

«نعم ولا».

«كيف هذا، لا؟»

«لأنَّه لم يكن من الضروريِّ أن تفرغ جيوبي من دون علمي».

«لا تكن سخيفاً أيُّها الفتى. أنا إنسان صادق وأعلم لماذا تصرَّفت بهذه الطريقة، والسبب في ذلك هو أنَّ كلَّ شيء يعتمد على الثقة المتبادلة. ففي سبيل المثال، ألم ترَ، خلال إحدى الألعاب، أنَّك قد تحشو الماسَ أو السائل في مكان آخر إلى جانب جيوبك؟ ثمَّ مرَّة أخرى، أنت لا تعرف ما الذي فزت به أيضاً. لذا، سواء أفرغنا جيوبنا معاً أم لا، فهذا كلّه واحد. مسألة ثقة».

لقد كان محقّاً. دفع جوجو لميغيل ثمن الروم والتبغ اللذين زوَّدنا بها الليلة السابقة. سألته عمَّا إذا كان الرجال لا يعتقدون أنَّ من الغريب أنَّه دفع لهم لأجل الشرب والتدخين.

«لكنَّني لست من يدفع! كلّ رجل يربح حزمة يترك شيئاً على الطاولة. الجميع يعرف هذا».

واستمرَّ الحال على هذا المنوال ليلة بعد ليلة. لقد مرَّ أسبوعان ونحن في هذه الحال. أسبوعان، نلعب كلَّ ليلة بصوت عالٍ. نلعب بالزهر ونلعب بحياتنا أيضاً.

ذات ليلة، هطلت أمطار مروّعة. كان الليل أسود كالحبر. نهض مقامر بعد ربح كومة كبيرة. لقد خرج في الوقت نفسه مع رجل ضخم كان جالساً هناك لبعض الوقت، ولم يعد يلعب بعد الآن بسبب عدم توافر المال لديه. بعد عشرين دقيقة، عاد الرجل الضخم الذي كان سيّئ الحظّ، وبدأ يلعب بجنون. اعتقدت أنَّ الفائز يجب أن يكون قد أقرضه المال، لكن لا يزال يبدو أنَّه كان يجب أن يقرضه الكثير. لمَّا بزغ ضوء النهار وجدوا الفائز ميتاً، طُعن

على بُعد أقلّ من خمسين ياردة من كوخنا. لقد تحدَّثت إلى جوجو عن ذلك، وأخبرته بما كنت أفكِّر فيه.

قال: «لا علاقة لنا بذلك. عليه الاحتراس في المرَّة القادمة».

«أنت مجنون يا جوجو. لن تكون هناك مرَّة أخرى له، بسبب وفاته».

«هذا صحيح. لكن، ماذا يمكننا أن نفعل حيال ذلك؟»

كنت أتبع نصيحة خوسيه بالطبع. كنت أبيع كلَّ يوم أوراقي الأجنبيَّة، الماس والذهب إلى مشترٍ لبنانيّ، صاحب محلّ جواهر في سيوداد بوليفار. كان معلّقاً أعلى الكوخ الخاصّ به شعار يقول: «هنا، نشتري الذّهب والماس بأعلى الأسعار». وتحتها كان قد كتب: «الصدق أعظم كنز لديَّ».

حزمت بعناية أوراق الائتمان مستحقّة الدفع من فور طلبي في مظروف مغلَّف باللاتكس - مغلَّف مغموس في مادّة اللاتكس الخامّ. لا يمكن لأيِّ شخص آخر صرفها أو اعتمادها بأيِّ اسم آخر. الجميع في القرية يعرف ما كنت أفعله، وإذا كان هناك من شخصٍ ما جعلني أشعر بعدم الارتياح، كنت لا أتحدَّث الفرنسيَّة أو الإسبانيَّة. لذلك، كانت المرَّة الوحيدة التي تعرَّضت فيها للخطر في أثناء المباراة أو حين انتهائها. أحياناً كان يأتي ذلك الرجل الطيب ميغيل فيأخذني معه بعد انتهاء اللعبة ليلاً.

لمدَّة يومين، كان لديَّ شعور بأنَّ الجوَّ يزداد توتّراً، وتلوح فيه أجواء من انعدام الثقة. لقد تعلَّمت أن أشعر بهذه الأمور عن بُعد. لمّا كانت المتاعب تختمر في ثكنتنا على الجزر، أدركت ذلك من دون أن أكون قادراً على معرفة كيف. حينما تكون دائماً في حالة تأهُّب، فهل تلتقط المشاعر من الرجال الذين يستعدُّون للأشياء القاسية؟ لا أدري، لا أعرف. إلَّا أنَّني لم أكن مخطئاً بشأن أمورٍ من هذا القبيل.

أمس، في سبيل المثال، قضى أربعة برازيليين الليل كلّه وهم مسندون في زوايا الغرفة في الظلام. في بعض الأحيان، كان يخرج أحدهم من الظلّ إلى الضوء المبهر الذي يسطع على البطانيّة ويضع بعض الرهانات الصغيرة السخيفة. لم يأخذوا النرد أو يطلبوه. شيء آخر: لم يكن لدى أيّ منهم سلاح يمكن رؤيته. لا منجل ولا سكّين ولا مسدَّس. وهذا لا يتماشى مع وجوه قاتليهم. كان هذا الأمر متعمَّداً، ولا شكَّ في ذلك.

عادوا في مساء اليوم التالي. كانوا يرتدون قمصانهم مدلّاة خارج سراويلهم، لذلك فإنَّ أسلحتهم ملتصقة إلى بطونهم. لقد استقرُّوا في الظلّ، بالطبع، لكنَّني لا أزال أستطيع تمييزهم. لقد كانت نظراتهم تتمركز وتتمحور حول حركات اللاعبين. كان عليَّ أن أشاهدهم من دون أن يلاحظوا ذلك؛ وهذا يعني أنَّني يجب ألَّا أحدق إليهم مباشرة. تمكَّنت من ذلك عن طريق السعال والانحناء نحو الخلف وتغطية فمي بيدي. يا للأسف، لم يكن هناك سوى اثنين أمامي. كان الآخرون في الخلف، ولم أتمكَّن من الحصول على نظرات سريعة منهم إلَّا من خلال الالتفاف لتنظيف أنفي.

كان جوجو بارد الطباع على نحو غير عاديّ. بقي غير متأثّر تماماً. ومع ذلك، كان يراهن من وقت إلى آخر على رميات رجال آخرين، ما يعني أنَّ الفوز أو الخسارة مرتبط بالمصادفة من دون مساعدة. كنت أعرف أنَّ هذا النوع من المقامرة جعل الجميع يكون مجبراً على ربح المال نفسه مرّتين أو ثلاث مرّات قبل الاحتفاظ به إلى الأبد. كان العيب هو أنَّه لمَّا حميت اللعبة بشدَّة، أصبح حريصاً جدّاً على الفوز، وتجاوزني برزم كبيرة من المال بسرعة كبيرة.

كما علمت أنَّ هؤلاء الرجال كانوا يراقبونني، فتركت كومة أمامي ليراها الجميع. لم أكن أريد أن أتصرَّف مثل وديعة آمنة حيَّة.

لمرّتين أو ثلاث مرّات أخبرت جوجو، بلغة عاميّة سريعة، أنّه كان يجعلني أفوز كثيراً. بدا كأنّه لم يفهم. في اليوم السابق، كنت قد ذهبت إلى الغرفة الخارجيّة حيث خدعتهم ولم أعد لألعب معهم؛ لذلك، لم يكن من الجيّد عمل ذلك الآن - إذا كان هؤلاء الرجال الأربعة يعتزمون الانتقام الليلة، فلن ينتظروا عودتي: سيأخذونني بين الكوخ والمنزل القذر.

شعرت بالتوتر يتصاعد: الوجوه الأربعة المنتشرة في كلّ زاوية كانت أكثر توتّراً من أيّ وقت مضى. على وجه الخصوص الشخص الذي استمرَّ في تدخين سيجارة تلو أخرى، كان يشعل الواحدة من الأخرى.

لذا، بدأت الآن في صنع البانكوس يميناً ويساراً، على الرَّغم من مظهر جوجو القبيح. لتتويج كلّ ما فزت به بدلاً من الخسارة، وبعيداً عن الانكماش، استمرَّت رزمي في التراكم. كان كلّ ذلك أمامي، ولا سيَّما ورقة نقديَّة من فئة الخمسمئة. لقد كنت متحمّساً للغاية، إلى درجة أنّني لمَّا أخذت أحجار النرد، وضعتُ سيجارتِي عليها، وأحدثت ثقبين في خمسمئة مطويَّة. رميت النرد وخسرت مع ثلاثة آخرين مقابل رزمة مؤلّفة من ألفي بوليفار. فنهض الفائز وقال: «أراك غداً»، وخرج.

في خضمّ اللعبة، لم ألحظ كيف مرَّ الوقت، ثمَّ مرَّة واحدة، ما أثار دهشتي، رأيت الورقة النقديّة على البطانيّة مرَّة أخرى. كنت أعرف جيّداً من الذي ربحها، رجل أبيض نحيف للغاية، ملتحٍ، يبلغ من العمر نحو أربعين عاماً، مع علامة شاحبة على شحمة أذنه اليسرى. إلّا أنّه لم يعد هنا. في بضع ثوانٍ، كنت قد جمعت المشهد معاً مرّة أخرى: لقد خرج بمفرده، كنت متأكّداً من الأمر. ومع ذلك، لم يتحرَّك أيٌّ من هؤلاء الرجال الأربعة. لذلك، يجب أن يكون لديهم واحد أو اثنان من المتواطئين في الخارج. يجب

أن يكون لديهم نظام للإشارة من المكان الذي كانوا فيه، إشارة تدلّ على رجل يخرج محمّلاً بالنقود والماس.

كان هناك العديد من المقامرين واقفين، لذا لم أتمكّن من معرفة مَن جاء منذ رحيل الرجل النحيل. أمّا الجالسون، فقد ظلّوا على حالهم لساعات، وكان مكان الرجل النحيل صاحب الورقة المحروقة قد شُغل لحظة مغادرته.

إنّها، من لعب هذه الورقة؟ شعرت برغبة في التقاطها والسؤال، لكنّ هذا سيكون مثل مخاطرة كبيرة.

من المؤكّد أنّني كنت في خطر. هناك أمام عيني دليل على أنّ الرجل النحيل قتل نفسه. كانت أعصابي متوتّرة، لكنّني استطعت السيطرة على نفسي. كان عليّ أن أفكّر بسرعة كبيرة. الساعة الرابعة صباحاً. لم تكن الشمس لتشرق قبل الساعة السادسة وخمس عشرة دقيقة، لأنّه في المناطق الاستوائيّة تشرق الشمس كلّها مرّة واحدة، بعد السادسة بقليل. إذا كان هناك شيء ما سيحدث، فسيحدث بين الرابعة والخامسة. في الخارج، كان الظلام مثل الجحيم: كنت أعرف، لأنّني قد استيقظت لتوّي، وأردت أن أستنشق الهواء النقيّ في المدخل. كنت قد تركت رزمتي في مكاني المحدَّد، مكدَّسة بدقّة وعناية فائقة. لم أرَ شيئاً غير عاديّ في الخارج.

عدت وجلست بهدوء، لكنّ كلّ حواسي كانت في حالة تأهُّب. أخبرني الجزء الخلفيّ من رقبتي أنّ هناك زوجين من العيون ينقّبان فيه.

دحرج جوجو النرد، وترك الآخرين يغطّون رهاناته. والآن، بدت أمامه كومة بحجم معقول - وهو شيء يكرهه.

كانت درجة الحرارة ترتفع وتتصاعد. شعرت بذلك بالتأكيد، وبصوت طبيعيّ جدّاً، ليس كما لو كنت أتّخذ الاحتياطات، قلت لجوجو بالفرنسيّة:

«أنا متأكِّد من أنَّ هناك مشكلة في الهواء، يا رجل؛ أستطيع شمّ ذلك. استيقظ في الوقت نفسه الذي أنهض فيه، ودعنا نغطِّ الأمر بأسلحتنا».

ابتسم جوجو كما لو كنت أقول شيئاً لطيفاً: لم يزعجني أكثر من شخص آخر يفهم الفرنسيَّة، وقال: «صديقي العزيز، ما معنى هذا الموقف اللعين؟ ومن الذي سيجري تغطيته على وجه الخصوص؟»

حقيقيّ على نحو كافٍ. تغطية من؟ وما السبب الذي يمكن أن تقدّمه؟ لكنَّ الوضع كان متفجّراً، كان ذلك مؤكّداً، الرجل صاحب السيجارة الأبديَّة، الذي كان لديه كوبان ممتلئان بشراب الروم، ورماهما واحداً تلو الآخر.

لن يكون من الجيّد الخروج بمفردك في الظلام القاتم، حتَّى وأنت تحمل السلاح. كان الرجال في الخارج يرونني ولن أراهم. أدخل الغرفة المجاورة؟ والأسوأ من ذلك. تسع فرص من أصل عشر، كان هناك رجل بالفعل؛ يمكن لأيِّ شخص أن يدخل بسهولة عن طريق رفع أحد الألواح.

هناك شيء واحد فقط يجب فعله، وهو أن أضعَ جميع مكاسبي بشكل علنيّ في حقيبتي القُماشيَّة، وأترك الحقيبة هناك حيث كنت أجلس وأخرج وأتبوَّل. لم يشعروا، لأنَّني لن أحمل المال معي. كان هناك أكثر من خمسة آلاف بولو. من الأفضل أن أخسرها بدلاً من أن أخسر حياتي.

في أيِّ حال، لم يكن ثمَّة خيار. كانت هذه هي الطريقة الوحيدة للخروج من هذا الفخّ، الذي قد ينغلق في أيِّ لحظة.

لقد عملت على حلّ كلّ هذا بسرعة كبيرة، بالطبع: كانت الآن السّاعة الخامسة إلّا سبع دقائق. جمعت كلَّ شيء معاً، الملاحظات، الماس، أنابيب الأسبرين وكلّ شيء: رآني الجميع وأنا أحشر هذه الثروة الصغيرة عمداً في

كيس قماشيّ. وبقدر ما يمكن أن يكون الأمر طبيعيّاً، شددتُ الخيوط بإحكام، ووضعت الحقيبة على بعد أربعين سنتيمتراً تقريباً، وكي يفهم الجميع، قلت باللغة الإسبانيّة: «انتبه إلى الحقيبة يا جوجو. لا أشعر أنّني في حالة جيّدة. سأخرج لاستنشاق الهواء».

كان جوجو يراقب كلَّ تحرّكاتي؛ مدَّ يده، وقال: «أعطني إيَّاها. سيكون الوضع هنا أفضل من أيِّ مكان آخر».

صمدت من دون قصد، لأنّني علمت أنّه يعرِّض نفسه للخطر، لخطر مباشر. إنَّما، ماذا أفعل؟ أرفض؟ مستحيل: سيبدو الأمر غريباً جدّاً.

خرجتُ، ويدي على بندقيّتي. لم يكن بإمكاني رؤية أحد في الظلام، لكن لم يكن عليَّ أن أراهم لأعرف أنّهم كانوا هناك. بسرعة، كدت أركض تقريباً، توجَّهت نحو ميغيل. أملاً بالعودة معه، وبيده مصباح كربيد كبير، لنرى ما حولنا، فقد نتجنَّب الأزمة. لسوء الحظ، كانت منطقة ميغيل على بعد أكثر من مئتي متر من كوخنا. بدأت أجري.

- ميغيل، ميغيل!

- ماذا هناك؟

- انهض بسرعة! أحضر بندقيتك ومصباحك. هناك مشكلة.

بام! بام! طلقتان في ليلٍ حالك السواد.

خرجت راكضاً. في البداية دخلت الكوخ الخطأ - وبدأت الإهانات تنهال عليَّ من الداخل، وفي الوقت نفسه سألوني عن سبب إطلاق النار. استمررت أركض. كان هذا كوخنا - كلّ الأنوار مطفأة. أشعلت قدّاحتي. جاء الناس يركضون بالمصابيح. لم يبقَ أحد في الغرفة. كان جوجو ممدّداً على الأرض

والدّم يتدفّق من مؤخرة رقبته. لم يمت، بل كان في غيبوبة. أظهر مصباح يدويّ تركوه وراءهم ما حدث. في البداية أطلقوا النار على مصباح الكربيد، وفي الوقت نفسه تخلّصوا من جوجو. باستخدام المصباح الكهربائيّ، جمعوا كلَّ ما كان موجوداً حول جوجو - حقيبتي ومكاسبه. كان قميصه ممزّقاً، والحزام القماشيّ الذي كان يرتديه ملتصقاً بجلده فُتح بسكّين أو منجل.

كلّ المقامرين هربوا بالطبع.

كلّ المقامرين هربوا بالطبع. أُطلقت الطلقة الثانية لجعلهم يتحرّكون على نحو أسرع. في أيِّ حال، لم يكن هناك كثيرون منّا عندما أُطلقت. جلس ثمانية رجال، واثنان واقفان، وأربعة الرجال في الزوايا والطفل الذي صبَّ الرّوم.

عرض الجميع المساعدة. نُقل جوجو إلى كوخ ميغيل، حيث كان هناك سرير مصنوع من الفروع. كان يرقد هناك في غيبوبة طوال الصباح. تجلّط الدم. لم يعد ينزف، ووفقاً لعامل منجم إنجليزيّ، كانت هذه علامة جيّدة لكنّها سيّئة في الوقت نفسه، لأنّه إذا كانت الجمجمة مكسورة، فسيستمرّ النزيف في الداخل. قرّرت عدم نقله. انطلق عامل منجم من إل كالاو، وهو صديق قديم لجوجو، إلى منجم آخر لجلب ما يسمّى بالطبيب.

كنت محطّماً كليّاً. شرحت كلَّ شيء لمصطفى وميغيل، وقد أراحاني بقولهما بها أنَّ الضربة كانت، إذا جاز التعبير، قبل ساعات، وكنت قد حذرته بما فيه الكفاية، كان يجب أن يستمع إليّ.

زهاء الثالثة بعد الظهر، فتح جوجو عينيه. جعلناه يشرب بضع قطرات من الروم، وبعد ذلك، همس بصعوبة ببعض الكلمات قائلاً: «كلّ شيء معي، يا صديقي: أنا أعرف ذلك. لا تدعني أتحرّك. لم يكن خطأك، بابي. كان خطئي أنا». توقّف لبعض الوقت ثمَّ تابع قائلاً: «ميغيل، هناك علبة مدفونة خلف

خنزيرك. دع الرجل ذا العين الواحدة يأخذها إلى زوجتي لولا». كان عقله صافياً لبضع دقائق، بعد ذلك عاد إلى الغيبوبة. مات عند غروب الشمس.

جاءت دونا كارمنسيتا، المرأة البدينة، لرؤيته. أحضرت قليلاً من الماس وثلاث أو أربع أوراق نقديَّة وجدتها على الأرض في منزلنا في الصباح. يعلم الله أنَّ المئات من الناس كانوا هناك، لكن لم يمسَّ أيٌّ منهم المال ولا الماس.

جاء كلّ أفراد المجتمع الصغير تقريباً إلى الجنازة. كان البرازيليّون الأربعة هناك، ولا يزالون يرتدون قمصانهم خارج سراويلهم. اقترب منّي أحدهم ومدَّ يده. تظاهرت بعدم رؤيته وأعطيته ضربة وديَّة في بطنه. نعم: لقد كنت على حقّ. كان المسدَّس هناك، حيث كنت أظنُّ أنَّه سيكون.

تساءلت عمَّا إذا كان يجب عليَّ التعامل معهم. الآن؟ في وقت لاحق؟ ما عليَّ فعله؟ لا شيء: لقد فات الأوان.

كنت أرغب في أن أكون وحدي، لكن بعد الدفن، كان من المعتاد الذهاب لتناول شراب بحضره المالك في المقبرة. كانوا دائماً يأتون، كلّهم.

لمَّا كنت عند دونا كارمنسيتا، جاءت وجلست إلى جانبي، وكأس اليانسون في يدها. لمَّا رفعت كأسي لأحتسيها، رفعت هي كأسها أيضاً، لكن فقط لإخفاء حقيقة أنَّها كانت تتحدَّث إليَّ.

– من الأفضل أنَّه هو، لا أنت. الآن يمكنك الذهاب إلى أيِّ مكان تريده بسلام.

– ماذا تقصدين بسلام؟

– لأنَّ الجميع يعلم أنَّك تبيع دائماً أرباحك للبنانيين.

– نعم، لكن لنفترض أنَّ اللبنانيين قتلوا؟

- هذا صحيح. هناك مشكلة أخرى أيضاً.

أخبرتُ دونا كارمنسيتا أنَّ المشروبات كانت على حسابي، وخرجت وحدي، تاركاً أصدقائي جالسين هناك.

سلكتُ الطريق المؤدِّي إلى ما يسمَّى بالمقبرة، قطعة أرض خالية تبلغ مساحتها نحو خمسين متراً مربّعاً، من دون أن أعرف السبب حقّاً.

كانت المقبرة تحتوي ثمانية قبور: كان قبر جوجو الأحدث. وهناك وقف أمامه مصطفى. ذهبت إليه.

- ماذا تفعل يا مصطفى؟

- جئت للصلاة من أجل صديق قديم - كنت أحبُّه - وكي أحضر له صليباً. لقد نسيت أن تصنع واحداً.

يا للهول، هذا صحيح! لم أفكِّر في ذلك من قبل. صافحت يد العربيّ العجوز الطيّب وشكرته.

سألني قائلاً: «أنت لست مسيحيّاً؟ لم أرَكَ تصلّي عندما أهالوا التراب عليه».

فأجبته قائلاً: «هذا يعني... بالتأكيد، أنَّ هناك إلهاً واحداً، يا مصطفى». أجبته بذلك لإرضائه. شكرته أيضاً لأجل الاعتناء بي بدلاً من إرسالي بعيداً إلى الأبد، مع جوجو. وأنا أقوم بأكثر من الصلاة لهذا الرجل العجوز. أنا أسامحه: لقد كان طفلاً صغيراً فقيراً من أحياء بيلفيل الفقيرة، وكان قادراً على تعلّم مهنة واحدة فقط - إطلاق النار على الفضلات».

- ما الذي تتحدَّث عنه يا أخي؟ أنا لا أفهم.

- لا يهمّ. لكن تذكَّر هذا: أنا آسف حقّاً لأنَّه مات. لقد حاولت إنقاذه. إنَّما لا ينبغي لأحد أن يعتقد أنَّه أكثر إشراقاً من البقيّة، لأنَّه في يوم من الأيَّام سيجد رجلاً أسرع منه. جوجو بخير هنا. سينام إلى الأبد مع ما يحبّه، المغامرة والمناظر الطبيعيَّة البريَّة؛ وسينام مع مغفرة الله.

- نعم، سوف يغفر الله له بالتأكيد، لأنَّه كان رجلاً صالحاً.

- هذه حقيقة.

عدت ببطء إلى القرية. كان صحيحاً أنَّني لم أشعر بالاستياء تجاه جوجو، على الرَّغم من أنَّه كان قد شارف على الموت. حماسه وطاقته المذهلة وشبابه، على الرَّغم من الستين عاماً التي قضاها، وتربيته الجيّدة: «أحسن التصرّف، يرعاك الله، تصرَّف على نحو حسن!». وبعد ذلك، جرى تحذيري. سأصلّي بطيب خاطر لأشكر خوسيه على نصيحته. من دونه لما كنت هنا.

كنت أتأرجح برفق في الأرجوحة الشبكيَّة وأدخّن السيجار، الواحد تلو الآخر، وأغمر نفسي في النيكوتين، وأطارد البعوض، وعمدت إلى تقييم حساباتي.

حقّاً. كان لديَّ عشرة آلاف دولار بعد بضعة أشهر فقط من الحريَّة. وقد قابلت هنا في إل كالاو رجالاً ونساء من جميع الأجناس والخلفيَّات، كلّ واحد منهم ممتلئ بالدفء البشريّ. بسببهم، وبسبب هذه الحياة في البريَّة، في هذا الجوّ، على عكس جوّ المدينة، عرفت كم كانت الحريَّة، التي كافحت من أجلها بشدَّة، رائعة.

من ناحية أخرى، انتهت الحرب، بفضل شارل ديغول واليانكيز، وفي كلّ هذا الاضطراب، الذي يعني ملايين الأشخاص، لم يكن المحكوم عليه

يشكّل أمراً كبيراً. كان ذلك أفضل بالنسبة إليَّ: مع كلّ هذه المشكلات المطلوب تسويتها، سيكون لديهم أشياء أخرى لإنجازها إلى جانب القلق بشأن ما كنت عليه.

كنت في السابعة والثلاثين من عمري: ثلاثة عشر عاماً من التسوية الجزائيّة، ثلاثة وخمسون شهراً من الحبس الانفراديّ، مع احتساب سانتي، وكونسيرجيري، وبوليو، وكذلك سجن جزيرة ريسيوسيون. كان من الصعب وضع ملصق عليَّ.لم أكن نذلاً فقيراً قادراً فقط على العمل مع معول أو مجرفة أو فأس؛ ولم يكن لديَّ مهنة حقيقيَّة تسمح لي بكسب عيش لائق في أيِّ مكان في العالم، كميكانيكيّ أو كهربائيّ، في سبيل المثال. من ناحية أخرى، لم أستطع تحمُّل مسؤوليّات مهمَّة. لم يكن لديَّ تعليم كافٍ لذلك. في أثناء وجودك في المدرسة، كان عليك دائماً تعلُّم مهنة يدويَّة جيّدة؛ لأنَّه إن لم تنجح في العلم لسببٍ أو لآخر، يمكنك دائماً الاعتماد على نفسك في هذه الحياة. لم يكن الأمر يتعلَّق بأن تكون لديك مكانة أفضل إن كنت متفوّقاً في العلم من ذلك الذي يكنس الشوارع - لم أكن أحتقر أيَّ رجل باستثناء الشيورمي والخنازير - لكن لا نعلّق على الشخصيّة. لقد أصبت بالحرج - شعرت أنّك ربّما تكون سعيداً، لكنَّك لن تكون كذلك، في النهاية.

كنت على قدر كبير من العلم، لكن لم يكن ذلك كافياً. بحقّ الجحيم، لم تكن تلك النظرة الأكثر إشراقاً في العالم.

كان صحيحاً أنّني اضطررت إلى الانتقام أيضاً: كان صحيحاً أنّني لا أستطيع أن أسامح الأشخاص الذين تسبّبوا في أذى كبير لي ولأسرتي. اهدأ يا بابي، اهدأ. لديك متَّسع من الوقت. يجب أن تتعلَّم تدريجياً أن تثق

بالمستقبل. لقد أقسمت على الذهاب مباشرة إلى هذا البلد، لكن ها أنت ذا، بالفعل، تتناسى وعدك.

كان من الصعب العيش كباقي الناس والخضوع كالآخرين، واتّباع خطواتهم كقاعدة لقبول المقياسين التاليين: الزمن والبعد.

كان ثمّة أمران: أن أحترم هذا البلد، وأن أترك فكرة الانتقام خلف ظهري. أو أنّه لا يمكنك أن تتخلّى عن هذه الفكرة الراسخة التي يستلزم تنفيذها كمّاً كبيراً من المال، لا يمكنك الحصول عليه بالإطلاق من عملك. عليك أن تتّسم بروح المغامرة.

في الأساس، هذه الثروة التي لا غنى عنها، يمكنني الذهاب والعثور عليها في مكان آخر ليس في فنزويلا. ليس بهذا الغباء. سنرى. يجب أن أفكّر مليّاً. لننم.

إنّما، قبل ذلك، لم أستطع أن أمنع نفسي من الذهاب إلى المدخل والتحديق لفترة طويلة إلى النجوم والقمر، والاستماع إلى الأصوات التي لا تعدُّ ولا تحصى، القادمة من الأدغال الغامضة التي أحاطت بالقرية بجدار مظلم، في حين أنَّ القمر كان لامعاً.

ثمَّ خلدت إلى النوم، وأنا أتأرجح برفق في الأرجوحة الشبكيَّة، سعيداً حتّى النخاع لأنّني كنت حرّاً، حرّاً، وحرّاً. وأصبحت سيّد مصيري.

الفصل الرابع

وداعاً إل كالاو

في نحو الساعة العاشرة من صباح اليوم التالي، ذهبت لرؤية اللبنانيين.

وصلت إلى إل كالاو أو بوليفار كويداد، إلى العناوين التي أعطتني إيَّاها، فهل سيدفعون لي مقابل الحسنات التي قدَّمتها لي؟

- من المؤكّد، يمكنك أن تكون مطمئناً.

- لكن، ماذا لو قتلوك أنت أيضاً؟

- لا يهمّ لديهم. سيجبرونك على الدَّفع مهما حصل. هل أنت ذاهب إلى إل كالاو؟

- نعم.

- من أيِّ جزء من فرنسا أنت؟

- كوت أفينيون، ليس بعيداً عن مرسيليا.

- ماذا؟ لديَّ صديق من مرسيليا، لكنَّه يعيش بعيداً عن هنا. يدعى ألكسندر جويغ.

- هذا مستحيل! تعرفه حقّاً! إنّه صديق مقرّب لي.

- ولي أيضاً. أنا سعيد لأنّك تعرفه.

- إنّه في البرازيل. يقطن في بوا فيستا. رحلة طويلة ومعقّدة للغاية.

- ماذا يفعل هناك؟

- إنّه حلّاق. من السهل العثور عليه - ما عليك سوى طلب طبيب الأسنان الفرنسيّ.

- إذاً هو طبيب أسنان أيضاً؟

قلت هذا ولم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك.

لم يسعني إلّا أن أضحك، لأنّني كنت أعرف ألكسندر جويغ جيّداً: رجل غير عاديّ. أُرسل في الوقت نفسه، مثلي، عام ١٩٣٣؛ عبرنا معاً، وكان لديه كلّ الوقت ليخبرني بكلّ التفاصيل الأخيرة عن وظيفته.

في إحدى ليالي السبت من عام ١٩٢٩ أو ١٩٣٠، نزل ألكسندر وصديقه بهدوء من سقف أكبر متجر جواهر في لشبونة. لقد اقتحما بشغف مكتب طبيب الأسنان في الطابق السفليّ. لحفظ تخطيط الأماكن، للتأكّد من أنَّ طبيب الأسنان يذهب بعيداً في نهاية كلِّ أسبوع مع أسرته ويترك بصماته على قفل الباب الأماميّ والعيادة، كان عليهما الذهاب إلى هناك مرّات عدَّة وحشو أسنانهما.

قال لي ألكسندر: «لقد أنجز عملاً جيّداً جدّاً، ورؤية الحشوات لا تزال موجودة. في ليلتين، قضينا كلَّ الوقت الذي احتجنا إليه لتغيير الجواهر وفتح خزنتين وخزانة صغيرة من الفولاذ، وفعلنا ذلك بدقَّة، ومن دون أيِّ ضوضاء. لا بدَّ أنَّ طبيب الأسنان كان بارعاً في وصف الناس، لأنّنا كنّا على المنصّة مغادرين لشبونة حين قفزت «الخنازير» علينا من دون أيِّ تردُّد. حكمت المحكمة البرتغاليّة علينا ما بين عشرة أعوام واثني عشر عاماً. لذلك كنّا هناك، بعد فترة وجيزة، في سجنهم في أنغولا، أسفل

الكونغو البلجيكيّة والفرنسيّة. ما من مشكلة في الهروب: جاء أصدقاؤنا ليأخذونا في سيّارة أجرة. ذهبت كصديقي إلى برازافيل: اختار صديقي من ليوبولدفيلي. بعد بضعة أشهر قبضت عليَّ الشرطة الفرنسيّة، وعلى صديقي أيضاً. رفض الفرنسيّون إعادتي إلى البرتغاليين: لقد أرسلوني إلى فرنسا، وهناك قضيت مدَّة عشرين عاماً بدلاً من عشرة الأعوام التي أعطوني إيّاها في البرتغال».

لقد كان هارباً من غيانا. كنت أعلم أنَّه قد مرَّ بجورج تاون، وأنَّه بالفعل ذهب إلى البرازيل عبر الأدغال، راكباً ثوراً.

- ماذا لو ذهبت لرؤيته؟

- نعم: سأذهب إلى بوا فيستا. كانت تلك فكرة رائعة!

خرجت مع رجلين. قالا إنَّهما يعرفان كيفيَّة الوصول إلى البرازيل، وكان عليهما مساعدتي في حمل الطعام والفراش. تجوَّلنا مدَّة عشرة أيّام، تجوَّلنا في الأدغال من دون حتّى أن نتمكَّن من الوصول إلى سانتا هيلينا، آخر قرية تعدين قبل الحدود البرازيليّة. وبعد أسبوعين وجدنا أنفسنا في أمينوس، منجم ذهب على حافة غيانا البريطانيّة تقريباً. بمساعدة بعض الهنود وصلنا إلى نهر كويوني، وقد قادنا ذلك إلى قرية فنزويليّة صغيرة تسمّى كاستيليجو. هناك اشتريت المناجل والرماح كهديّة للهنود، وتركت ما يسمّى المرشدين. كان عليَّ أن أتحكَّم بنفسي كي لا أسحق وجوههم، لأنَّهم في الواقع لم يعرفوا تلك الأنحاء أكثر ممّاً عرفت.

في النهاية، وجدت رجلاً في القرية يعرف حقّاً البلد، ووافق على إرشادي. بعد أربعة أو خمسة أيّام وصلت إلى إل كالاو.

منهك، متهالك، نحيل كالمسمار، طرقتُ باب ماريا عند حلول الظلام.

«إنَّه هنا! إنَّه هنا!» صرخت إزميرالدا بأعلى صوتها.

«من؟»، سألت ماريا من غرفة أخرى. «ولماذا تصرخين هكذا؟»

عثرت على هذه الحلاوة مرَّة أخرى بعد الأسابيع التي مررت بها للتوّ، أمسكت بإزميرالدا ووضعت يدي على فمها لمنعها من الردّ.

«لماذا كلّ هذه الضوضاء حول الزيارة؟»، سألت ماريا، وهي تتقدَّم في الصالة.

صراخ نابع من القلب. ثمَّ تحقَّقت صرخة الفرح والمحبّة والأمل، ألقت بنفسها بين ذراعيّ.

لمَّا احتضنت بيكولينو وقبَّلت أخت ماريا الأخرى - كان خوسيه بعيداً - استلقيتُ هناك لفترة طويلة إلى جانب ماريا. ظلَّت تسألني الأسئلة نفسها. لم تصدِّق أنَّني أتيت مباشرة إلى منزلها من دون التوقّف لدى شارلوت الكبير أو في أيّ من مقاهي القرية.

- «ستبقى لفترة قصيرة في إل كالاو، أليس كذلك؟»

- «نعم. سأصلح الأمور وأبقى لبعض الوقت».

- «يجب أن تعتني بنفسكَ وتزيد من وزنكَ؛ سوف أطبخ أطيب الأطباق الشهيّة لك يا حبيبي. حينما ستذهب، حتّى لو جرح قلبي إلى الأبد - لا ألومك بأيٍّ شكل من الأشكال، لأنك حذَّرتني - حينما تذهب، أريدك أن تكون قويّاً، حتّى تتمكّن من تجنُّب أفخاخ كاراكاس أيضاً بكلّ ما يمكنك.

إل كالاو وإيوزيباتا وإيوياتا وتوميريمو: قرى أوروبيّة صغيرة بأسماء غريبة، نقاط صغيرة على خريطة بلد بحجم فرنسا ثلاثة أضعاف، فُقدت في الجزء الخلفيّ من الخارج، حيث كلمة تقدّم ليس لها معنى، ممتلئة بالعواطف الحقيقيّة والكرم والفرح في الحياة واللطف. كان على جميع الرجال الذين تجاوزوا الأربعين تقريباً أن يتحمَّلوا أفظع الديكتاتوريات، على غرار حكم غوميز. جرت مطاردتهم وضربهم حتَّى الموت من أجل لا شيء: أيّ رجل في السلطة يمكن أن يجلدهم بزلقة الثور. لمَّا كانوا بين الخامسة عشرة والعشرين، في الأعوام من ١٩٢٥ إلى ١٩٣٥، جرى اصطيادهم جميعاً مثل الحيوانات من قبل عملاء التجنيد في الجيش، وتمَّ سحبهم إلى الثكنات. كانت تلك الأيّام التي كان يجري فيها اختيار فتاة جميلة وخطفها من قبل مسؤول مهمّ، وإلقاؤها في الشارع عندما كان يفرغ منها؛ وإذا رفعت أسرتها إصبعاً لمساعدتها، يجري القضاء عليهم جميعاً.

بين الحين والآخر، كانت هناك انتفاضات وثورات انتحاريَّة قام بها رجال مصمّمون على الانتقام حتّى لو ماتوا من أجلها. لكنَّ الجيش كان موجوداً دائماً في الحال، وأولئك الذين هربوا بحيواتهم تعرَّضوا للتعذيب، إلى درجة أنَّهم أصيبوا بالشلل لبقيَّة أيّامهم.

ومع ذلك، وعلى الرّغم من كلّ ذلك، فإنّ الناس شبه الأميين في هذه القرى الصغيرة المتخلّفة ما زالوا يحتفظون بحبّهم للرجال الآخرين وثقتهم بهم. بالنسبة إليَّ، كان درساً مستمرّاً، وهو ما أثّر في قلبي.

فكَّرتُ في كلٍّ هذا وأنا مستلقٍ إلى جانب ماريا. لقد عانيتُ، كان هذا صحيحاً. لقد أُدنت ظلماً، وهذا صحيح مرَّة أخرى. كان الحرَّاس الفرنسيّون متوحّشين مثل شرطة وجنود الطاغية، وربَّما كانوا أكثر شيطانيَّة؛

لكن ها أنا ذا، في قطعة واحدة، مررت للتوّ بمغامرة رائعة - مغامرة خطِرة، بالتأكيد، لكن كم هي رائعة للغاية! كنت أسير، أجدّف في قارب الكانو، أسير عبر الأدغال؛ لكن بما أنّني عشت كلَّ يوم كأنّه عام، فقد كان ممتلئاً؛ تلك الحياة لرجلٍ بلا قوانين، خالية من كلّ القيود، من كلّ الحدود الأخلاقيّة، من كلِّ طاعة لأوامر من الخارج.

لذلك، تساءلت عمّا إذا كنت أفعل الشيء الصحيح، بالذهاب إلى كاراكاس وترك هذه الزاوية من الجنّة ورائي. سألت نفسي مراراً وتكراراً هذا السؤال.

في اليوم التالي، أخبار سيّئة. أخبرني مراسل اللبنانيّ، وهو صائغ صغير متخصّص في زهور الأوركيد الذهبيّة مع لآلئ مارغريت، وفي جميع أنواع الحليّ الأخرى الأصليّة حقّاً، أنّه لا يستطيع دفع أيِّ شيء في مذكّراتي الائتمانيّة لأنَّ اللبنانيين يدينون له بمبلغ ضخم من المال. حسناً، سأذهب وأحصل على أموالي في العنوان الآخر، في سيوداد بوليفار.

-- «هل تعرف هذا الرجل؟»، سألتُ.

- يا للأسف. إنّه محتال. إنّه يهرب، يأخذ كلَّ شيء، حتّى بعض القطع النادرة التي تركتها معه بحكم الثقة.

إذا كان ما قاله هذا الأحمق اللعين صحيحاً، فقد كنت أكثر انكساراً من ذي قبل مع جوجو. حسناً! كم إنَّ القدر غامض. هذه الأشياء حدثت لي فقط. ويؤدّيها لبنانيّ في الصفقة!

وصلت إلى البيت بخُطى ثقيلة، مُطأطأ الرأس. لكسب عشرات آلاف الدولارات تلك البائسة كنت قد خاطرت بحياتي لعشر وعشرين مرّة. لم

يبقَ لي فلس واحد. حسناً، إنَّ اللبنانيين لم يضطرّوا إلى تحميل النرد للفوز. والأفضل من ذلك، لم يكلّف نفسه عناء الانتقال - فقد جلس هناك في المنزل، في انتظار وصول الأموال إليه.

إلّا أنَّ حبّي للحياة كان قويّاً جدّاً إلى درجة أنّني أذهلت نفسي: «أنت رجل حرّ، وها أنت ذا تتذمَّر بشأن القدر! لا بمكنك أن تكون جادّاً. ربَّما بانكو ضائع، لكن كانت المغامرة رائعة: «ضع رهاناتك!». «في غضون أسابيع قليلة أنا غنيّ أو ميت»... شدّة التشويق، كما لو كنت جالساً على بركان أشاهد فوهته، لكنّني أعلم أيضاً أنَّ الحفر الأخرى يمكن أن تنفتح، وأنَّ عليك التخطيط مسبقاً للانفجارات الأخرى المحتملة. ألا يستحقّ الأمر خسارة تلك عشرة الآلاف دولار؟

عدتُ إلى السيطرة مرَّة أخرى الآن، وكان بإمكاني رؤية الموقف بوضوح كافٍ. يجب أن أعودَ بسرعة إلى المنجم، قبل أن يتسلَّل اللبنانيّون. وبما أنَّ الوقت من ذهب، فلا نخسر شيئاً. سأذهب وأجد بغلاً، وبعض المتاجر، وأكون في طريقي! ما زلت أملك مسدَّساً وسكّيناً. كان السؤال الوحيد، هل سأجد الطريق؟

لقد استأجرت حصاناً - اعتقدت ماريا أنّه أفضل بكثير من البغل. الشيء الوحيد الذي كان يقلقني هو فكرة أن آخذ طريقاً مغلوطاً، لأنّه كانت هناك أماكن يأتي فيها الآخرون من جميع الاتجاهات.

قالت ماريا: «أنا أعرف المسارات: هل تريدني أن أذهب معك؟ أوه، أحبّ ذلك! سأذهب فقط إلى بوسادا، حيث تترك الخيول قبل ركوب الزورق».

- هذا خطِر جدّاً عليك يا ماريا. قبل كلّ شيء، خطر العودة بمفردك.

- سأنتظر مرور شخص ما يعود إلى كالاو. بهذه الطريقة سأكون بأمان. من فضلك قل نعم يا حبيبي!

لقد تحدَّثت إلى خوسيه، ووافق على أن تذهب. قال: «سأعيرها مسدَّسي. ماريا تعرف كيف تستخدمه».

بعد خمس ساعات، امتطينا الحصان. هذه هي الطريقة التي جئنا بها للجلوس هنا بمفردنا على حافَّة بيكيه، أنا وماريا. كانت ترتدي بنطالاً، هديَّة من صديقتها، ألانيرا. إنَّها امرأة فنزويليّة ضخمة، حيث تعيش النساء بشجاعة ولا تقهر؛ يطلقنَ النار من بندقيّة أو مسدّس على غرار الرجل، ويمسكنَ بالمنجل كالمبارز، ويمتطينَ الأحصنة كالأمازونيّات- لكن، على الرَّغم من ذلك، هنَّ قادرات على استقبال الموت من أجل الحبّ.

كانت ماريا عكس ذلك تماماً. كانت لطيفة وحسّاسة وقريبة جدّاً من الطبيعة، إلى درجة أنَّها شعرت بكونها جزءاً منها. لم يكن ذلك يمنعها من معرفة كيفيَّة الاعتناء بنفسها، بالسلاح أو من دونه: لقد كانت شجاعة.

لن أنسى أبداً أيّام السفر تلك قبل أن نصل إلى بوسادا. أيّام وليال لا تُنسى عندما كان قلبانا يغنّيان بعد أن كنَّا متعبَين للغاية، إلى درجة أنَّنا لم نتحدَّث عن سعادتنا.

لن أتمكَّن أبداً من وصف فرحة تلك التوقّفات الشبيهة بالحلم عندما لعبنا في برودة المياه الصافية، وبعد ذلك، كنّا عاريين ومبلّلين عندما مارسنا الحبَّ على الضفّة المعشبة الممتلئة بالفراشات والطيور الطنّانة واليعاسيب في كلِّ مكان.

كنَّا نمضي قُدماً، نترنَّح بالحبِّ، وأحياناً مفعمين بالنشوة، إلى درجة أنَّني تحسَّست جسدي لأتأكَّد من أنَّني ما زلت قطعة واحدة.

كلَّما اقتربنا من البوسادا استمعت عن كثب إلى صوت ماريا الطبيعيّ النقيّ وهو ينشد أغاني الحبّ. وكلّما قصرت المسافة، تباطأت بجرِّ حصاني ووجدت أعذاراً لراحة أخرى.

- ماريا، أعتقد أنَّه يجب علينا ترك الحصان يرتاح قليلاً.

- بهذه الوتيرة، لن يكون هو الشخص المتعب عندما نصل إلى هناك، يا بابي؛ قالت هذا وهي تضحك إلى أن ظهرت أسنانها اللؤلؤيّة.

تمكنَّا من قضاء ستّة أيّام على الطريق قبل أن نصل إلى البوسادا. في اللحظة التي رأيتها، شعرت بشوق لقضاء الليلة هناك ثمَّ العودة إلى كالاو. فكرة الحصول من جديد على نقاء تلك الأيام الستّة الممتلئة بالشغف، بدت لي فجأة أهمّ ألف مرّة من عشرة الآلاف دولار. كانت الرغبة قويّة إلى درجة جعلتني أرتعد. لكن الأقوى، كان هناك صوت قال لي: «لا تكن أحمق، يا بابي. عشرة آلاف دولار هي ثروة. يمكنك من خلال القسم الأوّل الأكبر منها تنفيذ خطّتك. يجب ألّا تتخلَّ عنها».

قالت ماريا: «ها هي ذي البوسادا».

وعكس كلّ ما كان يجول في خاطري، وكلّ ما أشعر به، قلت لماريا: «نعم، ها هي ذي بوسادا. رحلتنا انتهت. سأتركك غداً».

أربعة رجال طيّبون عند المجاذيف، على الرّغم من شدَّة التيَّار، فإنَّ الزورق يتسارع فوق الماء. كلّ تجذيفة جديدة كانت تأخذني بعيداً عن ماريا. وقفت على الضفّة، وكانت تراقبني ثمَّ اختفت.

أين السلام، أين الحبّ، أين ربّما كانت المرأة التي قُدِّر لي أن أبني معها بيتاً وأسرة؟ لقد أجبرت نفسي على عدم النظر إلى الوراء، خوفاً من أن أصرخ وأقول: «دعونا نعُد!». عليَّ الذهاب إلى المنجم والحصول على أموالي ثمَّ التوجّه إلى مغامرات أخرى في أقرب وقت ممكن، للقيام برحلة رائعة إلى باريس ذهاباً وإياباً. إذا كانت هناك أيّ عودة.

وعد واحد فقط: لن أؤذي اللبنانيين، سآخذ ما يخصّني، لا أكثر ولا أقلّ. لم يكن يعرف قطّ أنّه مدين بهذه المغفرة للأيّام الستّة التي قضيتها في السفر عبر الجنَّة مع أروع فتاة في العالم، ماريا، حوريَّة كالاو.

«اللبناني؟ أنا متأكّد من أنّه قد رحل». قال ميغيل، بعد أن سحقني في أحضانه.

لقد وجدت الكوخ مغلقاً، وهذا صحيح بدرجة كافية، لكنَّ العلامة الرائعة كانت لا تزال موجودة:

«الصدق أعظم كنز لديَّ».

– «هل تعتقد أنّه غادر؟»

– «اهدأ يا بابي. سنكتشف ذلك قريباً».

لم يدم شكّي طويلاً، ولا أملي. أكّد لي مصطفى أنَّ اللبنانيَّ قد رحل. لكن إلى أين ذهب؟ بعد يومين فقط من التحقيق، أخبرني عامل منجم أنّه ذهب إلى البرازيل مع ثلاثة حرّاس شخصيين. «كلّ عمّال المناجم يقولون إنّه رجل شريف بالتأكيد». حينها، أخبرته قصّة كالاو، وكلّ ما عرفته عن اختفاء كويداد بوليفار. قال أربعة أو خمسة رجال، بينهم إيطاليّ، إنّني إذا كنت على

صواب، فإنَّهم مفلسون. لم يكن هناك سوى رجل عجوز من غيانا لم يقبل بنظريتنا هذه. ووفقاً له، فإنَّ اللصَّ الحقيقيَّ كان يوناني سيوداد بوليفار. نظرنا إلى الموقف من كلِّ زاوية لفترة طويلة، لكن في قلبي شعرت أنَّني فقدت كلَّ شيء. ماذا كنت سأفعل؟

أذهب لرؤية ألكسندر جيج في بونا فيستا؟ لقد كان الطريق طويلاً، البرازيل. كان عليك أن تقطع حوالي خمسمئة كيلومتر عبر الأدغال للوصول إلى بونا فيستا. كانت تجربتي الأخيرة محفوفة بالمخاطر. بعد قليل سنستريح. لا، كنت أعمل في إصلاح الأشياء لأستطيع الاحتفاظ بالعقد مع المناجم، وبمجرَّد أن سمعت أنَّ اللبنانيَّ قد ظهر مرَّة أخرى ذهبت لزيارته. بتسوية ذلك، سأكون في طريقي إلى كاراكاس، وألتقط بيكولينو وأمضي. كان هذا هو الجواب الأكثر منطقيَّة. في اليوم التالي كنت في طريقي إلى كالاو.

بعد مضيّ ثمانية أيّام وأنا مع خوسيه وماريا، قلت لهما كلَّ شيء. بلطف، بهدوء، وجدت ماريا الكلمات المناسبة لاستعادة معنوياتي. حثَّني والدها على البقاء معهم. «سنقتحم مناجم كاراتال». ابتسمتُ وربَّتُّ على كتفه.

لا، حقّاً، هذا لم يرق لي؛ يجب ألّا أبقى هنا. كان حبّي لماريا وحده الذي يمكن أن يبقيني في كالاو. كنت متعلّقاً أكثر ممَّا كنت أتصوَّر، وأكثر ممَّا كنت أريد. هذا حبّ قويّ وصادق. إلَّا أنَّه لم يكن قويّاً بما يكفي للتغلّب على رغبتي في الانتقام.

تمَّت تسوية كلّ شيء: أنجزت الترتيبات مع سائق شاحنة، وكان علينا المغادرة في الخامسة من صباح اليوم التالي.

بينما كنت أحلق، خرجت ماريا من الغرفة واختبأت في غرفة شقيقاتها. أخبرها هذا الإحساس الغامض الذي تمتلكه النساء أنّ هذا هو الفراق الحقيقيّ. كان بيكولينو جالساً على الطاولة في الغرفة الكبيرة، نظيفاً ومرتّباً، وكانت إزميرالدا تقف إلى جانبه ويدها على كتفه. تقدّمت خطوة نحو الغرفة التي كانت فيها ماريا. أوقفتني إزميرالدا قائلةً: «لا، يا إنريكي». ثمَّ اندفعت إلى الباب واختفت هي أيضاً داخل الغرفة.

اصطحبنا خوسيه إلى الشاحنة. نحن لم نقل كلمة واحدة.

وداعاً يا ماريا، وردة كالاو، أنت قدَّمتِ لي الحبّ والعطف أكثر من الذهب الذي نستخرجه من مناجمنا.

الفصل الخامس

كاراكاس

كانت رحلة صعبة، خاصَّة بالنسبة إلى بيكولينو. حوالي ألف كيلومتر؛ عشرون ساعة من القيادة من دون احتساب التوقّفات. لقد أمضينا بضع ساعات في بوليفار كويداد، ثمَّ بعد ذلك عبرنا أورينوك الرائع على متن عبَّارة، وكان هذا بمنزلة سباق بريّ للشاحنة التي تسير بجنون، يقودها بسعادة رجل ذو أعصاب فولاذيَّة.

وصلنا إلى كاراكاس بعد ظهر اليوم التالي، في السّاعة الرابعة صباحاً. وكنت هناك في المدينة الكبيرة. الحركة، الحشود، مجيء ومغادرة الآلاف والآلاف من الناس، جذبتني.

١٩٢٩، باريس. ١٩٤٦، كاراكاس. لقد مرَّ سبعة عشر عاماً منذ أن رأيت مدينة كبيرة حقيقيَّة. مدينة جميلة، كاراكاس، جميلة بمنازلها الاستعمارية المؤلّفة من طابق واحد. وامتدّ الوادي مع ارتفاع جبال أفيلا حوله. مدينة على ارتفاع تسعمئة متر، مع نبع أبديّ، ليس شديد الحرارة ولا شديد البرودة.

همس الدكتور بوجرات في أذني: «أنا أثق بك يا بابيون»، كما لو كان هناك، يشاهدنا ونحن في طريقنا إلى هذه المدينة الضخمة المكتظة.

حشود من الناس في كلّ مكان، من كلّ الألوان، من الداكن إلى الأفتح. الجميع من الأسود إلى القرميد أو الأبيض النقيّ، كانوا يحبون بسعادة

وصلت إلى رأسي في اللحظات الأولى. كلّ هؤلاء السكّان الملوّنين يعيشون في متعة في اللحظات الأولى.

مع انحناء بيكولينو على ذراعي، مشيت في اتّجاه وسط المدينة. أعطاني شارلوت الكبير عنوان محتال سابق كان يمتلك فندقاً صغيراً، ويدعى بنسيون ماراكايبو.

نعم، مرَّ سبعة عشر عاماً ودمَّرت الحرب حياة مئات الآلاف من الرجال، في مثل عمري، في عدد كبير جدّاً من البلاد، بما في ذلك بلدي فرنسا. بين عامَي ١٩٣٩ و١٩٤٥ كانوا أيضاً سجناء أو قُتلوا أو شُوّهوا. أنت هنا يا بابي في المدينة الكبيرة! كنت في التاسعة والثلاثين من عمري. كنت شابّاً وقويّاً. انظر حولك إلى كلّ هذه المخلوقات المرتدية ثياباً هزيلة: يضحكون ملء قلوبهم. الأغاني ليست فقط في الهواء، بل يجري تشغيلها بوساطة التسجيلات العصريَّة. هم في قلب الجميع، من دون استثناء. تقريباً لأنّنا، بالطبع، نلاحظ على الفور أنَّ بعضهم لا يسحب رصاصة أو سلسلة، لكن أسوأ من ذلك، لسوء الحظّ، أن تكون فقيراً، ولا تعرف كيف تدافع عن نفسك في هذه الغابة التي هي مدينة كبيرة.

كم هي جميلة، مدينة عظيمة! وكانت الساعة الرابعة فقط الآن. كيف يجب أن تكون عليه الحال في الليل المزدان بملايين النجوم الكهربائيّة؟ ومع ذلك، كنّا لا نزال في منطقة للطبقة العاملة، وكانت منطقة صعبة للغاية في ذلك الوقت. كنت أنفق القليل من المال لمرَّة واحدة. «تاكسي!».

جالساً إلى جانبي، ضحك بيكولينو وراوغ على غرار طفل. مسح شفتيه وشكرني بعينين مشرقتين، يرتجف، لقد تأثَّر كثيراً. بالنسبة إليه، كان وجوده

في مدينة، عاصمة عظيمة مثل كاراكاس، يعني قبل كلّ شيء الأمل في العثور على مستشفيات وأطباء يمكنهم تحويل الحطام إلى رجل عاديّ مرَّة أخرى. معجزة الأمل. أمسك بيدي، في حين كانت الشوارع تمرُّ في الخارج، ثمَّ كان هناك المزيد من الشوارع مع الناس، والمزيد من الناس، لذلك أخفوا الأرصفة بالكامل. السيّارات، الأبواق، صفّارات سيّارة الإسعاف، رنين سيّارة الإطفاء، صخب الباعة الجائلين وبائعي الصحف الذين يبيعون الصحف المسائيّة، صراخ مكابح الشاحنات، طنين العربات وأجراس الدرّاجات - كلّ هذه الصيحات والضوضاء التي تصمُّ الآذان حولنا جعلتنا نشعر كأنّنا في حالة سُكر. فالدين يدمِّر أعصاب بعض الناس، لكن كان له تأثير معاكس فينا؛ لقد أيقظنا وجعلنا نفهم تماماً أنّنا عدنا إلى الإيقاع المجنون للحياة الميكانيكيَّة الحديثة - وبدلاً من التوتّر، شعرنا بسعادة رائعة.

لم يكن من المستغرب أنَّ الضجيج هو الذي ضربنا أكثر. لقد عرفت الصمت مدَّة خمسة عشر عاماً، صمت السجون، صمت تسوية العقوبات، أكثر من صمت الحبس الانفراديّ، صمت الأدغال والبحر، صمت القرى الصغيرة النائية حيث يعيش الناس سعداء.

قلت لبيكولينو: «نحن نأتي إلى مدينة باريس - كاراكاس، مدينة حقيقيّة. هنا سوف يجملونك جيّداً، وبالنسبة إليَّ، سأجد طريقي الصحيح وأحدّد مصيري؛ بإمكانك أن تكون واثقاً بذلك».

ضغطت يده على يدي. سالت دمعة من عينه. كانت يده أخويّة وحنوناً إلى درجة أنّني تمسّكت بها كي لا أفقد هذا الاتصال الرائع؛ وبما أنّ ذراعه الأخرى ماتت، فقد مسحت دموع صديقي.

أخيراً وصلنا إلى المكان الذي يديره إميل س.، المحتال السابق، واستقررنا فيه. لم يكن هناك، لكن ما إن سمعت زوجته، وهي فنزويليّة، أنّنا من كالاو، أدركت ما كنّا عليه، فأعطتنا غرفة بسريرين على الفور وبعض القهوة.

بعد أن ساعدتُ بيكولينو في الاستحمام، وضعته في الفراش. كان متعباً ومتحمّساً للغاية. لمّا غادرتُ، أشار إليّ بعلامات كبيرة، وعرفت أنّه قصد أن يقول: «ستعود، أليس كذلك؟ لن تتركني في الترنُّح، وحيداً؟»

- لا، بيكو! سأقضي بضع ساعات في المدينة: سأعود قريباً.

ها أنا ذا في كاراكاس. كانت الساعة السابعة صباحاً عندما مشيت في الشارع باتجاه ساحة سيمون بوليفار، أكبر ساحة في المدينة. انفجار للضوء في كلّ مكان، تدفّق رائع للكهرباء، أضواء النيون كانت منتشرة من كلّ لون. أكثر ما جذبني هو الإعلانات ذات الأضواء الملوّنة، والتنانين المشتعلة التي جاءت وذهبت مثل إرادة الخصلات، تومض وتنطفئ مثل رقص الباليه الذي يديره الساحر.

كانت السّاحة رائعة، وسطها تمثال ضخم من البرونز لسيمون بوليفار على حصان ضخم. بدا رائعاً، وأظهر التمثال مدى النبل الذي كان عليه الرجل. تجوّلتُ حوله، الرّجل الذي حرّر أمريكا اللاتينيّة، ولم أستطع المساعدة في الترحيب به بلغتي الإسبانيّة السيّئة، وأتحدّث بصوت منخفض كي لا يسمع أحد: «يا لها من معجزة أن أكون هنا عند قدميك - عند قدمَي رجل الحريّة. لقيط فقير مثلي، كان يقاتل طوال الوقت من أجل تلك الحريّة التي تجسّدها».

عدت مرَّتين إلى البانسيون، على بعد ربع ميل من الميدان، قبل أن أجد إميل س. قال لو أنّنا أخبرناه بقدومنا لخرجنا لتناول الشراب كي نتمكّن من التحدُّث بهدوء.

قال إميل: «لقد مضى على وجودي هنا عشر سنوات. أنا متزوّج ولديَّ ابنتي وزوجتي التي تتكفَّل بمسؤوليّات البانسيون. هذا هو السبب في أنّني لا أستطيع أن أستقبلك مقابل لا شيء. لكنَّك ستدفع نصف السعر فقط». التضامن الرائع مع السلبيّات السابقة عندما يكون أحدهم في مأزق! وتابع: «هل هو صديق قديم، ذلك الرجل المسكين الذي معك؟»

- هل رأيته؟

- لا، لكنَّ زوجتي أخبرتني عنه. تقول إنَّه حطام مطلق. هل هو شيخ؟

- بعيداً عن ذلك، هذا مروّع للغاية. عقله واضح مثل الجرس، لكنَّ لسانه وفمه وجانبه الأيمن حتّى الخصر في شلل. هذا ما كان عليه عندما عرفته للمرَّة الأولى في إلدو رادو. لا أحد يعرف من هو وما إذا كان محتالاً أم محتجزاً.

- لا أستطيع أن أرى لماذا تريد جرَّ هذا الغريب معك. أنت لا تعرف حتّى ما إذا كان زميلاً عاديّاً أو لا. ثمَّ علاوة على ذلك، هو يمثِّل عبئاً عليك.

- لقد أدركت هذا، في غضون الأشهر الثمانية التي كنت أعتني به في أثنائها. في كالاو وجدت بعض النساء اللواتي تولّينَ المسؤوليّة. ومع ذلك، فالوضع ليس بالأمر السهل.

- ماذا ستفعل به؟

- سأدخله المستشفى إذا استطعت. أو سأبحث عن غرفة متواضعة، إذا لزم الأمر، لكن فيها دوش ومرحاض للعناية به إلى أن أجد مكاناً آخر له.

- هل لديك المال؟

- قليل، لكن يجب أن أكون حذراً؛ لأنّه على الرّغم من أنّني أفهم كلّ ما يقولونه، إلّا أنّني أتحدّث الإسبانيّة على نحو سيّئ، ولن يكون الأمر بهذه البساطة لجعل الأمور تسير على نحو جيّد.

- أنت ميت بحقّ، ليس الأمر سهلاً هنا - المزيد من الناس يريدون العمل أكثر من الوظائف. إنّها، في أيّ حال، بابي، لا تقلق؛ يمكنك البقاء في منزلي في الأيام القليلة التي ستحتاج فيها إلى العثور على شيء.

حصلت على رسالة. كان إميل كريماً، لكنّه لم يكن سعيداً بشأن الأمر برمّته. يجب أن تكون زوجته قد رسمت صورة جميلة لبيكولينو ولسانه يتدلّى ويهمهم. لا بدّ أنّها فكّرت في الانطباع الذي سيتركه على الحدود.

غداً سأحمل وجبانه إلى غرفتنا. مسكين يا بيكولينو، الذي ينام هنا إلى جواري في سريره الصغير المعدنيّ! على الرّغم من أنّني أدفع مقابل غرفتك والطعام، إلّا أنّهم لا يريدونك. الأشخاص الذين يتمتّعون بصحّة جيّدة لا يحبّون رؤية المرضى. هذه هي الحياة. إنّها لا تقلق يا صديقي. حتّى لو لم أكن لطيفاً مثل فتيات كالاو، فسأظلّ دائماً إلى جانبك؛ شيء أفضل من الصديق - المحتال الذي تبنّاك وسيبذل كلّ ما في وسعه لمنعك من الموت مثل الكلب.

أعطاني إميل عناوين عدّة، لكن لم يكن هناك عمل لي في أيّ مكان. ذهبت مرّتين إلى المستشفى لمحاولة إدخال بيكولينو. لا شيء بالإمكان فعله. وبحسبهم لم تكن هناك أسرّة فارغة؛ وأوراقه، التي تقول إنّه سُمح له

بالخروج من إلدو رادو، لم تساعد على الإطلاق. أمس، سألوني كيف أصبح تحت رعايتي، ولماذا، وما جنسيّته وما إلى ذلك. لمَّا أخبرت الموظّف الصغير أنَّ المدير في إلدو رادو قد أوكل إليَّ الاهتمام به، أجاب الوغد: «حسناً، بما أنَّه جرى السماح له بالخروج لأنَّك وافقت على الاعتناء به، فكلّ ما عليك فعله هو إبقاؤه في مكان إقامتك ومعالجته هناك. إذا لم تتمكَّن من فعل ذلك، يجب أن تتركه هناك».

لمَّا سأل عن عنواني، أعطيته عنواناً وهميّاً. لم أكن أثق به، مثال ممتاز للمسؤول الصغير الذي يريد أن يضفي إلى نفسه ثقلاً.

سرعان ما نقلت بيكولينو. كنت يائساً، سواء بالنسبة إليه أم بالنسبة إليَّ. شعرت أنّني لا أستطيع البقاء لدى إميل أكثر من ذلك؛ كانت زوجته تئنُّ من اضطرارها إلى تغيير ملاءات بيكولينو كلَّ يوم. في الصباح كنت أغسل الأماكن المتّسخة قدر استطاعتي في المغسلة، لكنَّها تستغرق وقتاً طويلاً كي تجفَّ، وسرعان ما لوحظ ذلك، فاشتريت مكواة لأجفِّف بها الأماكن التي أغسلها.

ما الذي ينبغي فعله؟ لم أستطع التأكُّد. كان هناك شيء واحد مؤكَّد - كان عليَّ أن أجد إجابة سريعة. الآن للمرَّة الثالثة حاولت إدخاله المستشفى، لكن من دون نتيجة. كانت الساعة الحادية عشرة عندما خرجنا. بما أنَّ الأمور كانت على هذا النحو، كان علينا أن نبدأ في التعامل معها على الوجه الصحيح؛ قرَّرت تكريس كلّ ذلك المساء الجميل لأجل صديقي. أخذته إلى كالفاريو، حديقة رائعة ممتلئة بالنباتات الاستوائيّة والزهور، تقع على تلَّة صغيرة وسط كاراكاس.

كنّا جالسين هناك على المقعد للاستمتاع بالمنظر الرائع، أكلنا أرياس باللحم، وشربنا زجاجة بيرة. ثمَّ أشعلت سيجارتين، واحدة لبيكو والأخرى لي. كان من الصعب على بيكولينو التدخين. كان لعابه يسيل على سيجارته. لقد شعر أنَّ هذه اللحظة كانت مهمَّة، وقصدت أن أخبره شيئاً قد يؤذيه بشدَّة. كانت عيناه ممتلئتين بالقلق، وبدا أنَّهما تقولان: «تحدَّث، تحدَّث على الفور. أشعر أنَّك اتَّخذت قراراً مهمّاً. أخبرني؛ أتوسَّل إليك أن تخبرني».

نعم، يمكنني قراءة كلّ ذلك في عينيه بوضوح كما لو كان مكتوباً. جعلني أشعر بالبؤس، وتردّدت. أخيراً قلت له: «بيكو، لقد مرَّت ثلاثة أيام الآن وأنا أحاول إدخالك المستشفى. لا يوجد شيء يمكنني فعله. لا يريدونك. أنت تفهم؟ أليس كذلك؟»

«نعم»، قال لي هذا بعينيه.

- «من ناحية أخرى، لا يمكننا الذهاب إلى القنصليَّة الفرنسيَّة من دون المخاطرة بمطالبة الفنزويليين بأمر تسليم».

هزَّ كتفيه.

- «اسمع: يجب أن تتحسَّن، وكي تتحسَّن عليك اتّباع العلاج الملائم. هذا هو الشيء الرئيس. لكنَّك تعلم أنَّه ليس لديَّ ما يكفي من المال لرعايتك. لذا، هذا ما سنفعله: سنقضي الأمسية معاً، وسأصطحبك إلى السينما. ثمَّ غداً صباحاً سآخذك إلى ميدان سيمون بوليفار من دون أيِّ أوراق تُعرِّفك. هناك تستلقي عند قاعدة التمثال من دون أن تبدي أيّ حركة. إذا ما أرادوا منك الوقوف أو الجلوس، فعليك أن ترفض. من

المؤكَّد أنَّه بعد دقيقة سيتَّصلون بالشرطة التي ستستدعي سيَّارة الإسعاف. سأتبعك في سيَّارة أجرة لمعرفة المستشفى الذي يأخذونك إليه. ثمَّ سأنتظر يومين قبل المجيء لرؤيتك، وسأحضر في ساعات الزيارة لأختلط مع الحشد. في المرَّة الأولى ربَّما لن أتحدَّث إليك، لكن حينما أقترب من سريرك، فسأترك لك بعض السجائر وقليلاً من المال. حسناً؟ هل توافق؟»

وضع ذراعه السليمة على كتفي ونظر مباشرة إلى وجهي. كان تعبيره مزيجاً غير عاديّ من الحزن والامتنان. لقد بذل جهداً خارقاً لإجبار فمه الملتوي على إخراج صوت أجشّ مثل «نعم، شكراً!»

في اليوم التالي، حدث كلّ شيء كما توقَّعت. بعد أقلّ من ربع ساعة من استلقاء بيكولينو عند قاعدة تمثال سيمون بوليفار، أخبر ثلاثة أو أربعة رجال مسنّين يجلسون تحت ظلال الأشجار الشرطيَّ. بعد عشرين دقيقة جاءت سيّارة الإسعاف. تبعته في سيَّارة أجرة.

بعد يومين – من دون صعوبة في الاختلاط بالزوار - وجدته في الجناح الثالث الذي مررت به. لحسن الحظّ، كان بين مريضين، وتمكَّنت من التحدُّث إليه لفترة من الوقت من دون أيِّ خطر. لقد شعر بالبهجة حين رؤيتي.

– إنَّهم يعتنون بك، أليس كذلك؟

هزَّ رأسه، علامة على الموافقة.

نظرت إلى الرسم البيانيّ عند طرف سريره. «شلل نصفيّ أو ملاريا مع مضاعفات ثانويَّة. يجري فحصه كلّ ساعتين». تركت له ستّ علب سجائر وكبريتاً وعشرين بوليفاراً.

«وداعاً بيكو!»

بعد أن رأيت عينيه اليائستين والمتوسّلتين، أضفت: «لا تقلق يا صديقي؛ سأعود إلى زيارتك». يجب ألّا أنسى أنّني أصبحت ضرورياً للغاية لديه. كنت رابطه الوحيد مع العالم.

ها قد مضى خمسة عشر يوماً وأنا في كاراكاس، وكانت أوراق المئة بوليفار تختفي بسرعة. لحسن الحظّ كانت لديَّ ملابس لائقة عندما وصلت إلى كاراكاس. لقد وجدت غرفة صغيرة، رخيصة، على الرَّغم من أنَّها لا تزال عزيزة جدّاً لديَّ. لم تكن هناك نساء في أيِّ مكان في الأفق، لكنَّ فتيات كاراكاس كنَّ جميلات، ذكيّات وممتلئات بالحياة. كانت هناك صعوبة في التعرُّف إليهنَّ. كان ذلك عام ١٩٤٦، ولم يكن من المعتاد أن تجلس النساء في المقهى بمفردهنَّ.

مدينة كبيرة لها أسرارها. لتتمكَّن من الدفاع عن نفسك، عليك أن تعرفهم؛ ولمعرفتهم، عليك أن تعرف المعلّمين. ومن هم معلّمو الشوارع هؤلاء؟ قبيلة غامضة بأكملها لها لغتها الخاصّة وقوانينها وعاداتها ورذائلها، وطرائقها الخاصَّة في إدارة ما يكفي للعيش مدَّة أربع وعشرين ساعة كلَّ يوم. كسب لقمة العيش، بأمانة قدر الإمكان: كانت تلك هي المشكلة، ولم تكن سهلة.

على غرار الآخرين، كانت لديَّ طرائقي الصغيرة الخاصَّة، غالباً ما تكون جيّدة وبعيدة عن الشرّ. في سبيل المثال، التقيت ذات يوم بكولومبيّ كنت أعرفه في إلدو رادو.

– ماذا تفعل؟

أخبرني حينها أنَّه كان يكسب رزقه من خلال إدارة يانصيب لسيَّارة كاديلاك الرائعة.

- يا للهول، لقد جمعت ثروة بالفعل؟ يجب أن يكون لديك كثير من المال لتتمكَّن من اقتناء كاديلاك.

اختنق من الضحك، ثمَّ شرح قائلاً: «الكاديلاك ملك مدير بنك كبير. يقود سيَّارته بنفسه، ويصل إلى هناك في التاسعة صباحاً، ويوقف سيَّارته مثل المواطن الصالح على بعد مئة أو مئة وخمسين متراً من البنك. نحن موظّفان اثنان؛ واحد منّا ليس هو نفسه دائماً، لذلك لا يجري رصدنا - يتبعه إلى باب البنك حيث يجلس على مؤخّرته طوال الصباح. إذا كان هناك أيّ خطر، يطلق أحدنا للآخر صافرة محدَّدة تنبئ بالخطر المحدق؛ لقد حدث هذا مرَّة واحدة فقط. لذلك، بين الوقت الذي يصل فيه إلى هناك والوقت الذي يخرج فيه، وهو نحو السّاعة الواحدة، نضع شريطاً أبيضَ أنيقاً على كاديلاك، بحروف حمراء، تقول: «معروضة للبيع هنا: تذاكر قد تفوز بهذه الكاديلاك. الأرقام مماثلة لأرقام سحب كاراكاس. سيكون السحب في الشهر المقبل».

- هذا الأمر غير اعتياديّ. هل تبيع تذاكر لسيَّارة كاديلاك ليست لك؟ ألا تخاف من أن يعلموا بأمرك! ماذا عن رجال الشرطة؟

- إنَّهم يتغيّرون باستمرار؛ ونظراً لكونهم غير رذيلين، لم يخطر في بالهم قطّ أنَّ الصفقة ربّما تكون خداعاً. إذا كانوا مهتمّين قليلاً، فإنَّنا نمنحهم تذكرة أو اثنتين هديَّة ويذهبون، ويحلمون ربَّما أنَّهم سيفوزون بسيّارة كاديلاك. إذا كنت ترغب في جني قليل من المال معنا، فتعالَ وسأقدِّم لك شريكي.

- ألا تظنُّ أنَّ الأمر كريه بعض الشيء، أي خداع الفقراء؟

- على الإطلاق. التذكرة بقيمة عشرة بوليفارات، لذا فإنَّ الأثرياء هم فقط من يمكنهم تحمّلها. لذلك، لا ضرر في ذلك.

ما إن عمل الشريك على فحصي، بدأت العمل معهما، وكلاهما متورّط في هذه البراعة. يا بابي، ثيابك ليست أنيقة كما يجب، لكن عليك أن تأكل وتنام وتكون، إن لم تكن مرتدياً ملابس جيّدة، في الأقلّ نظيفة. اضطررت إلى الاحتفاظ باحتياطي لأطول فترة ممكنة - قطع الماس القليلة التي أحضرتها من إلدو رادو وورقتان من فئة خمسمئة بوليفار احتفظتُ بها كالبخيل. لم أتوقّف عن الاحتفاظ بها معي لسببين: يمكنهم سرقتها من غرفتي في الفندق الموجود في منطقة صعبة جدّاً في المدينة؛ وإذا حملت نقوداً في جيبي، فقد أفقدها. في أيِّ حال، كنت أُخزِّن هذا الأنبوب في مؤخّرتي مدَّة أربعة عشر عاماً. منذ عام أو أقلّ من ذلك بقليل، لم يحدث أيّ شيء، وكنت أكثر هدوءاً.

استمرَّ بيع تذاكر اليانصيب لأكثر من أسبوعين، وسيستمرُّ ذلك. إنّما، ذات يوم، أتى أحد العملاء المتحمّسين لشراء تذكرتين، وفحص كلَّ تفاصيل هذه السيَّارة الرائعة التي كان يحلم بالفوز بها. في الحال، استقام وقال متعجّباً: «لكن، أليست هذه السيَّارة مملوكة للدكتور فولانو، مدير البنك؟»

أجاب الكولومبيّ بهدوء، من دون أن يرفَّ له جفن: «نعم. لقد وضعها بين أيدينا للتخلُّص منها. يعتقد أنَّ اليانصيب سيجلب له سعراً أفضل من البيع المباشر».

قال الزبون: «هذا الأمر غريب...»

- «لكن، قبل كلِّ شيء، لا تذكر ذلك له»، تابع الكولومبيّ وهو لا يزال هادئاً للغاية. «لقد جعلنا نعده ألّا نتفوَّه بكلمة واحدة، لأنَّه سيجد الأمر محرجاً إذا كان معروفاً».

- «يمكنني أن أفهم هذا الأمر. إنَّه حقّ. هذا الأمر الأكثر غرابة بالنسبة إلى رجل من نوعه».

ما إن ابتعد بما فيه الكفاية، عمدنا إلى إزالة الشعار بسرعة وطيّه. اختفى الكولومبيّ وهو يحمله، وذهبت إلى باب البنك لأخبر شريكنا أنّنا أزلنا الشعار. كنت أضحك في داخلي، ولم أستطع أن أمنعَ نفسي من التسكّع بالقرب من الباب كي أتمكَّن من التقاط ما كنت أتوقَّع أنّه التكملة. خرج، حسناً. بعد ثلاث دقائق، كان هناك المدير بصحبة العميل المشبوه. كان يلوّح بذراعيه بعنف ويمشي، لذا علمت أخيراً أنّه كان في حالة غضب حقيقيّ.

لقد رأيا أن لا أحد حول الكاديلاك، وفوجئا، بلا شكّ. عادا ببطء، وتوقَّفا في مقهى لتناول شراب في البار. وبما أنَّ العميل لم يتعرَّفني، فقد دخلت أيضاً لسماع ما سيقولانه، لأضحك أكثر.

- والله، كان ذلك عصباً! ألا تعتقد أنَّ هذا كان عصباً شيطانيّاً، دكتور فولانو؟

لكنَّ مالك سيّارة الكاديلاك، الذي، مثل كلّ كاراكيفلوس طيّب، كان يتمتّع بروح الدعابة، انفجر ضاحكاً وقال: «حينما أظنُّ أنّني إذا مررت سيراً على الأقدام فلربَّما عرضوا عليَّ تذكرة لسيَّارتي! وأحياناً أكون شارد الذهن إلى درجة أنّني قد أشتريها بالفعل. يجب أن تعترف أنَّ هذا يجعلك تضحك».

بطبيعة الحال، كانت تلك نهاية اليانصيب لدينا. اختفى الكولومبيّ. من جهتي، جمعت ما يقرب من ١٥٠٠ بوليفار، وهو ما يكفي للعيش لأكثر من شهر؛ وهذا ما كان يهمّني في نهاية المطاف.

مرَّت الأيَّام، ولم يكن من السهل على الإطلاق العثور على أيٍّ شيء يستحقّ عمله. كانت هذه هي الفترة التي بدأ فيها أنصار بيتان والرجال الذين تعاونوا مع الألمان في الوصول إلى فنزويلا قادمين من فرنسا، هاربين من عدالة بلدهم. نظراً لأنَّني لم أكن أعرف ما يكفي عن التمييز المحتمل بين المتعاونين والبيتانيين، فقد أطلقت عليهم جميعاً اسم النازيين السّابقين. لذلك لم أشاركهم.

مرَّ شهر ولم يحدث تغيير كبير. في كالاو، لم أفكِّر قطّ في أنَّه سيكون من الصعب جدّاً أن أصل إلى هذه الحال. كنت أبيع أباريق القهوة متنقلاً من منزلٍ إلى آخر. كان من المفترض أن تكون مصمَّمة خصيصاً للمكاتب.

حديثي سهل جدّاً وغبيّ إلى درجة أنَّه يثير اشمئزازي: «أنت تفهم، سيّدي المدير، في كلّ مرّة ينزل فيها موظَّفوك لتناول القهوة (ممارسة شائعة في جميع مكاتب فنزويلا)، فإنَّهم يضيعون كثيراً من الوقت، ولا سيّما عندما يكون الجوّ ماطراً، وفي هذه الأثناء أنت تخسر بعض المال. مع وجود إبريق القهوة هذا في المكتب، ستكون أنت الرابح على الدوام. قد يفوزون في كلّ مرّة، لكنَّني لست كذلك، هذا أمر مؤكَّد. لأنَّ العديد من المديرين يجيبونني بالقول: «أنت تعلم أنَّنا في فنزويلا نأخذ الحياة بهدوء، حتّى في العمل. هذا أيضاً هو سبب السماح لموظّفينا بالنزول إلى الطابق السفليّ في أثناء ساعات العمل لاحتساء القهوة».

أنت تبدو أحمق وأنت تمشي في الشوارع حاملاً قدور قهوة في يدك؛ وكنت أفعل ذلك بالضبط عندما اصطدمت بباولو بوكسر، أحد المعارف القدامى في مونمارتر.

- أهلاً، كيف حالك يا باولو...

- وأنت يا بابيون.

أمسك بذراعي وجرَّني إلى المقهى.

- محض مصادفة - هذه مصادفة حسنة.

- ماذا تفعل وأنت تتجوّل في الشارع مع وعاء القهوة هذا؟

- أنا أبيعها: يا للأسف.

حين إخراجه ودفعه مرَّة أخرى، تمزَّق الصندوق الآن. أخبرته كيف كانت الأمور معي، ثمَّ قلت: «وأنت؟»

- دعنا نشرب قهوتنا. سأخبرك في مكان آخر.

دفعنا المال ووقفنا. وصلت إلى وعاء القهوة الخاصّ بي.

- اترك هذا حيث هو. لن نكون في حاجة إليه بعد الآن، أقسم لك.

- أتعتقد ذلك؟

- أنا أعلم ذلك يا رجل.

تركت الإناء الحقير على الطاولة وخرجنا.

بعد ساعة، في غرفتي، بعد أن تبادلنا ذكريات مونمارتر، وصل باولو إلى صلب الموضوع. كانت لديه وظيفة كبيرة في بلد ليس ببعيد عن فنزويلا. كان يعلم أنَّه يمكنه الاعتماد عليَّ. إذا وافقت، فسيأخذني كواحد من فريقه.

- الأمر سهل للغاية، إنَّه في الحقيبة يا صديقي! أقول لك بجديّة، سيكون هناك كثير من الدولارات. وكلّ ما ستحتاج إليه هو مكواة لتسطيحها حتَّى لا تشغل مساحة كبيرة.

- وأين هي هذه الوظيفة الرائعة؟

- ستعرف عندما تصل إلى هناك. لا أستطيع أن أقول أيَّ شيء قبل ذلك.

- كم سيكون عددنا؟

- أربعة. واحد فقط هناك بالفعل. جئت إلى هنا لجلب الآخر. بالمناسبة أنت تعرفه. إنّه صديق لك: غاستون.

- حقّاً. لكنّني فقدت الاتّصال به منذ زمن.

قال باولو ضاحكاً: «أمّا أنا فلا».

- ألا يمكنك حقّاً إخباري أكثر عن الوظيفة؟

- مستحيل، يا بابي. لديَّ أسبابي.

فكَّرتُ بسرعة. في الوضع الذي كنت عليه، لم يكن هناك كثير من الخيارات أمامي. إمّا أن أمضي في الركض حاملاً قدراً من القهوة أو بعض الهراء اللعين في يدي، وإمّا أن أبدأ حياة المغامرة مرّة أخرى، مع إمكان صنع حزمة من المال بسرعة. كنت أعرف دائماً أنَّ باولو كان من النوع الرصين، وإذا كان يرى أنّه يجب أن يكون هناك أربعة منّا، فهذا يعني أنَّ هذه الوظيفة كانت جادّة أيضاً. من الناحية الفنيّة، سيكون عملاً خياليّاً. ويجب أن أعترف أنَّ ذلك أغراني أيضاً. فماذا عن ذلك يا بابي، بانكو؟

- بانكو؟

سنغادر في اليوم التالي.

الفصل السَّادس

النفقُ تحت المصرف

أكثر من اثنتين وسبعين ساعة من القيادة. لقد أراح أحدنا الآخر في أثناء القيادة. اتّخذ باولو احتياطات كبيرة. في كلِّ مرّة كنّا نتوقَّف فيها من أجل الوقود، كان الرجل الذي يقود السيَّارة يضع الآخرين على بعد ٣٠٠ متر من المضخَّة، ثمَّ يأخذهم بعد ذلك.

كنت أنا وغاستون ننتظر نصف ساعة تحت المطر الدافئ، في انتظار عودة باولو. كنت غاضباً.

- هل تعتقد حقّاً أنَّ كلَّ هذا العمل ضروريّ، يا باولو؟ فقط انظر إلينا. سنواجه موتنا اللعين.

- يا له من ملل سخيف، يا بابي. وضعت هواء في الإطارات، واستبدلت العجلة الخلفيَّة وملأتها بالزيت والماء. لا يمكنك فعل ذلك في خمس دقائق!

- لم أقل إنَّك لا تستطيع فعل ذلك. لكنّي أقول لك إنَّني لا أرى الهدف من كلّ هذه الاحتياطات.

- حسناً، أنا كذلك. ربّما تكون قد أمضيت ثلاثة عشر عاماً في السجن، لكنّني التقطت عشرة من العزلة في وطننا المحبّ؛ لذلك لا أعتقد أنَّه يمكنك فعل ما يكفي في طريق الاحتياطات. لنفترض أنّ هناك نصيحة

حول سيّارة شيفروليه في داخلها رجل واحد، لنقل - حسناً، إنَّها ليست على غرار سيّارة فيها ثلاثة رجال.

لقد كان محقّاً. بعد عشر ساعات وصلنا إلى المدينة التي كنّا نسعى إليها. أنزلنا باولو في نهاية الطريق المزدان بالفيلات على كلا الجانبين.

- اتبع الطريق اليمنى. تدعى الفيلا مي أمور «Mi Amor». إنَّها هناك. ادخل كما لو كنت أنت المالك، وفي الداخل ستجد أوغست.

كانت هناك باحة محاطة بالزهور، ومسار أنيق يؤدّي إلى باب منزل صغير جميل. كان الباب مغلقاً. قرعنا الباب.

قال أوغست وهو يفتح الباب: «مرحباً يا أصدقائي، ادخلوا على الفور».

كان يرتدي قميصاً مغطّى بالعرق، وذراعاه المشعرتان كانتا على الأرض. قلنا له إنَّ باولو ذهب لإيقاف السيّارة في الطرف الآخر من المدينة. كان من المنطق عدم رؤية لوحات ترخيص فنزويليّة كثيراً على الطريق.

- هل كانت رحلتكم جيّدة؟

- نعم.

ليس أكثر من ذلك. جلسنا في غرفة الطعام. شعرت أنَّ اللحظة الحاسمة قادمة، وكنت متوتّراً نوعاً ما. لم يكن لدى غاسنون أيّ فكرة أكثر ممَّا كانت تدور حوله الوظيفة. قال باولو في كاراكاس: «إنَّها مسألة ثقة. سنسير أم لا. خذها أو اتركها. شيء واحد فقط: إنَّه يعني سيولة نقديَّة أكثر ممَّا حلمت به». حسناً، لكن الآن يجب أن يكون كلّ شيء واضحاً، منفتحاً ودقيقاً.

قدَّم لنا أوغست القهوة. بصرف النظر عن بعض الأسئلة حول رحلتنا وكيف كنا، لم تكن هناك كلمة تسلّط الضوء على الإطلاق. كانوا حكماء في هذه الأسرة!

سمعت صوت باب سيّارة يغلق أمام المنزل. لا بدَّ أنَّ باولو هو من استأجر سيَّارة تحمل لوحات محليَّة. هكذا فقط.

- ها نحن أولاء، صرخ باولو وهو يدخل ويخلع سترته الجلديَّة، كلّ شيء يسير على ما يرام، يا شبّان.

شرب قهوته بهدوء. لم أنبس ببنت شفة؛ كنت أنتظر. طلب إلى أوغست وضع زجاجة كونياك على الطاولة. من دون أيِّ عجلة من أمره، وما زال يبدو سعيداً تماماً بالحياة، صبَّ بعضه من أجلنا؛ ثمَّ وصل أخيراً إلى هذه النقطة.

- حسناً، يا شبَّان، أنتم هنا في المكان الذي نعمل فيه. تخيّل، الآن: أمام هذه الفيلا الصغيرة، على الجانب الآخر من الشارع الذي أتيت منه، يوجد المبنى الخلفيّ للمصرف. يقع مدخله الرئيس في الشارع الكبير الموازي لطريقنا الصغير. والسبب الذي يجعلك ترى أذرع أوغست مغطاة بالطين أنَّه كان يعلم أنَّك عاطل، ولا تصلح لشيء، وقد شرع في العمل، لذلك لن يكون هناك الكثير لفعله.

- أفعل ماذا؟ سأل غاستون، الذي لم يكن أحمق، لكنَّه لم يكن سريع الاستيعاب.

قال باولو ضاحكاً: «ليس كثيراً. فقط حفر نفق. يبدأ في الغرفة المجاورة لهذا؛ سوف يمرُّ تحت الفناء، ثمَّ تحت الشارع، ويخرج مباشرة تحت قبو البنك. إذا كانت حساباتي صحيحة. إذا لم تكن كذلك، فربَّما نجد أنفسنا

بالقرب من جانب الشارع. إذا حدث ذلك، فإنَّنا نعمِّق أكثر ونحاول مرَّة أخرى تحت منتصف القبو». صمت قليلاً ثمَّ قال: وماذا تقول عنها؟

- فقط ثانية يا رجل. أعطِني الوقت للتفكير. إنَّه ليس نوع العمل الذي كنت أتوقّعه.

«هل هو بنك كبير؟» سأل غاستون. لم يكن هذا من أيّامه الأكثر إشراقاً. إذا كان باولو قد وضع كلّ هذا، وعلى هذا النطاق، فمن المؤكَّد أنَّه لم يكن فقط لأجل ثلاث علب من عرق السوس.

قال باولو وهو يضحك: «تمشَّ إلى جوار البنك غداً، وسيكون لديك ما تقوله. على فكرة: هناك ثمانية صرَّافين. هذا يعطيك فكرة عمَّا يجب عليهم التعامل معه عن طريق الفواتير على مدار اليوم».

«يا إلهي!» قال غاستون، وهو يصفع على فخذه. «لذا، هو بنك حقيقيّ! حسناً، أنا مسرور. لمرّة واحدة سأكون في وظيفة كبيرة، تماشياً مع لقبي، المحتال الكبير».

مع ابتسامة كبيرة ممتلئة بالسعادة، التفت باولو نحوي، قائلاً: «أليس لديك ما تقوله، بابيون؟»

«لست في حاجة إلى أيِّ ألقاب. أنا أفضِّل أن أبقى مجرَّد سيّد عاديّ مع ما يكفي من المال لأداء وظيفة أفكِّر فيها. لست في حاجة إلى الملايين. سأخبرك بما أفكِّر فيه يا باولو: إنَّها وظيفة رائعة، وإذا كانت تأتي - عندما تأتي، يجب أن أقول، لأنَّك يجب أن تؤمن دائماً بوظيفة – حيث سنمضي حياتنا كلّها في جمع المال لدفع تكاليف الإيجار والهاتف. لكن... – هناك العديد، لكن يجب الالتفاف حولها. يمكنني طرح الأسئلة، أيّها القبطان؟

- كما تريد يا بابي. قصدت التحدُّث إليك حول كلّ جزء من العمل، في أيِّ حال. على الرَّغم من أنَّني الرأس المدبّر، وأنا من درست لتنفيذ هذه العمليَّة، إلَّا أنَّ كلًّا منّا يخاطر بحريّته، وربّما بحياته. لذا، اطرح كلَّ الأسئلة التي تريدها.

- هذا صحيح. السؤال الأوّل: من الغرفة المجاورة، حيث يوجد العمود، إلى أيِّ مدى يبعد الرصيف على هذا الجانب من الطريق؟

- بالضبط ثمانية عشر متراً.

- ثانياً، كم تبعد حافة الرصيف عن المصرف؟

- عشرة أمتار.

- ثالثاً، داخل البنك، هل عرفت بالضبط أين يوجد باب القبو؟

- نعم. لقد استأجرت صندوقاً في غرفة الإيداع الآمنة، الواقعة إلى جوار قبو البنك مباشرةً. يفصل بينهما باب مصفَّح ذو قفلين مركّبين. هناك طريق واحد، وهو من غرفة الإيداع. تذهب من هناك إلى القبوّ الرئيس. ذات يوم، بعد أن ذهبت إلى هناك مرَّات عدَّة، وحيث كنت أنتظرهم ليعطوني المفتاح الثاني لصندوقي، رأيت الباب المدرَّع مفتوحاً. وبينما كنت أنظر إلى الباب، ألقيت نظرة خاطفة على القبو والخزائن المصطفَّة حوله.

- هل يمكنك معرفة سماكة الجدار بين الغرفتين؟

- كان من الصعب معرفة ذلك بسبب الجدار الفولاذيّ.

- كم درجة نزولاً إلى باب الغرفة المصفَّحة؟

- اثنتا عشرة درجة.

- هذا يعني أنَّ أرضيّة القبو تحت مستوى الشارع بنحو ثلاثة أمتار. ما خطّتك؟

- علينا محاولة الوصول إلى الجدار الفاصل بين الغرفتين. يمكننا توجيه أنفسنا بوساطة البراغي الموجودة أسفل أرضيَّة القبو، التي تحمل الخزائن. بهذه الطريقة، يمكننا أن ندخل كلتا الغرفتين دفعةً واحدة.

- نعم، لكنَّ الخزائن تستند مباشرةً إلى الحائط. فمن المحتمل أن نخرج من تحت إحداها.

- لم أفكِّر في ذلك. إذا حدث ذلك، كلّ ما عليك أن تفعله هو جعل الفتحة أكبر باتّجاه منتصف الغرفة.

- أعتقد أنَّ إحداث ثقبين سيكون أفضل؛ واحد في كلّ غرفة، في المنتصف، إن أمكن.

قال أوغست: «وأنا أعتقد ذلك، أيضاً».

- حسناً يا بابي. لم نصل إلى هناك بعد، كما تعلم، لكن من الجيّد التفكير في هذه الأشياء في المستقبل. ماذا بعد؟

- إلى أيِّ مدى سيكون النفق؟

- ثلاثة أمتار.

- كم عرضه؟

- أربعة وعشرون سنتيمتراً. عليك الالتفاف من الداخل.

- هل حسبت الارتفاع؟

- متر.

- الطول والعرض جيّدان، لكنّي لا أتّفق مع العمق. على ارتفاع مترين من الأرض لن تكون صلبة بما فيه الكفاية. إذا مرَّت شاحنة ثقيلة أو عربة بخاريّة، قد تنهار.

- ربّما، بابي، لكن لا يوجد سبب لظهور الشاحنات أو الأشياء الثقيلة على طول الشارع.

- بالتأكيد. لكن لا يكلّفنا أيّ شيء أن نجعل العمود يصل إلى عمق أربعة أمتار. لديَّ ذلك، ولديك ثلاثة أمتار من الأرض بين النفق والشارع. أي اعتراض؟ العمل الإضافيّ الوحيد هو متر آخر. هذا لا يغيّر أيَّ شيء بخصوص النفق نفسه. من ناحية أخرى، أربعة أمتار في العمق، هل أنت متأكِّد تقريباً من القدرة على الوصول إلى البنك على مستوى أساساته أو حتّى أقلّ. كم عدد طوابق المبنى؟

- الطابق الأرضيّ وآخر فوقه.

- لا يمكن أن تكون الأسس عميقة جدّاً، إذاً.

- أنت على حقّ، بابي. سننزل أربعة أمتار.

- كيف سندخل القبو؟ ماذا عن نظام الإنذار؟

- بالنسبة إليَّ، بابي، هذه هي العقبة الرئيسة. ومع ذلك، منطقيّاً، يجري إنشاء أنظمة الإنذار خارج خزائن البنوك. طالما أنَّك لا تمسّ الباب، سواء من داخل البنك أو الغرفة المدرَّعة نفسها، فلا ينبغي أن ينطلق شيء. لا يكاد يكون هناك واحد داخل الغرفتين. ومع ذلك، أعتقد أنَّ من الأفضل عدم لمس الخزائن الواقعة على جانبَي الباب في غرفة الخزائن أو الخزائن المجاورة للباب المدرَّع.

- نعم. هناك خطر واحد، بالتأكيد، وهو أن تعمل على الخزائن، قد يؤدّي الاهتزاز إلى إثارة الأشياء. لكن باتّخاذ الاحتياطات، كما قلت، نكون لدينا فرصة جيّدة.

- لا يا بابي.

- هل فكّرت في تبطين النفق؟

- نعم، هناك في المرآب، هناك طاولة عمل، وكلّ ما نحتاج إليه.

- حسناً. وماذا عن الأرض؟

- أوّلاً، سنعمل على نشرها على طول الفناء، بالكامل، ثمّ نضع أحواضاً من الزهور المرتفعة، وأخيراً منصّة على طول الجدار بعرض متر، وبالارتفاع عينه، من دون النظر إلى غرابة الشكل.

- هل هناك أيّ أوغاد فضوليين، هنا؟

إلى اليمين، كلّ شيء على ما يرام. زوجان كبيران في السنّ، يعتذران في كلّ مرّة يربانني، لأنّ كلبهما يتمايل خارج بوّابتنا. إلى اليسار، هناك الوضع مزعج أكثر. ثمّة شابّان يافعان يبلغ كلّ منهما من العمر ثمانية عشر عاماً، لا ينزلان من على أرجوحتيهما للحظة، ويطير الصغيران السخيفان عالياً بحيث يمكنهما بسهولة النظر من فوق الحائط ورؤية ما يحدث في مكاننا.

- إنّما، مهما ارتفعا وهما يتأرجحان، فلا يمكنهما رؤية أكثر من جزء من الفناء. لا يمكنهما، في الأرجح، رؤية الامتداد على الحائط الخاصّ بهما.

- هذا صحيح يا بابي. حسناً، لنفترض أنّنا وصلنا إلى نهاية النفق، وأصبحنا في القبو. سيتعيّن علينا هناك إنشاء فراغ كبير، غرفة نوعاً ما لتخزين الأدوات، ولنستطيع العمل على نحو صحيح. ربّما اثنان أو ثلاثة منّا

معاً. بعد ذلك، ما إن نصل إلى وسط الغرف، فسنوفّر مساحة تحت كلّ منها، تبلغ مترين في مترين.

- صحيح. بمَ ستقطع صلب الخزائن؟

- سنناقش هذه الفكرة فيما بيننا.

- تحدَّث.

- حسناً، يمكن إنجاز المهمَّة باستخدام أوكسي أسيتيلين. أنا على دراية بهذه المسألة. هذه هي مهنتي. يمكننا أيضاً استخدام اللحام الكهربائيّ، وأنا على دراية أيضاً بهذه المسألة، لكنَّ العقبة الوحيدة هنا أنَّنا سنكون في حاجة إلى مئتين وعشرين فولتاً، وهذه الفيلا مجهَّزة بـ١٢٠ فولتاً فقط. لذا، قرَّرت إحضار رجل آخر لإتمام هذه المهمَّة، لكنَّني لا أريده أن يعمل في النفق. سيأتي قبل يومين من تنفيذ العمليَّة.

- بمَ سيأتي؟

- حسناً يا بابي، لنستخدم الثيرميت. إنَّه فنَّان في مهنته. ما رأيكم، جميعاً؟

قال غاستون: «سيجري تقاسم الثروة على خمسة بدلاً من أربعة».

- بالنسبة إليَّ، أنا أؤيد فكرة الثيرميت. لأنَّه لو كانت هناك عشرات الخزائن التي نريد فتحها، فسيجري فتحها بسرعة أكبر بوساطة الثيرميت مقارنةً مع أيِّ شيء آخر.

- هذا هو المخطَّط العامّ. هل يوافق الجميع؟

وافق الجميع. طلب باولو إلينا شيئاً آخر يتمثّل في عدم ظهوري وغاستون في أثناء النهار تحت أيِّ ذريعةٍ كانت. يمكننا الخروج ليلاً من

وقتٍ إلى آخر، لكن بأقلّ قدر ممكن، وأن نعتني بملابسنا كثيراً، وأن نرتدي ربطات عنق، وألّا نخرج نحن الأربعة معاً.

ذهبنا رفقة بعضنا إلى الغرفة المجاورة. لقد كانت مكتبنا ذات مرَّة. لقد حفروا، بالفعل، حفرة بعمق ثلاثة أمتار وبعرض متر. كنت معجباً بجوانبها المستقيمة كالجدار. وحينها راودتني فكرة التهوية.

- وماذا بالنسبة إلى التهوية؟

- سنضخّها بضاغط صغير وأنابيب بلاستيكيَّة. إذا بدأ العامل يشعر بالاختناق، فسيعمد شخص ما إلى إمساك الأنبوب ووضعه على وجهه في أثناء تأديته للعمل. اشتريت ضاغطاً من كاراكاس. قلَّما يصدر صوتاً.

- ماذا عن مكيّف الهواء؟

- فكّرتُ في ذلك، ولديَّ واحد في المرآب، لكنَّه يفجّر الصمّامات في كلّ مرّة تقوم بتشغيله.

- اسمع يا باولو. لا أحد يستطيع أن يتوقَّع ما قد يحدث لرجل الثيرميت. إذا لم يحضر، فإنَّ هذه الطريقة ستفشل، ولن يبقى أمامنا سوى اللحام الكهربائيّ، وهي الطريقة المناسبة لهذا الغرض. علينا أن نحوّل الكهرباء إلى ٢٢٠ فولتاً، لجعلها تبدو طبيعيّة. أنت تقول إنّك في حاجة إلى تجميد عميق وجهاز تكييف هواء، وما إلى ذلك، وبما أنَّك تهوى تقطيع الخشب في المرآب، فعليك أن تضع منشاراً دائرياً صغيراً. لن يسبِّب الأمر أيّ مشكلة.

- أنت على حقّ. ستكون الفائدة أكبر لو استطعنا تبديل الكهرباء إلى ٢٢٠ فولتاً. حسناً، الآن هذا يكفي، دعونا نتوقَّف عن الكلام عن هذا

الموضوع. أوغست هو ملك السباغيتي. بمجرَّد أن يصبح الطعام جاهزاً، سنجلس إلى المائدة لتناول الطعام.

كان العشاء مبهجاً للغاية. بعد أن تبادلنا بعض الذكريات غير السارَّة، اتَّفقنا جميعاً على أنَّه حينما نتحدَّث عن الماضي فلن نذكر أبداً قصصاً عن الماضي التعس- فقط عن الأشياء السعيدة مثل النساء، والشمس، والبحر، والألعاب في السرير، وما إلى ذلك. كنّا نضحك كالأطفال. لم يشعر أحدنا بالندم للحظة على فكرة مهاجمة المجتمع عن طريق البنك الذي يعدُّ الرمز الأكبر لقوته الأنانيّة.

لم تكن هناك صعوبة في تركيب تيّار ٢٢٠ فولتاً، لأنَّ المحوّل كان قريباً من المنزل. ما من مشكلة على الإطلاق. لإنهاء العمود، تخلّينا عن المعول ذي المقبض القصير، الذي كان محرجاً جدّاً في مثل هذه المساحة الضيّقة. بدلاً من ذلك، عمدنا إلى قطع الكتل بالمنشار الدائريّ، وحفرنا كلَّ كتلة بمجرفة يدويّة ووضعناها في دلو.

لقد كان عملاً جبّاراً. كانت الأمور تتقدَّم شيئاً فشيئاً. في المنزل، نكاد لا نسمع صوت المنشار الدائريّ أسفل العمود، الذي أصبح الآن على عمق أربعة أمتار. من الحديقة، لا يمكنك سماع أيّ شيء على الإطلاق؛ لم يكن هناك ما نخشاه.

انتهينا من العمود، وبدأنا بالنفق اليوم. كان باولو، الذي يحمل البوصلة في يده، هو من حفر الفناء الأول عبر الأرض الطينيّة شديدة الرطوبة التي التصقت بكلِّ شيء. لم نعد نعمل نصف عراة، فقد بدأنا نرتدي المراويل، التي كانت تنزل تحت أقدامنا. كنّا كذلك نظيفين على غرار الفراشة التي تخرج من شرنقتها. بصرف النظر عن أيدينا بالطبع.

وفقاً لحساباتنا، لا يزال لدينا ثلاثون متراً مكعَّباً من الأرض لإفراغها.

قال باولو، عندما كان يشعر بالفزع: «هذا عمل حقيقيّ».

لكن، تقدَّمنا تدريجيّاً. قال أوغست: «على غرار الشامات أو الغرير».

- سنصل إلى هناك أيّها الرجال! وسنجمع الأموال لبقيَّة حياتنا. أليس هذا صحيحاً، يا بابيون؟

- بالتأكيد! وسيكون لديَّ لسان المدَّعي، وسأحصل على شهادتي الزور، وسأطلق الألعاب الناريّة على غرار تلك التي يطلقونها في شارع ستة وثلاثين من رصيف أورفيرير. لنذهب إلى العمل، أيّها الصبية - هذا ليس وقت الحديث أو المراء أو ممارسة الألعاب. أنزلني أسفل الحفرة. سأعمل مدَّة ساعتين أخريين.

- اهدأ يا بابي! نحن جميعاً على حافة الهاوية. بالتأكيد، إنَّها لا تسير بسرعة، لكنَّنا نتقدَّم، وأمامنا خمسة عشر متراً فقط. ومن ثمَّ الجائزة الكبرى. وبعد ذلك كلّ شخص لديه مشكلاته الخاصّة: انظر إلى هذه الرسالة من صديقي سانتوس الذي يكتب إليَّ من بوينس آيريس.

أخرج باولو الرسالة من جيبه، وقرأها بصوتٍ عالٍ: «عزيزي باولو، هل تؤمن يا صديقي بالمعجزات؟ لقد مرَّ أكثر من ستّة أشهر، ولم تأتِ فقط لرؤية الصغيرين، ولم ترسل إليهما رسالة واحدة. أنت فاقد للوعي تماماً. إنَّهما لا يعرفان ما إذا كنت حيّاً أو ميتاً، أو في أيّ ركن من أركان الكوكب أنت. ليس من المضحك لي أن أذهب وأجمع حميضاً في هذه الظروف. كلّ يوم اثنين، يأتي البيتارد بعنفٍ أكبر قائلاً: «وماذا إذاً، أين هو رجلنا؟ ماذا يفعل؟ لقد ضرب ضربته، أراهن على ذلك. إنّه جيّد في هذه الضربات

الكبيرة. من الأفضل أن يكون هنا معنا. هذه هي المرة الأخيرة التي سيجري فيها منحك الحساب. هل فهمت جيّداً؟ إمَّا أن يعود، وإمَّا أنَّنا سنطلق».

«ابذل جهداً يا باولو، أرسل إليهم رسالة. لا تؤمن بالمعجزات. سيأتي اليوم الذي ستفقد فيه طاحونتك، ولم يعد هناك المزيد من الدقيق. صديقك، سانتوس».

- حسناً، أنا أؤمن بالمعجزات، والمعجزة هنا أمامنا. أنا، باولو، أنتم أصدقائي، الذين، بذكائنا وشجاعتنا، كنّا مهندسين معماريين. ومع ذلك، دعونا نأمل أن يستمرّوا لفترة طويلة، هؤلاء الأطفال، لأنّنا نحتاج إلى أموالهم لإنهاء القضيّة.

قال أوغست، غارقاً في هذه الفكرة: «سنمنحهم جميعاً معروفاً».

قال باولو: «هذا هو عملي. أنا الفنَّان، الذي أدرك واحدة من أجمل عمليّات البلطجة».

انفجار عامّ من الضحك، كأس من الكونياك، وقد وافقت على عمل جسر لإرضاء الجميع والاسترخاء قليلاً.

لا توجد صعوبة في إخلاء أرض الحديقة، التي يصل طولها إلى ثمانية عشر متراً وعرضها عشرة أمتار. وعملنا على نشر الأشياء على طول الحديقة بالكامل، باستثناء مسار المرآب. إلَّا أنَّ رؤية الأرض التي حفرناها لم تكن مماثلة للتربة السطحيّة، فكان علينا إحضار شاحنة صغيرة من وقت إلى آخر. كلّ شيء كان يسير على ما يرام.

حفرنا ورفعنا الدلاء المملوءة عن الأرض! وضعنا أرضيّة خشبيّة في النفق، لأنَّ هناك تسريباً للماء الذي يتحوّل إلى طين. انزلق الدلو بسهولة على هذه الألواح الخشبية عندما كنّا نسحبها بالحبال.

هكذا نعمل: كان هناك رجل واحد في نهاية النفق. ضربات المنشار الدائريّ، يحفر ويلتقط الحجارة والتراب، ويملأ الدلو. رجل آخر في أسفل النفق، يسحب الدلو على طول النفق. في الجزء العلويّ كان هناك رجل ثالث يسحب الدلو ويفرغه في عربة ذات عجلات مطاطيّة. خرقنا الجدار الذي يفصل المنزل عن المرآب، لذلك كان على الرجل الرابع فقط أن يأخذ العربة اليدويّة ويدفعها إلى الخارج عبر المرآب ليظهر المشهد طبيعيّاً في الحديقة.

عملنا لساعات متتالية، مدفوعين برغبة شديدة في الفوز. كانت النهاية البعيدة للنفق غير مريحة للغاية، على الرّغم من الاحتياطات التي اتّخذناها: مكيّف الهواء وانبعاث الهواء النقيّ الذي ينزل عبر الأنبوب الذي حملناه يتدحرج حول رقابنا بين الحين والآخر. كنت مغطّى ببثور حمر صغيرة؛ كانت هناك بقع كبيرة منها في جميع أنحاء جسدي. بدا الأمر كأنّه طفح جلديّ، وقد تسبَّب في حكّة مروّعة. الوحيد الذي لم يكن يمتلكها هو باولو، لأنّه اعتنى فقط بالعربة اليدويّة ونشر الأرض في الحديقة. لمّا كنّا نخرج من هذا الجحيم، كان الأمر يستغرق أكثر من ساعة حتّى بعد الاستحمام للتعافي ولنستطيع التنفّس على نحو طبيعيّ، ولنشعر أخيراً أنّنا بخير إلى حدٍّ ما. «في أيِّ حال، كنّا نحن من بدأ عمل هرقل هذا. ما من أحد أجبرنا على فعل ذلك. لذا، ساعد نفسك، وتحمّل، وأغلق فمك، وليكن الله في العون». هذا ما قلته لنفسي، وما قلته مرّتين أو ثلاث مرّات في اليوم لأوغست، كلّما بدأ يشعر بالقلق من اختلاطه بهذا النوع من العمل.

من غير المفيد القول إنّه للتنحيف، لا يوجد شيء مثل حفر نفق تحت أحد البنوك. من المثير للدهشة كيف نصبح محترفاً بالانحناء والزحف، بالإضافة إلى المرونة التي تكتسبها، وتتغيّر كلّيّةً. في ذلك النفق كنّا نتعرّق كما لو كنّا في حمّام

بخار. إذا كنت تمارس التمارين في كلِّ وضع يمكن تصوّره، فلا يوجد خطر من زيادة الوزن؛ وتتحرَّك عضلات جسمك كافّة. والأهمّ من ذلك أنّه في نهاية النفق كانت هناك جائزة رائعة في انتظارنا، تتمثَّل في أموال الآخرين.

كان كلُّ شيء على ما يرام، باستثناء الحديقة، لأنّنا كنّا نرفع مستواها، بدأت الزهور تغرق بدلاً من أن تنموَ وتكبر. لا يبدو هذا الأمر طبيعيّاً. إذا واصلنا ذلك، فلن يكون بإمكاننا رؤية سوى التلال. لقد توصَّلنا إلى الحلّ: وضعنا الزهور في أوانٍ وأبقيناها متدفّقة مع الأرض في أثناء حفرها. مع تغطية الأواني جيّداً، بدت النباتات كما لو كانت تخرج مباشرةً من السطح.

استمرَّ الوضع كذلك لفترة طويلة جدّاً. إذا كان بإمكاننا فقط أن نتناوب في الحصول على قسط من الراحة... فهذا أمر لا بدَّ منه. كان علينا جميعاً أن نكون هناك للحفاظ على سير الأمور بسلاسة. مع وجود ثلاثة منّا فقط، لا يمكننا إنهاء الأمر بالسرعة المطلوبة، وسيتعيّن علينا تخزين التراب في المنزل في الوقت الحالي، وهذا الأمر سيكون خطراً.

وضعنا مصيدة الآبار على بضع ميليمترات. لمّا كنّا نرتاح، كان بإمكاننا ترك باب الغرفة مفتوحاً – بالتأكيد لا يمكن رؤية أيِّ شيء. أمّا بالنظر إلى الفتحة الموجودة في جدار المرآب، فقد وضعنا على جانبه لوحة خشبيّة ضخمة علّقت عليها أدوات العمل، وعلى جانب المنزل بهو ضخم يعود إلى حقبة الاستعمار الإسبانيّ. لذلك، لمّا كان على باولو استقبال أيّ شخص كان في المنزل، كان بإمكانه فعل ذلك من دون قلق على الإطلاق. وكنّا، أنا وغاستون، نختبئ في غرفة نومنا الواقعة في الطابق الأول.

على مدار يومين، كانت الأمطار تهطل على نحو غزير، ومن دون انقطاع، وغرق النفق. كان هناك ما يقرب من ارتفاع قدم من الماء، لذلك

اقترحت أن يذهب باولو لشراء مضخّة يدويّة والأنابيب اللازمة. بعد ساعة من الزمن كان كلّ شيء على ما يرام. بدأنا الضخّ بكلِّ جهدٍ وعزيمة (نمط آخر من أنماط التمارين)، سحبنا الماء وصببناه في البالوعة. كان يوماً طويلاً وشاقّاً من أجل لا شيء.

كان شهر ديسمبر قد أوشك أن يحلّ. لو استطعنا أن نكون جاهزين مع نهاية شهر نوفمبر بإنهاء غرفتنا الصغيرة التي تمَّ حفرها وتدعيمها، تحت البنك، فسيكون ذلك مثالياً. وإذا ما ظهر اختصاصيّ الثيرميت، فلا شكَّ في أنَّ القدِّيس نيكولاس سيحشو جواربنا حشواً. إذا لم يحضر اختصاصيّ الثيرميت، فقد نقرِّر تكملة العمل بوساطة اللحام الكهربائيّ. نعلم تماماً أين بإمكاننا إيجاد مجموعة كاملة التجهيزات. أنتجت شركة جنرال إلكتريك بعض النماذج الرائعة. سنشتريها من بلدةٍ أخرى ليكون الأمر أكثر أماناً.

لقد تقدَّم العمل في النفق. أمس، في ٢٤ نوفمبر، وصلنا إلى أسس البنك. لم يتبقَّ سوى ثلاثة أمتار من المساحة المتبقية - حوالي اثني عشر متراً مكعّباً من الأرض لإفراغها. احتفلنا واحتسينا الشمبانيا الفرنسيَّة الخالصة.

قال أوغست: «طعمها أخضر نوعاً ما».

- حسناً، يا لها من علامة جيّدة - إنَّها لون الدولار!

لخَّص باولو ما تبقَّى من عمل.

- ستّة أيّام للانتهاء من إخراج التراب على نحو كامل، إن لم يكن هناك الكثير منه.

- ثلاثة أيّام للتغليف.

- المجموع تسعة أيّام.

- إنَّه اليوم الرابع والعشرون من نوفمبر، وهذا يقودنا إلى الرابع من ديسمبر. هذا هو اليوم المهمّ.

- سنبدأ الهجوم يوم الجمعة في تمام الساعة الثامنة، إذ يتمُّ إغلاق البنك في السابعة. سيكون أمامنا متَّسع من الوقت، طوال ليلة الجمعة، وطوال يوم السبت وليلة السبت ويوم الأحد. إذا ما سارت الأمور على ما يرام، يجب أن نكون قادرين على مغادرة المخبأ في الساعة الثانية صباحاً يوم الاثنين. وهذا سيتطلَّب منا اثنتين وخمسين ساعة عمل. هل يوافق الجميع؟

- لا، يا باولو. أنا لا أوافق.

- لماذا يا بابي؟

- يفتح البنك أبوابه في تمام الساعة السابعة لعمّال النظافة. في تلك اللحظة قد يفسد الأمر برمّته: في السّابعة صباحاً، أي بعد فترة وجيزة من مغادرتنا. هذا ما أقترحه: ننهي العمل السّاعة السادسة مساء الأحد. ونحتاج إلى ساعة تقريباً لنتقاسم المال فيما بيننا، فستكون السّاعة زهاء الثامنة. إذا غادرنا في الساعة الثامنة، فسيمنحنا ذلك مدَّة إحدى عشرة ساعة في الأقلّ. إذا تمَّت معرفة الأمر لسببٍ ما في الساعة السابعة، وثلاث عشرة ساعة إذا تمَّ إخفاء الأمر لغاية السّاعة التاسعة.

في النهاية وافق الجميع على اقتراحي. احتسينا الشمبانيا، وبينما كنّا نشربها، استمعنا إلى أقراص الموسيقا التي أحضرها باولو - موريس شوفالييه، بياف، باريس، الحفلات الراقصة الصغيرة... كان كلٌّ منّا جالساً مع كأسه، يحلم باليوم العظيم. لقد أصبح قريباً جدّاً، إلى درجة أنّه يمكنك لمسه بإصبعك تقريباً.

حسابك يا بابي، الفاتورة التي نقشتها في قلبك، ستتمكَّن من تحصيلها في باريس قريباً. إذا سارت الأمور على ما يرام، وإذا حالفني الحظّ، فسأعود من فرنسا إلى إل كالاو وأحضر ماريا.

أمّا والدي، فسأحضره في وقت لاحق. يا أبي المسكين الرائع! قبل أن أذهب وأحتضنه، سأضطرُّ إلى دفن الرجل الذي كنت عليه، المحتال... - لن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً ما إن آخذ بثأري، سيجري إصلاحي على النحو الصحيح.

بعد يومين من احتفالنا واحتساء الشمبانيا، حدث شيء ما، لكنَّنا لم نكن نعرفه حتَّى اليوم التالي. كنَّا سنلقي نظرة على مجموعة لحام وقطع من جنرال إلكتريك في بلدة مجاورة. ارتديت أنا وصديقي ملابس مناسبة، وانطلقنا سيراً على الأقدام، وانضممنا إلى باولو وأوغست في السيَّارة التي تبعد نحو ميل واحد.

- نحن نستحقّ هذه الرحلة. يحقّ لنا أن نتنفَّس، وأن نستنشق الهواء العليل؛ هذا هو هواء الحريَّة الرائع!

- أنت على حقّ يا باولو؛ نستحقّها بكلِّ تأكيد. لا تقد بسرعة كبيرة. دعنا نأخذ وقتنا للاستمتاع أكثر بالريف.

انقسمنا وأقمنا في فندقين مختلفين، وقضينا ثلاثة أيّام في هذا الميناء الساحر المتلئ بالسفن وبالحشود المبهجة والمتنافرة. كنَّا نلتقي جميعاً كلَّ مساء.

قال باولو: «لا نوادٍ ليليَّة، ولا بيوت دعارة، ولا فتيات. هذه رحلة عمل يا رجال».

لقد كان محقّاً، من دون شكّ.

ذهبت أنا وباولو لإلقاء نظرة على الجهاز، وأخذنا وقتنا في ذلك. لقد كان رائعاً، لكن كان لا بدَّ من دفع ثمنه نقداً، ولم يكن لدينا ما يكفي. أرسل

باولو تلغرافاً إلى بوينس آيرس، ولحسن الحظّ أعطى عنوان الفندق في الميناء الذي كان يقيم فيه. قرَّر أن يعيدنا إلى الفيلا ثمَّ يعود بنفسه بعد يوم أو يومين للحصول على المال وشراء جهاز اللحام الإلكترونيّ. عدنا بكامل النشاط والحيويَّة بعد أيّام العطلة الثلاثة هذه.

كالمعتاد، أنزلني باولو برفقة غاستون عند زاوية الشارع الصغير. كانت الفيلا على بعد مئة متر. كنَّا نسير بهدوء، سعداء بفكرة رؤية تحفتنا الفنيَّة في النفق مرَّة أخرى، وفجأة تأبطت ذراع غاستون، وأوقفته كالميت. ماذا كان يحدث خارج الفيلا؟ كان هناك رجال شرطة، عشرات الأشخاص يتجوَّلون، ثمَّ رأيت رجلَي إطفاء يرفعان التراب من منتصف الطريق. لم يكن من الضروريّ إخباري بما حدث. لقد تمَّ اكتشاف النفق.

بدأ غاستون يرتجف كما لو كان يعاني من الحمَّى، ثمَّ تلعثم بأسنانه، قائلاً: «لقد حطَّموا نفقنا الجميل! أوه، يا له من نفق جميل!».

في هذه اللحظة بالذات، كان ذاك الرجل ذو الوجه القبيح، الذي كان يقف على بعد كيلومتر واحد يراقبنا. لكنَّ الموقف برمّته بدا لي كوميديّاً للغاية، فقد انفجرت في ضحك عامر بالمرح والصدق، إلى درجة أنَّه إذا كان لدى الخنزير بعض الشكّ الطفيف فينا، فقد نفقَ على الفور. أخذت ذراع غاستون وقلت بصوت عالٍ باللغة الإسبانيَّة: «يا له من نفق رائع حفره هؤلاء اللصوص!».

ببطء، أدرنا ظهرينا إلى تحفتنا وابتعدنا عن الطريق – لسنا في عجلة من أمرنا، لكن الآن علينا التحرُّك بسرعة. سألت غاستون قائلاً: «كم لديك من المال؟ أنا لديَّ ما يقرب من ستمئة دولار وخمسمئة بوليفار. وأنت؟»

قال غاستون: «في حوزتي ألفا دولار».

- من الأفضل يا غاستون أن نفترق هنا.

- ماذا ستفعل يا بابي؟

- سأعود إلى الميناء الذي أتينا منه وأحاول الحصول على قارب، بغضّ النظر عن المكان - مباشرة إلى فنزويلا، إذا أمكن.

لم نتمكّن من أن يحتضن أحدنا الآخر هناك في الشارع المفتوح، لكنَّ عينَي غاستون كانتا مبلّلتين بالعاطفة مثل عينيَّ، وتصافحنا. لا يوجد شيء يربط بين الرجال مثل تجربة الخطر والمغامرة.

- حظّاً سعيداً، يا غاستون.

حظّاً سعيداً يا بابي.

عاد كلٌّ من باولو وأوغست إلى ديارهما عبر طرق مختلفة، أحدهما إلى باراغواي والآخر إلى بوينس آيرس.

تمكّنت من ركوب قارب إلى بورتوريكو: من هناك استقللت طائرة إلى كولومبيا، ثمَّ قارباً آخر إلى فنزويلا.

بعد بضعة أشهر فقط علمت بما حدث. انفجر أحد أنابيب المياه في الجادَّة الكبيرة على الجانب الآخر من الضفَّة، وتحوَّلت حركة المرور إلى الشوارع الموازية. سلكت شاحنة ضخمة محمَّلة بعوارض حديديَّة طريقنا، ومرَّت فوق نفقنا، فغرقت عجلاتها الخلفيَّة فيه. فأثار الأمر الدهشة، وعلا الصراخ، وتجمَّع رجال شرطة؛ لقد استوعبوا الأمر برمَّته في غضون لحظة.

الفصل السابع

كاروت: مكتب الرهنيَّات

إنَّه عيد الميلاد في كاراكاس. كانت الشوارع الكبيرة كلّها مزدانة بالأضواء الرائعة، وعمَّت البهجة كلَّ مكان، واختلط غناء الترانيم مع إحساس الفنزويليين الرائع بالإيقاع. من ناحيتي شعرتُ بالاكتئاب بسبب فشلنا، لكنّني لم أشعر بالمرارة. راهنّا وخسرنا، لكنَّني لا أزال في قيد الحياة، وأكثر حريَّة من أيِّ وقت مضى. وبعد كلِّ شيء، كما قال غاستون: «لقد كان نفقاً جميلاً!»

تدريجيّاً، تسرَّبت أجواء هذه الأغاني عن طفل بيت لحم إليَّ. ولمَّا هدأت، وشعرت بالراحة بعض الشيء، أرسلتُ برقيَّةً إلى ماريا، مفادها: «ماريا، ليملأ عيد الميلاد هذا المنزل، حيث أعطيتِني الكثير، الفرح والسعادة».

قضيتُ يوم عيد الميلاد في المستشفى مع بيكولينو جالساً على مقعد في حديقة المستشفى الصغيرة. لقد اشتريت نوعين من الهالاكاس، وهما صنفان خاصّان يُصنعا فقط في عيد الميلاد، وكانا أغلى وأفضل ما يمكنني العثور عليه. كانت لديَّ أيضاً زجاجتان صغيرتان من شيانتي اللذيذ في جيبي.

هل عيد الميلاد للفقراء؟ لا، إنَّه عيد الأغنياء والأثرياء منهم فقط. إنَّ عيد الميلاد لرجلين أعيدا إلى الحياة، عيد الميلاد المتوهّج بنور الصداقة، عيد الحريَّة الكاملة - الحريَّة حتّى لرشِّ المال كما فعلت. عيد الميلاد بلا ثلوج في

كاراكاس، ممتلئ بالزهور في حديقة المستشفى الصغيرة هذه: عيد الميلاد ممتلئ بالأمل لبيكولينو، الذي لم يعد لسانه معلَّقاً الآن وهو يُعالج، ولم يعد يقطر. نعم، عيد الميلاد معجزة لديه، لأنَّه نطق بكلمة «نعم» على نحو واضح وسعادة عندما سألته عمّا إذا كان شراب الهالاكاس جيّداً.

إنَّها، يا إلهي، كم كان من الصعب صنع حياة جديدة! لقد مررت ببضعة أسابيع صعبة للغاية، لكنَّني لم أفقد شعوري. كان لديَّ شيئان: أوّلاً، ثقة لا تتزعزع في المستقبل، وثانياً، حبّ الحياة. حتّى حينما يكون من المنطقيّ لديَّ أن أكون قلقاً، فإنَّ مجرَّد مرور تافه في الشارع سيجعلني أضحك؛ وإذا ما قابلت صديقاً، فقد أقضي المساء معه، وأستمتع كما لو كنا في سنِّ العشرين.

أعطاني الدكتور بوغرات عملاً في معمله لمنتجات التجميل. لن أكسب كثيراً من المال، لكنَّه سيكون كافياً لأرتدي ملابس أنيقة وشبه أنيقة. تركته من أجل سيّدة مجريَّة كان لديها مصنع زبادي صغير في فيلّتها؛ وهناك قابلت طياراً لن أذكر اسمه الحقيقيّ، لأنَّه في هذه اللحظة يقود طائرة تابعة لشركة الخطوط الجويَّة الفرنسيَّة. سأتّصل بكاروت.

لقد كان يعمل لدى المرأة المجريَّة أيضاً، وعملنا ما يكفي لنستمتع ببعض المرح. كنَّا نتجوَّل كلَّ مساء في بارات كاراكاس، وغالباً ما كنَّا نتناول شراباً أو اثنين في فندق ماجستيك، في منطقة سيلينسيو. لقد اختفى الآن، لكنَّه في ذلك الوقت كان المكان المتواضع الوحيد في المدينة.

في ذلك الوقت، في أثناء إحدى تلك الفترات التي تعتقد فيها أنَّه لا يمكن أن يظهر شيء جديد، حدثت معجزة. في أحد الأيَّام، اختفى كاروت، وبعد فترة وجيزة عاد مرَّة أخرى من الولايات المتحدة بطائرة -

طائرة مراقبة صغيرة بمقعدين، أحدهما خلف الآخر. أداة رائعة. لم أطرح أيَّ أسئلة حول مصدرها؛ كان السؤال الوحيد الذي طرحته هو ماذا سيفعل بها.

ضحك وقال لي: «لا أعرف بعد. لكن قد نكون شريكَين».

- في أيِّ شيء؟

- لا يهمّ، طالما أنّنا نستمتع ونحصل على قليل من المال.

- حسناً. سننظر حولنا.

المرأة المجريَّة اللطيفة، التي لم يكن لديها فكرة حول المدَّة التي ستستغرقها وظائفنا، تمنَّت لنا حظاً سعيداً؛ ثمَّ بدأ شهر مجنون وغير عاديّ تماماً.

آه، ماذا يمكننا أن نفعل مع هذه الفراشة الكبيرة.

كان كاروت طيّاراً. إبَّان الحرب، اعتاد أن يطير بالعملاء الفرنسيين من إنجلترا، وينزل بهم ليلاً في الحقول التي تحرسها المقاومة، ويعود بالآخرين إلى لندن. غالباً ما كان ينزل من دون توجيه بوساطة المشاعل التي يحملها الرجال الذين كانوا ينتظرونه. لقد كان متهوّراً تماماً، وكان يحبّ الضحك كثيراً. ذات مرَّة، ومن دون كلمة تحذير، تعامل مع البنوك بشدَّة، على الفور، إلى درجة أنَّني فقدت سروالي تقريباً، وكلّ هذا فقط بسبب امرأة سمينة كانت تمارس أعمالها بهدوء في الحديقة.

لقد أحببت هذه الطائرة كثيراً، واستمتعنا في الهواء، إلى درجة أنَّه عندما لم يكن لدينا المال لشراء العصير، طرحت الفكرة الرائعة المتمثلة في تحويل نفسي إلى بائع متجوّل على متن الطائرة.

كانت هذه هي المرّة الوحيدة في حياتي التي خدعت فيها أحداً. كان يُدعى كوريات، وكان يمتلك متجراً لملابس الرجال والنساء، يدعى ألماسين ريو. كان يعمل مع أخيه. كان كوريات يهوديّاً متوسّط الحجم، داكن اللون، وذكيّاً. يتحدَّث الفرنسيَّة بطلاقة. متجره يعمل على نحو جيّد، وكان يكسب كثيراً من المال. أمّا للنساء، فكان لديه أحدث الفساتين وأكثرها أناقة، مستوردة من باريس. لذلك، كان لديَّ خيار مجموعة كاملة من البضائع القابلة للبيع. أقنعته بالسماح لي بالحصول على كميّة من البلوزات والسراويل والفساتين للبيع أو للإرجاع؛ كانت تستهلك قدراً كبيراً من المال، وكانت الفكرة أن نبيعها في المناطق النائية من البلاد.

انطلقنا، وذهبنا حيثما أحببنا على أن نعودَ متى كان ذلك مناسباً لنا. إنّما، على الرَّغم من أنّنا بعنا أغراضنا بكلِّ يُسر، إلّا أنّنا لم نوفِّر ما يكفي لتغطية نفقاتنا، وتلاشت حصَّة كوريات في الغاز المخصَّص للطائرة. لم يبقَ لديه شيء.

كانت النساء العاهرات من أفضل زبائننا، وبالطبع لم نفشل قطّ في التجوّل في بيوت الدعارة. لقد كان إغراءً كبيراً لهنَّ عندما ننشر أغراضنا على طاولة غرفة الطعام - البلوزات المبهرجة، أحدث السراويل والأوشحة الحريريّة والتنانير المزهرة... إلخ. كلّ هذا كان يشكّل إغراءً كبيراً لهنَّ.

كنت أقول لهنَّ: «أصغينَ إليَّ أيّتها السيّدات. هذا ليس رفاهية عديمة الفائدة بالنظر إليكنَّ. إذا جاز لي أن أقول ذلك، فهو أشبه باستثمار تجاريّ، لأنّه كلّما كنت أكثر جاذبيّة، ازداد عدد العملاء. أمّا بالنظر إلى السيّدات اللواتي يفكّرنَ فقط في الادّخار، فيمكنني أن أقول لهنَّ بالتأكيد إنّه أمر غير

حكيم للغاية: الاقتصاد لا يعني عدم شراء أيّ شيء منّي. لماذا؟ لأنَّ جميع الفتيات اللواتي يرتدينَ ملابس أنيقة سيكوننَّ منافسات خطرات!

كان هناك بعض القوّادين، الذين لم يهتموا كثيراً بأعمالنا بهذه الطريقة؛ جعلتهم يشعرون بالسوء رؤيةُ الأموال تذهب إلى جيوب أخرى غير جيوبهم. كثيرون منهم باعوا «معدَّات احترافيَّة» لبناتهم - بالدَّين، في بعض الأحيان - وأراد الأوغاد احتكار الربح.

غالباً ما ذهبنا إلى بويرتو لا كروز، لأنَّه كان هناك مطار جيّد، في بلدة تقع على مقربة من برشلونة. كان صاحب بيت الدعارة الأفضل والأكثر رقيّاً، حيث تعيش نحو ستّين امرأة، قبيحاً، مبتذلاً، متغطرساً وعنيداً. كانت زوجته فنزويليّة وساحرة. إنَّها، لسوء الحظّ، كان هو المتحكّم في كلِّ شيء، فلم يكن ثمَّة أيّ شكّ في فتح حقائبنا لإلقاء نظرة سريعة، ناهيك عن نشر الأغراض على الطاولة.

يوماً ما ذهب بعيداً. طرد فتاة حينها لأنَّها اشترت وشاحاً كنت أرتديه حول رقبتي. تحوَّلت الحجَّة إلى سوء تصرُّف، وطلب إلينا الشرطيّ المناوب الخروج وعدم العودة أبداً.

قال كاروت: «حسناً، أيُّها السمين، لن نعود برّاً بل جوّاً. لا يمكنك منعنا من فعل ذلك».

لم أفهم التهديد حتَّى صباح اليوم التالي، عندما كنَّا نقلع فجراً من برشلونة، وقال لي عبر الاتصال الداخليّ، «سنذهب ونلقي التحيَّة على بنميّ. لا تخافوا وتمسَّكوا بشدَّة».

– ماذا ستفعل؟

لم ينبس ببنت شفة، لكن لمَّا أصبحنا على مرمى البصر من بيت الدعارة، صعد قليلاً ثمَّ غاص مباشرة نحوه بأقصى سرعة، وأطلق النار تحت شريط التوتّر العالي في الخارج مباشرة، وأسرع فوق سقف الصفيح المموَّج، وكاد يلمسه. غدا العديد من الألواح الحديديَّة مفكَّكاً، وقد طارت كالأوراق في مهبِّ الريح، وانكشفت الغرفة عن سرير وأشخاص داخلها. تراجعنا إلى الوراء وارتفعنا، وعدنا إلى مستوى أعلى قليلاً للتفكير في المشهد. لم أرَ قطّ أيّ شيء هزليّ تماماً أكثر من هؤلاء النساء العاريات وعملائهنَّ العراة، وهم يقفزون بجنون في أسرَّتهم الخالية من الأغطية، ويهزُّون قبضاتهم الغاضبة نحو الطائرة، الأمر الذي جعلهم يقصرون في اللعب أو في نومهم المرهق. ضحكنا، أنا وكاروت، حتَّى كدنا ننهار.

لم نعد قطّ، لأنَّه لن يكون هناك الآن رئيس غاضب فحسب، بل مجموعة غاضبة من النساء أيضاً. في وقت لاحق، وجدت فتاة لديها ذوق جيّد للضحك على كلّ شيء معنا. كما يبدو، في غضبه، أصرَّ الرجل البنميُّ البدين على تثبيت الملاءات المموّجة في جميع غرف النساء بنفسه، بمسامير ضخمة.

كنَّا أنا وكاروت مخلصين للطبيعة، وكنا غالباً ما نسافر بحثاً عن أماكن جميلة. كانت هذه هي الطريقة التي توصَّلنا من خلالها إلى العثور على واحدة من عجائب العالم الحقيقيَّة Los Roques -، وهي عبارة عن بقعة من الأرض تتألَّف من ثلاثمئة وستين جزيرة صغيرة، تتوضَّع في شكل بيضويّ، وتشكِّل بحيرة ضخمة في المحيط. بحيرة هادئة، لأنَّ الجزر صنعت حاجزاً، وكانت مياهها الخضراء الباهتة صافية للغاية بحيث يمكنك رؤية قاع ستين أو سبعين متراً إلى الأسفل. لسوء الحظّ، لم يكن هناك مدرج هبوط في تلك

الأيّام، فطِرنا بطول وعرض العنقود الكامل عشر مرّات، قبل أن نصل إلى جزيرة أخرى تسمّى لاس أفس، على بعد حوالي خمسين متراً إلى الغرب.

كان كاروت طيّاراً رائعاً حقّاً. لقد رأيته يهبط على شاطئ شديد الانحدار؛ حيث يلامس أحد الجناحين الرمال والآخر يكتسح البحر.

يعني اسم جزيرة لاس أفس «جزيرة الطيور». كان هناك الآلاف والآلاف منها، وكان لديها ريش رماديّ، إلّا أنَّ الصغار منها بِيض، وتنتشر في كلِّ مكان. لقد كانت بطيئة نوعاً ما. كان شعوراً غير عاديّ أن نكون هناك، نحن الاثنان فقط، عراة تماماً على جزيرة مسطّحة مثل الفطيرة، وأن تكون محاطاً بالطيور التي هبطت عليك أو تمشّيت من دون أدنى خوف. قضينا ساعات ونحن نتشمّس تحت أشعّة الشمس، مستلقين على الشاطئ الضيق الذي يمتدّ في جميع أنحاء الجزيرة. لعبنا مع الطيور، وحملناها بين أيدينا. كان بعضها مهتمّاً بشدّة برؤوسنا، وبعضها نقر شعرنا برفق. سبحنا، أخذنا حمّام شمس مرّة أخرى، ولمّا جعنا وجدنا جراد البحر يسخّن نفسه على السطح. رحنا نلتقط بعضه بأيدينا ونشويه على الفور. كانت الصعوبة الوحيدة هي في العثور على ما يكفي من الأشياء الجافّة للنار، لأنّه لم ينمُ أيُّ شيء تقريباً على الجزيرة.

الجلوس هناك على هذا الشاطئ البكر، وتناول جراد البحر اللذيذ والنبيذ الأبيض - كان لدينا على الدوام بضع زجاجات على متن الطائرة - مع البحر والسماء والطيور من حولنا ولا شيء آخر على الإطلاق، خلق كلّ هذا لدينا شعوراً بالجنَّة، إلى درجة أنّنا لم نضطرَّ إلى التحدُّث كي نكون على اتّصال كامل أحدنا مع الآخر.

لمَّا أقلعنا مرَّة أخرى، قبل حلول الظلام، امتلأ قلبانا بالشمس والسعادة ونشوة الحياة. لم نهتمَّ بأيّ شيء، ولا حتّى بإيجاد المال لشراء الوقود لهذه الرحلة - رحلة كان سببها الوحيد هو السماح لنا بالعيش في عالم جميل وغير متوقَّع.

اكتشفنا في لاس أفس كهفاً بحريّاً ضخماً: حين انخفاض المدِّ، كان فمه فوق السطح، ودخل فيه الضوء والهواء. كان لديَّ شغف بهذه المغارة الرائعة؛ يمكنك السباحة فيها، وكان الماء داخلها صافياً وضحلاً - لا يزيد عمقه عن متر واحد. لمّا وقفنا في المنتصف ونظرنا حولنا، بدا أنَّ السقف والجدران مغطّاة بالسيكادا. لم تكن حشرات السيكادا بالطبع، بل كانت عبارة عن آلاف من جراد البحر الصغير، المثبتة نفسها بالصخرة. كنّا أحياناً نبقى هناك لفترة طويلة، ولم نزعجها قطّ. المرَّة الوحيدة التي تدخَّلنا فيها، كانت عندما قام أخطبوط كبير، عاشق كبير لجراد البحر الصغير، بمدِّ ذراع له لجمع بعضه. قفزنا عليه على الفور وقلبناه رأساً على عقب. تهشّم تماماً، إنَّه يُعدُّ طعاماً غير عاديّ لسرطان البحر.

عدنا مرّات عدَّة إلى جزيرة لاس أفس، وقضينا الليلة هناك. كان لكلّ واحد منّا مصباحه اليدويّ الكبير، فجمع كلٌّ منَّا من جراد البحر ما يزن نحو كيلو ونصف، حتَّى ملأنا كيسين منه. لقد تخلَّصنا من كلِّ الأشياء التي كان من المفترض أن نبيعها في كارلوتا، وهو مطار يقع وسط كاراكاس، وهذا يعني أنَّه يمكننا جمع ما يقرب من أربعمئة كلغ من جراد البحر. كان من الجنون تحميل الطائرة بهذه الطريقة، لكن كلّ ذلك كان جزءاً من المتعة. كان بإمكاننا النزول إلى الأرض، أمّا بالنسبة إلى الارتفاع، فلم تكن النجوم

في خطر! لقد صعدنا إلى الوادي بعناء، الذي يمتدّ على طول خمسة وعشرين كيلومتراً من الساحل إلى كاراكاس، نقشط أسطح المنازل فحسب؛ وهناك نبيع جراد البحر بسعر باهظ يبلغ بوليفارين ونصفاً. في الأقلّ، دفعت ثمن الوقود. إنّما، حينما تلتقط جراد البحر بيديك، فغالباً ما تتأذّى، وأحياناً نعود من دون أيّ شيء. لا يهمّ. لم نهتمَّ قطّ - كنّا نعيش حياة كريمة.

في أحد الأيام، بينما كنّا في طريقنا إلى بويرتو لا كروز، الواقع على مقربة من الميناء، اتّصل بي كاروت وقال: «بابي، لدينا نقص في الوقود. سأضعها في حقل شركة نفط سان تومي». حلّقنا فوق الشريط لنظهر أنّنا نريد النزول على مدرجهم الخاصّ، وعلى الفور أسرع «حماران» في ناقلة ممتلئة بالبنزين أو الماء، والله أعلم أيّهما، ليتوقّفا بها في منتصف المدرج. كانت لدى كاروت أعصاب فولاذيّة، وعلى الرّغم من أنّني أخبرته مراراً وتكراراً أنّني لم أستطع رؤية المكان الذي يمكننا أن ننزل فيه، فقد قال من فوره: «انتظر يا بابي»، وانزلق نحو طريق واسع إلى حدٍّ ما. لقد هبط من دون أن يصطدم بشدّة، لكنَّ السرعة جرفته على طول منعطف في الطريق، وفي تلك الزاوية، جاءت مقطورة ممتلئة بالثيران، فتحطّمت بأسرع ما يمكن. لا بدَّ أنَّ صرخة الفرامل قد أغرقت صرخات الرعب لدينا، لأنّه إن لم يفقد السائق السيطرة ويعمد إلى إرسال مقطورته في الخندق، فمن المؤكّد أنّه كان يجب علينا نحن فِعل ذلك. قفزنا من الطائرة، وأسكت كاروت السائق الذي كان يتوعّد - لقد كان إيطالياً. «ساعدنا في دفع الطائرة ويمكنك أن تتمتم لاحقاً». كان الإيطاليّ لا يزال يرتجف من كلّ مكان وقد ابيضّ وجهه. ساعدناه في الإمساك بثيرانه - لقد هربت الثيران عندما تحطّمت المقطورة.

أثار هذا الهبوط المذهل ضجَّة كبيرة، إلى درجة أنَّ الحكومة اشترت طائرة كاروت، وجعلته مدرّباً مدنياً في معسكر كارلوتا.

انتهت حياتي كطيّار. يا للأسف. كان لديَّ بضع ساعات من الدروس، وكنت على ما يرام. لا يهمّ. الشخص الوحيد الذي خرج من هذا العمل وهو خاسر، كان كوريات. الشيء الغريب أنّه لم يقاضِني قطّ. بعد بضع سنوات دفعت له كلّ فلس. وهنا أودّ أن أشكره على كرم موقفه.

إنَّما، في تلك اللحظة بالذات، لم أفقد الطائرة فقط، ولم يقتصر الأمر على أنَّ وظيفتي لدى المرأة المجريَّة قد استولى عليها شخص آخر، لكن كان عليَّ أيضاً تجنُّب الأجزاء المركزيَّة من كاراكاس، لأنَّ متجر كوريات كان هناك ولم أكن راغباً في الاصطدام به. مرَّة أخرى، كان الموقف بعيداً عن كونه رائعاً. إلَّا أنّي لم أهتمَّ: تلك الأسابيع القليلة مع كاروت كانت رائعة جدّاً لديَّ. لست آسفاً على أيِّ شيء على الإطلاق.

غالباً ما رأينا، أنا وكاروت، أحدنا الآخر بعد ذلك؛ في حانة صغيرة هادئة، تعود إلى فرنسيّ عجوز تقاعد من شركة عبر الأطلسي. في إحدى الليالي، لمَّا كنّا نلعب الدومينو في زاوية مع جمهور إسبانيّ يكسب رزقه الآن من خلال بيع العطور بالدَّين، جاء رجلان يرتدي كلٌّ منهما نظّارة شمسيَّة - لم نكن نعرفهما - وسألانا عمّا إذا كان صحيحاً أنَّ الفرنسيَّ الذي غالباً ما يأتي إلى هنا، طيّار.

وقف كاروت، وقال: «هذا أنا».

تفحَّصت الغريبين من رأسيهما حتّى أخامص أقدامهما، وعلى الفور، على الرَّغم من نظّارته الداكنة، تعرَّفتُ أحدهما. شعرت بموجة من العاطفة المفاجئة. وقفتُ تجاهه. قبل أن أتحدَّث إليه تعرَّفني، وقال: «بابي!».

إنَّه ليون الكبير، أحد أعزّ أصدقائي في المستعمرة العقابيَّة. رجل طويل ذو وجه نحيف، رجل حقيقيّ وكريم. لم تكن هذه هي اللحظة التي أبدو فيها ودوداً للغاية، وقد قدَّمني للتوّ إلى صديقه بيدرو التشيليّ، ولم يقل المزيد. تناولنا شراباً في الزاوية، وقال ليون إنَّه كان يبحث عن طائرة خفيفة مع طيَّار، وقد أُخبر بهذا الفرنسيّ.

قال كاروت: «الطيَّار هنا، وأنا هو. إنَّما لا توجد طائرة. إنَّها ملك لأشخاص آخرين الآن».

قال ليون باقتضاب: «هذا محزن».

عاد كاروت إلى لعبة الدومينو. أخذ شخص آخر مكاني. ذهب بيدرو التشيليّ ووقف عند الحانة، حتّى نتمكَّن من التحدّث بهدوء.

- هل أنت على ما يرام يا بابي؟

- حسناً، ليون؟

- كان لقاؤنا الأخير منذ أكثر من عشر سنوات.

- نعم. لقد خرجتُ من الحبس الانفراديّ عندما دخلتَه. كيف حالك يا ليون؟

- ليس سيّئاً، ليس سيّئاً على الإطلاق. وأنت يا بابي؟

يمكنني التحدُّث إليه بكلِّ حريَّة.

- سأخبرك بوضوح، يا ليون: أنا غاضب قليلاً. ليس من السهل تسلُّق التلّ. وبعد ذلك تخرج نوعاً ما من الضجَّة الصاخبة نوايا حسنة: الحياة صعبة للغاية عندما لا يكون لديك تجارة، وكلّ ما تفكِّر فيه هو خوض المغامرة من جديد.

- ليون، أنت أكبر منّي، ولست شخصاً عادياً كالآخرين. أستطيع أن أخبرك بما يدور في ذهني. أتحدَّث بجديّة، وعلى نحو مباشر، بقدر ما أشعر بالقلق، يمكنني فعل أيّ شيء في هذا البلد. لقد عدت إلى الحياة هنا، وقد وعدت نفسي باحترام هذا المجتمع العظيم - للقيام بأقلّ عدد ممكن من الأشياء التي يمكن انتقادها. ليس الأمر سهلاً. على الرَّغم من حبّي وشغفي للمغامرة، وإن لم يكن لديّ فاتورة طويلة لتقديمها لبعض الأشخاص في باريس، لكنّني متأكّد تماماً من أنّه على الرّغم من استعدادي للبدء من الصفر، إلّا أنّني لا أطيق الانتظار كي يموت هؤلاء المتعفّنون قبل وصولي.

- حينما أرى الشبّان في هذا البلد مرتاحين تماماً وممتلئين ببهجة الحياة، غير آبهين، وبما أنّني أمام شابّ يبلغ من العمر ما بين أربعة وعشرين إلى ثلاثين عاماً، يشعّ سعادةً من الداخل من خلال شغفه بالحياة، فإنّني أعود إلى الوراء، إلى تلك السنوات التي سرقت أجمل أيّام حياتي. وبدأت أتذكَّر تلك الحقبة السوداء من الاستعباد، والسنوات الثلاث التي قضيتها في الانتظار قبل المحاكمة وبعدها، وذلك السجن الفاسد، حيث عوملت أسوأ بكثير من كلب مسعور. في بضع ساعات، وأحياناً لأيّام كاملة متتالية، كنت أسير وحيداً في شوارع كاراكاس أقلِّب كلَّ شيء في ذهني. وبدلاً من أن أشكر الأيّام التي أوصلتني إلى هذا، كنت أستذكر تلك الأماكن التي دُفنت فيها وأنا في قيد الحياة، حيث كنت أتنقّل جيئةً وذهاباً كدبّ في قفصه، وأبدأ في الهتاف: واحد، اثنان، ثلاثة، أربعة، خمسة، استدر! كان الأمر فوق استطاعتي؛ إنَّه هاجس حقيقيّ. لا أستطيع أن أتسامح مع فكرة أنَّ أولئك الذين وضعوني في ذاك الجحيم ظلماً يجب أن يموتوا بسلام، من دون أن يدفعوا الثمن غالياً.

- لذلك، حينما أسير في الشوارع على هذا النحو، لا أنظر حولي كرجل عاديّ. كل متجر جواهر، كلّ مكان من المؤكّد أنّه سيحتفظ فيه بالمال الذي أحتاج إليه - كنت أتفحّصها جيّداً لمعرفة كيف بإمكاني الدخول والحصول على محتويات المكان. وإن لم أكن قد فعلت هذا بعد، فليس بسبب نقص الرغبة لديَّ؛ هناك وظائف سهلة للغاية، وتخلق الإثارة.

- حتّى الآن تمكّنت من الاحتفاظ بنفسي؛ لم أفعل أيَّ شيء جادّ ضدّ هذا البلد الذي يثق بي. سيكون ذلك حقيراً، وبغيضاً مثل اغتصاب بنات المنزل، الذي استقبلك فيه أهله بحفاوة. لكنّني أخشى يوماً ما عدم قدرتي على مقاومة إغراء الحصول على وظيفة كبيرة، لأنّني لن أتمكّن أبداً من جمع المبلغ الضخم الذي أحتاج إليه للانتقام، وأنا أعمل بصدقٍ وأمانة. بيني وبينك، ليون، أشعر أنّني على حافة فعل ذلك.

استمع ليون الكبير إليَّ بصمت، وهو يحدّق إليَّ باهتمام. تناولنا شراباً أخيراً، من دون أن ننبس ببنت شفة. نهض وتواعدنا على اللقاء وتناول الغداء معه ومع بيدرو التشيليّ في اليوم التالي.

التقينا في مطعم هادئ تحت ظلال الشجر. كانت الشمس مشرقة.

- كنت أفكّر في ما قلته لي، يا بابي. لذا كنت أستمع إليك، وسأخبرك لماذا نحن في كاراكاس.

كانا يمرّان فقط في طريقهما إلى بلد آخر في أمريكا الجنوبيّة. هناك كانا سيوليان اهتماماً جادّاً بمحلّ للرهن، حيث، وفقاً لاستفساراتهما ومعلوماتهما التي قدّمها أحد كبار الموظّفين، كان هناك ما يكفي من الجواهر لكلٍّ منهما ليخرج بثروة كبيرة للغاية، بمجرّد أن تتحوّل الجواهر إلى دولارات. لهذا

السبب كانا يبحثان عن كاروت. لقد قصدا تقديم عرض له ولطائرته. إنّما الآن لا جدوى من الحديث عن ذلك.

اختتم ليون حديثه قائلاً: «يمكنك أن تأتي معنا، إذا أردت، يا بابي».

– ليس لديَّ جواز سفر ولا شيء في طريق الادّخار أيضاً.

– سنعتني بجواز السفر. أليس هذا صحيحاً يا بيدرو؟

قال بيدرو: «الأمر كما لو كان لديك بالفعل. باسم زائف: بهذه الطريقة لن تكون قد خرجت رسميّاً من فنزويلا».

– ما التكلفة، تقريباً؟

– نحو ألف دولار. هل لديك ما يكفي من المال؟

– نعم.

– حسناً، بالنظر إلى وضعك، يجب ألّا تتردَّد.

بعد أسبوعين، كنت على بعد بضعة أميال من عاصمة أمريكا الجنوبيّة، بعد أن استأجرت سيّارة في اليوم التالي للوظيفة، حيث كنت دفنت علبة بسكويت تحتوي نصيبي من الجواهر.

كانت العمليّة مبرمجة بعناية. دخلنا من خلال متجر ربطات عنق مجاور للمراهنين. ذهب ليون وبيدرو إلى هناك مرّات عدّة لشراء ربطات العنق ولإلقاء نظرة فاحصة على القفل، والاستقرار في المكان المحدَّد حيث سيصنعان فتحة في الحائط. لم تكن هذه خزائن، فقط خزائن مغلقة في كلّ مكان. دخلنا الساعة العاشرة من مساء السبت، وخرجنا الساعة الحادية عشرة مساء الأحد.

عمل سلس وجيّد. كنت هناك، على بعد عشرات الكيلومترات من المدينة، حيث دفنتُ العلبة عند سفح شجرة ضخمة. كنت أعلم أنّني سأجد المكان مرّة أخرى من دون أيّ صعوبة، لأنّه حتّى من دون العلامة التي قطعتها بسكّيني، كان من السهل تحديد الشجرة: تبدأ الغابة بعد الجسر مباشرة، والشجرة الأولى في هذه الغابة، على حافة الطريق. في طريق العودة، تخلّيتُ عن الشاحنة بعيداً على بعد عشرة كيلومترات من هنا.

في ذلك المساء، التقينا جيماً في مطعم أنيق. دخلنا على نحو منفصل، وتصرَّفنا كما لو أنّنا التقينا مصادفةً في البار، ثمّ قرّرنا تناول العشاء معاً. كان كلّ منّا قد أخفى نصيبه، ليون مع صديق، وبيدرو في الغابة مثلي.

قال ليون: «من الأفضل أن يكون لكلٍّ واحدٍ منّا حفرة خاصّة به. بهذه الطريقة، لا أحد منّا يعرف ما فعله الآخر بنصيبه. إنّه إجراء احترازيّ يُتّخذ غالباً في أمريكا الجنوبيّة، لأنّه إذا سحبتك الشرطة إلى الداخل، فإنّ ما تُعرّضك له لن يكون ممتعاً على الإطلاق. ثمّ إذا بدأ الرجل البائس في الحديث، فيمكنه فقط أن يتحدّث عن نفسه. أخبرني، بابي، هل أنت راضٍ عن القسمة؟»

- بصراحة، أعتقد أنّ تقديرنا التقريبيّ لكلّ قطعة كان نوعاً ما صحيحاً. كلّ شيء على ما يرام: ليس لديّ ما أقوله.

كان كلّ شيء مُرضياً، وكان الجميع سعداء.

- ارفع يديك!

- «لماذا؟»، صرخ ليون. «هل أنتَ مجنون؟»

لا يوجد وقت للقيام بأيّ ردَّة فعل: بومضة، تعرَّضنا للضرب بالهراوات وتكبيل الأيدي، ثمَّ نُقلنا إلى مقرِّ الشرطة. لم نكن قد انتهينا حتَّى من المحار.

في ذلك البلد، لا تراعيك الشرطة على الإطلاق؛ استمرَّ الاستجواب طوال الليل. ثماني ساعات في الأقلّ.

السؤال الأول: «هل تحبُّ ربطات العنق؟»

- أيُّها الحقير، اللعنة عليك.

وهكذا. بحلول الساعة الخامسة صباحاً، لم نكن سوى كتل من اللحم المكدوم. كان رجال الشرطة غاضبين لعدم تمكُّنهم من معرفة أيِّ شيء منَّا. «حسناً. نظراً لأنَّكم تتصبَّبون عرقاً ودرجة حرارتكم مرتفعة جدّاً، فسوف نبرِّدكم». بعناء استطعنا الوقوف، لكنَّهم ألقوا بنا في عربة، وبعد ربع ساعة كنّا أمام مبنى ضخم. دخل رجال الشرطة أوّلاً ثمَّ رأينا العمَّال يخرجون. لا بدَّ أنَّهم قد طلبوا إليهم المغادرة. ثمَّ جاء دورنا للدخول، كان كلّ واحد منّا محاطاً برجلَي شرطة، كأنَّهم يسحبوننا.

ممّر ضخم، أبواب فولاذيّة يميناً ويساراً، وكلّ منها في شكل ساعة: ساعة يد واحدة فقط. موازين الحرارة. أدركت على الفور أنّنا كنَّا في ممرِّ التجميد العميق لمسلخ كبير.

توقَّفنا في مكان حيث كانت هناك طاولات عدَّة.

قال رئيس الشرطة: «حسناً، الآن، سأعطيك فرصة أخيرة للتفكير في الأمر. هذه خزائن اللحوم. هل تفهم ما يعني ذلك؟ إذاً للمرّة الأخيرة، أين وضعت الجواهر والأشياء الأخرى؟»

قال ليون: «لا نعرف شيئاً عن أيّ جواهر تتحدَّث أو عن أيّ ربطات عنق».

- حسناً، أيُّها المحامي يمكنك التحدُّث أولاً.

فتح رجال الشرطة الباب على مصراعيه. خرج نوع من الضباب الجليديّ وانتشر في الممرّ. بعد أن خلعوا حذاء ليون وجوربيه، دفعوه عبره.

قال الرئيس: «أغلقه بسرعة، وإلّا ستتجمَّد أيضاً».

- الآن، أيُّها التشيليّ، هل ستتحدَّث؟ نعم أو لا؟

- ليس لديَّ ما أقوله.

فتحوا باباً آخر ودفعوا التشيليّ إلى الداخل.

- أنت الأصغر، أيُّها الإيطاليّ (في جواز سفري أحمل الجنسيّة الإيطاليّة). ألقِ نظرة فاحصة على موازين الحرارة هذه. تظهر ناقص أربعين. هذا يعني أنّك إن لم تتحدَّث فسندخلك هنا، بعدها ستصاب بالتهاب رئويّ وتموت في المستشفى في أقلّ من ثمان وأربعين ساعة. سأعطيك فرصة أخيرة، كما ترى: هل سرقت صاحب الرهن بالذهاب إلى متجر ربطات العنق؟ نعم أو لا؟

- لا علاقة لي بهذين الرجلين. كنت أعرف واحداً منهما فقط منذ فترة طويلة، وقد التقيتهما مصادفة في المطعم. اسأل النادل. لا أعرف ما إذا كان لديهما أيّ علاقة بهذه العمليّة، لكنّني متأكّد تماماً من أنّني لست كذلك.

- حسناً، مكاروني. يؤسفني أن أفكِّر في أنّك ستحتضر في مثل هذا العمر، لكنَّ هذا خطؤك. أنت من طلب ذلك.

فُتِح الباب. دفعوني في الظلام، وضربوا رأسي بجانب صلب من لحم بقر معلّق بخطّاف، وسقطت على الأرض: كانت مغطاة بالجليد. على الفور

شعرت بالبرد المروّع يستولي على جسدي، يخترقه ويصل إلى عظامي. بجهد فظيع، جثوت على ركبتي، ثمَّ تشبَّثت بجانب لحم البقر، ووقفت منتصباً. كلّ حركة كانت تؤلمني، بعد الضرب الذي أنزلوه بجسدي، لكن على الرّغم من ذلك حرَّكت ذراعيَّ وفركت رقبتي وخدَّيَّ وأنفي وعينيَّ. حاولت تدفئة يديَّ تحت الإبطين. كلّ ما كنت أرتديه هو سروالي وقميصي الممزَّق. لقد أخذوا حذائي وجوربي أيضاً. شعرت بألم رهيب في باطنَي قدميَّ عندما التصقت بالجليد؛ شعرت أنَّ أصابع قدميَّ بدأت تتجمَّد.

قلت لنفسي: «لا يمكن أن يستمرَّ هذا لأكثر من عشر دقائق - ربع ساعة في الأكثر. وإلّا سأكون مثل أحد هؤلاء الثيران، عبارة عن قطعة من اللحم المجمَّد. لا، لا، هذا غير ممكن. لا يمكنهم فعل ذلك بنا! بالتأكيد لا يستطيعون تجميدنا ونحن أحياء؟ بضع دقائق أخرى وسيفتح الباب. سيبدو هذا الممرّ الجليديّ دافئاً مثل الخبز المحمّص». لم تعد ذراعاي تتحرّكان. لم يعد بإمكاني إغلاق يدي أو تحريك أصابعي؛ كانت قدماي ملتصقتين بالجليد ولم أعد أمتلك القوّة لسحبهما بعيداً. شعرت بأنّه سيغمى عليّ، وفي غضون ثوانٍ قليلة رأيت وجه أبي، ثمَّ المدَّعي العام يطفو فوقه، لكنّ ذلك لم يكن واضحاً، لأنّه اندمج مع وجوه رجال الشرطة. ثلاثة وجوه في واحد. فكَّرت «كم هو غريب. كلّهم متشابهون ويضحكون لأنَّهم قد فازوا.» ثمَّ أغمي عليَّ.

ماذا كان يحدث؟ أين كنت؟ لمَّا فتحت عينيَّ، كان هناك وجه رجل فوق وجهي، وجه جميل. لم أستطع التحدُّث، لأنَّ فمي كان لا يزال متجمّداً من البرد، لكن في داخل رأسي سألت نفسي عمّا أفعله هنا، ممدّداً على طاولة.

عملت هذه الأيدي الكبيرة، القويّة والفعَّالة، على تمسيد كامل جسدي، وشعرت تدريجيّاً بالحرارة والليونة تعودان. كان رئيس الشرطة يراقب، على بعد مترين أو ثلاثة. كان الانزعاج يبدو على محيّاه. فتحوا فمي مرَّات عدَّة لصبّ قطرة من الكحول فيه. وفي إحدى المرات، لمَّا صبُّوا أكثر من المطلوب، شعرت بالاختناق نوعاً ما.

قال المدلّك: «ها نحن أولاء. لقد انتهينا».

استمرّوا في فركي مدَّة نصف ساعة في الأقلّ. شعرت أنَّه يمكنني التحدُّث إذا أردت ذلك، لكنَّني فضَّلت السكوت. أدركت أنَّه يوجد إلى اليمين جسد آخر ملقى على منضدة في الارتفاع نفسه. كان عارياً أيضاً، وكانوا يفركونه ويدلّكونه. من كان؟ ليون أم التشيليّ؟ كان هناك ثلاثة منّا: لكن معي على هذه الطاولة رجل آخر، هذا يعني أنّنا اثنان فقط. لقد كنّا ثلاثة، لكن لا يوجد في هذه الغرفة سوايَ مع رجل آخر، أي اثنان منّا فقط. أين الثالث؟ كانت الطاولات الأخرى فارغة.

بمساعدة المدلّك تمكَّنتُ من الجلوس، ورأيت من هو الآخر. بيدرو التشيليّ. ألبسونا ملابسنا، فوضعوا كلًّا منَّا في أفرول مبطَّن مصنوع خصيصاً للرجال الذين يعملون داخل المجمّد.

عاد رئيس الشرطة وبدأ التحدُّث معنا بطريقة هجوميَّة بعض الشيء، قائلاً: «هل يمكنك التحدُّث يا تشيليّ؟»

- نعم.
- أين الجواهر؟
- أنا لا أعرف أيَّ شيء.

- وماذا عنك، سباغيتي؟

- لم أكن مع هذين الرجلين.

- حسناً.

انزلقتُ من على الطاولة. بمشقَّة استطعت الوقوف، لكن بمجرَّد وصولي شعرت بحرقة في باطنَي قدميَّ. لقد أسعدني ذلك على الرّغم من أنّه مؤلم، وشعرت أنَّ الدَّم يتدفَّق داخلي، يتسابق في أنحاء جسدي كلّه بقوّة، إلى درجة أنّه يضرب في الأوردة والشرايين الأبعد.

ظننت أنّني وقعت في يوم من الأيّام في حالة رعب قدر الإمكان، لكنّني كنت قد فهمت الأمر خطأً، خطأً تماماً.

وضعونا أنا وبيدرو جنباً إلى جنب، وصرخ الرئيس، الذي استعاد الآن ثقته بنفسه، قائلاً: «جرِّدوهما من ثيابهما». وها أنا ذا عارٍ حتَّى الخصر: على الفور بدأت أرتعش من البرد مرَّة أخرى.

- والآن، ألقيا نظرة فاحصة على هذا.

من تحت الطاولة، سحبوا نوعاً من الطرود الصلبة وأوقفوه أمامنا. كانت جثَّة مجمَّدة صلبة مثل اللوح. كانت عيناه مفتوحتين على مصراعيهما، مثل كرتين من الرخام: كان من المروع رؤيته، إنَّه مرعب. إنَّه ليون الكبير! لقد جمَّدوه وهو حيّ!

قال الرئيس مرَّة أخرى: «ألقيا نظرة فاحصة. شريككما لم يتحدَّث؛ حسناً، بعد أن اختبرنا جميع الوسائل والطرائق معه. الآن حان دوركما، إذا كنتما عنيدين كما كان. لقد تلقّيت أوامر بأن أكون بلا رحمة، لأنَّ عملكما هذا خطِر للغاية. تدير الدولة متجر الرهن ذاك، وهناك شائعة قبيحة تسري في

المدينة - يعتقد الناس أنَّها خدعة نفَّذها بعض المسؤولين. لذلك، إمَّا أن تتحدَّثا، وإمَّا في غضون نصف ساعة ستكونان كصديقكما هنا.

لم أكن قد استعدت قدراتي بعد على نحو كامل، وأزعجني المنظر إلى درجة أنَّني شعرت بالرغبة في الحديث لمدّة ثلاث ثوانٍ طويلة. الشيء الوحيد الذي منعني، هو أنَّني لم أكن أعرف أين توجد أماكن الاختباء الأخرى. لن يصدّقوني أبداً، وسأكون في خطر أسوأ من أيِّ وقت مضى.

لدهشتي المطلقة، سمعت صوتاً جامعاً للغاية، صوت بيدرو، يقول: «تعالَ الآن؛ لا يمكنك تخويفنا بهذه الأشياء. لماذا، بالطبع كان حادثاً - لم تقصد أبداً تجميده؛ كان خطأً في الحكم، هذا كلّ شيء؛ لكنَّك لا تريد أن ترتكب خطأً آخر معنا. بالإمكان غضّ النظر عن شخص واحد؛ لكن أن يتمَّ تحويل ثلاثة أجانب إلى كتل من الجليد، فإنَّ هذا سيفاقم الأمر. ولا أستطيع أن أراك تقدِّم تفسيرات مختلفة ومحكمة للسفارتين. واحد، حسناً. ثلاثة، لا، سيعدُّ أمراً كبيراً وخطراً للغاية».

لا يسعني إلَّا الإعجاب بعصب بيدرو الصلب. بهدوء شديد نظر الشرطيُّ إلى التشيليّ ولم ينبس ببنت شفة. ثمَّ، بعد وهلة من الصمت، قال: «أنت محتال، وهذا أمر مؤكَّد؛ لكن يجب أن أعترف بأنَّ لديك الشجاعة أيضاً». ثمَّ التفت نحو الآخرين، وقال: «اعثر لكلّ منهما على قميص وأعدهما إلى السجن: سيعتني بهما القاضي. لم يعد من المفيد الاستمرار معهما باستخدام «الأساليب الجيّدة» - إنَّها مضيعة للوقت». أدار ظهره وغادر.

بعد مرور شهر سمحوا لي بالخروج. اعترف تاجر ربطات العنق بأنّي لم أذهب إلى متجره على الإطلاق، وهذا صحيح: ذكر صاحب البار أنّي كنت

بمفردي، وقد احتسيت كأسين من الويسكي، وأنّني حجزت بالفعل طاولة لشخص واحد قبل ظهور الشخصين الآخرين، وقد أظهرنا دهشة كبيرة للغاية حين مقابلة أحدنا الآخر في هذه المدينة. ومع ذلك، فقد أمروني بمغادرة البلاد في غضون خمسة أيّام، لأنّهم خافوا أن أذهب لأخبر القنصليّة بما حدث.

في أثناء تقديم الاعترافات، جرت مواجهتي مع شخص لم أكن أعرفه، لكنّ بيدرو كان يعرفه - موظّف مكتب الرهنيات الذي أوكله إلى المهمّة. في الليلة عينها التي أجرينا فيها القسمة، قدّم هذا الرجل السخيف خاتماً عتيقاً رائعاً لفتاة من الحانة. أُخطر رجال الشرطة، ولم يجدوا صعوبة في جعله يتحدّث: لهذا السبب تمّ التعرُّف إلى ليون الكبير وبيدرو بهذه السرعة. بقي بيدرو التشيليّ هناك، في عمله.

ركبت الطائرة وفي جيبي خمسمئة دولار. لم أقترب من مخبئي قطّ. كانت مخاطرة كبيرة. أجريت تقييماً لأرى كيف سارت الأمور بعد الكابوس البشع الذي مررت به للتوّ؛ قدّرت الصحف عمليّة السرقة بمئتي ألف دولار. حتّى لو بالغوا فيه وضاعفوه، فقد تركوا مئة ألف. لذلك، كان لديَّ نحو ثلاثين ألفاً في حفرة. بما أنَّ القيمة قد حُسبت على أساس المبلغ المقرض على الجواهر، أي نصف قيمتها الحقيقيّة، وإذا بعتها من دون المرور بمشتري البضائع المسروقة، فعندها وفقاً لتقديراتي سأكون قد ملكت أكثر من ستين ألف دولار! لذلك كان لديَّ ما أحتاج إليه من أجل الانتقام، طالما أنّني لم أفعل هذا من أجل العيش. كان هذا المال مقدَّساً. لقد كان لغرض مقدَّس، ويجب ألّا أستخدمه أبداً لأيِّ شيء آخر، لأيِّ ذريعة على الإطلاق.

على الرَّغم من الطريقة المروّعة التي انتهى بها الأمر بالنسبة إلى صديقي ليون، إلَّا أنَّ هذه المهمَّة كانت بمنزلة انتصار لديَّ. لم أضطرَّ بالفعل إلى مساعدة التشيليّ؛ لكن في غضون بضعة أشهر كان متأكّداً من إرسال صديق موثوق به ليأخذ نصيبه كي يتمكَّن من دفع أتعاب محاميه. في أيّ حال، كان هذا هو اتفاقنا - لكلّ منّا مكان اختباء خاصّ به كي لا يرتبط أحدنا بمصير الآخرين. لم أكن أؤيد هذه الطريقة، لكنَّها كانت الطريقة المعتادة للعمل وسط أمريكا الجنوبيَّة. بمجرَّد الانتهاء من المهمَّة، كلّ واحد منّا كان ينتبه إلى نفسه. الله وحده للجميع.

الله للجميع... إذا كان حقّاً هو الذي خلَّصني، فقد كان أكثر من نبيل؛ لقد كان كريماً. ومع ذلك، لا يمكن أن يكون الله صانع انتقامي. لم يكن يريدني أن أنتقم، وأنا أعلم ذلك تماماً. تذكَّرت ذلك اليوم في إلدو رادو، قبل يوم واحد من السماح لي بالخروج إلى الأبد. أردت أن أشكر إله الكاثوليك، وقلت له في داخلي: «ماذا أفعل لأثبت أنَّني ممتنّ بصدق للطفك؟» وبدا لي أنَّني سمعت الكلمات، كما لو أنَّ صوتاً يخاطبني، «كفَّ عن انتقامك».

قلت لا. أيّ شيء آخر، لكن ليس هذا. لذلك، لا يمكن أن يكون الله هو من اهتمَّ بي في هذا العمل. غير ممكن. لقد حالفني الحظّ، هذا كلّ شيء، حظّ الشيطان. لم يكن للربّ الطيّب أعلاه أيّ علاقة بهذا النوع من الهراء.

إلَّا أنَّ النتيجة - أوه، كانت النتيجة جيّدة، مدفونة عند سفح شجرة قديمة. لقد كان عبئاً كبيراً على ذهني، مع العلم أنَّني امتلكت ما أحتاج إليه لتنفيذ الخطَّة التي كنت أطمع بها من كلِّ قلبي إبَّان السنوات الثلاث عشرة الماضية.

كم كنت آمل أن تكون الحرب قد أنقذت الأشرار الذين آذوني! الآن كلّ ما كان عليَّ فعله، وأنا في انتظار يوم الإنزال، هو البحث عن وظيفة والعيش بهدوء كي أتمكَّن من الذهاب والبحث عن كنزي.

كانت الطائرة تحلِّق على ارتفاع كبير في سماء متلألئة، فوق بساط من السحب البيض. لقد كان النقاء هنا، وفكَّرت في ذويّ وأبي وأمّي وأسرتي وطفولتي وهم يغمرهم النور. تحت ذلك الركام الأبيض كانت هناك غيوم قذرة، مطر رماديّ غير نظيف - صورة رائعة للعالم الأرضيّ: قبَّحة الرغبة في السلطة، تلك الرغبة في الإثبات للآخرين أنَّك أفضل منهم، تلك الرغبة الجافَّة القاسية التي تراها في هذا النوع من الأشخاص الذين لا يأبهون إذا دمَّروا إنساناً طالما أنَّهم بذلك يكسبون شيئاً أو يثبتون شيئاً.

الفصل الثامن

القنبلة

كاراكاس مرَّة أخرى. كان من دواعي سروري أن أسير في شوارع هذه المدينة الحيَّة العظيمة مرَّة أخرى. لقد غدوت حرّاً منذ عشرين شهراً، ومع ذلك لم أصبح عضواً في هذا المجتمع. كان من الجيّد جدّاً أن تقول: «كلّ ما عليك فعله هو الحصول على وظيفة»، لكن إلى جانب عدم القدرة على العثور على أيِّ عمل مناسب، واجهت مشكلة في التحدُّث باللغة الإسبانيّة، وأُغلق العديد من الأبواب في وجهي بسبب ذلك. لذا، اشتريت كتاباً مدرسيّاً، وأغلقت على نفسي في غرفتي، وعقدت العزم على قضاء ساعات عدّة في تعلّم اللغة الإسبانيّة. أصبحت أكثر غضباً. لم أستطع أن أضغط على النطق، وبعد بضعة أيّام رميت الكتاب إلى الطرف الآخر من الغرفة وعدت إلى الشوارع والمقاهي، بحثاً عن شخص أعرفه يمكنه أن يجد لي شيئاً أفعله.

كان المزيد والمزيد من الفرنسيين يأتون من أوروبا، منزعجين من الحروب والاضطرابات السياسيَّة. هرب بعضهم من العدالة التعسفيَّة التي تباينت حسب المناخ السياسيّ السائد. كان الآخرون يبحثون عن السلام والهدوء - شاطئ يمكنهم فيه التنفّس من دون أن يأتي أحدهم كلّ لحظة ليضغط على أنفاسهم.

لم يكن هؤلاء الأشخاص فرنسيين، على الرَّغم من أنَّهم كانوا فرنسيين. لم يكن لديهم أيُّ شيء مشترك مع بابا شارير أو أيّ من الأشخاص الذين كنت أعرفهم في طفولتي. لمَّا كنت معهم، وجدتُ أنَّ لديهم أفكاراً مختلفة جدّاً ومتضاربة جدّاً مقارنة بأفكار أيّام شبابي. غالباً ما أوشكت أن أقول لهم: «أعتقد أنَّه ربَّما يجب ألّا تنسى الماضي، لكن يجب أن تتوقَّف عن الحديث عنه. هل من الممكن أنَّه حتَّى الآن، بعد انتهاء الحرب، يوجد أنصار للنازيَّة بينكم؟ سأقول لك شيئاً: حينما تتحدَّث عن اليهود، فإنَّ الأمر يشبه رؤية أحد الأعراق ينفث الكراهية ضدَّ عِرق آخر».

- أنت تعيش في فنزويلا، وسط شعبها، ومع ذلك أنت غير قادر على استيعاب فلسفتهم الرائعة. هنا لا يوجد تمييز، سواء على أساس العرق أو الدين. إذا أصيب أيّ شخص بفيروس الانتقام من الطبقات المتميّزة، فيجب أن تكون الطبقة الأكثر فقراً بسبب ظروف حيواتهم البائسة. حسناً الآن، هذا الفيروس ليس موجوداً حتّى في هذا البلد.

- أنت غير قادر حتّى على الاستقرار والعيش من أجل العيش. الحياة ليست سوى معركة أبديَّة بين الناس الذين لا يملكون الأيديولوجيا عينها.

- من فضلك، لا تأتي إلى هنا، إذ إنَّ الأوروبيين ممتلئين بمفاهيم تفوق عرقك. صحيح، لقد تلقيت تدريباً فكرياً أكثر من غالبية الناس هنا، لكن ماذا عن ذلك؟ ما الجيّد بالنسبة إليك، بما أنك أغبى من العديد من أصدقائك؟ يمكننا القول إنَّ التعليم لديك لا يعني الذكاء والكرم والخير والتفاهم، لكن فقط تعلُّم الأشياء من الكتب. إذا بقيت قلوبكم جافَّة وأنانية وحاقدة ومتحجِّرة، فإنَّ ما تعلَّمته لا يعني شيئاً.

- حينما أنظر إليك وأستمع إليك، يخطر في بالي أنَّ العالم الذي يديره الأوغاد مثلك لن يعني شيئاً سوى الحروب والثورات. لأنَّه على الرَّغم من أنَّك تقول إنَّك تشتاق إلى السلام والهدوء، فإنَّك لا تشتاق إليه إلَّا إذا كان يتَّفق مع وجهة نظرك.

إنَّ لكلٍّ منهم قائمة بالأشخاص الذين سيتمّ إطلاق النار عليهم أو حظرهم أو دفعهم إلى السجن؛ وعلى الرّغم من أنّ هذا يزعجني، إلّا أنّني لم أستطع إلّا أن أضحك عندما سمعت هؤلاء الأشخاص، جالسين في مقهى أو صالة فندق من الدرجة الثالثة، ينتقدون كلَّ شيء، ويخلصون إلى استنتاج مفاده أنَّهم هم الوحيدون الذين يمكنهم حقاً إدارة العالم.

كنت خائفاً، نعم، كنت خائفاً، لأنَّه كان لديَّ شعور حقيقيّ جدّاً بالخطر الذي جلبه هؤلاء القادمون الجدد معهم: فيروس العواطف الأيديولوجيّة المتحجّرة في العالم القديم.

عام ١٩٤٧ تعرَّفت إلى محتال سابق باسم بيير رينيه ديلويفر. كان لديه شيء واحد فقط للعبادة، وهو الجنرال أنغاريتا ميدينا، الرئيس السابق لفنزويلا، الذي أطاح به الانقلاب العسكريّ الأخير عام ١٩٤٥. كان ديلوفر شخصيّة رفيعة المستوى، نشيطاً جدّاً، لكنّه منفتح القلب ومتحمّس.

لقد بذل جهده وشغفه لإقناعي بأنَّ الأشخاص الذين استفادوا من هذا الانقلاب لا يستحقّون أحذية أنغاريتا ميدينا. وفي الحقيقة، إنَّه لم يقنعني. لكن، بما أنّني كنت في موقف صعب، فلن أتجاوزه.

وجد لي وظيفة عبر مموّل، رجل رائع حقّاً يدعى ألبخاندرو، ينحدر من أسرة فنزويليّة قويّة. كان نبيلاً، كريماً، ذكيّاً، مثقفاً جيّداً، وشجاعاً على نحو

غير عاديّ. إلّا أنَّ علّته الوحيدة كانت تتمثّل في أخٍ حسود، غبيّ وعاجز. بعض تصرّفاته الأخيرة أوضحت لي أنّه لم يتغيّر في السنوات الخمس والعشرين الماضية. قدَّمني ديلفور إلى المموّل ببساطة، ومن دون تكلّف، قائلاً: «صديقي بابيون، الذي هرب من تسوية العقوبات الفرنسيَّة. بابيون، هذا هو الرجل الذي كنت أخبرك عنه».

تبنَّاني أليخاندرو على الفور، وبصراحة سألني كأحد النبلاء الحقيقيين عمّا إذا كنت في حاجة إلى المال.

«لا، يا سيّدي أليخاندرو؛ أنا في حاجة إلى وظيفة».

في جميع الأحوال، من الأفضل أن يأخذ الإنسان وقته. علاوة على ذلك، لم أكن أعاني من نقص في السيولة في الوقت الحالي.

- تعالَ وقابلني غداً، في تمام الساعة التاسعة.

في اليوم التالي، اصطحبني إلى مرآب لإصلاح السيَّارات، كان يُدعى «الفرنسيّ - الفنزويليّ»، وهناك قدَّمني إلى زملائه، ثلاثة شبّان مفعمين بالحياة، ومستعدّين لمواجهة فرس هائج. اثنان منهم متزوّجان. واحد متزوّج من سيمون، الباريسيَّة الرائعة ذات الخمسة والعشرين عاماً؛ والآخر متزوّج من ديديه، وهي فتاة في العشرين من عمرها ذات عينين زرقاوين من بريتاني، رقيقة مثل البنفسج وأمّ لطفل صغير يدعى كريكري.

كانوا حسني المظهر ومنفتحين وصريحين وغير متحفّظين. رحَّبوا بي بأذرع مفتوحة، كأنَّهم يعرفونني منذ زمن. على الفور جهّزوا لي سريراً في زاوية من المرآب الكبير، مغلقاً بستائر إلى حدٍّ ما، وقريباً إلى الحمّام. لقد كانوا أسرتي الحقيقيّة الأولى منذ سبعة عشر عاماً. كان هذا الفريق من الشبّان يحبّني ويعتزّ

بي ويحترمني؛ وقد جعلني ذلك أكثر سعادة، لأنَّه على الرّغم من أنّني كنت أكبر سنّاً ببضع سنوات، إلّا أنَّه كان لديَّ القدر نفسه من الحماس للحياة، والقدر نفسه من السعادة في العيش من دون قواعد أو حدود.

لم أطرح أيّ أسئلة – لم أكن مضطرّاً إلى ذلك حقّاً - لكن سرعان ما رأيت أنّه لم يكن أحد منهم ميكانيكيّاً حقيقيّاً. كانت لديهم فكرة غامضة وغامضة للغاية عن ماهيَّة المحرِّك: لكن، حتّى أقلّ من فكرة فيما يتعلّق بمحرّكات السيّارات الأمريكيّة. كانت السيّارات الأمريكيّة هي السيّارات الرئيسة إن لم تكن الوحيدة. كان أحدهم عامل تشغيل مخرطة، وقد أوضح ذلك وجود مخرطة في المرآب - قالوا إنّها مخصّصة لتصحيح المكابس.

سرعان ما اكتشفت أنَّ هذه الآلة تمَّ استخدامها لتغيير زجاجات الغاز كي يأخذوا مفجّراً وفتيل بيكفورد.

بالنظر إلى سرب الفرنسيين الوافدين حديثاً، عمل المرآب الفرنسيّ–الفنزويليّ على إصلاح السيّارات على نحو أو آخر؛ لكن، بالنظر إلى المموّل الفنزويليّ، هو مكان إعداد قنابل الانقلاب. لم أكن أهتمُّ بهذا الأمر تماماً.

– إلى الجحيم. من يدعم، ومن هو ضدّ التاريخ؟ حدّثني عنها.

كان الوقت مساءً. كنّا نجلس هناك تحت المصباح، وكنت أستجوب الفرنسيين الثلاثة، في حين خلدت الزوجتان والصبيّ إلى النوم.

– هذا ليس من شأننا. نحن فقط نصلح الأنابيب التي يطلبها أليخاندرو. وهذا جيّد لدينا.

– جيّد لديكم، ربّما. لكن عليَّ أن أعرف.

– لماذا؟ هل تكسب رزقاً كبيراً وتستمتع، أليس كذلك؟

- بالتأكيد. بقدر ما يذهب المرح، لدينا متعة. لكنّي لست مثلك. لقد منحوني حقّ اللجوء في هذا البلد: يثقون بي ويسمحون لي بالتجوّل بحريَّة.

لقد ذهلوا، لأنَّهم كانوا يعرفون ما كان في ذهني؛ كانوا يعرفون كلَّ شيء عن هوسي - لقد أخبرتهم. إلَّا أنَّ هناك شيئاً واحداً لم أخبرهم به، كان يتعلَّق بعمليَّة الرَّهن. لذلك، قالوا لي: «إذا نجح هذا العمل، يمكنك جني الأموال التي تحتاج إليها لتنفيذ ما يدور في ذهنك. وبالطبع، نحن لا ننوي قضاء بقيَّة حيواتنا في هذا المرآب. بالتأكيد نستمتع، هذا صحيح، لكنَّه لا يجلب كثيراً من المال الذي كنَّا نحلم به عندما أتينا إلى أمريكا الجنوبيَّة».

- وماذا عن زوجتك والطفل؟

- المرأتان تعرفان كلَّ شيء. قبل شهر من يوم الانقلاب، ستغادران إلى بوغوتا.

- إنَّهما تعرفان كلَّ شيء، إذاً. تماماً كما اعتقدت. لذلك لا تدهشان كثيراً من بعض الأشياء التي تحدث.

في المساء عينه التقيت آرموند وديلفور، وتحدَّثت إليهما لفترة طويلة.

قال لي أليخاندرو: «في بلدنا، بيتانكورت وغاليغوس هما من يديران كلَّ شيء، تحت الغطاء الزائف المسمَّى العمل الديمقراطيّ. وُضعت السلطة بين أيديهما، وضعها الجنود من ذوي العقليّة البسيطة، الذين لم يعودوا يعرفون حقاً سبب الإطاحة بالمدنيَّة - لقد كان جندياً أيضاً، وأكثر ليبرالية وأكثر إنسانيَّة من المدنيين. أرى مسؤولي المدينة السابقين يتعرَّضون للاضطهاد، ولا يوجد شيء يمكنني قوله؛ وأحاول أن أفهم كيف يحدث أنَّ الرجال الذين قاموا بثورة بشعارات مثل «العدالة الاجتماعيّة واحترام الجميع من

دون استثناء» يمكن أن يصبحوا أسوأ من أسلافهم بمجرَّد وصولهم إلى السلطة. لهذا السبب أريد المساعدة في إعادة مدينا».

- حسناً يا أليخاندرو. أرى تماماً أنَّ ما تريده قبل كلِّ شيء هو منع الحزب الحاكم الآن من مواصلة اضطهاده. أمَّا أنت يا ديلفور، فلديك إله واحد فقط، وهو مدينا، حاميك وصديقك. إنَّما، استمعوا إليَّ الآن: أنا بابيون، من إلدو رادو، هذا الحزب الذي هو في السلطة الآن، هو من حرَّرني. بعد الثورة مباشرة، في اللحظة التي وصل فيها الزعيم الجديد، وقف عهد الإرهاب الوحشيّ في المستوطنة، وأوقفه عن العمل. لا يزال هناك، كما أعتقد - دون خوليو راموس،وهو محام وكاتب متميّز، الرجل الذي سمح لي بالخروج. وتريدونني أن أشارك في الانقلاب على هؤلاء؟ لا: دعني أذهب. أنت تعلم أنَّه يمكنك الاعتماد على إبقاء فمي مغلقاً.

قال لي أليخاندرو، الرجل النبيل والعالم بالحالة الصعبة التي كنت فيها: «إنريكي، أنت لا تصنع القنابل؛ أنت لا تعمل في المخرطة. كلّ ما تفعله هو الاعتناء بالسيَّارات وتمرير الأدوات عندما يطلبها الرئيس. لذا، ابقَ لفترة أطول قليلاً. أطلبها خدمة؛ وإذا اتخذنا خطوة، فسيجري تحذيرك قبل أكثر من شهر».

لذلك بقيت هناك مع هؤلاء الشبَّان الثلاثة. لا يزالون في قيد الحياة، ويمكن التعرُّف إليهم بسهولة، لذلك سأضع الأحرف الأولى من الاسم: ب. ل. و ب. ل. و ج. بدلاً من أسمائهم. لقد شكَّلنا فريقاً رائعاً، وكنّا دائماً معاً، وقد أطلق علينا الفرنسيّون في كاراكاس الفرسان الثلاثة - كما يعلم الجميع، كان هناك أربعة منهم. كانت تلك الأشهر القليلة الأفضل والأكثر سعادة والأكثر حيويَّة التي قضيناها في كاراكاس.

كانت الحياة عبارة عن ضحكة واحدة طويلة. كنَّا أيَّام السبت، نحجز إحدى السيَّارات الأنيقة التي تخصّ أحد العملاء لاستخدامنا الخاصّ، قائلين إنَّها لم تكن جاهزة بعد، وننطلق بها إلى أحد الشواطئ الرائعة الممتلئة بالورد وأشجار جوز الهند، للسباحة والاستمتاع طوال اليوم. في بعض الأحيان، بالطبع، كنَّا نلتقي المالك، الذي كان يصاب بالدهشة لرؤية السيَّارة، التي يعتقد أنَّها كانت في المرآب، تنقل كلَّ هذا العدد من الأشخاص. ثمَّ بلطف شديد، نشرح له أنَّنا كنَّا نفعل ذلك في سبيل مصلحته - وأنَّنا لا نستطيع تحمُّل فكرة إعادة السيَّارة إليه إن لم تكن في حالة ممتازة، لذا كان لا بدَّ من تجربتها. لقد نجحت هذه الخطَّة على الدوام، ولا شكَّ في أنَّ الابتسامات الساحرة للسيدتين قد ساعدت كثيراً.

من ناحية أخرى، دخلنا في بعض المواقف المحرجة للغاية. تسريب خزَّان البنزين الخاصّ بسيّارة الليموزين التابعة للسفير السويسريّ. لقد أحضر السيَّارة إلينا لنلحم المفصل. أفرغت الخزَّان بعناية باستخدام أنبوب مطاطيّ، وامتصاص آخر قطرة. إنَّها من الواضح أنَّ هذا لم يكن كافياً، لأنَّه ما إن لامسته شعلة أنبوب النفخ، انفجر الخزَّان الملعون، ما أدَّى إلى اشتعال النار في السيّارة وتفحّمها، ما أثار حالة من الفوضى. بينما كنت أنا والعامل، المغطّى بالزيت الأسود والدّخان، بدأنا للتوّ في إدراك أنَّنا هربنا من الموت، سمعت صوت ب.ل. الهادئ يقول: «ألا تعتقد أنَّنا يجب أن نخبر شركاءنا بهذا الحادث البسيط؟»

اتَّصل أليخاندرو، وأجابه فينسانت السعيد. «فينسانت، هل يمكنك أن تعطيني رقم شركة تأمين المرآب؟»

- ...

- لماذا؟ أوه نعم، كدت أنسى. لأنَّ سيَّارة السفير السويسريّ اشتعلت فيها النيران. إنَّها مجرَّد كومة من الرماد الآن.

ليس من الضروريّ إخبارك أنَّه بعد خمس دقائق ظهر فينسانت على وجه السرعة، وهو يلوّح بذراعيه ويقفز بجنون لأنَّه في الواقع لم يكن المرآب مغطًّى بأيِّ نوع من أنواع التأمين على الإطلاق. استغرق الأمر ثلاث كؤوس من الويسكي القويَّة. ظهر أليخاندرو فقط في اليوم التالي؛ كان هادئاً تماماً، وكانت هذه طريقته الساحرة في مواجهة أيّ طارئ - «تحدث الأشياء فقط للأشخاص الذين يعملون. في أيّ حال، ليس ثمَّة داعٍ للحديث عن هذا الموضوع مرّةً أخرى؛ لقد أصلحت كلَّ شيء مع السفير».

حصل السفير على سيَّارة أخرى، لكن لسبب ما فقدنا عمله.

من وقت إلى آخر، بينما كنَّا نعيش هذه الحياة المبهجة، كنت أفكّر في كنزي الصغير الذي يرقد هناك مختبئاً عند سفح شجرة في جمهوريَّة تشتهر بلحومها المجمَّدة. أضع المال جانباً مقابل الأجرة هناك والعودة عندما يحين وقت الذهاب وإحضاره. إنّ معرفتي بأنَّ لديَّ ما يكفي تقريباً لإرضاء الانتقام قد غيَّرتني تماماً. نظراً لأنَّني لم أعد قلقاً بشأن جني الأموال، فقد استطعت الانغماس من صميم قلبي في حياة الفرسان - الغطس فيها بعمق إلى درجة أنَّنا كنَّا جميعاً نستحمّ في نافورة في كاراكاس بعد ظهر أحد أيّام الأحد في الساعة الثالثة وربع، لا يوجد شيء عليها سوى الأدراج. هذه المرّة، في الأقلّ، ارتقى فينسانت إلى مستوى المناسبة، وأطلق سراح شركاء شقيقه من مركز الشرطة حيث تمَّ حجزهم بسبب التعرُّض غير اللائق. حتَّى الآن، مرَّت أشهر عدَّة جيّدة، ويبدو لي أخيراً أنَّ من الآمن الذهاب لاستعادة كنزي.

ودَّعت رفاقي، وشكرتهم على لطفهم، وها أنا ذا في طريقي إلى المطار.

وصلت إلى هناك عند الساعة السادسة صباحاً. استأجرت سيَّارة، وفي التاسعة وصلت إلى المكان.

عبرت الجسر. يا إلهي، ماذا حدث؟ هل جننت أو كان سراباً؟ حدَّقت حولي، فشجرتي لم تكن هناك. ليس شجرتي فقط بل المئات من الأشجار الأخرى. كان الطريق أوسع بكثير، وتمَّ تغيير الجسر والامتداد المؤدّي إليه بالكامل. انطلاقاً من الجسر، تمكَّنت من تحديد المكان الذي يجب أن تكون فيه شجرتي وثروتي. لقد ذهلت. لا أثر لأيٍّ شيء.

ضربني نوع من الجنون، غضب غبيّ. عمدت إلى تثبيت كعبي على الإسفلت، كما لو كان يشعر بأيِّ شيء. كان الغضب يعتمر في نفسي، وبحثت حولي بحثاً عن شيء لأدمّره: كلّ ما استطعت رؤيته هو الخطوط البيض المرسومة على الطريق - لقد ركلتها، كما لو أنَّ إزالة قطع صغيرة من الطلاء يمكن أن تدمِّر الطريق.

عدت إلى الجسر. لم يُغيَّر طريق الاقتراب على الجانب الآخر، وبناءً على ذلك اعتقدت أنّه لا بدَّ أنَّهم حفروا الأرض إلى عمق يزيد على أربعة أمتار. وبما أنَّ كنزي لم يُدفن على عمق أكثر من متر، فلا يمكن أن يبقى طويلاً، يا للمسكين.

اتَّكأت على الحاجز وشاهدت تدفّق المياه لفترة من الوقت. هدأت تدريجيّاً، لكن ما زالت الأفكار تدور في رأسي. هل سأبقى أخسر دائماً هكذا؟ هل يجب أن أتخلَّى عن محاولة التخلُّص من الأشياء؟ ماذا كنت سأفعل الآن؟ ترهَّلت ركبتاي. إنَّما، بعد ذلك، تماسكت وقلت: «كم مرَّة

فشلت؟ سبع أو ثماني مرّات، صحيح؟ حسناً، إنَّه الشيء نفسه في الحياة. شخص يخسر والآخر يفوز. هذه هي الحياة، عندما تحبّها حقّاً».

لم أبقَ طويلاً في هذا البلد الذي شعرت أنَّه مدعوّ إلى تغيير طرقه بهذه السرعة. لقد أصابني المرض بالاعتقاد أنَّ الأمَّة المتحضِّرة لم تحترم حتّى الأشجار القديمة. ولماذا، أسألهم، لماذا توسيع طريق كان واسعاً بدرجة كافية لجميع حركة المرور التي كان عليه أن يحملها؟

في الطائرة التي أعادتني إلى كاراكاس، ضحكت لاعتقادي أنّ الرجال يمكنهم أن يفترضوا أنَّهم أسياد مصائرهم، إذ يتخيَّلون أنَّهم يستطيعون بناء المستقبل والتنبّؤ بما سيفعلونه في العام المقبل أو العام التالي. كلّ هذا هراء يا بابي! الرجل الأكثر تنظيماً وذكاءً ليس أكثر من لعبة في يد القدر. الحاضر وحده مؤكّد: كلّ ما تبقّى لا نعرف عنه شيئاً - شيء يُطلق عليه اسم الحظّ، أو سوء الحظّ، أو القدر، أو في الواقع يد الله الغامضة وغير المفهومة.

هناك شيء واحد فقط مهمّ حقّاً في الحياة، وهو عدم الاعتراف أبداً بأنَّك تعرَّضت للهزيمة، والبدء من جديد بعد كلِّ فشل. كان هذا ما كنت سأفعله.

لمَّا غادرت، قلت وداعاً لأصدقائي إلى الأبد. لأنَّني خطّطت ما إن أجلب المسروقات، كنت سأقصد إلى بلدان أخرى، وليس فنزويلا، وأغيّر الجواهر حتّى لا يمكن تعرُّفها، ومن ثمَّ أبيعها وأنتقل إلى إسبانيا. من هناك، سيكون من السهل الذهاب ولقاء المدَّعي العامّ وشركائه. لذا، يمكنك تخيّل الضجَّة الرائعة حين رآني الفرسان وأنا أقف عند باب المرآب. عشاء وقالب حلوى احتفالاً بعودتي. وضع ديديه أربع أزهار على الطاولة. شربنا، وبدأت الحياة مرّة أخرى بكامل طاقتها. لكن، مع ذلك، لم أعد مرتاحاً كما كنت.

شعرت بالتأكد أنَّ أليخاندرو وديلويفري لديهما أفكاراً عنّي كانا يحتفظان بها، ربَّما بشيء ذي علاقة بالانقلاب، على الرَّغم من أنَّ كليهما يعرف موقفي فيما يتعلَّق بهذا الأمر. كانا يطلبان إليَّ في كثير من الأحيان أن آتي وأتناول شراباً أو آكل في منزل ديلويفري. طعام رائع، دون شهود. طها ديلويفري، وحضَّر سائقه المخلص فيكتور المائدة. تحدَّثنا عن كثير من الأشياء، لكن في النهاية كانت المحادثة تدور دائماً حول الموضوع عينه - الجنرال مدينا أنغاريتا، الأكثر ليبراليَّة بين جميع الرؤساء الفنزويليين؛ لا يوجد سجين سياسيّ واحد إبَّان نظامه؛ لم يضطهد أحداً بسبب أفكاره. سياسة التعايش مع جميع الدول الأخرى، وجميع الأنظمة الأخرى، حتّى درجة إقامة علاقات دبلوماسيَّة مع الاتحاد السوفييتي. لقد كان جيّداً، ونبيلاً، وأحبّه الناس جدّاً لبساطته، إلى درجة أنّه ذات يوم، خلال احتفال في إل بارالسو، حملوه وزوجته كالمنتصر.

كان يخبرني باستمرار عن هذه المدينة الرائعة، حيث تجوَّلت في كاراكاس مع مساعد واحد فقط وذهبت إلى السينما مثل المواطن العادي، أقنعني أليخاندرو وديلويفري أنَّ الرجل الذي يكون قلبه في المكان المناسب هو الوحيد الذي يمكنه فعل أيِّ شيء لإعادة مدينا إلى السلطة. لقد رسموا صورة قاتمة للغاية لظلم الحكومة الحالية وموقفها الانتقاميّ تجاه قطاع كامل من السكَّان. ولجعلي مثل رئيسهم الرائع أكثر، أخبرني ديلويفري أنَّ مدينا عاش الأمر مع أفضلهم. علاوة على ذلك، كان صديقاً شخصيّاً، على الرّغم من علمه أنَّ ديلويفري قد هرب من السجن.

هكذا كان الأمر في إحدى الليالي التي كنت جالساً فيها أنا وديلويفري هناك في مكانه، ارتدى ديلويفري ملابس كابتن كعقيد، في استعداد للذهاب إلى العمل.

لقد بدأت على نحو سيّئ. للتعرُّف إلى بعضهم بعضاً، كان من المفترض أن يرتدي المتآمرون المدنيون شارة خضراء، وكانت كلمة المرور أراغوا. كان من المفترض أن نكون في مراكز العمل في الثانية صباحاً. إنَّما، في نحو السّاعة الحادية عشرة، في تلك الليلة، ظهر أربعة رجال في عربة يجرُّها حصان تركت في كاراكاس. وكانوا يغنّون بأعلى أصواتهم بمرافقة الغيتار. توقَّفوا أمام المنزل مباشرة، سمعتهم يغنّون أغاني ممتلئة بالتلميحات إلى ليلة الانقلاب - تلميحات واضحة وضوح الشمس. صرخ أحدهم لديلويفري: «بيبر! الليلة ينتهي الكابوس أخيراً! الشجاعة والكرامة، يا صديقي! يجب أن يعود بابا مدينا!».

من أجل حماقة مطلقة لا يمكن أن تطلب أفضل من ذلك. الوقت بين الإخبار ومجيء رجال الشرطة لاستدعائنا سيكون قصيراً جدّاً. كنت أقفز كالمجنون، وكان لديَّ كلّ الأسباب لذلك: كان لدينا ثلاث قنابل في السيَّارة، اثنتان في صندوق السيَّارة وواحدة في المقعد الخلفيّ، مغطّاة ببساط.

– حسناً، يا لكم من مجموعة رائعة، أنت وأصدقاؤك. إذا كانوا جميعاً على هذا النحو، فلا داعي للقلق: قد نذهب مباشرة إلى السجن.

ضحك ديلويفري من كلّ قلبه، هادئاً كما لو كان ذاهباً لحضور حفلٍ راقص؛ كان مسروراً بنفسه في زيّ العقيد، وظلّ معجباً بتأمّله في المرآة. «لا تقلق، يا بابيون. في أيِّ حال، لن نؤذي أحداً. كما تعلم، لا تحتوي زجاجات الغاز الثلاث هذه أيَّ شيء سوى مسحوق. فقط لإحداث ضوضاء. هذا كلّ شيء».

– وماذا سيكون الهدف من ضجيجك الصغير هذا؟

- إنَّه فقط لإعطاء إشارة للمتآمرين المنتشرين حول المدينة. هذا كلّ شيء. لا يوجد شيء دمويّ أو وحشيّ في ذلك، كما ترى - نحن لا نريد أن نؤذي أحداً. نحن نصرُّ فقط على رحيلهم، هذا كلّ شيء.

حسناً. في أيِّ حال، سواء أعجبني ذلك أم لا، فقد كنت متورّطاً في هذا. لم أكن أرتجف بجزع أو أكُن آسفاً: كلّ ما كان عليّ فعله هو انتظار الوقت المحدَّد.

رفضت عرض ديلويفري - كان الشيء الوحيد الذي شربه زجاجتين في اليوم على الأقلّ. ألقى بضعة أكواب.

وصل الفرسان الثلاثة في سيّارة قيادة تحوَّلت إلى رافعة. كان من المقرَّر أن تستخدم لنقل خزنتين، واحدة تخصّ شركة الطيران والأخرى تابعة للسجن الأنموذجيّ؛ كان أحد الولاة - أو ربّما الرجل الذي يقود الحامية - في المؤامرة. كان من المفترض أن أحصل على ٥٠ بالمئة ممَّا كان داخلها، وكنت قد أصررت على أن أكون هناك عندما تمَّ الاستيلاء على خزنة السجن: لقد وافقوا. سيكون انتقاماً جميلاً من كلِّ سجون العالم. كانت هذه وظيفة قريبة جدّاً من قلبي.

جلب أحد المتسابقين الأوامر النهائيَّة: لا تقبضوا على أيٍّ من الأعداء؛ دعوهم يهربوا. كارلوتا، المطار المدنيّ الواقع وسط المدينة، تمَّ بالفعل تطهيره حتَّى يتمكَّن كبار أعضاء الحكومة الحاليَّة ومسؤولوهم من الهرب في طائرات صغيرة من دون أيِّ عوائق.

حينها علمت أين سيجري إطلاق القنبلة الأولى. حسناً، حسناً، حسناً: لقد تعامل ديلويفري بالتأكيد مع الأشياء بأسلوبه. كان من المقرَّر أن تنفجر واحدة أمام القصر الرئاسيّ في ميرافلوريس. كان من المفترض أن تنفجر

القنبلتان الباقيتان، واحدة في الشرق والأخرى في غرب كاراكاس، ليبدو كأنَّ الأشياء كانت تنفجر في كلِّ مكان. ابتسمت حين التفكير في فكرة القلق واليأس اللذين كنّا سنسبّبهما في القصر.

هذه البوّابة الخشبيّة الكبيرة لم تكن المدخل الرئيس للقصر. كانت الجزء الخلفيّ من المبنى. استخدمتها الشاحنات العسكريّة أو غيرها، وسمحت أيضاً لشخصيّات كبرى وللرئيس في بعض الأحيان بالدخول والخروج من دون أن يلفتوا انتباه أيِّ إنسان آخر.

جرى ضبط جميع ساعاتنا على الوقت نفسه. كان علينا أن نكون عند البوَّابة في غضون دقيقتين إلى ثلاث دقائق. كان شخص ما في الداخل سيفتح البوَّابة على مصراعيها مدَّة ثانيتين فقط، وهي فترة كافية للسائق لإصدار ضجيج ضفدع مع لعبة طفل صغير يقلِّدها جيّداً. هكذا عرفوا أنَّنا كنَّا هناك. ما الهدف؟ لم يخبرني أحد. هل كان حرَّاس الرئيس غاليغوس منخرطين في المؤامرة، وهل سيأخذونه أسيراً؟ أو أنَّهم سيتوقَّفون عن العمل على الفور من قبل متآمرين آخرين في الداخل؟ لم أكن أعرف شيئاً عن ذلك.

كان هناك شيء واحد مؤكَّد: في السّاعة الثانية، على وجه التحديد، كان عليَّ أن أشعل الفتيل المؤدّي إلى المفجّر في زجاجة الغاز التي كانت بين ركبتَي ثمَّ ألقيها خارج الباب، وأعطيها دفعة جيّدة حتّى تتدحرج نحو بوابة القصر. يستمرُّ الفتيل مدَّة دقيقة واحدة وثلاثين ثانية. لذلك، كان عليَّ أن أشعله بسيجارتي، وفي اللحظة التي يبدأ فيها بالأزيز، أحرّك ساقي اليمنى، وتُفتح البوَّابة، أعدُّ ثلاثين ثانية. في الدقيقة الثلاثين، أدحرج الزجاجة. لقد توصَّلنا إلى أنَّ الرياح ستجعل الاحتراق أسرع مع مرورها، وأنَّه لن يكون هناك سوى أربعين ثانية قبل الانفجار.

على الرَّغم من عدم احتواء الزجاجة على أجزاء من الحديد، إلَّا أنَّ شظاياها الخاصَّة ستكون خطرة للغاية، لذلك يتعيَّن علينا إطلاق النار والتوجّه إلى السيَّارة مباشرةً للاحتماء. سيكون فيكتور السائق في انتظارنا.

لقد أقنعت ديلويفري أنَّه إذا كان هناك أيّ جنود أو رجال شرطة في الجوار، أن يأمرهم، وهو في زيّ العقيد، بالركض إلى زاوية الشارع. لقد وعدني أنَّه سيفعل ذلك بالضبط.

وصلنا إلى هذه البوّابة الشهيرة في غضون ساعتين إلى ثلاث من دون أيِّ صعوبة. وقفنا على طول الرصيف المقابل. لا يوجد حرَّاس ولا رجال شرطة. حسناً. ساعتان... السّاعة الثانية عشرة.

لم تكن البوّابة مفتوحة.

كنت متوتّراً. قلت لـ ديلويفري: «بيير، إنَّها الساعة الثانية».

- أنا أعلم. لديَّ ساعة أيضاً.

- هذا ليس طبيعيّاً.

- لا أفهم ما يحدث. فلننتظر خمس دقائق أخرى.

- حسناً.

بعد دقيقتين... فتحت البوّابة؛ جاء الجنود وهم يركضون واتَّخذوا مواقعهم وأسلحتهم جاهزة. كان الأمر واضحاً وضوح الشمس: لقد تعرَّضنا للخيانة.

ثمَّة حاجة إلى المزيد لإعادة ديلويفري إلى طبيعته، إذ يبدو لي فاقداً الوعيَ تماماً.

شرعتُ مسدَّساً من عيار خمسة وأربعين ووضعته إلى مؤخّرة عنق فيكتور، قائلاً: «انطلق، أو أقتلك!».

كنت متأكِّداً من الشعور بأنَّ السيَّارة تقفز إلى الأمام، في حين كان فيكتور يدوس على دوّاسة الوقود بكلّ قوته، لكن كلّ ما سمعته هو هذه الملاحظة الرائعة: «لست أنت من يصدر الأوامر هنا: إنَّه الرئيس. ماذا يقول الرئيس؟»

يا للجحيم: لقد رأيت بعض الرجال لديهم الشجاعة، لكن لا أحد يحبّ هؤلاء الهنود. أبداً!

لم يكن بإمكاني فعل شيء لأنَّ الجنود كانوا على بعد ثلاثة أمتار. لقد رأوا نجوم الكولونيل على كتف ديلويفري مقابل النافذة، لذلك لم يقتربوا من السيَّارة.

- بير، إذا لم تأمر فيكتور بالانطلاق، فليس هو من سيشعر بالبرودة وإنَّما أنت.

أجابني بير، وهو يدير رأسه نحوي قائلاً: «على الدوام أقول لك إنَّهم في صفّنا. دعونا ننتظر قليلاً».

وفي أثناء فعله ذلك، رأيت أنفه يتألَّق مع مسحوق أبيض ملتصق بمنخريه. فهمت: كان الرجل محشواً بالكوكايين. تملَّكني خوف مروع، وكنت أضع مسدسي على رقبته عندما قال بهدوء شديد: «ساعتان وستّ دقائق، بابي. سننتظر دقيقتين أخريين. لقد تعرَّضنا للخيانة بالتأكيد».

تلك المئة والعشرون ثانية استمرَّت إلى الأبد. كانت عيناي على الجنود. كان القريبون يراقبوننا، لكنَّهم لم يتحرَّكوا في الوقت الحالي. أخيراً قال ديلويفري: «فاموس، فيكتور: لنذهب. بلطف، بطبيعة الحال، ليس بسرعة كبيرة».

بمعجزة إيجابيَّة خرجنا من هذا الفخّ أحياء. أوف! بعد بضع سنوات كان هناك فيلم يسمّى «اليوم الأطول». حسناً، كان بإمكانك عمل فيلم يدعى «أطول ثماني دقائق».

طلب ديلويفري من السائق أن يتوجَّه نحو الجسر الذي يمتدّ من الباريزو إلى أفييندا سان مارتين. أراد أن يترك قنبلته تحت الجسر. في الطريق التقينا شاحنتين ممتلئتين بالمتآمرين الذين لم يعرفوا ما يفعلون الآن، كوننا لم نسمع أيَّ انفجار ونحن في تمام الساعة الثانية. قلنا لهم إنَّنا تعرَّضنا للخيانة. لكن قول هذا جعل ديلويفري يغيّر رأيه، وأمر السائق بالعودة إلى مكانه بسرعة. خطأ كبير، لأنَّه بما أنَّنا تعرَّضنا للخيانة، فمن الممكن أنَّ رجال الشرطة موجودون بالفعل. ومع ذلك، ذهبنا: وبينما كنت أساعد فيكتور في وضع قنبلتي في صندوق السيَّارة، لاحظت أنَّ عليها ثلاثة أحرف مرسومة: P.R.D. لم أستطع أن أمنع نفسي من الضحك عالياً عندما أخبرني أنَّها ترمز إلى: بيير رينيه ديلويفري.

- بابي، لا تنسَ أبداً أنَّه كلَّما كان العمل خطِراً، يجب عليك دائماً عمل الأشياء بأسلوب. كانت تلك الأحرف الأولى هي بطاقة الاتّصال الخاصة بي بأعداء صديقي.

ذهب فيكتور وترك السيَّارة في موقف للسيَّارات، متناسياً بالطبع ترك المفاتيح أيضاً. لم يُعثَر على القنابل الثلاث إلا بعد ثلاثة أشهر.

لا شكَّ في تسكّع ديلويفري. ذهب هو في طريقه، وأنا ذهبت في طريقٍ آخر. لم يكن هناك أيّ اتّصال مع أليخاندرو. توجَّهت مباشرة إلى المرآب، حيث ساعدت في حمل المخرطة وزجاجات الغاز الخمس أو الستّ التي كانت ملقاة هناك. في تمام الساعة السادسة رنَّ جرس الهاتف، وقال صوت

غامض: «أيُّها الفرنسيّون، اخرجوا جميعكم. كلّ في اتّجاه مختلف. فقط ب.ل. يجب أن يبقى في المرآب. هل فهمتم؟»

– مَن المتصل؟

لا تعليق.

ارتديت زيَّ امرأة، وقادني ضابط سابق في المقاومة الفرنسيَّة بسيَّارة جيب، وشقّ طريقي للخروج من كاراكاس من دون أيِّ مشكلة على الإطلاق. وصلت إلى ريو تشيكو، الواقعة على بعد حوالي مئة وخمسة وعشرين كيلومتراً على الساحل. كنت سأبقى هناك مدَّة شهرين مع هذا القبطان السابق وزوجته واثنين من أصدقائه من بوردو.

تمَّ اعتقال ب.ل. لا تعذيب: فقط استجواب صارم وشامل، لكنَّه صحيح. لمَّا سمعت ذلك، قلت في قرارة نفسي إنَّ نظام غاليغوس وبيتانكورت ليس مجرماً كما كنَّا نعتقد؛ في الأقلّ ليس في هذه الحالة.

لجأ ديلويفري في الليلة عينها إلى سفارة نيكاراغوا.

بالنظر إليَّ، كنت لا أزال ممتلئاً بالثقة بالحياة، وبعد أسبوع كنت أنا والقبطان السابق نقود شاحنة تابعة لقسم الأشغال العامَّة في ريو شيكو؛ حيث نجحنا من خلال صديقٍ لنا أن نعمل في البلديَّة. لقد كنَّا نقبض واحداً وعشرين بوليفاراً في اليوم، وعلى ذلك عشنا نحن الخمسة معاً.

استمرَّت هذه الحياة، في تشييد الطرق، مدَّة شهرين، وهي فترة كافية حتَّى تهدأ العاصفة التي أثارتها مؤامرتنا في كاراكاس، وكي تحوّل الشرطة انتباهها نحو مؤامرة جديدة كان يجري حبكها. بحكمة شديدة، ركّزوا على الحاضر وتركوا الماضي لنفسه. لم أطلب شيئاً أفضل من ذلك، لأنّني قرّرت ألّا أدع

نفسي أنجرُّ إلى مهمَّة أخرى من هذا النوع. في الوقت الحالي، كان أفضل شيء أفعله هو العيش هنا بهدوء مع أصدقائي، من دون الانتباه إلى نفسي.

في وقت متأخِّر من بعد الظهر، كنت غالباً ما أذهب إلى الصيد، لإضافته إلى حصصنا اليوميَّة. في ذلك المساء، كنت قد اصطدت روبالو ضخماً، وهو نوع من الدنيس البحريّ الكبير، وكنت جالساً على الشاطئ، أتأمّله بسرعة كبيرة، وأستمتع بغروب الشمس الرائع. السماء الحمراء تعني الأمل، بابي! وعلى الرَّغم من كلّ الإخفاقات التي مررت بها منذ أن حصلت على حريَّتي، بدأت أضحك. نعم، يجب أن يكون الأمل دافعاً لي للعيش والمحاربة كي أعيش. لكن، بالضبط، متى كان النجاح سيأتي؟ دعونا نلقِ نظرة إلى الأشياء، بابي: دعونا نجمع نتائج عامين من الحريَّة.

لم أكن مفلساً، لكن لم يكن لديّ الكثير: ثلاثة آلاف بوليفار، إجمالي عامين من المغامرة.

ماذا حدث في هذا الوقت؟

أوّلاً: كومة الذهب في إل كالاو. لا جدوى من التفكير في ذلك: لقد كان شيئاً تخلّيت عنه طواعية حتّى يتمكَّن الآخرون هناك من العيش بسلام. هل تندم على ذلك؟ لا. حسناً، ثمَّ انسَ طنَّ الذهب!

ثانياً: الفضلات في مناجم الماس. كدت تقتل عشرين مرَّة مقابل عشرة آلاف دولار لم تستثمرها قطّ. مات جوجو بدلاً عنك: وأنت خرجت حيّاً من دون فلس واحد، هذا صحيح. إنَّها، يا لها من مغامرة رائعة! لن تنسى أبداً كلّ تلك الليالي، حتَّى نقطة الانهيار، ووجوه المقامرين تحت مصباح الكربيد، جوجو غير متأثر. لا شيء يدعو إلى الندم هناك، أيضاً.

ثالثاً: النفق تحت المصرف. ليس الشيء نفسه على الإطلاق؛ لم يكن هناك أيّ حظّ حقاً في تلك المهمّة. ومع ذلك، فقد عشت مدّة ثلاثة أشهر بكامل طاقتك، مدّة ٢٤ ساعة في اليوم. حتّى لو لم تحصل على أكثر من ذلك، فلا داعي لأن تشعر بالأسف على نفسك. هل تدرك أنّه لمدّة ثلاثة أشهر متتالية، حتّى في أحلامك، شعرت أنّك مليونيراً دون أدنى شكّ في وضع يديك على المال؟ ألا يعني ذلك شيئاً؟ بالطبع، مجرّد قليل من الحظّ قد يمنحك ثروة؛ لكن من ناحية أخرى، ربّما كنت أكثر سوءاً. افترض أنّ النفق قد انهار حين كنت في الطرف الآخر منه؟ كنت ستموت مثل الجرذ، أو كانوا سيمسكونك مثل ثعلب.

رابعاً: وماذا عن محلّ الرّهن وثلّاجاته؟ لا شكاوى، باستثناء دائرة الأشغال العامّة في ذلك البلد الملعون.

خامساً: المؤامرة. بصراحة، لم تكن قطُّ مخلصاً حقّاً لذاك العمل. هذه الوظائف السياسيّة والقنابل التي قد تقتل أيّ شخص - هذا ليس أسلوبك. ما جرى حقّاً أنّه جرى استدراجك أوّلاً من خلال عرض ترويجيّ لشخصين لطيفين جدّاً ثمّ الوعد بالقدرة على تنفيذ خطتك. لكنَّ قلبك لم يكن فيه، لأنّك لم تشعر قطّ أنَّ من المشروع تماماً مهاجمة الحكومة التي أطلقت سراحك.

ومع ذلك، من ناحية الائتمان، قضيت أربعة أشهر من المرح مع الفرسان وزوجاتهم والطفل؛ ولا يحتمل أن تنسى تلك الأيّام الممتلئة ببهجة الحياة.

الخلاصة: لقد سُجنت ظلماً مدّة أربعة عشر عاماً، وسُرق منك كلّ شبابك تقريباً، لكنّك كنت حرّاً في العامين الماضيين، وفي هذين العامين مررت بتجارب لا حصر لها ومغامرات رائعة. كان لديك حبّ رائع. لقد

عرفت رجالاً من جميع الأنواع ممَّن قدَّموا لك صداقتهم - رجال خاطرت بحياتك معهم؛ وبعد كلّ هذا، هل مازلت تئنّ؟ أنت مفلس، أو توشك أن تفلس؟ ماذا تفعل بهذا الشأن؟ الفقر ليس مرضاً يصعب علاجه. فسبحان الله، يا بابي، أنت لائق، وهذا هو الشيء المهمّ حقاً.

دعونا ننسَ كلَّ شيء ونبدأ من جديد، أيّها السادة. ضع رهاناتك الأخيرة - هذا كلّ شيء! خسر بانكو، عاش بانكو، وسيعيش بانكو مراراً وتكراراً. حقّ بانكو في الحياة على الدوام. لكن، بما أنّ صوتك يرتجف، فلتغنِّ أغنية أمل تسمع يوماً ما: «تسعة، مرّة واحدة! لملمها يا سيّد بابيون! لقد ربحت».

كانت الشمس تلمس الأفق تقريباً. حمراء في المساء، كان ذلك يعني الأمل. بالتأكيد، كنت ممتلئاً بالأمل والثقة بالمستقبل. كان النسيم عليلاً، ووقفت بعقل أكثر هدوءاً، سعيداً بأن أكون حرّاً وحيّاً؛ كانت قدماي تنغمسان في الرمال الرطبة وأنا في طريقي إلى المنزل، حيث كانوا ينتظرون ما كنت قد اصطدته لوجبة العشاء. كانت كلّ هذه الألوان، ولمسات الضوء والظلّ التي لا تعدُّ ولا تحصى، تلعب على قمم الأمواج الصغيرة الممتدَّة إلى الأبد. لقد حرّكوني بعمق، وتذكَّرت المخاطر السابقة التي تغلَّبت عليها، إلى درجة أنَّني لم أستطع المساعدة في التفكير في خالقهم، الله. «ليلة سعيدة، أيّها الرجل الكبير، ليلة سعيدة! على الرّغم من كلّ هذه الإخفاقات، ما زلت أشكرك لأنّك منحتني مثل هذا اليوم الجميل الممتلئ بالشمس والحريّة، ولإلهي، هذا الغروب الرائع!».

الفصل التاسع

ماراكايبو: لدى الهنود

في أحد الأيَّام، لَمَّا كنت أقوم برحلة سريعة إلى كاراكاس، عرَّفني أحد الأصدقاء إلى عارضة أزياء سابقة في باريس، كانت تبحث عن شخص يساعدها في فندق جديد افتتحته للتوّ في ماراكايبو. لقد قبلتُ عن طيب خاطر وظيفة أن أكون زوجها. كانت تدعى لورانس. أعتقد أنَّها أتت إلى كاراكاس لعرض مجموعة أزياء، ثمَّ قرَّرت الاستقرار في فنزويلا. بين مركز شرطة كاراكاس وماراكايبو مسافة ألف كيلومتر، وهذا يناسبني تماماً؛ كان من الممكن دائماً أن تعيد الشرطة فتح تحقيقاتها في انقلابنا.

استقللتُ سيَّارة صديقي، وبعد أربع عشرة ساعة من القيادة، رأيت للمرَّة الأولى بحيرة - يسمّونها بحيرة ماراكايبو، على الرغم من أنَّها في الحقيقة بحيرة ضخمة يبلغ طولها مئة وخمسين كيلومتراً وعرضها مئة كيلومتر، ترتبط بالبحر عبر قناة يبلغ طولها عشرة كيلومترات. تقع ماراكايبو في الشمال، على الضفّة الغربيّة للقناة، التي ترتبط الآن بالضفّة الشرقيّة بجسر. في تلك الأيَّام، إذا جئت من كاراكاس، كان عليك العبور بالعَبَّارة.

كانت هذه البحيرة غير عاديَّة حقاً، ممتلئة بآلاف الأبراج المعدنيَّة. بدت كأنَّها غابة ضخمة تمتدّ بعيداً عن الأنظار، غابة سمحت لك أشجارها، المصطفّة بأكملها في شكل منسّق تماماً، برؤية ما هو أبعد من الأفق. إنَّها، هذه الأشجار كانت آباراً للنفط، وكان لكلّ بئر نفط بندول ضخم يتنقّل

ذهاباً وإياباً طوال النهار وطوال الليل، ولا يتوقَّف أبداً، ويضخّ الذهب الأسود باستمرار من أحشاء الأرض.

كانت هذه العبَّارة تعمل من دون توقّف بين نهاية طريق كاراكاس وماراكايبو، تحمل السيّارات والركّاب والبضائع. في أثناء العبور، أسرعت من جانب إلى آخر، مفتوناً تماماً بالأبراج الحديدية المرتفعة من البحيرة؛ ولمَّا حدَّقتُ إليها، اعتقدتُ أنَّ الأرض، على بعد ألفي كيلومتر من هنا، على الطرف البعيد من البلاد في غيانا الفنزويليّة، محشوّة بالماس والذهب والحديد والنيكل والمنغنيز والبوكسيت واليورانيوم وجميع المعادن الأخرى، أمّا هنا فالأرض محشوّة بالزيت، محرّك العالم - بكميات هائلة من النفط بحيث يمكن لآلاف المضخَّات أن تمتصها ليلاً ونهاراً من دون أن تجفَّ. فنزويلا، ليس لديكِ حقّ في إلقاء اللوم على الربّ!

كان فندق نورماندي عبارة عن فيلّا رائعة تحيط بها حديقة تمَّ الاعتناء بها بحرص، وممتلئة بالزهور. رحبتْ بي لورانس الجميلة بذراعين مفتوحتين. قالت ضاحكة: «هذه مملكتي، هنري».

كانت قد فتحت الفندق قبل شهرين فقط. كانت هناك ست عشرة غرفة فقط، لكن جميعها كانت فاخرة، وفي أفضل ذوق، ولكلّ منها حمَّام مناسب لفندق ريتز. لقد صمّمت كلّ الديكورات الداخليّة بنفسها، من غرف النوم إلى الحمَّامات المشتركة، مروراً بغرفة الرسم والترّاس وغرفة الطعام.

شرعتُ أعمل، ولم يكن من المضحك أن أكون اليد اليمنى للورانس - التي كانت دون الأربعين من عمرها- التي استيقظت في السادسة لتشرف على إفطار ضيوفها أو حتّى تصنعه بنفسها. كانت لا تعرف الكلل، وطوال اليوم كانت في حركة مستمرّة، وتراقب هذا وذاك، وتشرف على كلّ شيء،

ومع ذلك لا تزال تجد الوقت لرعاية شجيرة الورد أو إزالة الأعشاب الضارّة من مسار الحديقة. لقد استوعبت الحياة بكلتَي يديها. لقد تغلّبت على صعوبات شبه مستحيلة لبدء هذا العمل؛ وكان لديها الكثير من الثقة في نجاحها، إلى درجة أنَّ إرادتي في العمل تستهلك قدر إرادتها نفسه. لقد فعلت كلّ ما في وسعي لمساعدتها في التغلُّب على مئات الصعوبات التي استمرَّت في الظهور. الصعوبات الماليَّة، قبل كلِّ شيء. كانت مدينة حتَّى رقبتها، لأنَّها حوَّلت هذه الفيلا إلى فندق فخم كانت تصرف من أجله كلَّ فلس.

في أحد الأيَّام، بموجب صفقة خاصَّة أجريتها من دون أن أستشيرها، حصلت على شيء رائع من شركة نفط.

- مساء الخير يا لورانس.

- مساء الخير. الوقت متأخّر، هنري: الساعة الثامنة بالفعل. أنا لا ألومك الآن؛ لكنّي لم أرَك طوال فترة الظهيرة.

- لقد كنت في نزهة.

- هل هذه مزحة؟

- نعم، أنا أضحك على الحياة. من الجيّد دائماً الضحك، ألا تعتقدين ذلك؟

- ليس دائماً. وفي هذا الوقت كان ينبغي أن أحبَّ دعمك؛ أنا في مأزق سيّئ.

- سيّئ جداً؟

- نعم. يجب أن أدفع مقابل كلّ هذه التركيبات والتعديلات، وعلى الرّغم من أنَّ المكان يعمل على نحو جيّد، إلَّا أنَّه ليس بالأمر السهل. تترتَّب عليَّ ديون كثيرة.

- هنا تأتي المفاجأة الكبرى، انتظري يا لورانس. لم تعودي مدينة بأيِّ شيء.

- هل تسخر منّي؟

- لا. اسمعي: لقد أحضرتِني كشريك، وفي الحقيقة لاحظت أنَّ كثيراً من الناس يعتقدون أنَّني المدير.

- ماذا في ذلك؟

- حسناً، أحد الأشخاص الذين اعتقدوا هذا الأمر كنديٌّ ينتمي إلى شركة لوميس، وقبل بضعة أيّام تحدَّث إليَّ عن صفقة كان يعتقد أنَّنا قد نبرمها. ذهبت لرؤيته بعد ظهر اليوم. لقد عدت للتوّ.

- قل لي بسرعة!

بكت لورانس وعيناها تتسعان باهتمام.

- والنتيجة هي أن تأخذ شركة لوميس فندقك بالكامل، مع إقامة كاملة، لمدَّة عام!

- هذا مستحيل.

- هذا حقيقة، أعدك.

قبَّلتني لورانس على خدّي، بتأثر كبير، وانهارت على كرسيّ.

- بالطبع، لم يكن ثمَّة شكّ في أن أوقّع هذا العقد الرائع، لذا سيتّصلون بكِ غداً للذهاب إلى مكتبهم.

كان هذا العقد يعني أنَّ لورانس جنت ثروة صغيرة من فندق نورماندي. سلفة الربع الأول وحدها سمحت لها بسداد جميع ديونها.

بعد توقيع العقد، شربنا أنا ولورنس الشمبانيا.

كنت سعيداً، سعيداً جدّاً، فقد استلقيت على سريري الكبير في تلك الليلة. بمساعدة الشمبانيا رأيت الحياة وردِيَّة وجميلة. بابي، أنت لست غبياً أكثر من لورانس: لذا أليس من الممكن أن تصبح ثريّاً من خلال العمل؟ حسناً، كان هذا اكتشافاً حقيقياً اكتشفته هنا في الفندق النورمانديّ. نعم، اكتشاف حقيقيّ، لأنّه في فرنسا، كنت قادراً إبّان السنوات القليلة الماضية على إلقاء نظرة سريعة على الحياة، بدا لي دائماً أنَّ العامل يبقى يعمل طوال حياته. وهذه الفكرة خطأ تماماً هنا في فنزويلا، حيث الرجل الذي يريد حقاً عمل شيء ما، لديه كلّ الفرص المتاحة.

لم أكن من محبّي المال الذي ذهبت إليه في مهمّات ملتوية: لم أكن لصّاً بسبب شغفي الشديد بالسرقة. كان الأمر مجرَّد أنّني لم أتمكّن مطلقاً من تصديق أنَّ من الممكن الوصول إلى القمّة في الحياة من خلال البدء من نقطة الصفر - ولا، بقدر ما كنت مهتمّاً، بالحصول على مبلغ من المال كبير بما يكفي بالنسبة إليَّ للذهاب وتقديم فاتورتي في باريس. إنّما، كان ذلك ممكناً، وكان من الضروريّ البدء بشيء واحد فقط - القليل من رأس المال، وبضعة آلاف من البوليفارات؛ وسيكون من السهل حفظ ذلك بمجرَّد أن أجد وظيفة جيّدة.

العقبة الوحيدة هي أنّني إذا فعلت ذلك بهذه الطريقة، فسوف أحتاج إلى قدر كبير من الوقت قبل أن أكون قادراً على الانتقام: لم أتمكّن من جمع الأموال اللازمة كلّها في يوم واحد. قال لي ميفيل في أثناء القيام بالحفريات الماسيَّة: «الانتقام هو طبق يمكن أكله بارداً». كنت سأكتشف ذلك.

كانت ماراكايبو تغلي. كان هناك جوّ من الإثارة، وظهر العديد من الشركات ومصافي النفط، حيث بِيع كلُّ شيء، من البيرة إلى الإسمنت، في السوق السوداء. انقطع كلُّ شيء على الفور - لم يكن هناك ما يكفي لتلبية الطلب. كان العمل يكسب المال، وكانت الوظائف مدفوعة الأجر، وكانت كلّ أنواع الأعمال تنفَّذ على نحو جيّد.

حينما تكون هناك طفرة نفطيّة، يمرُّ اقتصاد المنطقة بمرحلتين مختلفتين تماماً. أوّلاً، تأتي الفترة التي تسبق بدء إنتاج الآبار، وفترة ما قبل الاستثمار. الشركات تحضر وتستقرّ. يحتاجون إلى مكاتب ومعسكرات وطرق وخطوط ضغط عالٍ؛ عليهم حفر الآبار وتركيب الرافعات والمضخّات وما إلى ذلك. هذا هو العصر الذهبيّ لجميع العمّال المهرة، والذهبيّ لكلّ مستوى من مستويات المجتمع.

الأشخاص الأصليّون أصحاب الأيادي الخشنة، لديهم المال؛ بدؤوا في اكتشاف معنى المال والأمن. بدأت الأُسر في التنظيم، وبدأت المنازل تنمو على نحو أكبر أو أفضل. بدأ الأطفال يذهبون إلى المدرسة بملابس جيدة، وغالباً ما يجري نقلهم بحافلات الشركات.

ثمَّ تأتي المرحلة الثانية، تلك التي تتوافق مع رؤيتي الأولى لبحيرة ماراكايبو، مع كلّ ما أستطيع رؤيته، تحوّل إلى غابة من الأبراج. هذه هي فترة الاستثمار. آلاف المضخَّات، التي تعمل هناك بمفردها، تمتصّ بلا كلل ملايين الأطنان من الذهب الأسود كلَّ يوم.

إلَّا أنَّ هذه الكتلة التي لا يمكن تصوّرها من المال، لا تمرُّ بين أيدي الناس: إنَّها تذهب مباشرة إلى خزائن بنوك الدولة أو الشركات. هذا ليس هو نفسه،

كما يقول الجلوت الباريسيّ. أصبح الأمر صعباً للغاية، يتمُّ تقليل عدد الموظّفين إلى الحدِّ الأدنى، ولا يوجد المزيد من الأموال التي تطفو على السطح، وقد انتهى كلّ نشاط تجاريّ. لن تعرف الأجيال القادمة عن ذلك إلّا عندما تسمع أجدادها يقولون: «ذات مرّة، لَّما كانت ماراكايبو ثريَّة، كان هناك...».

لكنّي كنت محظوظاً. جئت في طفرة ماراكايبو الثانية. لم يكن لها علاقة بالمضخَّات الموجودة في البحيرة، لكن العديد من شركات النفط حصلت للتو على امتيازات جديدة تمتدّ من جبال بيريجا وصولاً إلى البحيرة والبحر. كانوا متحمّسين بشدّة. ربّما تكون هذه اللحظة المهمَّة لديّ.

كنت سأحفر هنا. وأقسمت أنَّ الحفرة التي صنعتها ستكون كهفاً كبيراً. كنت أعمل في أيِّ شيء يمكنني وضع يدي عليه لجمع كلّ فتات ممكن من هذه الكعكة العملاقة.

«طباخ فرنسي جيد، ٤١ عاماً، يسعى إلى الحصول على وظيفة في شركة نفط بحدٍّ أدنى للراتب ٨٠٠ دولار».

لقد تعلَّمت أساسيّات الطبخ مع لورانس وطبّاخها، وقرّرت أن أجرّب حظّي. نُشر الإعلان في الجريدة المحليّة، وبعد أسبوع كنت قد بدأت في إعداد الطعام لشركة ريتشموند. كنت آسفاً لترك لورانس، لكنَّها ربّما لم تكن لتستطيع أن تدفع لي راتباً بهذا القدر. لم يكن الفارق ضئيلاً.

الآن، بعد أن مررت بهذه المدرسة، أعرف الكثير عن الطبخ؛ لكن لَّما بدأت عملي للمرَّة الأولى، ارتعدت خوفاً من أن يرى الرجال الآخرون في المطبخ قريباً أنَّ الطاهي الفرنسيّ يعرف القليل عن القدور. كانت دهشتي كبيرة، لأنّني سرعان ما اكتشفت أنّهم جميعاً كانوا في حالة رعب من أن

يكتشف الطبَّاخ الفرنسيّ أنَّ كلَّ واحدٍ منهم كان مجرَّد غاسل أطباق! حينها تنفَّست الصعداء مرَّة أخرى. كنت أتميَّز عنهم بأنّني أملك كتاب طبخ بالفرنسيَّة - هديَّة من عاهرة متقاعدة.

كان مدير شؤون الموظّفين كنديّاً. يدعى السيّد بلانشيت. بعد يومين، كلّفني بمهمَّة الطبخ للمسؤولين التنفيذيين في المخيم؛ اثنا عشر شخصاً - الرؤساء الكبار.

في صباح اليوم الأول أريته قائمة طعام، لكنَّني أشرت إلى أنَّه قبل أن أتمكَّن من إعداد الطعام، يجب دعم المطبخ على نحو أفضل. تقرَّر أن تكون لديَّ ميزانيَّة منفصلة، وأن أديرها بنفسي. من غير المفيد أن أخبره بأنّني سأكون بمنزلة داهية كبير حين شرائي الحاجات؛ لكن لا يزال المسؤولون التنفيذيّون يحشون أنفسهم، ولا شكَّ في ذلك. بهذه الطريقة، كان الجميع سعداء.

كنت في كلِّ مساء أعلِّق قائمة طعام اليوم التالي في القاعة: مكتوبة بالفرنسيَّة بالطبع. تركتْ هذه الأسماء الكبيرة من كتاب الطبخ انطباعاً رائعاً. علاوة على ذلك، اكتشفتُ في المدينة متجراً متخصّصاً بالأشياء الفرنسيَّة، لذا تمكَّنت من التعامل مع السلع المعلَّبة ووصفاتي جيّداً، إلى درجة أنَّ المسؤولين التنفيذيين كانوا غالباً ما يجلبون نساءهم معهم. فبدلاً من أن يحضر اثنا عشر شخصاً، كان لديَّ كلّ يوم نحو عشرين شخصاً. من وجهة نظر واحدة، كان ذلك مصدر إزعاج، لكن من ناحية أخرى، كان ذلك يعني أنَّهم لم ينتبهوا إلى ما أنفقته؛ لأنَّه وفقاً للقواعد كان من المفترض أن أطعم الأشخاص الموجودين في القائمة فقط.

رأيت أنَّهم سعداء للغاية، إلى درجة أنّني طلبت مبلغ ١٢٠٠ دولار شهريّاً، بزيادة قدرها أربعمئة. رفضوا، لكنَّهم أعطوني ألفاً؛ وعلى الرّغم من أنّني ظللت أخبرهم أنّه كان أجراً بائساً لطاهٍ كبير مثلي، إلّا أنّني سمحت لنفسي بالاقتناع.

مرَّت بضعة أشهر على هذا النحو، لكن مع مرور الوقت بدأت هذه الساعات المحدَّدة تزعجني مثل طوق القميص الضيّق جدّاً. كان لديَّ ما يكفي من هذه الوظيفة، وطلبت إلى رئيس الجيولوجيين أن يأخذني معه عندما يخرج في رحلة استكشافيَّة إلى أكثر المناطق إثارة للاهتمام، حتّى لو كانت خطرة.

كان الهدف من هذه الحملات هو إجراء مسح جيولوجيّ لسيرا دي بيريجا، وهي سلسلة الجبال الواقعة إلى الغرب من بحيرة ماراكايبو، التي تفصل فنزويلا عن كولومبيا. إنَّها بلد قبيلة الهنود الحربيَّة الشرسة للغاية، موتيلون: إلى درجة أنَّهم غالباً ما كانوا يطلقون على سيرا دي بيريجا اسم سيرا دو موتيلون. حتّى الآن، لا أحد يعرف فقط من أين أتت هذه القبيلة. لغتها وعاداتها تختلف تماماً عن تلك الخاصّة بالقبائل المجاورة، وهي خطرة جدّاً إلى درجة أنَّ «الحضارة» بعناء بدأت تشقّ طريقها إليهم. إنَّهم يعيشون في أكواخ جماعيَّة تضمّ من خمسين إلى مئة شخص، رجال ونساء وأطفال مختلطين معاً. حيوانهم الداجن الوحيد هو الكلب. إنَّهم متوحّشون إلى درجة أنَّك تسمع عن العديد من الحالات التي جرى فيها أسر الهنود من موتيلون على أيدي أناس «متحضّرين» يرفضون تماماً تناول الطعام أو الشراب؛ وعلى الرغم من أنّهم قد يعاملون على نحو جيّد، إلّا أنّه ينتهي بهم

الأمر بقتل أنفسهم، وعضّ أوردة معاصمهم بأسنانهم الأماميّة، التي أُعدَّت خصيصاً لتمزيق اللحوم. في غضون الأيّام التي أتحدَّث عنها، استقرَّ الفرنسيسكان بشجاعة على ضفاف ريو سانتا روزا، على بعد أميال قليلة من أقرب منزل جماعيّ. يستخدم الأب الرئيس أحدث الأساليب، وهو إنزال الطعام والملابس والبطانيات وصور الفرنسيسكان فوق الأكواخ من الطائرة. والأفضل من ذلك أنّه يُنزل بالمظلّات عارضات يرتدينَ أردية الفرنسيسكان، وجيوبهنَّ ممتلئة بأنواع مختلفة من الطعام، حتّى علب الحليب. الأب الصالح ليس أحمق: في اليوم الذي سيحضر فيه سيراً على الأقدام، سيعتقدون أنّه سقط من السماء.

إنّما، لمّا طلبتُ المشاركة في هذه الحملات، كان ذلك عام ١٩٤٨، أي قبل وقت طويل من محاولات الاختراق «المتحضّر» - الذي بدأ في نحو عام ١٩٦٥.

بقدر ما كنت مهتمّاً، كان لهذه الحملات ثلاث مزايا إيجابيّة. في المقام الأول، كانت حياة مختلفة تماماً عن تلك التي كنت أقودها في مطبخ معسكر شركة ريتشموند؛ وقد رأيت كلّ ما كنت أرغب في رؤيته تقريباً. ستكون مغامرة مرّة أخرى، لكنّها مغامرة صادقة هذه المرّة. كان هناك خطر حقيقيّ، بالطبع، كما هي الحال في أيِّ مغامرة - في كثير من الأحيان، كانت الرحلة الاستكشافيّة قصيرة لعضو أو عضوين في الأقلّ. كان هنود موتيلون يتمتَّعون بمهارات عالية في الرماية، كما نقول في المنطقة، (يضع سهمه في عينه). إنّما، إذا قتلوا، فإنّهم في الأقلّ لا يأكلون فريستهم، لأنّهم لم يكونوا أكلة لحوم بشر. علينا أن نكون شاكرين لذلك على الدوام.

المزيّة الثانية: كانت هذه الجولات، التي استمرّت لثلاثة أسابيع في الأدغال العميقة غير المستكشفة والخطرة، مدفوعة الأجر، وعلى نحو جيّد. سأجني أكثر من ضعف ما جنيته من موقد المطبخ.

المزيّة الثالثة: أحببت أن أكون مع الجيولوجيين. كانوا يعرفون الكثير. على الرّغم من أنّني كنت أدرك جيّداً أنّ الوقت قد فات بالنسبة إليّ لتعلّم ما يكفي لجعلي رجلاً مختلفاً، كان لديّ شعور بأنّني لن أضيع وقتي، وأنا أذهب مع هؤلاء العلماء.

لذلك، بصفتي عضواً في بعثتهم، انطلقت مفعماً بالثقة والحماس. لا حاجة إلى أيّ كتب طبخ؛ كان عليّ فقط أن أعرف كيف أفتح العلب وأصنع الخبز والفطائر.

صديقي الجديد، الجيولوجيّ المسؤول عن الحملة، كان اسمه كريشيه. كان قد أُعير من قبل شركة استكشاف كاليفورنيا بالقرب من ريتشموند. كان يعرف تماماً كلّ شيء عن جانب النفط في الجيولوجيا، لكنّه لم يكن متأكداً تماماً ممّا إذا كان الإسكندر الأكبر قد جاء قبل نابليون أو بعده. في أيّ حال، لا يهتمّ حقّاً. لم يكن في حاجة إلى معرفة التاريخ ليكون لائقاً جدّاً، ولديه زوجة رائعة، ويريد إنجاب أطفال، ولتزويد شركته بالمعلومات الجيولوجيّة التي يحتاجونها. ومع ذلك، أجرؤ على القول إنّه كان يعرف أكثر ممّا سمح به - في الوقت المناسب تعلّمت أن أحترس من نوع الفكاهة نصف الإنجليزيّة، الذي يتمتّع به، على عكس ما اعتدناه في موطني أرديش. لقد توافقنا معاً على نحو جيّد جدّاً.

استغرقت بعثة من هذا النوع ما بين عشرين وخمسة وعشرين يوماً، مع إجازة لمدّة أسبوع حين عودتك. كانت البعثة تتألّف من جيولوجيّ

مسؤول، واثنين من الجيولوجيين الآخرين، ومن اثني عشر إلى ثمانية عشر حمّالاً ومساعداً - كانت القوة والانضباط هي كلّ ما طلب إليهم. كانت لديهم خيامهم الخاصّة وطبّاخهم الخاصّ. اعتنيت بالجيولوجيين الثلاثة فقط. لم يكن الرجال حمقى بأيِّ شكل من الأشكال، وكان بينهم عضو متشدِّد في حزب العمل الديمقراطيّ اليساريّ، الذي رأى الامتثال لقوانين النقابات. كان اسمه كارلوس. كان هناك فهم عامّ جيّد، وكنت أنا الشخص الذي احتفظ بوقت العمل الإضافيّ، الذي كانوا دائماً يضعونه بدقَّة مطلقة.

سحرتني هذه الرحلة الاستكشافيّة الأولى. يعدُّ الحصول على معلومات جيولوجيّة حول حقول النفط عملاً مثيراً للاهتمام للغاية. الفكرة هي متابعة الأنهار إلى الجبال قدر الإمكان، مع الحفاظ على الممرّ الذي قطعوه عبر الصخور. تذهب إلى أبعد نقطة ممكنة في الشاحنات، ثمّ تأخذك سيّارات الجيب؛ حينما تصل إلى نهاية المطاف، حيث لا ممرّ، تجذّف في النهر بالزوارق؛ وحينما يكون النهر ضحلاً جدّاً، تخرج وتدفع، ولا تزال تصعد إلى أقصى حدّ ممكن نحو المصدر. المعدَّات يحملها الحمّالون، نحو مئة جنيه للرجل، لكنَّ الجيولوجيين الثلاثة والطهاة لا يحملون أيَّ شيء.

لماذا تذهب بعيداً جدّاً في الجبال؟ لأنَّك ترى كلَّ التكوينات الجيولوجيَّة المتعاقبة، تماماً كما هي الحال في كتاب مدرسيّ، على طول المسار الذي حفره النهر. تقصّ العيّنات من الجدران، وتفرزها، وتضع ملصقات عليها، وتعبّئها في أكياس صغيرة. يلاحظ الجيولوجيّون اتّجاه الطبقات المختلفة المنحدرة نحو السهل. وهكذا، مع هذه المئات من العيّنات الجيولوجيّة المأخوذة من أماكن مختلفة، يرسمون خريطة للطبقات التي يجب أن توجد في

السهل على عمق، في سبيل المثال، بين مئة وألفي متر. ومن خلال العمل بحذر شديد من كلّ هذه المعلومات، في يوم من الأيام وجدوا النفط ربّما على بعد خمسين متراً، في مكان ما لم يكن فيه أحد من قبل، لأنّهم يعرفون مسبقاً أنَّ النفط سيكون هناك على عمق معيَّن. حقّاً إنّها إحدى عجائب العلم - كنت ممتلئاً بالإعجاب.

كلّ هذا كان ليكون على خير ما يرام لولا هنود موتيلون. في كثير من الأحيان كان هناك قتلى أو جرحى من أعضاء البعثات بسهامهم. هذا الخطر لم يجعل عمليّة التوظيف سهلة، كما أنّه كلّف الشركات قدراً كبيراً من المال.

ذهبتُ في العديد من الرحلات الاستكشافيّة، وكان لديَّ بعض التجارب الرائعة.

كان أحد الجيولوجيين هولندياً يدعى لاب. ذات يوم، كان يجمع بيض التمساح - لقد كان جيّداً جدّاً، بمجرَّد تجفيفه في الشمس، ويمكنك العثور عليه بسهولة من خلال تتبّع المسار الذي يتركه التمساح وهو يزحف على بطنه من النهر إلى المكان الجافّ حيث يضع بيضه: يرقد عليه لساعات وساعات. مستفيداً من غياب التمساح، حفر لاب للحصول على البيض وحمله بهدوء إلى المخيَّم. لم يكن قد وصل إلى أرضنا حتّى ظهر التمساح، مرَّ مثل سيّارة السباق واتّجه مباشرة نحوه. لقد اتّبع درب السارق وسيعاقبه. يبلغ طوله نحو ثلاثة أمتار، وكان يلهث بصوت أجشّ كما لو كان مصاباً بالتهاب الحنجرة. بدأ لاب يجري، وأخذ يدور حول شجرة كبيرة؛ وأنا بدأت أضحك بصوتٍ عالٍ، ومن كلّ قلبي، على مشهد هذا الرجل الضخم الذي يرتدي سراويل قصيرة يتجوَّل ويصيح طالباً المساعدة. جاء كريشيه ورجاله على وجه السرعة: توقَّف التمساح بفعل رصاصتين ناسفتين. أمّا لاب، فقد سقط

على مؤخّرته شاحباً كالميت. صُدم الجميع بسلوكي. أخبرتهم أنّه لم يكن بإمكاني فعل أيّ شيء في أيّ حال، لأنّني لم أكن أحمل بندقيّة.

في ذلك المساء، بينما كنّا نتناول طعام العشاء تحت الخيمة، قال لي كريشيه: «أنت لست صغيراً؛ في الأقلّ عمرك أربعة وثلاثون، أليس كذلك؟»

- أكثر من هذا بقليل. لماذا؟

- أنت تعيش وتتصرّف على غرار رجل في العشرين من عمره.

- حسناً، كما تعلم، أنا لست أكثر من ذلك بكثير. أبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً.

- هذا ليس صحيحاً.

- نعم، إنّه كذلك، وسأخبرك لماذا. لمدّة ثلاثة عشر عاماً كنت محشوّاً في خزانة. لذلك لم أعش تلك السنوات في ذلك الوقت. يجب أن أعيشها الآن. وبما أنّني في التاسعة والثلاثين من عمري، ولنطرح منها ثلاثة عشر عاماً، فهذا يعني أنّني أبلغ من العمر ستة وعشرين عاماً.

- لم أفهم قصدك.

- لا يهمّ.

مع ذلك، كان هذا صحيحاً بما فيه الكفاية: كان قلبي قلب صبيّ في العشرين من عمره. كان عليّ أن أعيش تلك السنوات الثلاث عشرة التي سُرقت منّي؛ كنت في حاجة إليها، وكان عليّ أن أستعيدها. كان عليّ أن أحرقها تماماً، ولا أبالي بأيّ شيء على الإطلاق، تماماً بالطريقة التي يتصرّف بها شابّ في العشرين من عمره وقلبه مفعم بحبّ مجنون مدى الحياة.

في أحد الأيام، قبل بزوغ الفجر بقليل، استيقظنا صارخين. بينما كان يعلّق مصباح الإعصار الذي أشعله قبل إعداد القهوة، أصيب طبّاخ الرجال بسهمين - أحدهما في جنبه والآخر في ردفه. كان لا بدَّ من إعادته مباشرة إلى ماراكايبو. حمله أربعة رجال حتّى القارب؛ أخذه الزورق إلى الجيب، والجيب إلى الشاحنة، والشاحنة إلى ماراكايبو.

مرَّ اليوم ثقيلاً ممتلئاً بالحزن. يمكننا أن نشعر بالهنود من حولنا في الأدغال، على الرَّغم من أنّنا لم نسمعهم أو نراهم قطّ. كلّما ذهبنا أبعد، كنّا نشعر بأنّنا بالفعل في مناطق الصيد الخاصّة بهم. كان هناك قدر لا بأس به من الطرائد، وبما أنَّ جميع الرجال كانوا يملكون بنادق، فقد كانوا يصطادون بين الحين والآخر طائراً أو نوعاً من الأرانب. كان الجميع جادّين، لا أحد يغنّي. وبعد أن أطلقوا رصاصة، تحدَّثوا بغباء شديد، كأنّهم يخشون أن يسمعهم أحد.

تدريجياً ساد خوف عامّ بين الرجال. لقد أرادوا قطع الرحلة الاستكشافيّة والعودة إلى ماراكايبو. ظلَّ قائدنا، كريشيه، في أعلى النهر. كان الرجل النقابيّ، كارلوس، شابّاً شجاعاً، لكنّه أيضاً شعر بعدم الارتياح. أخذني جانباً:

– إنريكي، ماذا تقول بشأن أن نعود أدراجنا؟

– لماذا يا كارلوس؟

– بسبب الهنود.

– صحيح، هناك هنود؛ لكنّهم قد يهاجموننا بسهولة في طريق العودة كما لو كنّا نمضي قُدماً.

- لست متأكّداً من ذلك. ربَّما نحن قريبون من قريتهم. انظر إلى هذا الحجر هناك: لقد كانوا يسحقون الحبوب.

- ثمَّة وجهة نظر في ما تقوله يا كارلوس. دعونا نرَ كريشيه.

كان اليانكيز يقومون بعمليّات الإنزال في نورماندي. لقد تطلَّب الأمر الكثير لتجهيزه. كان كريشيه يحبّ وظيفته تماماً. عندما اجتمع كلّ الرجال معاً، قال إنّنا كنّا في واحدة من أغنى المناطق بالمعلومات الجيولوجيّة. لقد فقد أعصابه، وقال شيئاً واحداً لم يكن عليه أن يقوله قطّ وهو في قمَّة غضبه: «إذا كنت خائفاً، حسناً، عُد. أنا باقٍ».

ذهبوا جميعاً باستثناء كارلوس ولاب وأنا. لكنَّني بقيت فقط بشرط أنَّنا حينما نغادر فسندفن المعدَّات، لأنَّني لم أرغب في حمل أيِّ شيء ثقيل، على الإطلاق. منذ أن كسرت قدمي في أثناء إحدى فترات الراحة الفاشلة من بارانكويلا، بدأ السير يتعبني بسرعة إذا كنت أحمل حملاً ثقيلاً. كان كارلوس ينظر إلى العيِّنات.

أمضيت أنا وكريشيه ولاب وكارلوس خمسة أيّام من دون أيِّ شخص آخر على الإطلاق. لم يحدث أيّ شيء، لكنَّني لم أحظَ قطّ بوقت أكثر إثارة وفتنة من تلك الأيّام الخمسة، عندما علمنا أنَّنا كنا تحت المراقبة أربعاً وعشرين ساعة في اليوم من أربع وعشرين، من قِبل عدد كبير من العيون غير المرئيَّة. استسلمنا عندما رأى كريشيه، الذي كان قد نزل إلى حافة النهر لقضاء حاجته، القصب يتحرَّك ثمَّ تقوم يدان خفيّتان بتفريقه برفق. حطَّم هذا رغبته. إنَّما، بهدوئه المعتاد، أدار ظهره للقصب كأنَّ شيئاً لم يحدث، وعاد إلى المخيَّم.

قال للاب: «أعتقد أنَّ الوقت قد حان للعودة إلى ماراكايبو. لدينا عيّنات كافية من الصخور، ولست متأكّداً أنَّ من الضروريّ علميّاً أن يترك الهنود أربع عيّنات مثيرة للاهتمام من العرق الأبيض».

وصلنا إلى قرية بورا بسلام، وهي قرية صغيرة مكوّنة من خمسة عشر منزلاً. كنّا نحتسي شراباً، بانتظار قدوم الشاحنة، التي ستقلّنا، عندما أخذني هنديّ مخمور، من تلك الأنحاء، جانباً وقال: «أنت فرنسيّ، أليس كذلك؟ حسناً، لا تستحقّ أن تكون فرنسيّاً إذا كنت جاهلاً مثل كلّ ذلك».

- آه؟ كيف ذلك؟

- سأخبرك. تشقّ طريقك إلى بلد موتيلون، وماذا تفعل؟ تبتعد يميناً ويساراً عن كلّ ما يطير أو يركض أو يسبح. كلّ الرجال يحملون بنادق. إنَّه ليس استكشافاً علميّاً. إنَّه حفلُ صيد رائع وهائل.

- ما الذي تحصل عليه؟

- إذا واصلت السير على هذا النحو، فسوف تدمّر ما يعدُّه الهنود احتياطيهم الغذائيّ. ليس لديهم الكثير. إنَّهم يقتلون فقط ما يحتاجون إليه ليوم أو يومين. ليس أكثر. ثمَّ مرَّة أخرى، سهامهم تقتل من دون ضوضاء - فهي لا تجعل الحيوانات الأخرى تهرب. في حين أنت تقتل كلَّ شيء وتخيف كلَّ الطرائد بإطلاق النار.

ما قاله هذا الرجل لم يكن بهذه الحماقة. لقد كنت مهتمّاً.

- ماذا ستشرب؟ شرابك على حسابي.

- دبل روم، فرنسيّ. شكراً.

واستطرد قائلاً: «بسبب هذا، أطلق هنود الموتيلون سهاماً عليك. يقولون إنَّه بسببك سيكون من الصعب عليهم تناول طعامهم».

- لو كنت أفهم قصدك على نحو صحيح، فأنت تقول إنَّنا نسرق شحمهم، أليس كذلك؟

- تماماً، أنت ميت فعلاً أيُّها الفرنسيّ. ثمَّ مرَّة أخرى، حينها تصعد في مجرى مائيّ، هل سبق لك أن لاحظت أنَّه، حيث يكون ضيّقاً أو حيث يوجد قليل جدّاً من الماء، يجب عليك الخروج من الزورق والدفع، فإنَّك تدمّر نوعاً من السدود المصنوعة من الأغصان والخيزران؟

- نعم. غالباً.

- حسناً، الأشياء التي تدمّرها بهذه الطريقة، هي مصائد أسماك حقيقيَّة بناها هنود موتيلون؛ لذلك هذا سيشكّل خطراً كبيراً وضرراً جسيماً عليهم. لأنَّ هناك قدراً كبيراً من العمل في هذه الفخاخ. إنَّها نوع من المتاهة، والأسماك التي تصعد مع التيَّار تمرُّ عبر خطّ متعرِّج حتَّى تصل إلى مصيدة كبيرة في النهاية، ومن ثمَّ لا يمكنها الهرب. يوجد جدار من الخيزران في المقدّمة، ولا يمكنها العثور على المدخل مرَّة أخرى، لأنَّه مصنوع من الزواحف الصغيرة التي دفعتها السمكة جانباً للدخول فيها. يدفعها التيّار إلى الخلف عكس البوّابة بمجرَّد مرور السمكة. لقد رأيت أفخاخاً يزيد طولها عن خمسين متراً، تمتدّ من طرف إلى آخر. يا له من عمل جميل.

- أنت على حقّ، هذا صحيح تماماً. يجب أن تكونوا مخرّبين مثلنا لتحطيم عمل من هذا النوع.

لمَّا عدنا إلى الوراء، فكَّرتُ فيما قاله لي الهنديّ الذي تفوح رائحة الروم منه، وقرَّرت تجربة شيء ما، في أقرب وقت ممكن. حين وصولنا إلى ماراكايبو، حتّى قبل أن أعود إلى المنزل لقضاء إجازة الأسبوع، تركت خطاباً للسيّد بلانشيت، مدير شؤون الموظّفين، أطلب فيه رؤيته إن أمكن في اليوم التالي.

استقبلني، وهناك رأيت الجيولوجيّ الأعلى معه. أخبرتهم أنّه لن يكون هناك المزيد من القتلى أو الجرحى في الرحلات الاستكشافيّة إذا تركوا الإدارة لي. سيظلُّ كريشيه الرئيس الرسميّ، بالطبع، لكنّني سأكون الشخص الذي يراعي الانضباط. قرّرا إعطاء اقتراحي هذا الفرصة. وضع كريشيه تقريراً يقول إنّه إذا تمكّنوا من الصعود إلى مستوى أعلى من الرحلة الاستكشافيّة الأخيرة، أي في منطقة أكثر خطورةً، فسيجدون كنزاً حقيقيّاً من المعلومات. أمّا فيما يتعلّق بأجر وظيفتي الجديدة، التي ستكون بالإضافة إلى كوني طاهياً (كنت لا أزال طاهي الجيولوجيين)، فسيتم تسوية ذلك بعد عودتي. بالطبع، لم أقل شيئاً عن الأسباب التي جعلتني أستطيع ضمان سلامة الرحلة الاستكشافيّة، وبما أنّ اليانكيز هم أناس عمليّون، لم يسألوني أيَّ أسئلة أيضاً. بالنسبة إليهم، النتيجة هي الأهمّ.

كان كريشيه الشخص الوحيد العالم بهذا الترتيب. كان يناسبه، لذلك وقّع على المخطّط واعتمده. كان على يقين من أنّني وجدت طريقة معيّنة لتجنُّب المشكلات؛ وحقيقةُ أنّني كنت أحد الثلاثة الذين بقوا عندما غادر الآخرون تركت لديه انطباعاً جيّداً.

ذهبت لرؤية حاكم المقاطعة وشرحت له طبيعة عملي. لقد كان ودوداً ومتفهّماً، وبفضل خطاب توصيته، طلبت إلى الحرس الوطنيّ إصدار أوامر

بالتمركز في النقطة الأخيرة قبل إقليم موتيلون، لمصادرة جميع الأسلحة التي يحملها الرجال الموجودون في قائمتي قبل السماح للرحلة الاستكشافيَّة بالمرور. سيفكِّرون في بعض الأعذار المحتملة والمرِبحة. في الواقع، إذا علم الرجال حين مغادرتهم ماراكايبو أنَّهم ذاهبون إلى بلد موتيلون غير مسلَّحين، فلن يذهبوا على الإطلاق. كان عليَّ أن أمسك بهم وأن أخدعهم في الحال.

لقد مرَّ كلُّ شيء على نحو مثاليّ. في الموقع الأخير، في بورا، أُخذت الأسلحة من جميع الرجال باستثناء اثنين، وقلت لهذين الاثنين ألَّا يطلقوا النار إلَّا في حالة الخطر المباشر - ليس للصيد أو للمتعة. كان لديَّ مسدَّس، وكان هذا كلّ شيء.

منذ ذلك اليوم فصاعداً، لم تقع أيّ مشكلة على الإطلاق في أيٍّ من رحلاتنا الاستكشافيَّة. لقد فهم الأمريكيّون الرسالة، ولأنَّهم يقدِّرون الكفاءة قبل كلّ شيء، لم يسألوني قطّ عن السبب.

تعاملت مع الرجال، وأطاعوني. وظيفتي سحرتني. الآن، بدلاً من تحطيم مصائد الأسماك بزوارقنا، درنا من حولها، ولم ندمّر شيئاً. شيء آخر: بما أنّني عرفت أنّ مشكلة الجوع هي المشكلة الرئيسة التي يواجهها هنود موتيلون، كنت أترك علباً قديمة ممتلئة بالملح أو السكّر في كلِّ مرَّة نقصد فيها المخيّم؛ ووفقاً لما يمكن أن نحفظه، سنترك أيضاً منجلاً أو سكّيناً أو فأساً صغيرةً. لمَّا عدنا من أماكن التخييم هذه، لم نجد شيئاً قطّ. كلّ شيء اختفى، حتَّى العلب القديمة نفسها. لذلك نجحت تكتيكاتي، وبما أنَّه لم يكن ثمّة أحد في ماراكايبو يعرف ما يدور حوله، كانت هناك شائعة بأنَّني كنت ساحراً، أو أنَّني كنت أتقاسم سرّاً مع هنود موتيلون.

في أثناء إحدى هذه الرحلات الاستكشافيّة، تلقّيتُ درساً غير عاديّ في كيفيّة الصيد - في كيفيّة صيد سمكة من دون طعم أو خطّاف أو حبل، فقط بالتقاطها بهدوء من على سطح الماء. كان معلّمي دانتا، وهو حيوان أكبر من خنزير كبير، وأحياناً يزيد طوله عن مترين. بعد ظهر أحد الأيّام، لمّا كنت بالقرب من الجدول، رأيت دانتا للمرّة الأولى. خرج من الماء، نظرت إليه، بقي ثابتاً تماماً حتّى لا أخافه. كان جلده يشبه إلى حدٍّ ما جلد وحيد القرن. كانت أرجله الأماميّة أقصر من ظهره؛ وعلى فمه جذع قصير لكنّه مميَّز. اقترب من أحد الزواحف وأكل قدراً كبيراً منه - لذلك كان من الحيوانات العاشبة. ثمّ رأيته ينزل إلى الجدول مرّة أخرى، سار في اتّجاه امتداد الماء الراكد. توقّف هناك، وبدأ نوعاً من التجشّؤ، مثل بقرة - لذلك كان مجترّاً. ثمَّ أخرج سائلاً أخضر من جذعه. بذكاء شديد خلط هذا السائل بالماء، بوساطة التحريك برأسه الكبير. كنت لا أزال أتساءل عن سبب كلّ هذا، بعد بضع دقائق، لدهشتي، رأيت سمكة تطفو على السطح، وبطنها نحو الأعلى، تتحرَّك ببطء كما لو أنّها مخدَّرة أو نائمة. حينها بدأ دانتا يأخذ سمكة تلو الأخرى، دون عجلة على الإطلاق؛ وأكل السمكات بهدوء. كنت دَهِشاً تماماً.

بعد ذلك، حاولت اتّباع هذا المنهج. حدّدت بعناية الزاحف الذي رأيت دانتا يأكله، وسحقته بين حجرين. جمعت العصير في يقطينة، ثمَّ صببته في جزء من النهر حيث لا يوجد تيّار. لقد حقّقت انتصاراً كبيراً! بعد بضع دقائق، رأيت السمكة تصعد إلى السطح، وقد خرجت، تماماً كما فعلت مع الدانتا. هناك احتياط واحد فقط يجب عليك اتّخاذه: إذا كانت الأسماك صالحة للأكل، فيجب أن تمزّقها على الفور، وإلّا فإنّها تفسد بعد ساعتين.

بعد هذه التجربة، غالباً ما كانت طاولة الجيولوجيين تحتوي على أطباق أسماك رائعة. أخبرت الرجال أنَّه لا ينبغي لهم، تحت أيّ ظرف من الظروف، قتل مثل هذا الصيَّاد الساحر، ولا سيّما أنَّه حيوان غير مؤذٍ تماماً.

في بعض الأحيان، في هذه الرحلات الاستكشافيَّة، كان عليَّ اصطحاب أسرة من صيَّادي التمساح كمرشدين، وهي أسرة فوينمايور (أب وولداه الاثنان). كان هذا مناسباً للجميع، لأنَّ الفوينمايور كانوا يعرفون المنطقة جيّداً؛ لكن لو كانوا وحدهم، فسيكونون فريسة سهلة لهنود موتيلون. وبالتزامن مع الرحلة الاستكشافيّة، أرشدونا نهاراً مقابل الاحتفاظ بهم معنا، وفي الليل كانوا يصطادون التمساح.

كانوا أناساً من ماراكايبو. الماراكوتشوس، هم أشخاص اجتماعيون إلى أبعد الحدود. يتحدَّثون بطريقة موسيقيَّة، وكانت لديهم فكرة جيّدة عن الصداقة. كان هناك قدر كبير من الدّم الهنديّ في عروقهم، وكانت لديهم الصفات الهنديَّة من الحكمة والذكاء. كان لديَّ بعض الصداقات الرائعة والمتينة مع الماراكوتشوس، وما زلت أحتفظ بها. النساء جميلات، ويعرفنَ كيف يحببنَ، وكيف يجعلنَ أنفسهنَّ محبوبات.

يعدُّ صيد التماسيح، وهي مخلوقات يبلغ طول الواحد منها مترين أو ثلاثة، عملاً خطراً للغاية. ذات ليلة، ذهبت مع فوينمايور وابنه الأكبر. جلس الأب في مؤخّرة الزورق الضيّق جدّاً والخفيف جدّاً، وأنا في المنتصف وابنه في المقدّمة. كان الظلام دامساً. كلّ ما كنت تسمعه هو أصوات الأدغال، وبصوت خافت جدّاً، ارتطام الماء بالزورق. لم ندخّن. لم نصدر أدنى صوت. حتّى المجذاف الذي كان يحرِّك الزورق ويقوده في الوقت نفسه، لم يسمح له بالتخبّط على جانب الزورق.

بين الحين والآخر، كان الشعاع الصادر من مصباح يدويّ ضخم على سطح الماء، يُظهر أزواجاً من النقاط الحمر، على غرار مصابيح السيَّارة الأماميَّة في الإعلانات الفوسفوريَّة على الطرقات. نقطتان حمراوان: تمساح واحد. ستكون هناك فتحتا الأنف أمام هاتين العينين، لأنَّ العينين والأنف هما الجزآن الوحيدان من التمساح اللذان يظهران فوق سطح الماء. تمَّ اختيار الضحيَّة وفقاً لأقصر مسافة بين الصيَّادين والنقاط الحمر. بمجرَّد اختيارها، بدأنا التوجّه نحوها. انطفأ الضوء. كان الأب فوينهايور ماهراً على نحو رائع في تعيين موضع التمساح بدقَّة، من خلال وميض ضوء واحد فقط لا يدوم أكثر من ثانية. جذّفنا نحوه بسرعة ووجَّهنا العارضة، وكان الغاشم دائماً يرقد هناك منبهراً. بقيت العارضة على التمساح حتَّى أصبحنا على بعد مترين أو ثلاثة. في الجزء الأماميّ من الزورق، أبقى الشابّ فوينهايور مصباحه اليدويّ موجّهاً بيده اليسرى، وبكلّ قوّة ذراعه اليمنى ألقى حربة وزنها عشرة كيلوغرامات من الرصاص - الشيء الوحيد الذي يمكن أن يخترق جلداً مقاوماً ويستوطن الجسد.

الآن، كان علينا أن نتحرَّك بسرعة، لأنَّ التمساح الثاني قد حطَّم الحربة؛ أخذنا مجاذيفنا الثلاثة وتوجَّهنا بسرعة نحو الشاطئ. عليك حقّاً أن تقفز، لأنَّك إذا أعطيت التمساح وقتاً، فإنَّه يعود إلى السطح مرَّة أخرى، ويتوجَّه نحوك، وبمجرَّد أن يمسّ ذيله القارب يقلبه، ما يحوّل الصيّادين إلى طريدة للتماسيح الأخرى. بمشقَّة وصلت إلى الضفّة قبل أن يصل ويقفز. اندفع الصيّاد نحو شجرة ولفَّ الحبل حولها. إنَّه يأتي، تشعر أنَّه يأتي ليرى ما الذي يمسكه. لا يستطيع معرفة ما يحدث له باستثناء الألم في ظهره. لذلك يأتي ليكتشف. برفق، دون أن تسحبه، تأخذ الحبل وتمرّره حول الشجرة.

سيخرج - هو تقريباً على حافة الهاوية. ما إن يخرج، الشاب فوينهايور، الذي يحمل فأساً أمريكية رقيقة وحادّة في آن، سيقوم بإحداث صدع كبير في رأسه. أحياناً قد يتطلَّب الأمر ثلاث ضربات لإنهاء التمساح. في كلّ ضربة، يكتسح الحيوان بذيله الذي قد يلامس الفأس. إذا لم تكن الضربات قاتلة، وهو ما يمكن أن يحدث، يجب أن نترك الحبل سريعاً حتّى يتمكَّن من العودة إلى قاع الماء. لأنَّه، بقوّته الهائلة، يحطّم الحربة، على الرَّغم من أنَّها كانت مزروعة بقوَّة في جسده. ننتظر لحظة ونبدأ في السحب مرَّة أخرى.

كانت تلك ليلة رائعة: قتلنا العديد من التماسيح وتركناها على الضفَّة. عند الفجر، عاد الفوينهايور وسلخوا البطن والجانب السفليّ من الذيل. من الصعب جدّاً سلخ جلد الظهر. ثمَّ دفنوا كلَّ هذه المخلوقات الضخمة - إذا أُلقيت الجثث مرَّة أخرى في النهر فسيتسمّم. التمساح لا يأكل التماسيح الأخرى، ولا حتّى الميتة منها.

لقد قمت بالعديد من هذه الرحلات الاستكشافيَّة، وكسبت مالاً جيّداً، وتمكَّنت من توفير مبلغ لا بأس به. ثمَّ وقع أكثر حدثٍ غير عاديّ في حياتي.

الفصل العاشر

ريتا - فيرا كروز

لـمّا كنت في زنزانات الحبس الانفراديّ في سان جوزيف، اعتدت أن أسافر مع النجوم وأبتكر قلاعاً رائعة في إسبانيا، هرباً من الوحدة القاسية والصمت الرهيب. غالباً ما تخيَّلتُ نفسي حرّاً، رجلاً غزا «الطريق إلى الهاوية» وبدأ حياة جديدة في بعض المدن الكبيرة. نعم، لقد كانت قيامة حقيقيَّة. دفعت شاهدة القبر التي حطَّمتني في الظلام، وعدت إلى وضح النهار، إلى الحياة الواقعيَّة؛ وبين الصور التي جالت في ذهني، ظهور فتاة جميلة وجيّدة في آن معاً في حياتي. هي لا طويلة ولا قصيرة. شقراء، ذات عينين عسليتين تزينهما أهداب سُود للغاية، تتألَّق حياةً وذكاء. كان فمها مرسوماً بشكل رائع، يكشف، عندما تضحك، عن أسنان مرجانيَّة بيض لامعة. كان جسمها متناسقاً إلى حدٍّ بعيد جدّاً، كما رأيتها، كانت هذه المرأة هي التي ستكون بلا شكّ لي يوماً ما.

هذه الألوهة، وهذا الجمال المثاليّ، جعلاها روحاً جميلة ونبيلة وغنيّة بكلِّ الصفات الحميدة التي يمكنها أن تصنع من المرأة صديقة وحبيبة. كان ذلك مؤكَّداً، سألتقيها يوماً ما، وسأكون معها، متّحدَين إلى الأبد، وسأكون محبوباً وغنياً ومحترماً وسعيداً مدى الحياة.

نعم، هناك في الحرارة الرطبة الخانقة التي حرمت السجناء التعساء من عزل أقلّ قدر من الهواء الحيّ. لمَّا كنت أتنفَّس، كان قلبي يلتوي من

الكرب، في ذلك البخار الذي لا يطاق، والذي يؤذي رئتي - يلهث على أمل العثور على تلميح من النضارة - وعلى الرغم من ضعفي وعطشي الذي لا ينقطع، والقلق الذي أغضب قلبي، فقد سافرتُ من أجل النجوم؛ حيث كان الهواء بارداً، والأشجار ذات أوراق خضر نضرة، وحيث لا توجد اهتمامات الحياة اليوميّة، لأنّني كبرت، هناك، في كلِّ رؤيا، ظهر الشخص الذي أسميته «أميرتي». كانت دائماً هي نفسها، حتّى في أدقّ التفاصيل. لم يتغيّر شيء على الإطلاق، وعرفتها جيّداً، إلى درجة أنّه في كلِّ مرّة تدخل فيها هذه المشاهد المختلفة، بدا لي أنّها طبيعيّة تماماً - أليست هي زوجتي وملاكي الطيبة؟

بعد عودتي من إحدى تلك الرحلات الجيولوجيّة، قرّرت التخلّي عن غرفتي في معسكر شركة ريتشموند والعيش في ماراكايبو. لذا، ذات يوم، أنزلتني شاحنة تابعة للشركة، وحقيبة صغيرة في يدي، في ميدان صغير مظلّل في مكان ما وسط المدينة. كنت أعرف أنّه كان هناك العديد من الفنادق أو النُّزل الصغيرة. بدأت السير في شارع فنزويلا، وهو شارع في وضع جيّد للغاية، يمتدُّ بين الساحتين الرئيستين في ماراكايبو، ساحة بوليفار وساحة بارالت. كان أحد تلك الشوارع الاستعماريّة الضيّقة التي تصطفّ على جانبيها منازل منخفضة، تتألّف من طابق واحد أو طابقين في الأكثر. كانت الحرارة شديدة، وسرت في ظلالها.

فندق فيرا كروز. منزل جميل، ذو طابع استعماريّ، يعود تاريخه إلى أيّام الغزو، مطليّ باللون الأزرق الباهت. أعجبني مظهره النظيف، وجذبتني طريقة الاستقبال. سرت في ممرّ رائع يطلّ على فناء. وهناك، في الفناء المظلّل، رأيت امرأة. وهذه المرأة كانت هي.

إنَّها هي. لا يمكن أن أكون مخطئاً - لقد رأيتها آلاف المرّات في أحلامي عندما كنت سجيناً بائساً. الآن، أميرتي الجميلة أمامي جالسة على كرسيّ هزّاز. كنت على يقين من أنّني إذا ما اقتربت منها، فسأرى عينيها بلونهما البنّيّ، وسحر الجمال على وجهها البيضويّ الجميل. وهذا الديكور المحيط هنا، رأيته أيضاً آلاف المرّات. لذلك، كان من المستحيل أن أكون مخطئاً: كانت أميرة أحلامي موجودة قبالتي؛ كانت تنتظرني.

- مساء الخير سيّدتي، هل أجد لديك غرفة للإيجار؟

وضعت حقيبتي جانباً. كنت على يقين من أنَّها ستقول نعم. لم أنظر إليها فقط؛ بل أكلتها بعينيَّ. نهضتْ من على كرسيّها وتوجَّهتْ نحوي وقد فوجئت أنَّ شخصاً لا تعرفه يحدِّقها بشدَّة. ابتسمتْ لي، وظهرتْ أسنانها الرائعة التي أعرفها جيّداً.

قالت أميرتي بالفرنسيَّة: «نعم يا سيدي، لديَّ غرفة لك».

- كيف عرفتِ أنّني فرنسيّ؟

- من طريقتك في التحدُّث باللغة الإسبانيَّة. تعالَ معي رجاءً.

حملت حقيبتي، وتبعتها. دخلت غرفة نظيفة، مرتَّبة ومزيَّنة بأثاث جيّد. كانت الغرفة تطلّ على الفناء مباشرةً.

بعد أن أخذت حمّاماً سريعاً بارداً ومنعشاً، وغسلت، وحلقت ذقني، ودخَّنت سيجارة وأنا أجلس على حافة السرير في غرفة الفندق هذه، أدركت حقّاً أنّني لا أحلم، وإنّما أعيش واقعاً جميلاً. «إنّها هنا، يا رجل، هي التي ساعدتك في تحمُّل أيّام السجن الصعبة! إنَّها هنا، على بعد بضعة أمتار منك! تمالك أعصابك ولا تفقد صوابك. لا تدع هذه الطعنة في القلب

تجعلك تفعل أو تقول أيَّ شيء أحمق. كان قلبي ينبض بعنف، وحاولت تهدئة نفسي. «قبل كلّ شيء، يا بابيون، لا تخبر أحداً بهذه القصَّة المجنونة، ولا حتّى هي. من سيصدّقك؟ ما لم تكن تريد أن تضحك على نفسك، كيف يمكنك أن تخبر أيَّ شخص أنَّك تعرف هذه المرأة، ولمستها، وقبَّلتها، قبل سنوات، عندما كنت تتعفّن في زنزانات سجن بغيض؟ حافظ على سرِّك. الأميرة هنا، وهذا ما يهمُّ في الأمر. الآن، بعد أن وجدتها، لن تهرب منك. إنَّما عليك أن تفعل ذلك برفق وتعقُّل، خطوة خطوة. بمجرَّد النظر إليها، يمكنك أن تعرف أنَّها هي مديرة هذا الفندق الصغير».

في الفناء، كانت ثمَّة حديقة مصغَّرة، حيث قلت كلمات الحبّ الأولى في هذه الليلة الاستوائيَّة الرائعة. لقد كانت الملاك الذي حلمت به تماماً، إلى درجة أنَّها كانت تنتظرني منذ سنوات. أميرتي، تدعى ريتا؛ لقد جاءت من طنجة. لقد كانت حرَّةً طليقة. ما من شيء كان يعوقني. كانت تنظر إليّ بعينيها السّاحرتين اللتين تلمعان كالنجوم التي ترصِّع قلب السّماء، التي فوق رؤوسنا. كنت صريحاً: قلت لها إنَّني كنتُ قد تزوَّجت في فرنسا، ولا أعرف وضعي الآن هناك. ولأسباب قاهرة وجديَّة لا يمكنني الاستفسار عن الوضع الآن. وكان هذا صحيحاً: لم أستطع الكتابة إلى البلديَّة في قريتي للحصول على بيان أحوال شخصيَّة. لم يكن بالإمكان توقُّع ردّ فعل القضاء حول طلب من هذا النوع. لربَّما كان طلبي هذا سيقابله طلب تسليم نفسي. لكنَّني لم أقل شيئاً عن الماضي بصفتي محتالاً ومُداناً. كرَّست كلّ قوّتي وكلّ موارد عقلي لإقناعها. شعرت أنَّ هذه كانت أعظم فرصة في حياتي، ولم أستطع تركها تمرُّ عبثاً، من دون وضع كلّ ثقلي لإتمام الأمر.

- أنت جميلة، يا ريتا، لا بل رائعة الجمال. حرِّري نفسك، كي تكوني أسيرة حبّ رجل ليس لديه أحد في حياته أيضاً، لكنَّه يحتاج إلى الحبِّ والمحبَّة. ليس لديَّ كثير من المال، هذا صحيح. وأنت بفندقك الصغير هذا أغنى منّي تقريباً؛ لكن صدّقيني، أريد أن نكون روحاً واحدة إلى الأبد، وألَّا يفرّقنا سوى الموت. وافقي يا ريتا الجميلة، التي جمالها كجمال زهور الأوركيد، لا أستطيع أن أخبرك متى أو كيف، لكنَّني عرفتك وأحببتك لسنوات وسنوات.

إلَّا أنَّ ريتا لم تكن فتاة سهلة. لم يدهشني الأمر. لم توافق إلَّا بعد ثلاثة أيّام على أن تكون لي. كانت خجولاً للغاية، وطلبت إليَّ الاختباء عندما أتيت إلى غرفتها. ثمَّ في صباح أحد الأيّام الجميلة، ومن دون سابق إنذار، على نحو طبيعيّ، أعلنّا حبّنا واضحاً ورسمياً؛ وبطبيعة الحال، أصبحت أنا مدير الفندق.

كانت سعادتنا كاملة. وبدأت أعيش حياة جديدة، حياة أسريَّة. الآن، بعد أن نجحت، أنا المنبوذ والهارب من تسوية العقوبات الفرنسيَّة، في التغلُّب على هذا الطريق الوعر، أصبح لديَّ منزل وامرأة جميلة بجسدها، كما كانت جميلة بروحها. لم يكن هناك سوى سحابة صغيرة واحدة في سعادتنا - حقيقة أنّني، كوني متزوّجاً في فرنسا، لا أستطيع أن أتزوّجها.

محبوب وأحبّ. لديَّ منزل خاصّ بي - يا إلهي، كم أنت عظيم أنَّك أعطيتني كلَّ هذا!

المتجوّلون على الطرقات، المتجوّلون في البحار، الرجال الأحرار الذين يحتاجون إلى المغامرة لأنَّ الناس العاديين يحتاجون إلى الماء والخبز، الرجال الذين يطيرون عبر الحياة في حين تطير الطيور المهاجرة في السماء، يتجوّلون في

المدن ويبحثون في شوارع الأحياء الفقيرة ليلَ نهار، يزورون الحدائق ويتسكَّعون في الأحياء الغنيَّة، وروحهم المتمرِّدة تبحث عن شيء جديد. والفوضويون المتجوّلون، والسجناء المحرّرون، والجنود في إجازة - كلّهم، دون استثناء، يعانون من عدم امتلاك منزل في لحظة واحدة؛ وحينما تمنحهم العناية الإلهيّة امرأة، فإنَّهم يذهبون نحوها كما أدخلت إلى قلبي روحاً جديدة، وهو ممتلئ بالحبّ لتقديمه إليها، وأشعر بالحرقة والولع للحصول على حبِّها.

لذلك، أنا أيضاً، على غرار الناس العاديين، أمثال والدي ووالدتي وأخواتي وجميع أفراد أسرتي، أنا أيضاً كان لديَّ منزلي أخيراً، مع فتاة أحبَّتني من كلِّ قلبها.

إنَّ لقائي بريتا هذا جعلني أغيّر طريقة عيشي بالكامل، وجعلني أشعر أنَّ هذا اللقاء سيكون نقطة التحوّل في حياتي، لذا عليَّ الاعتراف بأنَّ هذا الإنسان كان شخصاً استثنائياً تماماً.

في المقام الأول، مثلي، جاءت أوّلاً إلى فنزويلا بعد تسوية. ليس خروجاً عن تسوية جزائيَّة، بالطبع، ولا من السجن، لكنَّ الأمر يبقى عبارة عن تسوية.

كانت قد وصلت من طنجة قبل ستة أشهر مع زوجها؛ الذي قد تركها منذ نحو ثلاثة أشهر ليذهب ويخوض مغامرة على بعد ثلاثمئة كيلومتر من ماراكايبو - لم ترغب في الذهاب معه. تركها مع الفندق. كان لها أخ في ماراكايبو، يسافر كثيراً بسبب عمله.

أخبرتني عن حياتها، وأصغيت إليها بكلِّ اهتمام. لقد ولدت أميرتي في حيّ فقير في طنجة. ربَّت والدتها الأرملة بشجاعة ستّة أطفال، ثلاثة أولاد وثلاث بنات. كانت ريتا الأصغر سناً.

كان الشارع بمنزلة ميدانها الخاصّ. لم تكن تمضي أيّامها بين جدران الغرفتين حيث يعيش أفراد أسرتها السبعة. كان بيتها الحقيقيّ هو المدينة، مع حدائقها وأسواقها، وسط حشود كثيفة من الناس الذين يملؤونها، يأكلون ويغنّون ويشربون ويتحدَّثون شتّى اللغات. كانت تسير حافية القدمين. كان الأطفال في سنِّها، وأهل قومها يطلقون عليها اسم ريكيتا. كانت تقضي وأصدقاؤها، وهم سرب من العصافير المفعم بالحيويّة، وقتاً على الشاطئ أكثر من الوقت الذي كانوا يقضونه في المدرسة؛ لكنَّها كانت تجيد الاعتناء بنفسها، وكانت تعرف كيف تحافظ على مكانها في الطابور الطويل أمام المضخَّة عندما تذهب لإحضار دلو من الماء لأمِّها. لم تكن ترضى ارتداء زوج من الأحذية إلى أن بلغت العاشرة من عمرها.

كان كلّ شيء يثير اهتمام روحها المفعمة بالحيويّة والفضول. كانت تمضي ساعات وساعات وهي جالسة في الحلقة حول راوٍ عربيّ للحكايات. إلى درجة أنَّ أحد رواة القصص، الذي سئم رؤية هذه الطفلة في الصفِّ الأماميِّ، من دون أن تقدِّم له أيَّ شيء من النقود، نطحها برأسه. وبدأت بعدها تجلس في الصفِّ الثاني.

لم تكن تعرف الكثير، لكنَّ ذلك لم يمنعها من أن تحلم بوضوح بالعالم الغامض العظيم الذي أتت منه كلّ تلك السفن الضخمة ذات الأسماء الغريبة. كان حلمها الكبير وشغفها العظيم يتمثّلان بالسفر بعيداً. لم تستطع أن تتخلَّى يوماً عن حلمها هذا. إلَّا أنَّ فكرة ريكيتا الصغيرة عن العالم كانت خاصَّة إلى حدٍّ ما. كانت بالنسبة إليها أمريكا الشماليّة وأمريكا الجنوبيّة عبارة عن أمريكا العليا وأمريكا السفلى. كانت أمريكا العليا تضمّ نيويورك التي غطّتها بالكامل. كان الناس جميعهم فيها عبارة عن ممثلي سينما. أمّا في أمريكا السفلى، فكان يعيش

الهنود، الذين يقدّمون لكم الزهور ويعزفون على الفلوت. لم تكن ثمّة حاجة إلى العمل هناك، لأنّ السود فعلوا كلّ ما يجب فعله.

إنّها، بصرف النظر عن الأسواق وسائقي الجمال والنساء المحجّبات الغامضات والحياة الصاخبة للميناء، فإنّ أكثر ما أحبّته هو السيرك. ذهبت إلى هناك مرّتين - مرّة عن طريق الانزلاق تحت حافة الخيمة، ومرّة أخرى بفضل مهرّج عجوز تأثّر حين رؤية الطفلة الجميلة حافية القدمين؛ سمح لها بالدخول وأعطاها مقعداً جيّداً. كانت تشتاق إلى الذهاب مع السيرك. في يوم من الأيّام، ستكون هي التي ترقص على الحبل المشدود، وتقوم بالدوران وتستقبل كلّ التصفيق. يجب مغادرة السيرك إلى أمريكا الجنوبيّة، كانت تتوق من كلّ قلبها إلى الذهاب معه – إلى الذهاب بعيداً وأن تصبح غنيّة وتجلب المال لأسرتها.

ومع ذلك، لم تسافر مع السيرك، وإنّما مع أسرتها. أوه، ليس بعيداً جدّاً، لكنّها كانت مجرّد رحلة. ذهبوا واستقرّوا في الدار البيضاء. كان الميناء كبيراً. خرجت بعيداً وبدأت ريكيتا تحلم.

كانت حينها في السادسة عشرة من عمرها، وكانت ترتدي دائماً فساتين جميلة جدّاً تصنعها هي بنفسها، لأنّها عملت في متجر «أقمشة فرنسا»، وغالباً ما كان المدير يعطيها قطعاً قصيرة من القماش. كان حلمها بالسفر يزداد شيئاً فشيئاً، لأنّ المتجر، في شارع الاورلوج، كان قريباً جدّاً من مكاتب شركة طيران لاتيكور الشهيرة. غالباً ما كان الطيّارون يذهبون إلى المتجر. وأيّ طيّارين! ميرموز، سان إكزوبيري، ميميل الكاتب، ديلوناي، ديدييه. لقد كانوا وسيمين، والأكثر من ذلك أنّهم كانوا أعظم وأشجع المسافرين في العالم. كانت تعرفهم جميعاً، وكانوا جميعهم يحبّونها؛ بين الحين

والآخر، كانت تقبل قبلة منهم، لكن هذا كلّ شيء، لأنّها كانت فتاة طيّبة. ما الرحلات الجويّة التي قاموا بها؟ كانت تستمع إلى قصص مغامراتهم وهي تأكل الآيس كريم في محلّ الحلويات الصغير المجاور. لقد أحبُّوها. قدَّموا لها هدايا صغيرة، لكنَّها ثمينة؛ وكتبوا لها أبياتاً شعريَّة، حيث نُشر بعضها في صحيفة فيجي.

لمَّا كانت في التاسعة عشرة من عمرها تزوَّجت رجلاً يعمل في تصدير الفاكهة إلى أوروبا. لقد عملا بجدّ، وأنجبا ابنة صغيرة، وكانوا سعداء. كانت لديهم سيّارتان، وعاشوا على نحو مريح للغاية، واستطاعت ريتا بذلك مساعدة والدتها وأخواتها.

ثمَّ في تتابع سريع، وصلت سفينتان محمَّلتان بالبرتقال إلى الميناء. فُقدت شحنتان كاملتان تماماً، وهذا يعني الخراب بكلِّ ما تعنيه الكلمة من معنى. كان زوجها مديناً بشدَّة، وإذا شرع في العمل لسداد الديون لدائنيه، فسيستغرق الأمر سنوات وسنوات. لذلك قرَّر الذهاب إلى أمريكا الجنوبيَّة. لم يكن من الصعب عليه إقناع ريتا بالذهاب معه بهذه الرحلة الرائعة إلى أرض كوكاين حيث يتوافر الماس والذهب والنفط. عهدوا بفتاتهما الصغيرة إلى والدة ريتا، وانتظرت ريتا، الممتلئة بأحلام المغامرة، بفارغ الصبر للصعود على متن السفينة الكبيرة التي أخبرها زوجها عنها.

كانت «السفينة الكبيرة» عبارة عن قارب صيد يبلغ طوله اثني عشر متراً وعرضه خمسة وخمسين متراً. وافق القبطان، وهو إستونيّ قرصان إلى حدٍّ ما، على نقلهم إلى فنزويلا من دون أوراق، إلى جانب عشرات الجنود غير النظاميين الآخرين، بتكلفة: خمسة آلاف فرنك. وفي مقرِّ الطاقم، على قارب الصيد القديم هذا، الذي تستقلّه ريتا، كان ثمَّة عشرة جمهوريين إسبان

هاربين من فرانكو، وبرتغاليّ هارب من سالازار، وامرأتان: واحدة ألمانيّة تبلغ من العمر خمسة وعشرين عاماً، عشيقة القبطان، والأخرى امرأة إسبانيّة بدينة، زوجة أنطونيو الطبّاخ.

مئة واثنا عشر يوماً للوصول إلى فنزويلا! مع توقُّف طويل في جزر الرأس الأخضر، بسبب تسرُّب في القارب وموجة من الطقس القاسي، فكاد القارب يغرق.

في أثناء إصلاحه في الحوض الجاف، نام الركّاب على الشاطئ. لم يعد زوج ريتا يثق بالقارب. قال إنَّ من الجنون الانطلاق في المحيط الأطلسيّ في قاربٍ فاسد مثل هذا. شجعته ريتا بالشجاعة: كان القبطان من الفايكنج. كان الفايكنج أفضل بحّارة العالم؛ يمكن أن تكون لديها ثقة كاملة به.

ثمَّ وصل خبر لا يصدَّق. أخبر الإسبان ريتا أنَّ القبطان شخص بغيض، وأنَّه أبرم صفقة مع مجموعة أخرى من الركّاب، وأنَّه سيستغلُّ وجودهم على الشاطئ للانطلاق إلى داكار ليلاً، وتركهم حيث هم. حدث اضطراب فوريّ! حذَّروا السلطات وتوجَّهوا إلى السفينة دفعةً واحدة. جرى تطويق القبطان وتهديده. كان الإسبان مسلَّحين بسكاكين. عاد الهدوء عندما وعدهم القبطان بأنَّهم سيذهبون إلى فنزويلا. ونظراً لما حدث، وافق على البقاء تحت المراقبة المستمرَّة من قبل أحد الركّاب. في اليوم التالي غادروا الرأس الأخضر وتوجَّهوا نحو المحيط الأطلسيّ.

بعد خمسة وعشرين يوماً، صاروا على مرأى من جزر لوس تيستيجوس، أبعد نقطة في فنزويلا. لقد نسوا كلَّ شيء: العواصف، زعانف أسماك القرش، ظهور الدلافين المرحة التي تندفع نحو القارب، السوس المنتشر في الطحين والأعمال التجاريَّة في الرأس الأخضر. كانت ريتا سعيدة للغاية، إلى

درجة أنَّها نسيت أنَّ القبطان كان يريد خيانتهم، فعانقته وقبَّلته على خدَّيه. ومرَّة أخرى سمعوا الأغنية التي أنشدها الإسبان في أثناء العبور. لأنَّه حيثما يوجد إسبان، يوجد دائماً غيتار ومغنٍّ:

نحن ذاهبون إلى فنزويلا

على الرّغم من عدم وجود طريق.

نحن ذاهبون إلى فنزويلا

في قارب إبحار صغير

في ١٦ أبريل ١٩٤٨، بعد رحلة استغرقت ٤٩٠٠ ميل، وصلوا إلى لاغويرا، ميناء كاراكاس، على بعد خمسة وعشرين كيلومتراً من المدينة.

للاتصال بالسلطات الصحيَّة، استخدم القبطان علماً مصنوعاً من ثوب نسائيّ للفتاة الألمانيَّة زيندا؛ ولَّما رأى الركَّاب زورق الدوريَّة الفنزويليّ، كانت وجوههم المشبعة بالشمس تبعث على الفرح. هذه هي فنزويلا: لقد انتصروا!

كانت رينا صامدة على نحو رائع، على الرَّغم من أنَّها فقدت عشرة كيلوغرامات. لا شكوى ولا علامة خوف، على الرَّغم من أنَّه من وقت إلى آخر كان هناك الكثير ممَّا يدعو إلى القلق في هذه المصادفات في المحيط الأطلسيّ الكامل! لقد تعثَّرت مرَّة واحدة فقط. حتّى ذلك الحين، لم يعد يراها أحد. لَّما غادرت طنجة كانت قد حزمت الكتاب الوحيد الذي كان يجب أن تتركه وراءها لجول فيرن- عشرون ألف فرسخ تحت البحار. ذات يوم، في طقس قاسٍ حقّاً، لم تعد قادرة على تحمّله، فألقت الكتاب في البحر: ليلة بعد ليلة كانت تحلم أنَّ أخطبوطاً عملاقاً كان يجرُّ قاربه، على غرار نونيلوس، إلى القاع.

بعد ساعات قليلة من وصولهم، وافقت السلطات الفنزويليّة على السماح لهم بدخول البلاد، على الرَّغم من عدم وجود أوراق لدى أيّ منهم. «سنمنحكم الهويّات في وقت لاحق». أرسلوا اثنين من المرضى إلى المستشفى. أمّا البقيّة فحصلوا على ملابس ومسكن وطعام لأسابيع عدّة. ثمّ وجد الجميع عملاً، كلٌّ بمفرده. هذه هي قصّة ريتا.

ألم يكن غريباً أن ألتقي المرأة التي ملأت وحدتي الرهيبة في العزلة مدّة عامين، ثمّ أن تأتي هذه المرأة إلى هنا تماماً كما فعلت، لأخذ استراحة – في ظلّ ظروف مختلفة تماماً؟ من دون أوراق أيضاً، وتلقى مثلي معاملة سخيّة من هذه الأمّة؟

لم يحدث شيء بزعج سعادتنا لأكثر من ثلاثة أشهر. ثمّ في أحد الأيّام الجميلة، فتحت أيادٍ مجهولة خزنة شركة رينشموند، التي كنت لا أزال أعمل فيها على تنظيم الرحلات الجيولوجيّة وإدارتها. كيف علمت الشرطة المحليّة واكتشفت ماضيّ. إنّما من المؤكّد أنّه جرى سحبي كمشتبه به رقم واحد، وسُجنت في سجن ماراكايبو.

بطبيعة الحال، جرى استجواب ريتا حولي، وفجأة علمتْ بكلّ ما أخفيه عنها عبر رجال الشرطة. أعطاهم الإنتربول كلّ المعلومات. إلّا أنّها مع ذلك لم تتركني في هذا الموقف. وبينما كنت في السجن ساعدتني قدر استطاعتها. دفعت أتعاب المحامي، الذي أخرجني في غضون أسبوعين - تمّ رفض التهمة. ثبتت براءتي الكاملة. لكنّ الأذى كان قد أصابني.

لمّا جاءت لتأخذني من السجن، كانت ريتا متأثرة إلى حدٍّ بعيد وحزينة جدّاً أيضاً. لم تنظر إليّ بالطريقة عينها التي كانت تنظر إليّ بها من قبل.

شعرت أنَّها كانت خائفة حقاً - لأنَّها كانت متردِّدة في التواصل معي مرَّة أخرى. كان لديَّ شعور بأنَّ كلَّ شيء قد ضاع. ولم أكن مخطئاً، لأنَّها سألتني على الفور قائلةً: «لماذا كذبتَ عليّ؟»

لا، يجب ألَّا أخسرها. لم تكن لديَّ فرصة أخرى كهذه. مرَّة أخرى كان عليَّ القتال بكلِّ قوَّتي.

- ريتا، عليك فقط أن تصدّقيني. لمَّا التقيتُك، أحببتك كثيراً، أحببتك كثيراً على الفور، إلى درجة أنَّني كنت أخشى أنَّك لن ترغبي في رؤيتي بعدها إن أخبرتك بحقيقة ماضيَّ.

- لقد كذبتَ عليَّ... لقد كذبتَ عليَّ.

كرَّرتْ هذه الجملة مراراً وتكراراً. ثمَّ تابعت القول: «وأنا التي اعتقدتُ أنَّك رجل محترم».

كانت مسكونة بالخوف، كأنَّها تعيش في كابوس. نعم، إنَّها خائفة يا رجل، إنَّها تخافك.

- ومن الذي سيقول إنَّني لا أستطيع أن أكون رجلاً لائقاً بك؟ أعتقد أنَّني مثل أيّ شخص آخر أستحقّ فرصة أن أصبح جيّداً وصادقاً وسعيداً. لا تنسي يا ريتا، أنَّه كان عليَّ لمدَّة ثلاثة عشر عاماً أن أقاتل ضدَّ نظام السجون الأكثر فظاعة في العالم. أحبُّك من كلِّ قلبي يا ريتا؛ وأنا أحبُّك ليس بماضيّ بل بحاضري. يجب أن تصدّقيني: السبب في عدم إخبارك بقصَّة حياتي، هو أنَّني كنت خائفاً من أن أخسرك. قلت لنفسي إنَّه على الرَّغم من أنَّني عشت حياة ملتوية من قبل، فإنَّ مستقبلي معك سيكون عكس ذلك تماماً. رأيت الطريق بأكمله الذي كان علينا أن نسافر فيه معاً، يداً بيد،

ورأيته نظيفاً وسليماً ولا تشوبه شائبة، مزداناً بألوان جميلة. أقسم إنَّ هذه هي الحقيقة يا ريتا، أقسم برأس والدي، الذي جعلته يعاني كثيراً.

ثمَّ تصدّعت، وبدأت في البكاء.

- هل هذا صحيح، يا هنري؟ هل هكذا حقاً رأيت الأشياء، وتصوَّرت مستقبلنا معاً؟

تماسكتُ. كان صوتي أجشَّ ومكسوراً عندما أجبت: «يجب أن يكون الأمر كذلك، لأنَّه الآن في قلبينا. هذه هي الحال. أنت وأنا - ليس لدينا ماضٍ. كلّ ما يهمّ هو الحاضر والمستقبل».

أخذتني ريتا بين ذراعيها.

- لا تبكِ يا هنري بعد الآن. استمع إلى النسيم العليل - مستقبلنا هو البداية. لكن أقسم لي إنَّك لن تفعل شيئاً آخر غير آمن. عدني بأنَّك لن تخفي أيَّ شيء عنّي بعد الآن، وأنَّه لن يكون هناك شيء قذر في حياتنا ليتمَّ إخفاؤه.

عانق أحدنا الآخر بقوّة، وأقسمتُ لها. شعرتُ أنَّ أعظم فرصة في حياتي كانت على المحكّ. رأيت أنَّه لا ينبغي أن أخفيَ أبداً عن هذه المرأة الشجاعة والصادقة أنَّني كنت رجلاً في السجن مدى الحياة، وهارباً من تسوية العقوبات.

لذلك أخبرتها كلَّ شيء. كان كلّ شيء يتحرَّك داخلي، حتّى الفكرة التي كانت تستحوذ عليَّ منذ ثمانية عشر عاماً - انتقامي. قرَّرت التخلّي عنها - كدليل على إخلاصي. لا أستطيع تقديم تنازلٍ أكبر من هذا. وسمعت نفسي أقول لها، كما لو أنَّ الأمر معجزة، أو كما لو أنَّ شخصاً آخر يتحدَّث عنّي: «لإثبات مدى حبّي لكِ يا ريتا، أقدِّم لك أكبر تضحية يمكنني تقديمها. منذ هذه اللحظة، أتخلَّى عن فكرة الانتقام. المدَّعي العامّ، رجال الشرطة،

شاهد الزور، كلّ أولئك الذين جعلوني أعاني – سأدعهم يموتون بين أفراد أُسرهم بسلام، كي أستحقَّ امرأة مثلك تماماً، لن أعدكِ بأن أغفر لهم، لأنَّ هذا مستحيل، لكن سأخرج من ذهني هذه الرغبة في معاقبة الرجال الذين ألقوا بي بلا رحمة في زنزانات السجن. هنا أمامك رجل جديد تماماً؛ الرجل القديم قد مات.

لا بدَّ أنَّ ريتا فكَّرت في هذه المحادثة طوال اليوم، لأنَّه في ذلك المساء، بعد العمل، قالت لي: «وماذا عن والدكَ؟ بما أنَّك تعلم الآن ما قد سبَّبته له، فاكتب إليه في أسرع وقت ممكن».

– منذ عام ١٩٣٣ لم أسمع عنه شيئاً، وهو لم يسمع أخباري. منذ أكتوبر ١٩٣٣ على وجه الدقّة. كنت أرى المحكوم عليهم وهم يتلقّون رسائلهم، تلك الرسائل البائسة، التي تفتح بالبراغي، التي لا يمكنك قول أيّ شيء فيها. اعتدت أن أرى اليأس على وجوه الفقراء الذين ليس لديهم بريد على الإطلاق، ويمكنني أن أفهم خيبة أمل أولئك الذين قرؤوا الرسالة التي اشتاقوا إليها ولم يجدوا فيها ما كانوا يأملون. لقد رأيتهم يمزِّقون الرسائل ويدوسونها؛ وشاهدت الدموع تذرف من أعينهم وتسقط على الحبر ما يشوّه الكتابة. يمكنني أن أتخيَّل فقط ما قد تعنيه تلك الرسائل اللعينة من التسوية العقابيَّة عندما تصل إلى الأُسر في الخارج - فإنَّ ختم غويانا سيجعل ساعي البريد والجيران والأشخاص في مقهى القرية يقولون: «لقد كتب السجين. هناك رسالة، لذا فهو لا يزال في قيد الحياة». يمكنني أن أخمِّن العار الذي يلحق بمن يأخذها من ساعي البريد، والألم عندما يسأل ساعي البريد: «هل ابنك على ما يرام؟». لذلك، كتبت إلى أختي إيفون رسالة واحدة فقط، الرسالة الوحيدة التي كتبتها من السجن، قلت فيها: «لا تتوقَّعي أبداً أن

تسمعي منّي. لن أكتب إليكم بعد الآن. ولا أريد أن أسمع أخباركم، على غرار ذئب ألفريد دي فيني، سأعرف كيف أموت دون عويل».

- كلّ هذا يعود إلى الماضي يا هنري. هل ستكتب إلى والدك؟

- نعم. غداً.

- لا. الآن - في الحال.

كتبتُ رسالة طويلة وأرسلتها إلى فرنسا. لم أخبره سوى الأخبار التي لا يمكنها أن تزعجه أو تؤثّر سلباً فيه. لم أصف أيَّ جزء من معاناتي. أخبرته فقط عن حياتي الحاليَّة. عادت الرسالة: «انتقلت الأسرة دون ترك عنوان».

يا إلهي، من يستطيع أن يقول لي أين ذهب والدي لإخفاء عاره بسببي؟ كان الناس أشراراً إلى درجة أنَّهم ربَّما جعلوا الحياة مستحيلة لديه.

جاء ردُّ فعل ريتا في الحال. «سأذهب إلى فرنسا وأبحث عن والدكَ». حدَّقتُ إليها، واستطردتْ قائلة: «تخلَّ عن وظيفتك الاستكشافيَّة؛ إنَّه أمر خطِر للغاية، في أيِّ حال. في أثناء غيابي، ستدير الفندق».

لم تكن فقط مستعدَّة للانغماس دون تردُّد في مخاطر هذه الرحلة الطويلة بنفسها، بل كانت تثق بي كثيراً - وجعلتني أثق بنفسي كثيراً، أنا المحكوم عليه في السابق - إلى درجة أنَّها ستترك كلَّ شيء بين يدَي. كانت تعلم أنَّها يمكن أن تعتمد عليَّ.

كانت ريتا قد استأجرت الفندق فقط، مع احتمال شرائه. في البداية، كان علينا أن نشتريَ الفندق كي لا نخسره يوماً ما. الآن، تعلَّمت حقّاً ما تعنيه عبارة أن نجاهد من أجل حياة كريمة بوسائل صادقة.

حصلت على إذن شركة ريتشموند بالرحيل، وقد أعطوني ستة آلاف بوليفار، ومدَّخرات ريتا، فأعطينا المالك ٥٠ في المئة من السعر. وبعد ذلك، بدأنا نخوض معركة إيجابيَّة يوماً بعد يوم، وليلة بعد ليلة، لكسب المال وتسديد أقساطنا. عملت أنا وهي بجنون لثماني عشرة ساعة، وأحياناً لتسع عشرة ساعة في اليوم. كان هذا الجهد وهذه الرغبة في الانتصار، على الرَّغم من كلّ شيء، قد وحَّدنا للوصول إلى هدفنا في أقصر وقت ممكن. لم أذكر أنَّنا تحدَّثنا يوماً ما عن تعبنا. كنت أشتري الحاجات وأساعد في الطهي واستقبال الضيوف. كانت الابتسامة تزيّن فم كلٍّ منّا على الدوام. في نهاية كلّ يوم كنّا نشعر بتعبٍ شديد، لكنَّنا في صباح اليوم التالي كنَّا نستيقظ بهمَّة ونشاط، ونبدأ العمل من جديد.

لكسب مزيد من المال، ملأتُ عربةً ذات عجلتين بالسترات والسراويل لبيعها في سوق بلازا بارالت. كانت هذه الملابس قد رفضتها الشركات المصنِّعة، ما يعني أنَّه يمكنني شراؤها بسعر رخيص جدّاً من المصنع. تحت أشعَّة الشمس الحارقة، تراجعتُ عن لعبتي، صاخباً مثل حمار. عمدت إلى تعديل سترة لإظهار مدى جمالها، وعملت على تقسيمها من أعلى إلى أسفل. من الجيّد جدّاً أن أوضّح أنّني كنت أقوى رجل في ماراكايبو، لكنَّني بعتُ القليل منها في ذلك الصباح. كنت في السوق من الساعة الثامنة حتّى الثانية عشرة. في الثانية عشرة والنصف، أسرعت إلى الفندق للمساعدة في الانتظار، في المطعم.

كان فندق بارالت بلازا هو القلب التجاريّ لماراكايبو، أحد أكثر الأماكن حيويَّة في المدينة. في الطرف البعيد كانت الكنيسة. في الجهة الأخرى، كان هناك أحد أكثر الأسواق روعة في العالم، سوق حيث ستجد

أيَّ شيء يمكن أن يخطر في بالك من اللحوم والمأكولات البحريَّة والمحار، من دون أن ننسى اللون الأخضر الكبير لإغوانة - طبق جميل - مع مخالبها المقيَّدة كي لا تتمكَّن من الهرب؛ وكان هناك بيض التمساح، والسلحفاة، والسلاحف البحريَّة أيضاً وكاتشيكامو وأنواع متعدّدة من السلاحف البريَّة، وجميع أنواع الفاكهة، وقلوب النخيل الطازجة. امتلأ سوق هذه المدينة الصاخبة بالناس تحت أشعَّة الشمس الحارقة - من كلّ الألوان والأصناف، عيون من كلِّ الأشكال.

أحببتُ أنا وريتا مدينة ماراكايبو، على الرَّغم من أنَّها كانت واحدة من أكثر الأماكن سخونة في فنزويلا. كان سكَّان هذه المدينة الاستعماريَّة محبوبين وطيبين ويعيشون بسعادة. كانت لديهم طريقة موسيقيَّة في الكلام. لقد كانوا أناساً طيبين وكرماء مع قليل من الدّم الإسبانيّ، وكلّ صفات الهنود الحسنة. كان الرجال مخلوقات ناريَّة. كان لديهم شعور قويّ بالصداقة، ويمكن أن يكونوا إخوة حقيقيين لمن يحبّونهم. لم يهتمّ ماراكوتشو - أحد سكّان ماراكايبو - كثيراً بأيِّ شيء قادم من كاراكاس. لقد اشتكى من أنَّهم زوَّدوا فنزويلا بأكملها بالذهب عن طريق نفطهم، وأنَّ سكَّان العاصمة يتغاضون عنه دائماً: شعر الماراكوتشو، وهو رجل ثريّ، أنَّه يُعامل على نحو سيّئ من قبل الأشخاص الذين أثراهم. كانت النساء جميلات وصغيرات إلى حدٍّ ما: بنات مخلصات وأمّهات صالحات. كانت المدينة بأكملها تنبض بالحياة وضجيجها، وانتشرت الألوان الزاهية في كلِّ مكان - الملابس والمنازل والفاكهة وكلّ شيء. في كلّ مكان أيضاً، كانت ثمَّة حركة وأعمال ونشاط. كان فندق بارالت بلازا ممتلئاً بتجَّار الشوارع والمهرّبين الصغار الذين لم يكلّفوا أنفسهم عناء إخفاء زجاجات الخمور أو

المشروبات الروحيّة أو السجائر التي كانوا يبيعونها. كان كلّ شيء تقريباً يدور بين الأصدقاء: كان الشرطيّ يقف على بعد أمتار قليلة فقط، لكنَّه كان يدير ظهره لفترة كافية لتنتقل زجاجات الويسكي أو الكونياك الفرنسيّة أو السجائر الأمريكيّة من سلّة إلى أخرى؛ حيث كانت هذه البضائع المتنوّعة تنتشر جواً وبراً وبحراً بين أيادي المستهلكين الذين يدفعون مبالغ باهظة. في ذلك الوقت، كان الدولار يعادل ثلاثة بوليفارات وثلاثة وخمسين.

لم تكن إدارة الفندق جيّدة. لمّا جاءت ريتا أوّل مرّة، اتّخذت قراراً معارضاً تماماً لعادات البلاد. اعتاد العملاء الفنزويليّون تناول فطائر كبيرة من الذرة (أريبا) والبيض المقليّ مع لحم الخنزير المقدَّد والجبن الأبيض. وبما أنَّ الضيوف كانوا يدفعون ثمن الغرفة والطعام بالكامل، فقد كانت تُكتب قائمة طعام اليوم على لائحة. في اليوم الأوّل، عمدت ريتا إلى مسح القائمة بأكملها، وكتبت بخطّ يدها: «الإفطار: قهوة سوداء أو قهوة بالحليب وخبز وزُبد». حسناً، ما رأيك في ذلك؟ بحلول نهاية الأسبوع، كان نصفهم قد غيَّروا أماكن إقامتهم.

ثمَّ حضرت أنا. أجرت ريتا بعض التعديلات، لكنَّ وصولي أحدث ثورة صريحة.

المرسوم الأول: مضاعفة الأسعار.

المرسوم الثاني: الطبخ الفرنسيّ.

المرسوم الثالث: تكييف المكان بالكامل.

دهش الناس عندما وجدوا مكيّفات في جميع الغرف وفي المطعم، في منزلٍ استعماريّ تحوَّل إلى فندق. تغيَّرت نوعيَّة الزبائن. في البداية، كان لدينا

المسافرون التجاريّون، ثمَّ استقرَّ فيه الباسك: بائع ساعات أوميغا «السويسريّة» المصنَّعة بالكامل في بيرو، وكان يدير أعماله من غرفته، ويبيعها فقط لتجّار التجزئة الذين ينتقلون من باب إلى آخر، وكلّ ذلك عبر حقول النفط. على الرَّغم من أنَّ الفندق كان آمناً، إلّا أنّه كان متشكّكاً إلى درجة أنّه وضع ثلاثة أقفال كبيرة على بابه على نفقته الخاصّة. وعلى الرَّغم من الأقفال، فقد لاحظ اختفاء ساعة من حين إلى آخر. كان يعتقد أنَّ غرفته كانت مسكونة حتّى اليوم الذي وجد فيه، في الواقع، أنَّ هناك لصّاً، كانت بوكليت، كلبتنا. كانت الماكرة تتسلَّل من دون صوت، وتمزّق حزاماً جلديّاً لساعة من أجل المتعة الخالصة، سواء أكان متّصلاً بساعة أم لا. لذا، ها هو ذا يصرخ ويصيح مدّعياً أنّني درّبت بوكليت على سرقة أغراضه. ضحكتُ من كلّ قلبي، وبعد كأسين أو ثلاث من الرّوم تمكّنتُ من إقناعه بأنّه ليس لديَّ ما أفعله بساعاته الرديئة، وأنّني سأخجل حقاً من بيع مثل هذه الأشياء المزيّفة. ذهب إلى غرفته بعد ذلك وجلس فيها مرتاح البال.

كان بين ضيوفنا أناس من كلِّ الأصناف. كانت ماراكايبو ممتلئة، وكان من المستحيل تقريباً العثور على غرفة. كان قطيع من النابوليتانيين ينتقل من منزل إلى آخر، ويخدع المواطنين ببيع أطوال من القماش المطويّ بحيث يبدو أنّ هناك ما يكفي لأربع بدلات، أمّا في الواقع فيمكنك صنع اثنتين فقط. كانوا يرتدون ملابس البحّارة ويحملون حقائب كبيرة على أكتافهم، وقد مشّطوا المدينة والريف فوق كلّ حقول النفط. لا أعرف كيف اكتشفت هذه المخلوقات الذكيّة فندقنا. نظراً لأنَّ جميع الغرف كانت ممتلئة، لم يكن هناك سوى حلّ واحد - أن يناموا في الفناء. كلّ مساء كانوا يعودون في نحو السّاعة السابعة، فيستحمّون ويتناولون طعام العشاء في الفندق، لذلك

تعلّمنا أن نصنع السباغيتي حسب طريقة نابوليتين. لقد أنفقوا أموالهم بكرم، وكانوا عملاء جيّدين.

في الليل، أحضرنا فُرشاً معدنيّة، وساعدت الخادمتان الصغيرتان ريتا في وضعها في الفناء. لمّا كنت أجبر النابوليتانيين على الدّفع مقدّماً، كانت هناك الحجّة عينها كلّ ليلة - سعر غرفة للنوم في العراء كان باهظاً للغاية. وكلّ ليلة أخبرهم أنّه على العكس من ذلك تماماً، كان منطقياً وعادلاً؛ من أجل إحضار الأسرّة، ووضع الملاءات والبطانيات والوسائد ثمّ أخذها جميعاً مرّة أخرى في الصباح، كان هذا يستغرق قدراً هائلاً من العمل - يتجاوز السّعر.

- ولا تستمرّ في المناقشة كثيراً، أو سأدفع إيجارك. لأنّني هنا، أقتل نفسي حرفيّاً وأغيّر الأشياء من الداخل والخارج - كلّ ما أجملك تدفعه هو تكلفة الانتقال فحسب.

كانوا يدفعون الأجرة ونضحك جميعاً. إنّها، على الرّغم من أنّهم كانوا يكسبون كثيراً من المال، إلّا أنّه في الليلة التالية بدأ كلّ شيء من جديد. لقد ناقشوا أمرَ الأجرة أكثر عندما عانوا ذات ليلة في إثر هطول الأمطار الغزيرة، واضطرّوا إلى الركض بكلّ ملابسهم ومراتبهم، وانتقلوا إلى النوم في المطعم.

أتت امرأة كانت تدير بيت دعارة لرؤيتي. كان لديها منزل كبير جدّاً على بعد خمسة كيلومترات من ماراكايبو، في مكان يسمّى لا كابيزا دي تورو: كان بيت الدعارة يدعى تيبيريتابارا. كانت هذه تدعى إليونور، وكانت كتلة هائلة من اللحم: ذكيّة؛ ذات عينين جميلتين جدّاً. كانت تدير أعمال أكثر من مئة وعشرين امرأة في منزلها - فقط في الليل.

قالت لي: «هناك بعض الفتيات الفرنسيّات اللواتي يرغبن في الخروج. لا يرغبنَ في قضاء أربع وعشرين ساعة في اليوم في بيت الدعارة. يبدأ العمل في تمام الساعة التاسعة مساءً حتّى الرابعة من صباح اليوم التالي، لا بأس. لكنهنَّ يرغبنَ في تناول الطعام بشكل جيّد، والنوم بهدوء في غرف مريحة بعيداً عن الضوضاء».

لقد عقدت صفقة مع إليونور: يمكن للفتيات الفرنسيّات والإيطاليّات الحضور إلى فندقنا. يمكننا رفع السعر بمقدار عشرة بوليفارات في اليوم دون قلق: سيكنَّ سعيدات جدّاً لفكرة كونهنَّ قادرات على البقاء في فيراكروز مع الفرنسيين. كان من المفترض أن نأخذ ستّ فتيات، لكن بعد شهر، لا أعرف تماماً كيف، كان لدينا ضعف هذا العدد.

وضعت ريتا قواعد صارمة. كنَّ جميعاً صغيرات وجميلات، وقد منعتهنَّ ريتا تماماً من استقبال أيِّ ذكر في الفندق، حتّى في الفناء أو في غرفة الطعام. إنّما، لم تقع أيّ مشكلة على الإطلاق. لقد كانت أولئك الفتيات في الفندق على غرار السيّدات الحقيقيّات. في الحياة اليوميّة كنَّ نساء لائقات ومحترمات يعرفنَ كيف يتصرَّفنَ. في المساء، كانت سيّارات الأجرة تأتي لتقلّهنَّ، عندما يتبدَّلنَ، فيرتدينَ ملابس رائعة ويتبرَّجنَ. ومن دون إصدار أيِّ ضجيج، بتكتّم، يتوجَّهنَ إلى المصنع «كما يطلقون عليه». بين الحين والآخر يأتي القوّاد من باريس أو كاراكاس، ما يلفت الانتباه إلى نفسه قدر الإمكان. كانت فتاته تراه في الفندق بالطبع. ما إن تسحب أمواله، وتسعده الفتاة، يذهب مرّة أخرى بهدوء كما جاء.

غالباً ما كانت هناك أشياء صغيرة مفيدة للضحك. أخذني أحد القوّادين الزائرين جانباً ذات يوم وطلب تغيير غرفته. وجدتْ زوجته

بالفعل فتاة أخرى كانت تستعدّ للتبديل. السبب: كان جاره إيطاليّاً أصيلاً، ولديه كثير من المال، وفي كلّ ليلة، حينما تعود فتاته، كان هذا الإيطاليّ يمارس الحبّ معها مرّة واحدة في الأقلّ وأحياناً مرّتين. لم يكن قوّادي هذا قد بلغ الأربعين من عمره، ومن الواضح أنَّ الإيطاليَّ قد بلغ الخامسة والخمسين من العمر.

- يا رجل، لا يمكنني مواكبة ريتال، إذا كنت تتبعني. لا يمكن الاقتراب من هذا النوع من الأداء. وبما أنّنا جيران، نسمع الكثير - الآهات والصراخ والأعمال كلّها. وبما أنّني بعناء أستطيع أن أفعل ذلك مع كتكوت مرَّة واحدة في الأسبوع، أطلب إليك أن تتخيَّل كيف أبدو. لم تعد تؤمن بحجَّة الصداع. وبالطبع هي تجري مقارنات. لذلك إن كنت لا ترى أيّ إزعاج، فافعل هذا من أجلي.

أبقيتُ ضحكاتي في داخلي، وتأثرتُ بهذه الحجَّة التي لا يمكن الإجابة عنها، فغيَّرت له غرفته.

في إحدى الليالي، في تمام السّاعة الثانية صباحاً، اتَّصلت بي إليونور. وجد الشرطيّ المناوب رجلاً فرنسيّاً لا يستطيع التحدُّث باللغة الإسبانيّة جالساً فوق الشجرة مقابل بيت الدعارة. سأله الشرطيّ كيف أصبح في هذا الوضع المثير للفضول - هل هو هنا للسرقة أو ماذا؟ - فأجاب قائلاً: «إنريكي من فيرا كروز». قفزت إلى سيَّارتي وانطلقت نحو تيبريتابارا.

تعرَّفت إليه على الفور. كان من ليون، وكان قد ذهب بالفعل إلى الفندق. كان جالساً هناك، والسيّدة أيضاً؛ يقف أمامهما اثنان من رجال

الشرطة متجهّمي الوجه. لقد ترجمتُ ما قاله لي بإيجاز شديد، قائلاً: «لا، هذا الرجل النبيل لم يكن فوق الشجرة لأجل أيِّ عملٍ سيّئ، على الإطلاق. كلّ ما في الأمر أنّه أحبَّ إحدى النساء، لكنَّه لم يعترف لها. لقد صعد الشجرة إعجاباً بالمرأة في الخفاء، لأنَّه لن يكون لها أيّ علاقة به. لا شيء خطير، كما ترى. في أيِّ حال، أنا أعرفه، وهو مواطن صالح».

احتسينا زجاجة شمبانيا. دفع، وقلت له أن يترك الفكّة على الطاولة - شخص ما سوف يتسلّمها بالتأكيد. ثمَّ أعدته بسيّارتي. «إنّما، ماذا كنت تفعل بحقّ الجحيم، وأنت جالس على تلك الشجرة؟ هل أصبتَ بالجنون أو أنّك تغار على فتاتك؟»

- الأمر ليس كذلك. المشكلة هي أنَّ مردود الفتاة قد تراجع. لقد انخفض من دون أيّ سبب لذلك. إنّها واحدة من الأجمل هناك، وهي تكسب أكثر من الأخريات. لذلك قرّرت أنّني سأحضر وأراقب عدد المرّات التي تذهب فيها إلى العمل، وذلك من دون علمها. بهذه الطريقة، بدا لي أنّني سأكتشف قريباً ما إذا كانت تتمسّك بي وتحتفظ بأموالي.

على الرّغم من أنّني كنت أشعر بالضيق بسبب إخراجي من السرير في منتصف الليل بسبب قوّاد، إلّا أنّني كنت أضحك من تفسيره. «القوّاد الجاثم على الأشجار»، كما أسميه ابتداءً من اليوم، غادر إلى كاراكاس في اليوم التالي. لم يعد هناك ما يسوّغ مراقبته. أحدثت هذه الفضيحة ضجّة كبيرة في بيت الدعارة؛ على غرار أيّ شخص آخر، كانت امرأته تعرف كلّ شيء عنها، لكنّها كانت الوحيدة التي عرفت لماذا اختار رجلها الخياليّ تلك الشجرة فقط - لقد كان تماماً مقابل غرفتها.

لقد عملنا بجدّ، لكنَّ الفندق كان مكاناً مبهجاً، وقد استمتعنا طوال الوقت. كانت هناك بعض الأمسيات، بعد أن تذهب الفتيات إلى مصنعهنَّ، نجعل الموتى يتكلّمون. جلسنا جميعاً إلى طاولة مستديرة وأيدينا ممدودة على السطح، واستدعى كلّ واحد منّا الروح التي أراد أن يسألها. كانت ثمَّة امرأة جميلة المظهر تبلغ من العمر نحو ثلاثين عاماً، رسَّامة، بدأت هذه الجلسات - كانت مجريَّة، كما أعتقد. كانت تستدعي زوجها كلَّ مساء، وبالطبع، بوساطة قدمي تحت الطاولة، ساعدته في الردّ؛ وإلَّا لكنّا لا نزال هناك حتّى الآن.

قالت إنَّ زوجها كان يعذّبها. لماذا؟ لا تعرف السبب. أخيراً، ذات ليلة دخلت الروح عن طريق المائدة، وبعد ذلك لم يتركها هادئة. اتَّهمها بأنَّ لها عُقباً مستديراً. لقد صرخنا جميعاً أنَّ هذا أمر خطير للغاية، وأنَّ روح الغيرة هذه قد تنتقم على نحو رهيب؛ أكثر من ذلك، فإنَّها كانت على استعداد تامّ للاعتراف بأنّ عقبيها كانا في الواقع مستديرين تماماً. ما العمل حيال ذلك؟ ناقشنا الأمر بجديَّة شديدة، وقلنا لها إنَّ هنالك شيئاً واحداً فقط يجب أن تفعله: حين اكتمال القمر، كان عليها أن تزوِّد نفسها بمنجل جديد تماماً، وتقف عارية تماماً في منتصف الفناء وشعرها متدلٍّ ومن دون تبرُّج، كان عليها الاغتسال تماماً بالصابون الأصفر، لكن من دون أيِّ أثر للرائحة، ولا الجواهر. يجب أن تكون نظيفة تماماً من الرأس إلى أخمص القدم. لا شيء سوى المنجل في يدها. حينها يصبح القمر فوق الفناء مباشرة، ملقياً بظلاله تحتها مباشرة فقط، كان عليها أن تقطع الهواء بالضبط إحدى وعشرين مرَّة.

لقد نجح الأمر على نحو مثاليّ، وفي الليلة التي أعقبت طرد الأرواح الشريرة (ضحكنا كثيراً، مختبئين خلف المصاريع) قالت ربتا إنَّ النكتة استمرَّت طويلاً؛ فأجابت الطاولة أنَّه من الآن فصاعداً، سيتركها زوجها الراحل في سلام، ويمكن أن يكون عقباها مستديرين كما تحبّ، شريطة ألَّا تقطع الهواء أبداً بالسيف حين اكتمال القمر، لأنَّ ذلك يؤلمه كثيراً.

كان لدينا كلب بودل آخر يسمّى مينو، وهو كلب كبير جدّاً، قدَّمه لنا ضيف فرنسيّ كان يمرُّ عبر ماراكايبو. كان شعر مينو دائماً مقصوصاً وممشّطاً تماماً، والشّعر القاسي الكثيف في أعلى رأسه كان يُقصُّ في شكل طربوش طويل مثير للإعجاب.كان لديه فخذان منتفختان، وساقان حلقيّتان، وشارب شابلن ولحية صغيرة مدبَّبة. دهش الفنزويليّون لهذا المشهد، وغالباً ما كان أحدهم يتغلَّب على خجله ويسأل عن نوع الحيوان الغريب.

كاد مينو أن يتسبَّب في صدام خطير مع الكنيسة. في شارع فنزويلا، حيث توجد فيلا كروز؛ الذي يفضي إلى كنيسة، غالباً ما تكون هناك مواكب. كان مينو يحبّ كثيراً الجلوس عند باب الفندق لمشاهدة الناس يتجوَّلون. لم ينبح قطّ مهما حدث في الشارع. إنَّما، على الرَّغم من أنَّه لم ينبح، إلَّا أنَّه كان يثير الإحساس بذلك. وفي يوم من الأيّام، أتى الكاهن وفتيان الكورال، الذين كانوا يشكّلون موكباً بحدِّ ذاتهم، ووقفوا على بعد خمسين متراً، في حين وقف مؤمنو ماراكايبو أمام الفندق، وهم يحدِّقون إلى هذا الحيوان الغريب. لقد نسوا متابعة الموكب. دارت الأسئلة في المجموعة، وتنازعوا لرؤية مينو عن قرب. رأى بعضهم أنَّ هذا الحيوان الغريب قد

يكون روح الخاطئ التائب، لأنه كان جالساً بهدوء شديد، يشاهد كاهناً وفريقه وهم يرتدون الزيَّ الأحمر ويغنّون بحرارة. أخيراً، أدرك الكاهن أنَّ الوضع كان هادئاً جدّاً في الخلف، فاستدار ورأى أنّه ما من أحد هناك. عاد بخطوة إلى الوراء، وقد احمرَّ وجهه غضباً وصخباً من أبناء رعيّته لعدم احترامهم للاحتفال. فزعوا، عادوا إلى الصفّ وانطلقوا. لكنّني لاحظت أنَّ بعض الأشخاص الذين تأثّروا بشدّة بالمشهد ساروا إلى الوراء كي لا يفقدوا دقيقة من النظر إلى مينو. بعد ذلك، بدأنا قراءة صحيفة ماراكايبو وصحيفة بانوراما، لمعرفة التاريخ والوقت اللذين يجب أن يمرَّ فيهما موكب على طول شارعنا، حتّى نتمكّن من ربطه في الفناء.

يبدو أنَّ هذا كان موسم الحوادث مع رجال الدّين. غادرت فتاتان فرنسيّتان بيت دعارة إليونور والفندق؛ لقد اتّخذتا قراراً بالاستقلال وإنشاء «منزل» صغير وسط المدينة، حيث ستعملان بمفردهما. لقد كان مخطّطاً جيّداً تماماً، لأنّه بهذه الطريقة لن يضطرَّ العملاء إلى استقلال سيّاراتهم والقيادة لمسافة عشرة كيلومترات إلى هناك والعودة لرؤيتهما. للتعريف عن نفسيهما، كانت لديهما بطاقات مطبوعة تقول «جولي ونانا: نؤدّي عملنا بدقّة وإتقان.» والعنوان. لقد وزّعتا هذه البطاقات في البلدة، لكن بدلاً من إعطائها إلى الرجال مباشرة، كانتا تضعانها في كثير من الأحيان تحت ماسحات الزجاج الأماميّ للسيّارات المتوقّفة.

لقد كان حظّهما سيّئاً. لقد وضعتا بطاقتين، واحدة تحت كلّ ماسحة، على السيّارة التي يملكها أسقف ماراكايبو. أدّى هذا إلى إحداث فضيحة جهنميّة. لإظهار الطبيعة الدنيئة لعملهما، نشرت صحيفة الدين صورة

للبطاقة. إلّا أنَّ الأسقف ورجال الدّين كانوا متسامحين: لم يتمّ إغلاق بيت الدعارة الصغير. لقد طلبوا فقط إلى السيّدتين أن تكونا أكثر تحفُّظاً. وفي أيّ حال من الأحوال، لم يكن ثمّة جدوى من الاستمرار في توزيع البطاقات؛ بعد الدعاية المجانيّة في صحيفة الدين، سارع عدد كبير جدّاً من العملاء إلى العنوان المحدَّد. في الواقع، كان الحشد كبيراً إلى درجة أنّه لتقديم عذر معقول لهذه المجموعة من الرجال عند بابها، طلبت الفتاتان إلى بائع هوت دوغ أن يقود عربته إلى القرب من المنزل تماماً، كي يبدو كما لو كان صفّ الرجال يقف هناك لشراء الهوت دوغ.

كان هذا هو الجانب الخلّاب للحياة في الفندق. لكنّنا لم نكن نعيش على كوكب بعيد في الفضاء؛ كنّا نعيش في فنزويلا. وانخرطنا في التقلّبات الاقتصاديّة والسياسيّة للبلاد. في عام ١٩٤٨، لم تكن السياسة سلميّة إلى هذا الحدّ. كان غاليغوس وبيتانكورت يحكمان البلاد منذ عام ١٩٤٥، في أوّل محاولة لنظام ديمقراطيّ في تاريخ فنزويلا.

في ١٣ تشرين الثاني من عام ١٩٤٨، إلى حدٍّ ما بعد ثلاثة أشهر من عملي مع ريتا لأجل شراء الفندق، جاءت الطلقة الأولى الموجَّهة ضدّ هذا النظام، المتمثلة بانتفاضة الرائد توماس ميندوزا الجريء بمفرده. لكنّ محاولته هذه قد باءت بالفشل.

في الرابع والعشرين من الشهر نفسه، استولى الجنود على السلطة في انقلاب مثبت بدقّة آليّة عالية: لم يكن هناك ضحايا تقريباً. لقد تمّ إجبار غاليغوس، رئيس الجمهوريّة والكاتب المتميّز، على الاستقالة. وقد لجأ بيتانكورت، الأسد السياسيّ الحقيقيّ، إلى السفارة الكولوميّة.

عشنا في ماراكايبو ساعات من القلق الشديد. في لحظةٍ ما، سمعنا دفعة واحدة صوتاً عبر المذياع، ينمُّ عن عاطفة قويّة، يصرخ ويقول: «أيّها العمّال، اخرجوا إلى الشوارع! يريدون أن يسرقوا حريّتكم منكم، وأن يغلقوا النقابة ويفرضوا دكتاتوريَّة عسكريَّة بالقوة! فلينزل الشعب ويحتلّ الساحات و...». سمعنا بعد ذلك صوت نقرة! ثمَّ خطف الميكروفون من يدَي المقاتل الشجاع. عمَّ الهدوء. ثمَّ خرج صوت آخر أجشّ، يقول بهدوء: «أيّها المواطنون! لقد أعاد الجيش السلطة إلى الرجال الذين يستحقّون ذلك بعد أن أقالوا الجنرال مدينا، لأنَّهم لم يستخدموا سلطتهم على النحو الصحيح. لا تخافوا: نحن نضمن حياة وممتلكات كلّ فرد من الأفراد دون استثناء. يعيش الجيش! تحيا الثورة!».

كان هذا كلّ ما رأيته من ثورة لم تتسبَّب في تدفُّق الدّم على الإطلاق. ولمَّا استيقظنا في اليوم التالي، كانت هناك عضويَّة في المجلس العسكريّ في الصحف: ثلاثة كولونيلات - ديلغادو شلبود رئيساً، بيريز خيمينيز ولوفيرا بايز.

في البداية، كنّا خائفين من أنَّ هذا النظام الجديد قد يعني قمع الحقوق التي منحها النظام السابق. إنَّما، لا شيء من هذا القبيل. استمرَّت الحياة على حالها، وكدنا لم نلحظ تغييراً في الحكومة، باستثناء المناصب الرئيسة التي استولى عليها الجنود.

ثمَّ، بعد ذلك بعامين، جاء اغتيال ديلغادو شلبود. عمل قبيح للغاية، له تفسيران متضاربان. النظريَّة الأولى تقول: لقد قصدوا قتل الثلاثة فكان أوّل من قُتل. النظريَّة الثانية تقول: أبعده أحد العقيدين أو كلاهما عن الطريق. لم

تُعرف الحقيقة على الإطلاق. ألقي القبض على القاتل، وأُطلق الرصاص عليه وقُتل في أثناء نقله إلى السجن - طلقة محظوظة حالت دون معرفة الحقيقة. منذ ذلك اليوم، أصبح بيريز خيمينيز الرجل القويّ للنظام، وأصبح رسميّاً ديكتاتوراً في عام ١٩٥٢.

وهكذا استمرَّت حياتنا، وعلى الرّغم من أنّنا لم نخرج مطلقاً من أجل المتعة أو الترفيه أو حتّى القيادة، إلّا أنَّ هذه الحياة، وشغفنا للعمل، ملأانا فرحة رائعة. لأنَّ ما كنّا نبنيه من خلال جهودنا كان منزلنا، المنزل الذي سنعيش فيه بسعادة، بعد أن كسبناه بأنفسنا، متّحدين بروحٍ واحدة، لأنّ شخصين يمكن أن يكونا واحداً فقط عندما يحبّ أحدهما الآخر كما فعلنا.

وإلى هذا المنزل ستأتي كلوتيلد، ابنة رينا، التي ستصبح ابنتي. وسيأتي والدي إلى هذا المنزل، وسيصبح بمنزلة أب لها أيضاً. وكان أصدقائي بأتون إلى هذا المنزل لالتقاط أنفاسهم للحظة عندما يحتاجون إليها. وفي هذا المنزل المتلئ بالسعادة، سنكون راضين تماماً إلى درجة أنّني لن أفكّر مطلقاً في الانتقام من أولئك الذين تسبّبوا في كثير من المعاناة لي ولشعبي.

أخيراً، جاء اليوم - لقد فزنا. في كانون الأوّل من عام ١٩٥٠، تمَّ وضع وثيقة جيّدة في مكتب المحامي، وأصبحنا أصحاب الفندق إلى الأبد.

الفصل الحادي عشر

والدي

بعد ذلك بوقت قصير، انطلقت ريتا في رحلتها، ممتلئاً قلبها بالأمل. كانت ستكتشف أين اختفى والدي.

– اعتمد عليَّ يا هنري. سأعيد والدك إليك.

كنت أدير الفندق بمفردي. لقد تخلّيتُ عن بيع السراويل والقمصان، على الرَّغم من أنّني أستطيع جمع كثير من المال بهذه الطريقة في بضع ساعات. ذهبت ريتا للبحث عن والدي، لذلك كنت سأعتني بكلّ شيء، ليس فقط كما لو كانت هنا، بل أفضل بمرّتين.

البحث عن والدي: كان والدي مدير مدرسة في قرية أردبش، حيث لم يكن قادراً قبل عشرين عاماً على احتضان ابنه، بسبب القضبان في غرفة الزيارة. والدي، الذي يمكن أن تقول له ريتا: «لقد جئت كابنتك لأخبرك أنّه بجهوده الخاصّة استعاد ابنك حريّته، وأنّه جعل من نفسه رجلاً صالحاً وصادقاً، وبأنّنا بنينا منزلاً جميلاً، ونحن في انتظارك».

استيقظت في تمام السّاعة الخامسة، وذهبت لأتسوّق مع مينو وصبيّ يبلغ من العمر اثني عشر عاماً يدعى كارليتوس، كنت قد استقبلته عندما خرج من السجن. حمل السلال. في غضون ساعة ونصف، اشتريت طوال اليوم – اللحوم والأسماك والخضراوات. كلانا عاد محمّلاً مثل بغل. كانت هناك

امرأتان في المطبخ، واحدة في الرابعة والعشرين والأخرى في الثامنة عشرة من عمريهما. لقد تخلّصت من كلّ شيء جلبناه على الطاولة، فعملتا على فرزه.

بالنظر إليّ، كانت أفضل لحظة في هذه الحياة البسيطة. لقد كانت السّاعة السادسة والنصف صباحاً، عندما تناولت إفطاري في غرفة الطعام مع ابنة الطاهية روزا، وأنا جاثٍ على ركبتي. كانت في الرابعة من عمرها. كانت سوداء اللون، ولن تأكل إلّا إذا تناولت وجبة الفطور معي. كان جسدها الصغير العاري، لا يزال بارداً من الحمّام الذي منحته إيّاها والدتها حين نهضت، وصوت طفلتها الصغيرة النابض، وعيناها اللامعتان اللتان نظرت إليّ بهما بثقة شديدة، ونباح كلبي الغيور المتألّم لإهمالي إيّاه، وببغاء ريتا الذي ينقر الخبز والحليب إلى جوار فنجان القهوة - نعم، كلّ هذا جعل وقت تناول الفطور حقّاً أهمّ لحظة في يومي.

ريتا؟ ما من رسائل وصلت منها. لماذا؟ لقد مرَّ أكثر من شهر على رحيلها. استغرقت الرحلة ستة عشر يوماً، وهذا صحيح. لكن بعد كلّ شيء فهي في فرنسا منذ خمسة عشر يوماً - ألم تجد شيئاً، أم أنّها لا تريد أن تخبرني؟ كلّ ما طلبته هو برقية، برقية قصيرة جداً فقط تقول من خلالها: «والدك بخير ولا يزال يحبّك».

راقبت ساعي البريد. لم أغادر الفندق قطُّ. لم أضطرَّ إلى ذلك من أجل الحفاظ على سير العمل بسلاسة، وقد أسرعت في التسوّق والأعمال الأخرى كي أكون في الفندق طوال الوقت. في فنزويلا، الأشخاص الذين يجلبون البرقيّات ليس لديهم زيّ رسميّ، لكنّهم جميعاً من فئة الشبّان. لذلك، في

اللحظة التي كان يدخل فيها أيّ صبيّ الفناءَ أسرع نحوه، وأنظر إلى يديه لمعرفة ما إذا كان يحمل ورقة. لا شيء. في معظم الأوقات، إلّا في مناسبتين أو ثلاث مناسبات دخل فناء الفندق أحد الشبّان ومعه ورقة خضراء في يده: كنت أهرع إلى الخارج، وأنتزع البرقيّة، ثمَّ أرى بقلب غارق أنَّها تعود إلى شخص يقيم في الفندق.

الانتظار وقلّة الأخبار جعلاني أشعر بالضيق. كنت أرهق نفسي في العمل. كي أظلَّ مشغولاً، ساعدت في المطبخ، وأعددت قوائم غير عاديّة، وكنت أتفحَّص الغرف مرّتين في اليوم، وأتحدَّث إلى الضيوف بغضّ النظر عن أيّ شيء، واستمعت إلى ما سيقولونه. الشيء الوحيد المهمّ هو ملء ساعات وأيّام الانتظار هذه. كان ثمَّة شيء واحد فقط لم أستطع فعله - المشاركة في لعبة البوكر التي كانت تبدأ في نحو الساعة الثانية صباحاً كلَّ ليلة.

كانت هناك عقبة واحدة خطيرة حقّاً. لقد أخطأ كارلبتوس في فهم الأمور. بدلاً من شراء البارافين لتنظيف المطبخ، اشترى البنزين. غطّى الطهاة الأرضيَّة الخرسانيَّة بكميَّة كبيرة منه، وبعد ذلك، لم يشكُّوا قطّ في شيء، أشعلوا الموقد. اشتعلت النيران في المطبخ بأكمله، وأحرقت الأختان من القدم إلى البطن. بعناء كان لديَّ الوقت لألفَّ مفرش طاولة حول فتاة روزا السوداء الصغيرة وأنقذها - ولم يبقَ سوى ثانية. لم تتأذَّ تقريباً، لكنَّ الاثنين الآخرين أصيبا بحروق شديدة. كنت أعتني بهما في غرفتهما في الفندق، وعيّنتُ طبَّاخاً بنميّاً.

استمرَّت الحياة في الفندق كالمعتاد، لكنَّني بدأت أشعر بقلق شديد بشأن صمت ريتا وعدم وجودها هناك.

كان قد مرَّ سبعة وخمسون يوماً عندما وجدت نفسي في انتظارها في المطار. لماذا فقط تلك البرقيَّة البسيطة - «أصل يوم الثلاثاء في تمام الساعة الثالثة والنصف على متن الطائرة رقم ٧٠٥. قبلاتي لك، ريتا». لماذا لم تقل لي أكثر من ذلك؟ ألم تجد أحداً؟ لم أستطع تحديد ما أفكِّر فيه بعد الآن، ولم أرغب في إجراء المزيد من التخمينات.

وصلت ريتا.

لقد كانت الخامسة التي تنزل على سلَّم الطائرة. رأتني على الفور، ولوَّح أحدنا للآخر في اللحظة نفسها. جاءت نحوي كالعادة. على بعد أربعين متراً، استطعت أن أرى ملامح وجهها: لم تكن تضحك، لقد كانت تبتسم فقط، لا، لم تلوّح كعلامة فرح وانتصار، لكن على نحو طبيعيٍّ لتظهر أنَّها رأتني.

لمَّا أصبحت على بعد عشرة أمتار منّي، عرفت أنَّها لم تنجح في مهمَّتها.

- هل عثرتِ على والدي؟

فاجأتها بالسؤال، بعد ما لا يزيد عن قبلة واحدة، بعد شهرين من الفراق. لم أستطع الانتظار أكثر من ذلك.

- نعم، لقد وجدته. كان يرقد في مقبرة قرية صغيرة في أرديش.

أرتني صورة قبر إسمنتيّ جيّد الصنع وعليه «ج. شاريير». لقد توفّي قبل أربعة أشهر من وصولها. لقد كانت صورة هذا القبر هي كلّ ما جلبته ريتا إليَّ.

قلبي، الذي رأى ريتا تنفجر ممتلئة بالأمل، كاد يتوقَّف عند هذه الأخبار المروّعة. شعرتُ بانهيار كلّ تلك الأوهام التي كانت لديَّ

كرجل لا يزال يرى نفسه صبيّاً صغيراً أمام والده. يا الله، لم تضرب كلّ شبابي فحسب، بل رفضت أيضاً السماح لي باحتضان والدي وسماع صوته، الذي كان سيقول، أنا متأكّد من ذلك، «تعالَ إلى حضني، يا صغيري ريري. لم يرحمك القدر على الإطلاق لكنّي ما زلت أحبّك؛ أنا فخور بأنّك امتلكت القوة لتصبح ما أنت عليه اليوم». أخبرتني ريتا مراراً وتكراراً بالقليل الذي تمكَّنت من اكتشافه عن حياة والدي بعد أن صدر الحكم عليَّ. لم أتفوَّه ببنت شفة.لم أستطع الكلام. شعرتُ أنَّ شيئاً ما داخلي كان مربوطاً بعقدة غاضبة. وبعد ذلك، في الحال، كما لو أنَّ السدَّ قد انفتح، عادت فكرة الانتقام إليَّ مرَّة أخرى. «أيّها الخنازير، سأطلق ذلك الجذع من الديناميت على رصيف دي أورفير ٣٦، ليس فقط لقتل قليل منكم، لكن للحصول على أكبر عدد ممكن - مئة، مئتان، ثلاثمئة، ألف! وأنت، يا غولدشتاين، أيّها الشاهد الزور، صدّقني، ستنال حسابك. أمّا أنت يا محامي الادّعاء، الذي كنت متعطّشاً لسماع الحكم عليَّ، فلن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإيجاد طريقة لالتقاط لسانك وتمزيقه، لإحداث أكبر قدر ممكن من الألم لك».

- ريتا، يجب أن نفترق. حاولي أن تفهميني: منعوني من احتضان والدي وطلب المغفرة منه. لا بدَّ لي من الانتقام. لا يمكنهم الإفلات من هذا. أعرف أين أجد المال للرحلة وتنفيذ خطّتي. كلّ ما أطلبه هو أن تسمحي لي بأخذ خمسة آلاف بوليفار من مدَّخراتنا لتغطية نفقاتي الأولى.

ساد صمت لا نهاية له. لم أعد أرى ريتا. اختفى وجهها خلف الرؤية التي تتكشَّف للخطَّة التي كنت أعمل عليها كثيراً.

ما الذي أحتاجه لوضع هذا المخطّط في حيّز التنفيذ؟ في الواقع أقلّ من مئتي ألف بوليفار. لقد طلبت الكثير من قبل. سيكون لديَّ الكثير لأوفّره بهذا المبلغ الذي يبلغ ستين ألف دولار. لقد كان هناك مكانان قد تركتهما بهدوء احتراماً لهذا البلد. أولاً، كالاو مع كومة الذهب التي يحرسها المنافسون السابقون. ثمَّ في وسط كاراكاس، أمين صندوق شركة كبيرة. كان سهل المنال: كان يحمل مبالغ طائلة من دون مرافقة. كان مدخل المبنى ممتازاً. وكذلك كان ممرُّ مدخل المبنى وممرُّ الطابق الرابع: كلاهما مُضاء على نحو سيّئ. يمكنني العمل بمفردي، من دون سلاح، باستخدام الكلوروفورم. الشيء المزعج هو أنّه في حال نقل مبالغ كبيرة من المال، يقوم بالمهمّة ثلاثة موظَّفين. إنَّ بقاءهم بمفردهم ليس مئة في المئة. الأسهل بالطبع هو كالاو. هناك، يمكنني الحصول على ما أحتاج إليه، على ثلاثين كيلوغراماً من الذهب، لا أكثر، وأدفنها. العمليّة ليست معقّدة: أنام مع ماريا، وحينما تغطُّ في نومٍ عميق أضع لها الكلوروفورم كي لا تستيقظ حين أذهب. يمكنني الخروج، وأنفّذ الحيلة وأعود وأستلقي إلى جانبها، من دون أن يراني أحد. سيكون اقتراب الحارس سهلاً، مطلياً بالأسود، في ليلة شديدة السواد.

أمّا بالنظر إلى المهرب، فيجب أن يكون عبر غويانا البريطانيّة. كنت سأصل إلى جورج تاون مع قليل من الذهب المذاب في قطع ذهبيّة – سهل بما يكفي باستخدام موقد اللحام. سأكون على يقين من العثور على مشترٍ للقطعة. سنقوم أنا والصقر بتنفيذ الصفقة على أساس نقاسم المال فيما بيننا؛ يحتفظ بنصفه ويعطيني فقط عندما أوصل البضائع إلى الجانب

البريطانيّ من كاروني، حيث سأخفي الأشياء. بهذه الطريقة، ستعمّ الثقة بين الجميع.

سيجري نقل المال إلى بوينس آيرس من خلال بنك؛ حمل مبلغ معيّن من الأوراق النقديَّة؛ استقلال طائرة من ترينيداد إلى ريو دي جانيرو. في ريو، سيتمّ تغيير جوازات السفر والوصول إلى الأرجنتين.

ما من مشكلة هناك. كان لديَّ أصدقاء في ريو؛ ويجب أن يكون من السهل العثور على النازيين السابقين بأوراقهم الماليَّة التي ملأت الشوارع. ثمّ أغادر إلى البرتغال من بوينس آيرس مع أربع مجموعات من جوازات السفر وأوراق الهويَّة - جنسيّات مختلفة، لكن جميعها بالاسم عينه لتجنُّب الالتباس.

من لشبونة، أسلك الطريق إلى إسبانيا عن طريق برشلونة؛ أسافر دوماً عن طريق البرّ. أدخل فرنسا مستخدماً جواز سفر باراغواي. أتحدَّث الآن اللغة الإسبانيَّة بطلاقة، إلى درجة أنَّ رجل درك فرنسيّاً فضوليّاً يأخذني إلى أمريكا الجنوبيَّة.

في باريس، نزلت في فندق جورج الخامس. لم أخرج قطُّ في الليل. كنت أتناول طعام العشاء في الفندق، وفي تمام الساعة العاشرة، كنت أحتسي الشاي في جناحي. كنت أفعل الشيء نفسه في أيّام الأسبوع. هذه هي السمة المميّزة لرجل جادّ يعيش حياة منظَّمة تماماً. في الفندق، تُلاحظ مثل هذه الأشياء على الفور.

كان لديَّ شارب، بالطبع، وكانت قصَّة شعري على غرار قصَّة شعر الضابط. كنت لا أكثر في الكلام. فقط أتحدَّث ما هو ضروريّ تماماً،

وأستخدم بعض الكلمات الفرنسيّة والإسبانيّة. كانت كلّ يوم تصلني صحف إسبانيَّة إلى خزنتي في مكتب الاستقبال.

فكَّرت آلاف المرات في السؤال الآتي: بمن عليَّ أن أبدأ حتّى لا يجري الربط بين العمليّات الثلاث وبابيون أبداً.

أوّل من سينال الجزاء سيكون رجال الشرطة، مع الجذع المحشو بالمتفجّرات على رصيف أورفيرير رقم ٣٦. لن يكون هناك سبب للتفكير فيَّ إذا فعلت ذلك بذكاء. في البداية، سألقي نظرة على المبنى وأتحقّق من الوقت المحدَّد الذي أستغرقه لصعود الدرج وصولاً إلى غرفة التقارير ثمَّ العودة إلى المدخل. لم أكن في حاجة إلى أيِّ شخص يعمل على تفجير الفتيل للمفجِّر. سأجري كلَّ التجارب اللازمة في المرآب الفرنسيّ الفنزويليّ.

وصلت إلى المكان على متن شاحنة تحمل اسم: منزل دو تيل- معدَّات مكتبيَّة. كنت مرتدياً لباس سائق توصيل، مع صندوقي الصغير على كتفي، يجب أن أفلت من العقاب بسهولة. إنَّما، لمَّا ذهبت أوَّل مرّة إلى المكان، كان عليَّ أن أجد بعض بطاقات المفتش على الباب لأتمكَّن من الحصول على اسم شخصيَّة مهمَّة من مكتبه في ذلك الطابق. ثمَّ أستطيع أن أقول الاسم لرجال الشرطة المناوبين عند الباب؛ أو في الواقع، يمكنني أن أريهم الفاتورة، كما لو أنَّني لم أتذكَّر لمن يعود هذا الصندوق. وبعد ذلك، كلّ شيء يصبح سهلاً. قد يتطلَّب الأمر حظّاً سيّئاً شيطانياً لأيِّ شخص لربط المتفجّرات - وهو نوع من عمل فوضويّ، بعد كلّ شيء - ببابيون.

وتالياً، فإنَّ المدَّعي العامّ براديل سيظلّ غير متشكّك. للتعامل معه، ولتحضير الجذع، والصمّام، والمتفجّرات وقطع الحديد القديمة، كنت

سآخذ فيلا، باستخدام جواز سفري الباراغواياني إذا لم أتمكّن من الحصول على بطاقة هويّة فرنسيّة. كنت أخشى أنّه قد يكون من الخطر للغاية الاتصال مع العالم الخارجيّ مرّة أخرى. من الأفضل عدم المخاطرة: سأخرج بجواز السفر.

ستكون الفيلا بالقرب من باريس، في مكان ما على طول نهر السين، لأنّه يصبح بإمكاني الوصول إلى هناك عن طريق المياه أو عن طريق البرّ. سأشتري قارباً صغيراً خفيفاً وسريعاً مع حجرة، وسيكون له مرسى إلى جوار الفيلّا مباشرةً، وعلى ضفاف نهر السين، وسط باريس أيضاً. بالنظر إلى الطريق البريّة، كنت أمتلك سيّارة صغيرة ذات قدرة عالية. فقط لمّا وصلت إلى هناك، وعرفت أين يعيش براديل وأين يعمل وأين يقضي عطلات نهاية الأسبوع، وما إذا كان يستقلّ المترو أو الحافلة أو التاكسي أو سيّارته الخاصّة، كنت قد اتّخذت الخطوات اللازمة لاختطافه وحبسه في الفيلّا.

كان الشيء الرئيس هو التأكّد من الأوقات والأماكن التي يكون فيها بمفرده. ذات مرّة، في قبو الفيلّا، سيجري تنفيذ كلّ هذا على نار هادئة. هذا المدّعي الذي، بالعودة إلى الماضي، عام ١٩٣١، في المحاكمة، بدا لي أنّه قال لي، بنظرة ثاقبة: «لن تهرب منّي أيّها الديك الصغير؛ سأستفيد من كلّ ما يمكن أن يبدو سيّئاً لك، كلّ هذا الوحل القبيح في ملفّك، كي لا تستطيع هيئة المحلّفين إخراجك من جديد إلى المجتمع»– هذا المدّعي العام، الذي استخدم كلَّ قدراته وكلَّ ما لديه من إمكانات لرسم الصورة القبيحة والأكثر سوءاً لصبيّ في الرابعة والعشرين من عمره. وهكذا استطاع بنجاح

أن يوصل أعضاء هيئة المحلّفين، البالغ عددهم اثني عشر شخصاً غير أكفياء، إلى إصدار الحكم عليَّ بالأشغال الشاقّة المؤبَّدة. كان عليَّ أن أعذِّب هذا المدَّعي العامّ، في الأقلّ مدَّة أسبوع قبل موته. ومع ذلك لن يكون قد دفع ثمناً غالياً.

آخر من سيدفع الفاتورة سيكون غولدشتاين، شاهد الزور. سأتركه أخيراً بينهم، لأنَّه كان الأكثر خطورة لي. لأنَّني ما إن أقتله، وحين مراجعة ماضيه، سيستطيع رجال الشرطة، الذين لا يصل ذكاؤهم إلى درجات عالية- معرفة الدور الذي قام به في أثناء محاكمتي. حينها سيعرفون على الفور أنَّني هربت، ولن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً لمعرفة أنَّه قد يكون هناك بابيون يرفرف في هواء باريس. في هذه المرحلة، يصبح كلّ شيء - الفنادق والشوارع والمحطَّات والموانئ والمطارات - خطِراً للغاية عليَّ. سيتوجَّب عليَّ أن أهرب بسرعة كبيرة.

سيكون من السهل تحديده ومتابعته بسبب متجر الفراء الخاصّ بوالده. كانت هناك طرائق عدَّة لقتله، لكن بغضّ النظر عن الطريقة التي اخترتها، أردت أن يتعرَّف إليّ قبل موته. إذا أمكن، كنت أفعل ما كنت أحلم به كثيراً - خنقه ببطء بيدَيَّ العاريتين، وأن أقول له: «أحياناً يعود الموتى إلى الحياة مرَّة أخرى. ألم تتوقَّع ذلك يا أخي؟ ألم تتوقَّع أن تقتلك يداي؟ مع ذلك، أنت الرابح، لأنَّك ستموت في غضون بضع دقائق، في حين أرسلتني إلى السجن لأتعفَّن ببطء طوال حياتي حتّى أموت من جرَّاء ذلك».

لم أستطع معرفة ما إذا كنت سأتمكَّن من الخروج من فرنسا، لأنَّه بمجرَّد موت غولدشتاين ستكون الأمور في غاية الخطورة. كان من شبه

المؤكَّد أنَّهم سيتعرَّفون إليَّ، لكنَّني لم أبالِ. حتَّى لو كان عليَّ أن أموت من أجل هذا، فيجب أن يدفعوا ثمن وفاة والدي. كنت سأغفر لهم معاناتي. إلَّا أنَّ حقيقة أنَّ والدي كان يجب أن يموت دون أن أتمكَّن من إخباره أنَّ ولده كان في قيد الحياة، وأنَّه استطاع تحقيق الكثير والتقدُّم في حياته إلى الأمام، حقيقة أنَّه ربَّما مات من العار، مختبئاً من جميع أصدقائه القدامى، وأنَّه كان يجب أن يرقد في قبره دون أن يعرف ما أنا عليه الآن - هذا، لا، لا، لا! لا أستطيع أن أسامح بشأنه!

في أثناء هذا الصمت الطويل للغاية، بينما كنت أفكِّر في كلِّ خطوة في العمل مرَّة أخرى لأرى ما إذا كان هناك من عقبة في أيِّ مكان، كانت ريتا تجلس عند قدمي، ورأسها متكئ على ركبتي. لا تنبس ببنت شفة. بدت كأنَّها تحبس أنفاسها.

- ريتا، حبيبتي، سأرحل في الغد.

- لا يمكنك الذهاب.

وقفت ووضعت يديها على كتفي ونظرت في عينيَّ مباشرة. ومضت تقول: «يجب ألَّا تذهب: لا يمكنك الذهاب. هناك شيء جديد لديَّ أيضاً. استفدت من رحلتي لأمهِّد الطريق لابنتي. ستكون هنا في غضون أيَّام قليلة. أنت تعرف جيّداً سبب عدم وجودها معي: هو أنَّني كنت أبحث عن مكانٍ آمنٍ لها. الآن لديّ المكان، وسيكون لها أب أيضاً - أنت. هل سنفسد كلَّ شيء بنيناه بالحبّ والثقة بيننا؟ هل تعتقد أنَّ قتل الرجال المسؤولين عن معاناتك، وربّما وفاة والدك، هو الشيء الوحيد الذي يجب فعله عندما تقارنه بما لدينا؟»

- مصيرنا واحد يا هنري. بالنظر إليّ، من أجل هذه الفتاة التي ستصل وستحبّك. لا أعرف ما أقول. لا أطلب إليك أن تسامح، لكن ما أطلبه هو التخلّي على الإطلاق عن فكرة الانتقام. وها هو ذا موت والدك كان سيرميك مجدّداً «على هذه الطريق». إنّما، اسمعني جيّداً: إذا كان والدك يستطيع أن يتكلّم، فهذا المعلّم الإقليميّ العادل والصالح، الذي عمل طوال حياته في تعليم العديد من الأطفال أن يكونوا صالحين ومستقيمين ومجتهدين وخيّرين ومحترمين للقوانين، فهل تعتقد أنّه سيوافق ويقبل فكرتك حول الانتقام؟ بالطبع لا. سيقول لك لا رجال الشرطة ولا شاهد الزور ولا المدّعي العام ولا هيئة المحلّفين، يملكون ما يجعلك تضحّي بامرأة تحبّها وتحبّك، وبابنتي التي تتمنّى أن تجد فيك الأب الذي لا نعرفه، وملجأً آمناً وحياة كريمة.

- أريد أن أقول لك كيف أرى أو أنظر إلى انتقامك: أن تكون أُسرتنا رمزاً للسعادة للجميع؛ أنّه بذكائك ومساعدتي، يجب أن ننجح في الحياة بوسائل صادقة؛ وأنّه حينما يتحدّث أهل هذا البلد عنك لن يقول أحد غير هذا - الفرنسيّ مستقيم وصادق، رجل طيّب وكلامه موثوق. هكذا يجب أن يكون انتقامك. الانتقام هو أن تثبت لهم جميعاً أنّهم أخطؤوا كثيراً بحقّك؛ لإثبات أنّك تمكّنت من تجاوز أهوال السجن البكر، وأن تصبح شخصيّة رائعة. هذا هو الانتقام الوحيد الذي يستحقّ الحبَّ والثقة التي وضعتها فيك.

لقد ربحتُ الرهان. تحدّثنا طوال الليل، وتعلّمتُ أن أفرغ الكأس حتّى الثمالة. لكنّني لم أستطع مقاومة إغراء معرفة كلّ تفاصيل رحلة ريتا.

استلقتْ على أريكة كبيرة، منهكة بسبب فشل هذه الرحلة الطويلة وصراعها معي. جلستْ هناك على حافتها، فانحنيتُ عليها، واستجوبتها مراراً وتكراراً، وشيئاً فشيئاً أخرجت كلَّ ما كانت تنوي إخفاءه.

في البداية، بعد أن غادرت ماراكايبو متوجّهة إلى ميناء كاراكاس، حيث كان من المقرّر أن تأخذ القارب، شعرتْ بنذير شؤم بأنَّها ستفشل: بدا أنَّ كلَّ شيء يتآمر لمنعها من المغادرة إلى فرنسا. ما إن صعدت على متن قارب كولومبيّ، لاحظت أنَّها تفتقد إحدى التأشيرات اللازمة. وبدأت سباقاً مع الزمن للحصول عليها في كاراكاس، عبر ذلك الطريق الصغير الخطِر الذي كنت أعرفه جيّداً. عادت إلى الميناء والورق في حقيبتها، وقلبها ينبض خوفاً من مغادرة القارب قبل أن تصل إلى هناك. ثمَّ اندلعت عاصفة رهيبة، ما أدَّى إلى حدوث انهيارات أرضيَّة على الطريق. أصبح الأمر خطِراً إلى درجة أنَّ السائق فقد أعصابه وعاد أدراجه، تاركاً ريتا هناك وحيدة في العاصفة إلى جانب الطريق، بين الانهيارات الأرضيَّة. سارت ما يقرب من ميلين، والأمطار تهطل بغزارة كبيرة، ثمَّ وجدت بمعجزة سيَّارة أجرة كانت عائدة إلى كاراكاس؛ إنَّما لمَّا رأى السائق الانهيارات الأرضيَّة عاد إلى الميناء. ومن الميناء كانت تسمع صفارات إنذار السفن. بذعرٍ كبير، كانت متأكِّدة من مغادرة كولومبيا.

ثمَّ، لمَّا وصلت أخيراً إلى مقصورتها، وهي تبكي من الفرح، وقع حادث على متن السفينة ولم تتمكَّن من المغادرة لساعات عدَّة. كلّ هذا جعلها تشعر بعدم الارتياح، كأنَّ الأحداث تعبيرات عن القدر.

ثمَّ، ها هو ذا البحر: لوهافر، باريس، ومن دون توقُّف، مرسيليا، حيث مكثت مع امرأة تعرفها، قدَّمتها إلى مستشار البلديَّة، الذي كتب لها رسالة

وديَّة إلى صديق له يدعى هنري تشامبل، الذي كان يعيش في آرشيد الواقعة في فالس لي بان.

ثمَّ، القطار والحافلة مرَّة أخرى، ولم تصل ريتا إلى هذه البطولات الرائعة اللطيفة حتّى استطاعت أن تتنفَّس وتبدأ في تنظيم بحثها. حتّى ذلك الحين لم تكن قد وصلت إلى نهاية الصعوبات التي واجهتها.

أخذها هنري تشامبل إلى أوبيناس، في آرشيد، حيث عاش الأستاذ تيستود، محامي الأسرة. آه، تيستود هذا! برجوازيّ بلا قلب. في المقام الأوّل أخبرها أنَّ والدي مات – على الفور، هكذا. ثمَّ بمبادرته الخاصَّة، دون استشارة أيّ شخص، منعها من الذهاب لرؤية أخت والدي وزوجها، وعمّي وخالتي دومارش، المدرّسين المتقاعدين الذين عاشوا في أوبيناس. بعد سنوات عدّة، كانوا قد رحَّبوا بنا بأذرع مفتوحة، ساخطين من فكرة أنَّه لولا تيستود البائس لتمكّنوا من استقبال ريتا ومن ثمّ الاتصال بي مرَّة أخرى. الشيء نفسه مع أخواتي: رفض تيستود إعطاءها عنوانهنَّ. ومع ذلك، تمكَّنت ريتا من الاستحواذ على هذا القلب الحجريّ ليخبرها أين توفي والدي – في سان بيري.

في أثناء الرحلة إلى سان بيري، كان هناك هنري تشامبل وريتا، اللذان وجدا قبر والدي، وتعلَّما شيئاً آخر أيضاً: بعد أن كان أرملَ مدَّة عشرين عاماً، تزوَّج مرَّة أخرى– مدرِّسة متقاعدة – عندما كنت لا أزال في السجن. وجدوها هناك. في الأسرة كانوا يطلقون عليها اسم تانت جو، أو في بعض الأحيان تاتا جو.

قالت ريتا إنّها امرأة جميلة، وتتمتّع بشخصيّة نبيلة، وأنّها أبقت ذكرى والدتي حيّة في هذا المنزل الجديد. في غرفة الطعام، شاهدت ريتا صوراً كبيرة لوالدتي التي أعبدها، ولأبي، أيضاً. كانت قادرة على لمس الأشياء التي تخصّها وداعبتها. تانت جو، التي دخلت حياتي الآن فجأة - على الرَّغم من أنّني شعرت في الوقت نفسه بأنّني أعرفها بالفعل - فعلت كلّ ما في وسعها للسماح لريتا بالشعور بالجوّ الذي أرادت هي وأبي إحياءه على الدوام- ذكرى والدتي والحضور المستمرّ لذلك الصبيّ الصغير الذي اختفى، والذي كان لا يزال ريري في نظر والدي.

كان يوم ١٦ تشرين الثاني هو يوم عيد ميلادي. كان والدي في كلّ يوم ١٦ تشرين الثاني يبكي. في كلّ عيد ميلاد، كان هناك كرسيّ يُترك فارغاً. لمّا جاء رجال الدرك لإخبارهم أنَّ ابنهم قد هرب مرّة أخرى، كاد أفراد أسرة شارير يقبّلونهم لأنّهم جلبوا مثل هذه الأخبار الرائعة. لأنّه على الرَّغم من أنَّ تانت جو لم تكن تعرفني، فقد تبنّتني بالفعل في قلبها كما لو كنت ابنها، وقد ذرفت هي وأبي دموع الفرح حين سماع ما كان لهما أخبار الأمل.

لذا، فقد استقبلتْ ريتا بحفاوةٍ كبيرة ولطف شديد. ظلَّ هناك أمر خفيّ واحد فقط: لم تعطِها تانت جو عنوان شقيقتيّ. لم لا؟ فكّرت بسرعة. لا شكَّ في ذلك: لم تكن متأكّدة كيف ستستقبلان خبر عودتي. بما أنّها لم تقل لريتا، «اذهبي بسرعة للقائهما في هذا المكان أو ذاك، فستكونان متحمّستين لرؤيتك بفرحٍ عارم لمعرفة أنَّ شقيقهما لا يزال في قيد الحياة ويعمل على نحو جيّد، ولمقابلة زوجته». لا بدَّ أنَّ لديها أسبابها. ربّما علمت تانت جو أنَّ لا أختي إيفون ولا أختي هيلين، ولا إخوتي في القانون سيهتمون بزيارة زوجة

أخيهم، طائر السجن الهارب، المحكوم عليه بالسجن المؤبَّد بتهمة القتل. لا شكَّ أنَّها لم ترغب في تحمُّل مسؤوليَّة تعكير صفو سلامهم.

صحيح، لقد كانتا متزوّجتين، ولديهما أطفال، وربَّما لم يعرف هؤلاء الأطفال حتّى بوجودي. ربَّما قالت لنفسها: «علينا اتخاذ الحذر والحيطة». واختتمت بالقول: إنَّه على الرّغم من أنّني عشت معهم طوال ثلاثة عشر عاماً، فأنا عشت من أجلهم ومن خلالهم، فمن ناحية أخرى، لا بدَّ أنَّهم أمضوا تلك السنوات الثلاث عشرة وهم يبذلون قصارى جهدهم لنسياني أو في الأقلّ محاولة محوي من حياتهم اليوميَّة. لذلك، كان كلّ ما أعادته زوجتي عبارة عن حفنة صغيرة من تراب قبر والدي وصورة للمقبرة حيث دُفن والدي إلى الأبد قبل أربعة أشهر فقط.

ومع ذلك، استطعت أن أرى من خلال عينَي ريتا (أنَّ تشامبل كان يقودها في كلّ مكان)، رأت جسر أوسيل، جسر طفولتي. لقد استمعتُ إليها وهي تخبرني بكلّ التفاصيل حول المدرسة الابتدائيّة الكبيرة، حيث كنّا نعيش في الشقّة الواقعة فوق الفصول الدراسيَّة. مرّة أخرى، كان بإمكاني رؤية النصب التذكاريّ للحرب مقابل حديقتنا، والحديقة نفسها، حيث يبدو أنَّ زهرة الميموزا المزهرة الرائعة قد حافظت على ازدهارها الكامل حتَّى تتمكّن ريتا، التي كانت عيناها قد تشرَّبتا من الحديقة والنصب التذكاريّ والمنزل، من أن تقول لي: «لم يتغيّر شيء، أو لم يتغيّر شيء تقريباً؛ وكثيراً ما وصفت مشاهد طفولتك، إلى درجة أنّني لم أشعر بأنّي أرى شيئاً جديداً، لكنّي كنت أعود إلى مكان كنت أعرفه بالفعل».

غالباً، في المساء، كنت أطلب إلى ريتا أن تخبرني بجزء من رحلتها مرّة أخرى. في الفندق، عادت الحياة إلى ما كانت عليه من قبل. إنَّما، في أعماقي حدث شيء لا يمكن تفسيره. هذا الموت، لم أشعر به كرجل يبلغ الأربعين من عمره، ممتلئ بالقوّة والحيويّة والحياة، التي يشعر أنّه قد فقدها حين سماع نبأ وفاة والده الذي لم يرَه منذ عشرين عاماً، لكن مثل صبيّ في العاشرة - على غرار شخص يعيش مع والده، يعصيه ويلعب معه ويذهب إلى المدرسة ثمّ يعود ويسمع نبأ وفاته.

وصلت كلوتيلد ابنة ريتا. كانت قد تجاوزت الخامسة عشرة من عمرها، لكنَّها كانت ضعيفة جدّاً ونحيلة إلى درجة أنَّك كنت ستقول إنَّها كانت في الثانية عشرة من عمرها. كان لديها شعر طويل، سميك، أسود، مجعَّد حتَّى كتفيها. كانت عيناها الصغيرتان النفَّاثتان تتألَّقان ذكاءً وفضولاً. لم يكن وجهها الصغير وجه فتاة، بل وجه طفل ربَّما لا يزال يلعب الحجلة أو بدمية. نشأت ثقة كبيرة فيما بيننا، وعلى الفور. تشعر أنَّها تتفهَّم أنَّ هذا الرجل الذي يعيش مع والدتها سيكون أفضل صديق لها، وأنَّه سيحبّها دائماً ويحميها.

لَّما ظهرتْ، شعرت بشيء جديد داخلي - الرغبة في أن تكون سعيدة، وأن أكون بمنزلة والدها، ففي الأقلّ كان ذلك بمنزلة دعمها الأكيد.

الآنَ، بعد أن عادت ريتا مرَّة أخرى، بدأت بالتسوّق لاحقاً في السابعة. والآن، أخذت كلوتيلد معي؛ قادت مينو، وحمل كارليتوس السلال. كان كلّ شيء جديداً لديها، وأرادت رؤيته دفعة واحدة. لَّما وجدت شيئاً غير متوقَّع، صرخت بصوت عالٍ وواضح لتعرف ما هو. أكثر ما أذهلها،

النساء الهنديّات بثيابهنَّ الطويلة المتلألئة، وخدودهنَّ الملوَّنة، والأحذية المزيّنة بأكياس صوفيَّة ضخمة متعدّدة الألوان.

في خضمِّ هذا الحشد المتسارع والصاخب، شعرتُ بالحماية الكاملة، حرَّكتني بعمق، وملأتني بشعور غير معروف حتَّى الآن - الشعور بحبِّ الأب. «نعم، كلوتيلد، انطلقي إلى الحياة بعقل واثق وسهل؛ يمكنك أن تتأكَّدي من أنَّه حتَّى النهاية سأفعل كلَّ ما في وسعي للحفاظ على طريقك خالياً من الأشواك».

عدنا إلى الفندق والسعادة العارمة تغمرنا، دائماً بشيء مسلٍّ لإخبار ريتا بما حدث لنا أو بما رأيناه.

الفصل الثاني عشر

أصبحت فنزويلياً

أعرف جيّداً أنَّ ما يتوقّعه القارئ هو مغامراتي الشخصيّة وليس تاريخ فنزويلا. سامحني إذا ما شعرت أنّه يجب أن أذكر بعض الأحداث السياسيّة المهمّة التي حدثت إبّان الوقت الذي أكتب عنه؛ كان لها تأثير مباشر في حياتي، وفي القرارات التي اتّخذتها. أوّلاً، لأنَّ هذه الأحداث أثّرت على نحو مباشر في مجرى حياتي وفي القرارات التي اتّخذتها. من ناحية أخرى، لأنّني لاحظت في أثناء رحلاتي في العديد من البلدان التي نُشر فيها كتاب بابيون، أنّنا لا نعرف سوى القليل جدّاً عن فنزويلا.

بالنظر إلى العديد من الناس، فنزويلا هي مجرَّد دولة في أمريكا الجنوبيّة (معظمهم ليسوا متأكّدين تماماً من أين فقط)، بلد يستغلّه الأمريكيّون كما لو كان نوعاً من مستعمرات أمريكيّة منتجة للنفط. هذا أبعد ما يكون عن الحقيقة.

من المؤكّد أنَّ شركات النفط كان لها وزن كبير في السابق؛ شيئاً فشيئاً، حرَّر المثقّفون الفنزويليون البلاد بالكامل تقريباً من تأثير السياسة الأمريكيّة.

فنزويلا، في الوقت الحاضر، دولة مستقلّة سياسيّاً بالكامل، كما أثبتت في الأمم المتّحدة وفي أماكن أخرى. الشيء الوحيد المشترك بين جميع الأحزاب

السياسيَّة هو الحماس الكبير لحريَّة فنزويلا في العمل فيما يتعلّق بجميع البلدان الأجنبيّة. وهكذا، منذ وصول رافائيل كالديرا إلى السلطة، كانت لدينا علاقات دبلوماسيّة مع كلّ دولة في العالم، مهما كان نظامها السياسيّ.

صحيح أنَّ فنزويلا تعتمد اقتصادياً على نفطها، لكنَّها نجحت في بيع النفط بسعر مرتفع للغاية، وفي جعل شركات النفط تدفع ما يصل إلى ٨٥٪ من أرباحها.

لدى فنزويلا شيء آخر إلى جانب النفط، مثل الحديد والمواد الخام الأخرى. تمتلك فنزويلا موارد هائلة من الرجال الذين يهدفون إلى تحرير بلدهم بالكامل من جميع أنماط الضغوط الاقتصاديَّة. الرجال الذين بدؤوا في إثبات أنَّ فنزويلا يمكن أن تقيم ديمقراطيَّة جيّدة مثل أيِّ ديمقراطيَّة أخرى، محترمة ومحفوظة.

يتوق الشبّان في الجامعات إلى العدالة الاجتماعيّة والتحوّل الجذريّ لبلدهم. إنَّهم مفعمون بالإيمان، وواثقون من النجاح دون تقويض أسس الحريّة الحقيقيّة، واثقون من تحقيق السعادة للأمّة بأكملها دون الوقوع في ديكتاتوريَّة، سواء من أقصى اليمين أو اليسار المتطرّف. أنا أؤمن بشبّان هذا البلد: سوف يساعدون في جعله أمّة يمكن عدُّها أنموذجاً، سواء بالنسبة إلى نظامها الديمقراطيّ الحقيقيّ أم إلى اقتصادها، لأنّه يجب ألَّا ننسى أنَّ مواردها الضخمة من المواد الخامّ سيجري تصنيعها بالكامل قريباً. حينما يحدث ذلك، ستكون فنزويلا قد فازت في معركة عظيمة - وستفوز فنزويلا بها.

بالإضافة إلى الإمكانات الصناعيَّة غير المحدودة أو غناها بالمواد الأوليَّة، فنزويلا هي أيضاً بلد مثاليّ في مجال السياحة، الذي يجب أن يتطوّر في

السنوات القادمة. كلّ شيء في مصلحتها: شواطئها الرمليّة المظلَّلة بأشجار جوز الهند، إشراقها الذي يفوق سطوع جميع البلدان الأخرى؛ صيد كلّ أنواع الحيوانات البحريّة في بحر دافئ دائماً، ومطاراتها حيث يمكن أن تهبط أكبر الطائرات. كما تقدّم فنزويلا أيضاً تكلفة معيشيّة أقلّ من البلدان الأخرى؛ الجزر بالمئات، شعب طيّب ومضياف دون أدنى أثر لمشكلة اللون. وفي غضون ساعة طيران من كاراكاس، يمكنك العثور على الهنود أو قرى بحيرة ماراكايبو أو جبال الأنديز بثلوجها الدائمة.

باختصار، فنزويلا غنيّة بالموارد إلى درجة أنَّ الدولة لا تحتاج حقّاً إلى سياسيّ على رأسها بقدر ما تحتاج إلى محاسب جيّد، الذي سيستخدم أرباح النفط لبناء المصانع، وتالياً زيادة سوق العمل لكلّ من يحتاج أو يريد.

لطالما حلمت أنَّه من خلال النقابات الكبيرة، نمنح الأسرة فرصة لمّ شملها إبَّان العطلات، ليس في الفنادق الكبيرة وإنّما في أكواخ، حيث يمكنهم العيش وتناول الطعام. تسير الطائرات على نحو أسرع، ويمكن أن تقلّل المواثيق كثيراً من تكلفة النقل. فلماذا لا تمتلك النقابات الكبيرة في العالم مجموعات جيّدة لتصميم منازل صغيرة حيث يتمتَّع أعضاؤها، بأسعار لا تقبل المنافسة، بالطبيعة والمناخ المتميّزين؟

باختصار، يمكننا القول تقريباً إنَّ فنزويلا لديها كثير من الموارد التي تحتاج إلى التصنيع، إلى درجة أنّها لا تحتاج، إذا جاز التعبير، إلى سياسيّ على رأسها وإنما إلى محاسب جيّد مدعوم بفريق. التبادل الذي يمنحه لهم النفط سيبني مصانع لاستغلال ثروته وتوسيع سوق العمل لكلّ من يحتاجه ويريده.

من الضروريّ أن تحدث ثورة من الأعلى إلى الأسفل. سيكون لها نتائج إيجابيّة أكثر بكثير من ذلك، الذي لا مفرَّ منه، الذي سيأتي من الأسفل إذا لم يكن الشبَّان، الذين تغذّوا بأفكار جديدة، على دراية بتعديل عميق للنظام الحالي. أنا شخصيّاً مقتنع أنَّ فنزويلا ستربح هذه المعركة، وأنَّ هذه الأمّة، التي لديها كلّ شيء لتكون سعيدة ومزدهرة، ستمنح المواطنين الأكثر تواضعاً مستوى معيشة وأمناً مرتفعين.

١٩٥١ ... بالعودة إلى هذا التاريخ، يعود إليَّ الشعور الذي كنت أحسّه حينها – الشعور بعدم وجود شيء آخر لأقوله. نتحدَّث عن العواصف وإطلاق النار على منحدرات نهر منتفخ؛ لكن عندما يكون الماء هادئاً وراكداً، تشعر أنَّك تغلق عينيك وتستريح على التيّار الهادئ. ثمَّ يتساقط المطر مرَّة أخرى، وترتفع الجداول، وتنمو المياه الهادئة، ويأخذك الفيضان بعيداً، حتَّى إذا كنت تتوق إلى العيش بسلام، فإنَّ الأحداث الخارجيَّة لها تأثير كبير في حياتك إلى درجة أنَّها تجبرك على اتِّباعها. يتجنَّب التيَّار الشِّعاب المرجانيَّة ويتصدَّى للسرعة على المنحدرات، في أمل العثور على ميناء هادئ أخيراً.

بعد الاغتيال الغامض لتشالبود، نهاية عام ١٩٥٠، استولى بيريز خيمينيز على السلطة، لكنَّه تخفَّى خلف فلاميريتش، رئيس المجلس العسكريّ. بدأت الديكتاتوريَّة. وكانت من علائمها الأولى: قمع حريَّة التعبير. جرى فرض رقابة كبيرة على الصحافة والإذاعة. بدأ تنظيم المعارضة في الخفاء، وبدأت الشرطة السياسيَّة الرهيبة في العمل. جرت مطاردة الشيوعيين وأعضاء الحزب الديمقراطيّ وحزب بيتانكورت.

تخفّينا في مناسبات عدّة في فيرا كروز. لم نغلق أبوابنا قطّ أمام أيٍّ شخص على الإطلاق، ولم نطلب تحديد هويّة أيّ شخص. كان من دواعي سروري الشديد أن أشيد بأتباع بيتانكورت هؤلاء، الذين حرَّرني نظامهم ومنحني حقّ اللجوء. واجهنا خطر فقدان كلّ شيء، لكنّ ريتا رأت أنّه لا يوجد أيّ شيء آخر يمكننا فعله.

ثمَّ، مرّة أخرى، أصبح الفندق بمنزلة ملجأ للفرنسيين، الذين وصلوا إلى فنزويلا مع قليل من المال في جيوبهم، والذين لا يعرفون إلى أين يذهبون. كانوا يأكلون وينامون في منزلنا من دون أن يدفعوا الثمن في حين يبحثون عن عمل. أصبحت خدمتنا مشهورة جدّاً، إلى درجة أنَّهم لقّبوني في ماراكايبو بالقنصل الفرنسيّ.

إبَّان هذه السنوات حدث شيء مهمّ جدّاً لديّ، شيء مهمّ تقريباً مثل لقائي بريتا – لقد جدَّدت روابطي مع أسرتي. ما إن غادرت ريتا، كتبت تانت جو إلى شقيقتيّ. وجميعهنَّ: شقيقتايَ وتانت جو، كتبنَ إليَّ. بعد مرور عشرين عاماً، بدأ هذا الصمت العظيم يقترب من نهايته. كنت أرتجف عندما فتحتُ الرسالة الأولى. هل سترفضانني إلى الأبد أو أنَّهما...؟

حقّقت نصراً كبيراً! كانت هذه الرسائل صرخة فرح – فرحة عندما علمتا أنَّني في قيد الحياة، وأكسب عيشاً صادقاً، وتزوَّجت امرأةً وصفتها تانت جو بكلّ الصفات الحسنة التي شعرت بها. لم أجد أختيَّ مرَّة أخرى فحسب، بل وجدت أسرتيهما أيضاً، اللتين أصبحتا الآن أسرتي.

أختي الكبرى لديها أربعة أطفال، ثلاث فتيات وصبيّ. كتب إليَّ زوجها نفسه ليقول إنَّ عاطفته لم تتغيّر، وإنَّه كان أكثر من سعيد بمعرفته أنَّني حرّ

وأعمل على نحو جيّد. تحكي الصور والمزيد من الصور، والصفحات والمزيد من الصفحات، قصّة حياتهم والحرب وما كان عليهم أن يمرّوا به لتربية أطفالهم. قرأت كلّ كلمة، ووزنتها وحلّلتها كي أتمكّن من فهم قصّتهم جيّداً والاستمتاع بسحرها.

بعد المرحلة السوداء الكبيرة في السجون والتسوية العقابيّة، ظهرت طفولتي على السطح: «عزيزي ريري»، هذا ما كتبته إليّ شقيقتي. ريري... كنت أسمع أمّي تناديني، وأرى ابتسامتها الجميلة. يبدو أنّه من إحدى الصور التي أرسلتها إليهم، قرّرت أسرتي أنّني شبه والدي. كانت أختي مقتنعة أنّه إذا كنت مثله جسديّاً، فلا بدّ أن أكون مثله في الشخصيّة. لم تخف هي وزوجها ظهوري مرّة أخرى. لا بدّ أنّ رجال الدرك سمعوا عن رحلة ريتا في أرديش، لأنّهم ذهبوا ليسألوا عنّي، وأجاب صهري: «نعم بالفعل، لدينا أخبار عنه. إنّه سعيد للغاية، وهو بخير، شكراً جزيلاً لكم».

كانت شقيقتي الأخرى تعيش في باريس، متزوّجة من محامٍ كورسيكيّ. لديها ولدان وبنت، وكانت حالتها المعيشيّة جيّدة. الصرخة نفسها: «أنت حرّ، أنت محبوب، لديك منزل ومكانة جيّدة وتعيش مثل أيّ شخص آخر. أحسنت يا أخي الصغير! أطفالي وزوجي وأنا نشكر الله لأنّه ساعدك في الخروج من ذلك السجن الرهيب الذي ألقوك فيه».

عرضت أختي الكبرى أن تأخذ ابنتنا كي تتمكّن من مواصلة دراستها في فرنسا. إنّها، أكثر ما أدهش قلوبنا هو أنّه لم يبدُ أنّ إحداهما تخجل من أن يكون لها أخ كان محكوماً سابقاً وهرب من التسوية الجزائيّة.

لإغلاق هذا التدفّق من الأخبار الرائعة، تمكّنتُ، عبر طبيب فرنسيّ مقيم في ماراكايبو، من الحصول على عنوان صديقي الدكتور غويبرت جيرمان،

الطبيب السابق للمستوطنة، الذي عاملني كواحد من أفراد أسرته عندما كنت في رويال، واستقبلني في منزله، وحماني. وبفضل الدكتور غويبرت جيرمان تمَّ إلغاء الحبس الانفراديّ في سان جوزيف؛ وبفضله تمكّنتُ من نقل نفسي إلى جزيرة الشيطان والهروب. لقد كتبتُ إليه، وفي يوم من الأيّام شعرت بسعادة غامرة لتلقّي هذه الرسالة:

«ليون، ٢١ شباط ١٩٥٢، عزيزي بابيون، نحن سعداء جدّاً بتلقّي أخبارك بعد كلّ هذه الفترة. لقد شعرت منذ فترة طويلة أنّي على يقين من أنّك تحاول الاتّصال بي. لمّا كنت في جيبوتي، أخبرتني والدتي أنّها تلقّت رسالة من فنزويلا، على الرّغم من أنّها لا تستطيع تحديد من أرسلها بالضبط. ثمَّ، مؤخّراً، أرسلت إليَّ الرسالة التي كتبتها عبر السيّدة روزبرغ. لذلك، بعد قدر معقول من المحاكمة تمكّنا من العثور عليك مرّة أخرى. منذ سبتمبر ١٩١٥، عندما غادرت رويال، حدثت أشياء كثيرة جيّدة.

... ثمَّ، في شهر تشرين الأول من عام ١٩٥١، أُرسلت إلى الهند الصينيّة. سأبقى هناك مدَّة عامين، وسأغادر قريباً جدّاً، أي في السادس من آذار. هذه المرَّة سأذهب وحدي. ربّما حينما أكون هناك، ووفقاً للمكان الذي يرسلونني إليه، قد أتمكَّن من ترتيب خروج زوجتي كي تنضمَّ إليَّ.

لذلك، ترى أنّه منذ آخر مرَّة التقينا فيها، سافرت عدداً معقولاً من الأميال! أحتفظ ببعض الذكريات السارّة عن تلك الأيّام. لكن، يا للأسف، لم أتمكّن من الاتصال بأيّ من الرجال الذين كنت أحبّ استقبالهم في منزلي. لقد سمعت لفترة طويلة عن طبّاخي (روش) الذي استقرَّ في سان لوران؛ لكن منذ مغادرتي جيبوتي لم أسمع عنه أيَّ شيء. ومع ذلك، كان من دواعي سرورنا أن نعرف أنّك كنت سعيداً وبصحّة جيّدة، وأنّك مستقرّ في حياتك.

الحياة شيء غريب، لكنّي أتذكَّر أنَّك لم تفقد الأمل قطُّ، وبالفعل كنت على حقّ.

لقد سررنا برؤية صورتك أنت وزوجتك - فهذا يدلّ على أنَّك حقّاً ناجح. من بدري، ربَّما في يوم من الأيام قد نأتي ونراك! تتسارع الأحداث بسرعة أكبر ممّا نفعله. نرى من الصورة أنَّ لديك ذوقاً ممتازاً: تبدو زوجتك ساحرة، والفندق ذو مظهر مقبول للغاية. عزيزي بابيون، يجب أن تسامحني على الاستمرار في استخدام هذا اللقب؛ لكنَّه يعيد إلينا كثيراً من الذكريات!

... حسناً يا زميلي القديم، فهذه نبذة عن أخبارنا. غالباً ما نتحدَّث عنك، ربَّما تكون متأكِّداً، ولا نزال نتذكَّر ذلك اليوم المثير عندما عمد ماندوليني[1] إلى التطفُّل في ما لا يعنيه.

عزيزي بابيون، أرفق صورة لكلبنا؛ جرى التقاطها في مارسي، في كانيبير، منذ نحو شهرين.

أتمنَّى لكما السعادة وكلّ الأمنيات الطيّبة، وآمل أن أسمع منك بين الحين والآخر.

نرسل أنا وزوجتي تحيّاتنا الطيّبة إلى زوجتك، وأطيّب تمنياتنا لك.

غويبرت جيرمان

بعد ذلك، بضعة أسطر من السيّدة غويبرت جيرمان، تقول فيها: «مع أطيب تحيّاتي لنجاحكما، وأطيب تمنّياتي لكما بالعام الجديد. تحيّاتي».

مدام غويبرت جيرمان لم تنضمَّ إلى زوجها في الهند الصينيّة. لقد قُتل عام ١٩٥٢، لذلك لم أره مرّة أخرى، ذلك الطبيب المتواضع الذي كان من

١- في كتاب بابيون، السجّان الذي وجد الطوافة في القبر.

الرجال القلائل الذين انضمّوا إلى الرائد بيان من جيش الإنقاذ وحفنة من الآخرين. كانت لديهم الشجاعة للدفاع عن الأفكار الإنسانيّة لصالح المحكوم عليهم؛ في حسبانه، نجح في الحصول على بعض النتائج في أثناء خدمته هناك. لا توجد كلمات جيّدة بما يكفي للتعبير عن الاحترام الواجب لأشخاص مثله ومثل زوجته. في معارضة الجميع، ومواجهة الخطر على حياته المهنيَّة، أكَّد أنَّ المحكوم عليه لا يزال رجلاً، وأنّه حتَّى لو ارتكب جريمة خطرة، فلن يضيع إلى الأبد.

هناك أيضاً رسائل تانت جو. لم تكن هذه الرسائل خطابات زوجة أب لم تعرفك من قبل فحسب، لكنَّها رسائل أموميَّة حقيقيَّة تقول أشياء لا يفكِّر فيها سوى قلب الأمّ. رسائل أخبرتني فيها عن حياة والدي حتَّى وفاته، وحياة مدير المدرسة الملتزم بالقانون، الممتلئ بالاحترام للسلطات القانونيَّة، الذي صرخ قائلاً: «ابني كان بريئاً، وأنا أعلم ذلك. وقد أدانه رجال الشرطة! أين يمكن أن يكون الآن بعد أن هرب؟ هل هو حيّ أم ميت؟» في كلّ مرّة ينفِّذ فيها أعضاء المقاومة في أرديش عمليَّة ضدَّ الألمان، كان يقول: «لو كان هنري هنا، لكان معهم». ثمَّ عاش شهوراً من الصمت لم يعد ينطق فيها اسم ابنه. كان الأمر كما لو أنّه نقل حبَّه إلى أحفاده، الذين أفسدهم أكثر من معظم الأجداد.

التهمتُ كلَّ هذا على غرار رجل جائع. مراراً وتكراراً، قرأت أنا وريتا كلّ هذه الرسائل الثمينة التي جدَّدت الروابط مع أسرتي؛ احتفظنا بها مثل الآثار غالية الثمن. حقّاً لقد باركتني الآلهة - دون استثناء، كان لدى أفراد أسرتي حبّاً كافياً لي، وشجاعة كافية كي لا يهتمّوا بما قد يقوله الناس،

يخبرونني عن فرحتهم بأنّني لا أزال في قيد الحياة، حرّاً وسعيداً. وبالفعل، كانت الشجاعة ضروريّة، لأنَّ المجتمع لا يغفر للأسرة بسهولة لوجود جانح داخلها. حتّى إنّه كان هناك أشخاص حقيرون بما يكفي ليقولوا: «أوه، كما تعلمون، هذه الأسرة مُدانة».

في عام ١٩٥٣، بعنا الفندق. في نهاية المطاف، أدّت الحرارة الشديدة في ماراكايبو إلى إحباطنا، وفي أيِّ حال، لم نكن نعتزم أنا وريتا قضاء بقية أيامنا هنا. كلُّ هذا أقلّ ممّاً سمعت عن طفرة هائلة في غيانا الفنزويليّة، حيث تمَّ اكتشاف جبل من الحديد النقيّ تقريباً. كان ذلك في الطرف الآخر من البلاد، لذلك كنَّا بعيدين عن كاراكاس، ما يعني التوقُّف عند هذا الحدِّ لفترة من الوقت وتفحُّص الموقف.

ذات صباح جميل، انطلقنا في سيّارتي الخضراء الضخمة دي سوتو، مكتظّة بالأمتعة، وتركنا وراءنا خمس سنوات من السعادة الهادئة والعديد من الأصدقاء.

مرّة أخرى رأيت كاراكاس. لكن ألم نقصد المدينة الخطأ؟

في نهاية ولاية فلامبريتش، نصَّب بيريز خيمينيز نفسه رئيساً للجمهوريّة؛ لكن حتّى قبل ذلك كان قد شرع في تحويل مدينة كاراكاس الاستعماريّة إلى عاصمة أنموذجيّة فائقة الحداثة. كلّ هذا في غضون فترة من القسوة من جانب الحكومة والمعارضة السريّة. كالديرا، الذي غدا رئيساً منذ عام ١٩٧٠، نجا من محاولة اغتيال مروّعة. لقد أُلقيت قنبلة قويّة في الغرفة التي كان ينام فيها مع زوجته وطفله. لقد نجوا جميعاً بمعجزة حقيقيّة. وبهدوء كبير - لا صرخات ولا ذعر - جثا هو وزوجته على

ركبتيهما ليشكرا الله على إنقاذ حياتهم. حدث هذا عام ١٩٥١ وأؤكّد أنَّه كان بالفعل مسيحيّاً اجتماعيّاً، ولم يصبح كذلك بسبب هذه المعجزة.

إنَّما، على الرَّغم من كلّ الصعوبات التي كان عليه التعامل معها إبَّان فترة حكمه الديكتاتوريّ، طوَّر بيريز خيمينيز كاراكاس بالكامل والعديد من الأشياء الأخرى أيضاً.

كان الطريق القديم من كاراكاس إلى مطار مايكويتيا وميناء لا جويرا لا يزال موجوداً. إلّا أنَّ بيريز خيمينيز بنى ممراً رائعاً ومميزاً تقنياً، ما يعني أنَّه بمكنك الانتقال من المدينة إلى البحر في أقلّ من ربع ساعة، في حين كان الأمر يستغرق ساعتين على الطريق القديم. في منطقة سيلاسيو، أنشأ بيريز خيمينيز مباني ضخمة بحجم تلك الموجودة في نيويورك. وشقَّ طريقاً سريعاً مذهلاً من ثلاثة مسارب، يخترق المدينة من طرف إلى آخر - ناهيك عن تطوّر شبكة الطرقات وبناء مجمّعات للطبقة العاملة والطبقة الوسطى، فكانت نماذج للتعمير والعديد من التغييرات الأخرى. كلّ هذا يعني ملايين الدولارات، وانفجار قدر كبير من الطاقة في هذا البلد الذي كان يغفو منذ مئات السنين. تدفَّقت رؤوس الأموال الأجنبيَّة، جنباً إلى جنب مع المتخصّصين من كلِّ نوع. تغيَّرت الحياة تماماً. كانت الهجرة مفتوحة على مصراعيها، ودخلت دماء جديدة، ما أعطى إيقاعاً إيجابيّاً جديداً للبلاد.

انتهزت فرصة توقّفنا في كاراكاس للتواصل مع الأصدقاء ومعرفة ما حدث لبيكولينو. إبّان هذه السنوات الأخيرة، كنت قد أرسلت بانتظام أشخاصاً لزيارته وإعطائه بعض المال. رأيت صديقاً أعطاه مبلغاً صغيراً منّي عام ١٩٥٢، وهو مبلغ كان بيكولينو قد طلبه مني ليتمكّن من

الاستقرار في لا غويرا، بالقرب من الميناء. كثيراً ما كنت أقترح عليه أن يأتي ليعيش معنا في ماراكايبو، لكن في كلّ مرّة كان يجيبني عن طريق أصدقائه أنَّ كاراكاس هي المكان الوحيد الذي يوجد فيه الأطباء. يبدو أنّه قد استعاد نوعاً ما خاصيَّة التحدُّث، وأنَّ ذراعه اليمنى تعمل على نحو أو آخر. إنّما، الآن، لا أحد يعرف ما حلَّ به. لقد شوهد وهو يزحف حول ميناء لا غويرا، ثمَّ اختفى تماماً. ربّما كان قد ركب سفينة إلى فرنسا. لست متأكّداً من الأمر. ودائماً ما كنت ألوم نفسي لأنّني لم أذهب إلى كاراكاس سابقاً لإقناعه بالحضور إليَّ في ماراكايبو.

كان كلُّ شيء واضحاً: إذا لم نتمكَّن من العثور على ما نريده في غيانا الفنزويليَّة، حيث كان هناك هذا الازدهار الرائع، وحيث فجَّر الجنرال رافارد للتوّ الغابة المزدهرة وتياراتها المنتفخة لإثبات أنّه يمكن ترويضها، فسنرجع ونستقرّ في كاراكاس.

في دي سوتو، محمّلين بالأمتعة، توجَّهت أنا وريتا إلى عاصمة الولاية، سيوداد بوليفار، على ضفاف نهر أورينوكو. بعد ثماني سنوات وجدت نفسي مرَّة أخرى في تلك المدينة الريفيَّة الساحرة مع شعبها اللطيف وحسن استقبالهم.

بعد أن قضينا ليلتنا في الفندق، ولم نكد نجلس على الشرفة لتناول قهوة الصباح، توقَّف رجل أمامنا. رجل في الخمسين من عمره، طويل، نحيل، جافّ، كان يضع على رأسه قبَّعة صغيرة من القشّ، وقد لفَّ عينيه الصغيرتين حتَّى كادتا تختفيان.

قال: «إمَّا أنَّني مجنون وإمَّا أنَّك فرنسيّ يُدعى بابيون».

- ألست متحفّظاً جدّاً أيّها المغفّل. لنفترض أنَّ هذه السيّدة هنا لا تعرف؟

- عذراً. لقد كنت دَهشاً للغاية حتّى إنّني لم ألحظ أنّني كنت أتحدَّث مثل الأحمق.

- توقّف عن الكلام واجلس هنا، معنا.

إنَّه صديق قديم، يدعى مارسيل ب. أخذنا نتحدَّث. كان دَهشاً جدّاً لرؤيتي في حالة جيّدة. لقد شعر بأنّني أنجزت عملاً جيّداً لنفسي. أخبرته أنَّ الحظَّ قد لعب لعبته معي، لم يكن على المسكين أن يخبرني أنّه لم يفلح في ذلك - ملابسه هي التي تتحدَّث. دعوته للبقاء وتناول الغداء معنا.

بعد احتساء بضع أكؤس من النبيذ التشيليّ، قال: «نعم، يا سيّدتي، على الرّغم من أنّك ترينني هكذا، إلّا أنّني كنت شاباً جيداً عندما كنت صغيراً - لا أخاف أيَّ شيء. تصوّري أنّه بعد هروبي الأوّل من السجن، وصلت إلى كندا وانضممت إلى شرطة الخيّالة الكنديّة. كنت أفكّر في البقاء هناك طوال حياتي، لكن ذات يوم تشاجرت مع رجلين، فسقط أحدهما على سكّيني. إنَّها الحقيقة، صدّقيني يا سيّدتي. هذا الكنديّ سقط مباشرة على سكّيني. أنت لا تصدّقينني، أليس كذلك؟ حسناً، كنت أعلم أنَّ الشرطة الكنديّة لن تصدِّقني أيضاً، لذلك فررت في تلك اللحظة بالذات، وذهبت عن طريق الولايات المتّحدة الأمريكيّة، إلى أن وصلت إلى باريس. لا بدَّ أنّ أحدَ المتشرّدين قد باعني، أو ربَّما من غيرهم، لأنَّهم أخذوني وأعادوني إلى السجن. هذا هو المكان الذي عرفت فيه زوجك: كنّا صديقين حميمين».

- وماذا تفعل الآن يا مارسيل؟

- أزرع الطماطم في موريشال.

- هل تجني المال الكافي من هذا العمل؟

- ليس جدّاً. في بعض الأحيان لا تسمح الغيوم للشمس بالمرور على نحو صحيح. تشعر بأنَّها هنا، لكن لا يمكنك رؤيتها، وترسل بذلك أشعَّة غير مرئيَّة تقتل الطماطم في غضون ساعات قليلة.

- يا إلهي! كيف ذلك؟

- إنَّه أحد أسرار الطبيعة، يا صديقي. لا أعرف أيَّ شيء عن السبب، لكنَّني أرى النتيجة أمامي.

- هل بقيت طويلاً في السجن؟

- نحو عشرين عاماً.

- هل أنت سعيد؟

- إلى حدٍّ ما.

- هل هناك أيّ شيء تريده؟

- بابي، أقسم إنَّك لو لم تقل لي ذلك لما كنت سأطلب شيئاً. إنَّما، يمكنني أن أقول إنَّك لا تفعل ذلك على نحو سيّئ - لذا اعذريني، سيّدتي، لكنَّني سأطلب شيئاً مهمّاً للغاية.

جالت الفكرة في ذهني، وقلت في قرارة ذاتي: «أتمنَّى ألَّا يكون الأمر مكلفاً». ثمَّ قلت له: «تحدَّث يا مارسيل وقل لي ما تريد».

- أريد زوجاً من السراويل، وزوجاً من الأحذية، وقميصاً وربطة عنق.

- تعالَ. لنستقلَّ السيَّارة ونذهب.

- ذلك لك؟ حسناً، والله، لقد حالفك الحظ.

- نعم، الكثير من الحظّ.

- متى ستغادر؟

- الليلة.

- يا للأسف. وإلّا لكان بإمكانك نقل العروسين بسيّارتك.

- أيّ عروسين؟

- بالطبع! لم أخبرك قطّ أنَّ هذه الملابس للذهاب لحضور زفاف أحد السجناء القدامى أيضاً.

- هل أعرفه؟

- لا أعلم. إنَّه يدعى ماتوريت.

- ماذا تقول؟ ماتوريت.

- نعم. هل هو عدوّك؟

- لا. على العكس تماماً، إنَّه صديق قديم وعزيز للغاية.

لم أستطع تجاوز ذلك! ماتوريت! الجنيّ الصغير، الذي لم يسهّل فقط هروبنا من مستشفى سان لوران دو ماروني فحسب، بل سافر معنا أيضاً لمسافة ٢٠٠٠ كيلومتر في قارب في عرض البحر.

لا بدَّ من المغادرة الآن. في اليوم التالي ذهبنا إلى حفل الزفاف، حيث تزوَّج ماتوريت فتاة سوداء صغيرة لطيفة. لم يكن في وسعنا عمل أقلّ من دفع الفاتورة وشراء ملابس للأطفال الثلاثة الذين أنجباهم قبل الذهاب إلى المذبح. كانت هذه واحدة من المرّات القليلة التي شعرت

فيها بالأسف لأنّني لم أتعمّد، لأنّ ذلك منعني من أن أكون شاهداً على عرسه.

عاش ماتوريت في حيّ فقير، حيث أثار في ٩٥٨ دي سوتو ضجّة كبيرة، لكنّه لا يزال يمتلك منزلاً صغيراً نظيفاً من الطوب مع مطبخ ودش وغرفة طعام. لم يخبرني عن استراحته الثانية، ولم أخبره عن استراحتي. الإشارة الوحيدة المتعلّقة بالماضي هي: «بقليل من الحظّ، كنّا سنكون أحراراً قبل عشر سنوات».

– نعم، لكنّ أقدارنا كانت مختلفة. أنا سعيد يا ماتوريت. وأنت تبدو سعيداً جدّاً أيضاً.

افترقنا، وغصّت حناجرنا بالعاطفة، قائلين: «وداعاً. على أمل اللقاء في وقتٍ قريب».

في أثناء قيادتنا، أنا وريتا، متّجهين نحو كيداد بيار، وهي بلدة نشأت بالقرب من حقل ممتلئ بالرواسب الحديديّة، كانوا يستثمرونه، تحدّثت عن ماتوريت والتقلّبات غير العاديّة في الحياة. كنّا، أنا وهو، على شفا الموت في البحر مرّات عدّة؛ أُسرنا وأُعدنا إلى السجن. كان على غراري، قضى عامين في السجن الانفراديّ. والآن، بينما كنت أنا وريتا نقود السيّارة بحثاً عن مغامرة جديدة، وجدته وحضرت زواجه. جال في خاطرنا، نحن الاثنين، في اللحظة عينها الفكرة التالية: الماضي لا يعني شيئاً؛ كلّ ما يهمّ هو ما صنعته من نفسك.

لم نجد شيئاً مناسباً في كيداد بيار. عدنا إلى كاراكاس للبحث عن بعض الأعمال التي كانت نعدُّ حينها جيّدة.

سرعان ما وجدنا واحداً يستجيب لقدراتنا ووضعنا الماليّ. كان مطعماً يُدعى أراغون، إلى جوار متنزَّه كارابوبو مباشرةً، وهو مكان جميل جدّاً، كانوا يرغبون في تغيير الطاقم الإداريّ للمطعم. هذا الأمر يناسبنا تماماً. كانت البداية صعبة، لأنَّ الملّاك السابقين جاؤوا من جزر الكناري، وكان علينا تغيير كلّ شيء تماماً. لقد عملنا على تجهيز قوائم الطعام التي تتضمَّن طعاماً فرنسيّاً وفنزويليّاً في آن. يوماً بعد يوم، أخذ عدد العملاء يزداد. كان بينهم عدد كبير من الرجال المحترفين والأطباء وأطباء الأسنان والكيميائيين والمحامين، بالإضافة إلى بعض الشركات المصنعة. وفي هذا الجوّ اللطيف مرَّت الأشهر دون حوادث.

في تمام الساعة التاسعة من صباح يوم الاثنين، الموافق ٦ حزيران ١٩٥٦، على وجه الدقّة، وصلتنا أروع الأخبار: أبلغتني وزارة الداخليَّة أنَّه تمَّ قبول طلبي للحصول على الجنسيَّة.

إنَّه يوم عظيم بأخباره السعيدة. كانت مكافأتي لأنَّني قضيت عشر سنوات في فنزويلا من دون أن أقدّم للسلطات أيّ شيء تنتقده في سلوكي أو في الحياة التي عشتها كمواطن صالح. في الخامس من تموز من عام ١٩٥٦، وهو العيد الوطنيّ، كنت أقسم بالولاء لعلم بلدي الجديد، البلد الذي قبلني، على الرَّغم من ماضيَّ. كنَّا ثلاثمئة شخص نقف أمام العلم. جلست ريتا وكلوتيلد بين الحضور. من الصعب أن أقول أو أن أصفَ ما كنت أشعر به، كان هناك الكثير من الأفكار التي تدور في رأسي، والعديد من المشاعر في قلبي. تذكَّرت ما قدَّمه لي الشعب الفنزويليّ من مساعدة ماديّة وروحيّة، دون التذكير في كلّ مرّة أو في مناسبة بماضيّ. تذكَّرت أسطورة

إيانوماموس، الهنود الذين يعيشون على الحدود البرازيليّة، الأسطورة التي تقول إنّهم أبناء بيريبو، القمر. لمّا كان المحارب العظيم بيريبو في خطر التعرُّض للقتل بسهام أعدائه، قفز عالياً للهروب من الموت، إلى درجة أنّه صعد بعيداً في الهواء، على الرَّغم من تعرُّضه للضرب مرّات عدَّة. استمرَّ في الارتفاع، وقد تحوَّلت قطرات الدّم التي تسيل من جروحه إلى إيانوماموس عندما لامست الأرض. نعم، لقد فكَّرت في تلك الأسطورة، وتساءلت عمَّا إذا كان سيمون بوليفار، محرِّر فنزويلا، لم يبعثر دمه أيضاً لينتج جنساً من الرجال السخيين المنفتحين، الذين يورثون لهم أفضل ما في نفسه.

عزفوا النشيد الوطنيّ. وقف الجميع. حدَّقتُ بشدَّة إلى العلم المرصَّع بالنجوم وهو يرتفع، وانهمرت الدموع على خدّي.

أنا الذي اعتقدت أنَّه لا ينبغي لي أبداً أن أغنّي نشيداً وطنياً آخر في حياتي، لوَّثتُ كلمات نشيد وطني جديد مع الآخرين، بأعلى صوتي - «Abajocadenas»... «تسقط السلاسل».

نعم، شعرت حقّاً، في ذلك اليوم، أنَّها تسقط إلى الأبد، أي السلاسل التي كنت محمَّلاً بها. مدى الحياة.

«أقسم الولاء لهذا العلم، الذي هو ملكك الآن».

أقسمنا كلّنا الثلاثمئة؛ لكنَّني متأكّد من أنَّ الشخص الذي فعل ذلك بأكبر قدر من الإخلاص هو أنا، بابيون، الرجل الذي حكمت عليه دولته الأمّ بطريقة أسوأ من الموت بسبب جريمة لم يرتكبها. نعم، على الرّغم من أنَّ فرنسا كانت الأرض التي ولدتني، إلَّا أنَّ فنزويلا كانت ملاذي.

الفصل الثالث عشر

بعد سبعة وعشرين عاماً - طفولتي

تجري الأحداث الآن بسرعة كبيرة. بصفتي فنزويلياً، كان بإمكاني الحصول على جواز سفر، وقد حصلت عليه على الفور. كنت أرتجف من نأجج المشاعر التي كانت داخلي عندما تسلَّمته، وارتجفتُ مرَّة أخرى عندما استعدته من السفارة الإسبانيَّة مزداناً بتأشيرة أنيقة لمدَّة ثلاثة أشهر. ارتجفتُ عندما خُتم في حين كنت أصعد على متن سفينة نابولي، السفينة الرائعة التي نقلتني، أنا وريتا، إلى أوروبا، إلى برشلونة. ارتجفتُ عندما أعاده إليَّ الحرس المدنيّ في إسبانيا مع تأشيرة الدخول. كان جواز السفر هذا، الذي جعلني مواطناً لبلد ما مرَّة أخرى، ثميناً للغاية، إلى درجة أنَّ ريتا عملت على خياطة سحَّاب على كلّ جانب من جيوب المعطف الداخليَّة كي لا أفقده، مهما حدث.

كان كلُّ شيء جميلاً في أثناء هذه الرحلة، حتَّى البحر عندما كان قاسياً، حتَّى المطر الذي كان ينهمر بشدَّة على سطح السفينة، حتَّى الرجل سيّئ المزاج المسؤول عن الحجز، الذي سمح لي عن غير قصد بالذهاب إلى الأسفل للتأكّد من أنَّ لينكولن الكبيرة، التي كنا قد اشتريناها للتوّ، قد جرى تخزينها على نحو صحيح. كلّ شيء كان جميلاً. كنّا أنا وريتا سعيدين للغاية بهذه العطلة. سواء كنّا في غرفة الطعام أم في البار أم في الصالون، وسواء كان هناك أشخاص حولنا أم لا، ظلّت أعيننا تلتقي كي نتمكّن من

التحدُّث من دون أن يسمعنا أحد - لأنّنا كنّا ذاهبين إلى إسبانيا، على الحدود الفرنسيَّة، وكنا نذهب لسبب لم أجرؤ، إبّان السنوات الماضية، على تأمُّله.

كان الغرض من هذه الرحلة المجهَّزة على عجل، هو السماح لي برؤية أسرتي مرّة أخرى، على الأراضي الإسبانيَّة بعيداً عن متناول الشرطة الفرنسيَّة. لقد مرَّت ستة وعشرون عاماً مُذ رأيتهم آخر مرَّة. كنّا سنقضي شهراً كاملاً معاً، وكانوا سيكونون في ضيافتي.

مرَّ يوم بعد آخر، وغالباً ما كنت أذهب إلى القوس، وأمضي وقتاً طويلاً هناك، كما لو كان هذا الجزء من السفينة أقرب إلى وجهتنا. لقد مررنا بجبل طارق. لقد فقدنا رؤية الأرض مرَّة أخرى؛ كنا نقترب جداً.

استلقيتُ على نحو مريح على كرسيّ طويل، على متن نابولي، وحاولتْ عيناي اختراق الأفق؛ حيث ستظهر في أيّ دقيقة الآن أرض أوروبا. أرض إسبانيا ملتصقة بأرض فرنسا.

١٩٣٠ - ١٩٥٦ : ستة وعشرون عاماً. كنت حينها في الرابعة والعشرين من عمري. وأنا الآن في الخمسين. عمر كامل. كان قلبي ينبض بعنف عندما وصلت أخيراً إلى الساحل. ركضتْ الخطوط الملاحيَّة المنتظمة بسرعة، ونُحتَ حرف V ضخم في البحر، وانتشرت نهاياتها البعيدة حتّى اختفت تدريجياً وذابت في البحر.

لمَّا غادرت فرنسا على متن السفينة لا مارتينيي، السفينة اللعينة التي كانت تقلّنا إلى غيانا - نعم، لمَّا ابتعدتُ عن الساحل، لم أعد أراها: لم أرَ الأرض، أرضي، تبتعد عنّي تدريجياً إلى الأبد (كما اعتقدت آنذاك)، لأننا كنّا في أقفاص حديديَّة أسفل الحجز.

والآن، هنا مع جواز سفري الجديد الموجود في جيب سترة رجل اليخت، محمياً جيّداً بوساطة سحّاب رينا - جواز سفر بلدي الجديد، وهويّتي الأخرى. فنزويليّ، فنزويليّ؟ أنت، فرنسيّ، ولدت لأبوين فرنسيين - معلّمي مدارس، نعم، غالباً.

أرض أوروبا هذه التي تقترب بسرعة كبيرة إلى درجة أنّني أحدِّد المسافات البادئة بوضوح، في هذه الأرض دفنت والدتي، ثمّ لحق بها والدي، وكلّ موتاي، ويعيش عليها كلّ أفراد أسرتي.

أمّي؟ أم، جنية، نعم، لديك حنان لا مثيل له. كانت الصلة التي تجمعني بها عميقة، إلى درجة أنّنا كنّا مجرَّد كائن واحد، كما أعتقد.

ربّما كنت في الخامسة من عمري عندما اشترى لي جدّي تيري حصاناً ميكانيكياً جميلاً. كم كان رائعاً! كان أحمر اللون تقريباً! كان شعره أسود، على غرار شعر حصان حقيقيّ، وكان متدلّياً على الدوام من الجانب الأيمن. كنت أدوس على الدوَّاسة بقوّة، إلى درجة أنّه على سطح مستوٍ كان على الخادمة أن تركض لتلحق بي؛ ثمّ تدفعني إلى أعلى المنحدر الصغير الذي أسميته التلّ؛ وهكذا، بعد امتداد مستوٍ طويل آخر، وصلتُ إلى الحضانة.

مدام بونو، مديرة المدرسة وصديقة والدتي، استقبلتني أمام المدرسة؛ ومسّدتْ بيدها شعري الطويل المجعَّد الذي نزل على كتفي مثل الفتاة، وقالت للويس المسؤول عن النظافة: «افتح الباب على مصراعيه كي يتمكّن ريري من الركوب على حصانه الرائع».

كنت أدوس بكلِّ قوّتي، وذهبت إلى الملعب. أولاً، أجريت مسحاً كبيراً لكلّ ما حولي، ثمَّ ترجَّلت برفق، ممسكاً باللجام كي لا يتدحرج بعيداً. قبلت الخادمة

تيريز التي أعطت مدام بونو شطائري. وجميع الأولاد والبنات الآخرين، أصدقائي، جاؤوا لإبداء إعجابهم ولمس هذه الأعجوبة، الحصان الميكانيكيّ الوحيد في هاتين القريتين الصغيرتين، بون دي أوسيل وبون دوبيناس.

في كلّ يوم، قبل أن أرحل، طلبت إليَّ ماما إعارة الحصان إلى كلِّ واحد على حدة؛ لقد وجدت هذا صعباً نوعاً ما، لكنَّني كنت أفعله. لمَّا رنَّ الجرس، وضع لويس، البوَّاب، الحصان بعيداً تحت المنحدر، ووقفنا في الصفّ، وتوجَّهنا نحو المدرسة ونحن نغنّي: «لن نذهب إلى الغابة بعد الآن».

أعرف أنَّ طريقتي في سرد قصَّتي ستجعل بعض الناس يبتسمون؛ لكن عليك أن تفهم أنَّه حينما أتحدَّث عن طفولتي، فليس من يكتب رجلاً في الخامسة والستين من عمره، بل الطفل ريري من بون دي أوسيل هو الذي يكتب. الطفل الذي أثرت هذه الطفولة في ذهنه بعمق، ويكتب مستخدماً الكلمات عينها التي كان يستعملها حينها.

طفولتي... حديقة نما فيها الكشمش الذي أكلته أنا وأخواتي قبل أن ينضج، والكمثّرى التي نمت فيها بكثرة وكنَّا نقطفها قبل أن يأذن لنا والدي بفعل ذلك (من خلال الزحف مثل هنديٍّ أحمر كي لا يتمكَّن أحد من رؤيتي من نافذة في الشقّة، الموجودة في الطابق الأول). كنت آكل كثيراً من الكمثّرى، إلى أن يصيبني وجع بطن بعد ذلك.

كنت في الثامنة من عمري، لكنَّني غالباً ما كنت أخلد إلى النوم في حجر والدي أو بين ذراعي أمّي. في بعض الأحيان، لمَّا كانت أمّي تضعني في سريري الصغير، كنت أستيقظ بعض الشيء، وأضع ذراعيَّ حول رقبتها وأمسكها بقوّة، وكنّا نبقى في هذه الحال لفترة بدت لي وقتاً طويلاً، وأخيراً

كنت أنام من دون أن أعرف متى تركتني. كنت المدلَّل الأكبر بين الأبناء الثلاثة: إنَّه أمر عادل، أنا الصبيّ، الوريث الوحيد لاسم الأسرة في المستقبل. كانت شقيقتايَ أكبر منّي سناً. كانت الكبيرة تبلغ أحد عشر عاماً والصغيرة عشرة أعوام. لقد كنت أنا الملك وهما كانتا الأميرتين.

كم كانت والدتي جميلة! طويلة ونحيلة وأنيقة دائماً. كان يجب أن ترى كيف كانت تعزف على البيانو، حتّى عندما كنت أركع على كرسيّ خلف كرسيّ الموسيقا وأغمض عينيها بيديَّ الصغيرتين. أليس من الرائع أن تسمع والدتك وهي تعزف من دون أن تستطيع رؤية ملامس البيانو ولا حتَّى القطعة الموسيقيَّة التي تعزفها؟ لم يكن من المفترض أن تكون والدتي مدرِّسة. كان جدّي غنياً، ولم تكن والدتي في مدرسة عامَّة. كانت ماما وشقيقتها ليونتين في أغلى المدارس في أفينيون، على غرار الفتيات البرجوازيات. لم يكن ذنب والدتي أنَّ جدّي تيري كان يحبّ العيش؛ كان والدها لطيفاً جدّاً، لكن لأنَّه كان يحبّ إقامة حفلات رائعة في أفينيون ومقابلة كثيرات من زوجات المزارعين الجميلات، لم يكن لدى ماما مهر، واضطرَّت إلى كسب قوتها.

كلّ هذا، بالطبع، قد التقطته وهو يطير عندما يتحدَّث الكبار دون الالتفات إلى وجود طفل صغير، ولا سيَّما خالتي ليونتين، التي كانت تستضيف جدّي في منزلها في فابراس. بالإضافة إلى ذلك، كان من الممكن لوالدتي، وكذلك أختي، إنقاذ شيء ما لو لم يكن لدى جدّي فكرة مجنونة بإنشاء حدائق معلَّقة على أسطح منازله في سورج. قالت خالتي ليونتين: «كان يفكِّر في بابل!». أمّي، بلطف، تصحّح، قائلةً: «من الضروريّ أن نكون منصفين، هذه الحدائق على الأسطح كانت رائعة». المشكلة الوحيدة هي أنَّه بسبب هذه الحدائق الرائعة، غرقت المنازل، إلى درجة أنَّه كان لا بدَّ

من تعزيز جدرانها الأربعة بقضبان حديديّة ضخمة في شكل X. كانت النتيجة على النحو التالي: منازل جميلة جدّاً تباع بسعر باهظ.

كان جدّي رائعاً. كانت لديه لحية صغيرة وشاربان أبيضان كبياض الثلج. كنّا نتجوّل يداً بيد حول المزارع في الصباح، وبما أنّه كان سكرتيراً للبلديّة («كان عليه أن يكسب ماله من التبغ»، هذا ما قالته خالتي ليونتين)، كانت دائماً لديه أوراق ليأخذها إلى الفلّاحين أو ليأخذها من منازلهم. لقد لاحظت مدى صواب خالتي عندما قالت إنّه دائماً ما يقضي وقتاً في مزرعة معيّنة حيث كانت امرأة المنزل جيّدة المظهر. كنت سعيداً، لأنّها كانت المزرعة الوحيدة التي سمحوا لي فيها بركوب الحمار الصغير، وحيث استطعت اصطحاب ميريل، فتاة في سنّي. كنّا نلعب على الدوام دور الأب والأمّ.

كنت في الثامنة من عمري، وقد بدأت بالفعل في العبث. سرّاً ذهبت إلى السباحة في الآرديش. لقد تعلّمتها بنفسي في القناة. كانت عميقة، لكنّها كانت بعرض خمسة أمتار فقط. لم يكن لدينا لباس سباحة، بالطبع، سبحنا عراة، سبعة أو ثمانية صبية. كان علينا توخّي الحذر والانتباه إلى حارس الريف. قفزت فجأة في القناة. عليك أن تسقط على بطنك، وبسبب دافع الغطس الوحيد، تصل إلى الضفّة الأخرى تقريباً. كنت تقطع قامتين أو ثلاثاً بسرعة كبيرة! حين الوصول، تجد حشداً كبيراً من الصغار، وأنا منهم.

أوه، تلك الأيّام المشمسة في مياه الآرديش! سمك السلمون المرقّط الذي اصطدناه بأيدينا! لم أكن أذهب إلى المنزل قطّ إلى أن أجفّ تماماً. كان لديّ شعر قصير منذ أن أصبحت في عمر السنتين. كان ذلك أفضل، لأنّه كان يجفّ على نحو أسرع. كان إلى جوار المدرسة الابتدائيّة، حيث أخذنا الشقّتين في الطابق الأول، لأنّ أبي يعلّم الأولاد وأمّي تعلّم البنات، مقهى

تهتمّ به أسرة الدبان. كانت والدتي تعلم أنَّه مع هؤلاء الناس الطيبين سأكون بأمان. وحيثما أتيت كنت أجيب عن سؤالها المعتاد: «أين كنت يا ريري؟» بالردّ التالي: «لدى أسرة الدبان». كنت أستطيع بهذا الردّ التخلُّص من العديد من الأسئلة التي كانت ستعقب جوابي.

في عام ١٩١٤، اشتعل فتيل الحرب، واستُدعي والدي. ذهبنا معه حتّى محطّة القطار. كان ذاهباً مع صيّادي جبال الألب، وسيعود قريباً. قال لنا: «كونوا أبناء صالحين وأطيعوا أمّكم، على الدوام. وعليكما يا بنتيَّ المساعدة في الأعمال المنزليّة، لأنَّ والدتكما ستعتني بكلا الفصلين. ستقوم بالأمر بمفردها. هذه الحرب لن تدوم طويلاً. الجميع يقول ذلك». وقفنا هناك على الرصيف، وشاهدنا نحن الأربعة القطار وهو يتحرَّك. كان والدي يميل نصفه من النافذة ليلوّح لنا لأطول فترة ممكنة.

لم يكن لسنوات الحرب الأربع تلك أيّ تأثير في سعادتنا في المنزل. اقتربنا أكثر فأكثر أحدنا من الآخر. نمت في السرير الكبير مع والدتي. أخذت مكان والدي الذي كان يقاتل في الجبهة.

أربع سنوات في تاريخ العالم لا شيء. أربع سنوات لطفل في الثامنة كانت أبديّة.

كنت أنمو بسرعة. لعبنا دور الجنود في المعارك. كنت أعود إلى المنزل مغطّى بالكدمات، وملابسي ممزقة، لكن سواء كنت قد فزت أم خسرت، فقد كنت أعود إلى المنزل سعيداً على الدوام، ولا أبكي أبداً. كانت والدتي تضمِّد الخدوش، وتضع اللحم النيء على عينيَّ السوداوين. كانت توبّخني قليلاً، لكن بلطف. كانت لا تصرخ أبداً. وتوبيخها أشبه بالهمس. «كن

لطيفاً، يا صغيري ريري، والدتك متعبة. هذه الفئة المكوَّنة من ستين طفلاً مرهقة للغاية. أنا مرهقة تماماً، كما ترى؛ هذا أكثر ممّاً أستطيع تحمّله. حبيبي، يجب أن تساعدني في أن تكون جيداً ومطيعاً». كانت الأمور تنتهي دائماً بالقبلات والوعد بالتصرُّف على نحو جيّد.

كانت أختي الكبرى تبلغ من العمر ثلاثة عشر عاماً، وإيفون في الثانية عشرة. أنا أبقى الأصغر. وكانتا أيضاً تحبَّانني كثيراً. بالتأكيد،كنت أشدّ شعريهما أحياناً، لكن هذا الأمر كان نادراً ما يحصل.

أُغلقت آلة البيانو عندما غادر والدي إلى الحرب، ولم تُفتح إلَّا بعد عودته سالماً إلى المنزل.

كنّا نسرق الخشب المكدَّس تحت العجاف في المدرسة؛ وفي الليل، حينما تكون أمّي خائفة، كنت أحتضنها بقوّة، وأضع ذراعي الصغيرة حولها لجعلها تشعر أنَّني هنا لحمايتها، قائلاً: «لا تخافي يا ماما؛ أنا رجل المنزل، وأنا كبير بما يكفي للدفاع عنك». أنزلت مسدَّس بابا، وأدخلت خرطوشتين من طلقات الرصاص فيه. في إحدى الليالي استيقظت والدتي واستنجدت بي وهي تتصبَّب عرقاً، وقد همست في أذني قائلةً: «لقد سمعت صوت لصوص في المنزل. إنَّهم يصدرون ضجيجاً وهم يسحبون القطع الخشبيَّة».

- لا تخافي يا أمّي.

نهضتُ بهدوء شديد والمسدَّس في يدي. باهتمام غير محدود فتحت النافذة؛ صرخت قليلاً، وحبست أنفاسي. ثمَّ، سحبت المصراع نحوي بيد واحدة. حرَّرتُ الخطَّاف في نهاية البندقيَّة، استعداداً لإطلاق النار على اللصوص، ودفعت مصراع النافذة، دون إصدار أيٍّ صوت. أضاء القمر

الفناء كما لو كان نهاراً، ورأيت جيّداً أنّه لا يوجد أحد على الإطلاق. كانت كومة الخشب لا تزال مرتَّبة بدقَّة. «لا يوجد أحد يا أمّي. تعالي وانظري». تشبَّث أحدنا بالآخر، وبقينا أمام النافذة لبعض الوقت، وكلانا يشعر بالارتياح لرؤية أنّه لم يكن هناك لصوص. شعرت والدتي بالسعادة حين وجدتْ أنَّ ابنها الصغير كان شجاعاً.

على الرَّغم من كلِّ هذه السعادة، كنت أتصرَّف أحياناً على نحو سيّئ. طفل في العاشرة من عمره يعيش من دون والده. كنت لا أريد أن أسبّب أيَّ أذى لوالدتي التي أحبّها كثيراً. قطّة مربوطة من ذيلها إلى جرس الباب الأماميّ؛ درّاجة مأمور الصيد، التي ألقيت فوق الجسر في الأرديش - كان ينزل إلى النهر ليمسك بالصيادين الذين يصطادون بشبكة وأشياء أخرى... كنّا أحياناً نصطاد الطيور بالمقاليع؛ ومرّتين، لمّا كان عمري بين العاشرة والحادية عشرة، ذهبت أنا وريكيتديبانيس الصغير إلى الجبل حاملاً بندقيّة والدي لإطلاق النار على أرنب وهو يقفز في أحد الحقول. كنت أدخل البندقيّة وأخرجها من المنزل من دون أن تلاحظ والدتي، وفي تلكما المرّتين قمت بإنجاز هائل.

أصيب والدي عام ١٩١٧. تعرَّض لكثير من شظايا القذائف الصغيرة في رأسه، لكنَّ حياته لم تكن في خطر. جاء الخبر عبر الصليب الأحمر. مرَّت أربع وعشرون ساعة. عملت والدتي في تعليم فصلها كالمعتاد - لم يعرف أحد شيئاً. كنت أنظر إلى والدتي وأنا معجب بها. عادة، كنت أجلس في الصفِّ الأول. في ذلك اليوم، جلست في الخلف لأراقب جميع التلاميذ، مصمّماً على التدخّل إذا ما ارتكب أحدهم أيَّ أمر أحمق في أثناء الدروس. بحلول الساعة الثالثة والنصف كانت والدتي قد توقَّفت؛ كنت أعرف ذلك، لأنّه كان علينا حضور صفّ العلوم الطبيعيّة، لكنّها خرجت، وكتبت

مسألة حسابيّة على السبورة قائلةً: «يجب أن أخرج لبضع دقائق: انقلوا هذه المسألة الحسابيّة إلى دفاتركم».

خرجت وراءها. كانت تتكئ على الميموزا، التي كانت تنتصب إلى يمين البوّابة. كانت تبكي؛ لقد استسلمت أمّي العزيزة المسكينة.

عانقتها بشدّة، وبالطبع لم أبكِ. حاولت مواساتها، ولمّا قالت لي، وهي تبكي: «والدك المسكين مجروح»، تماماً كما لو لم أكن أعرف، أجبتها بقلب الطفل الصغير، قائلاً: «هذا أفضل بكثير يا والدتي. بهذه الطريقة انتهت الحرب بالنسبة إليه، ويمكننا التأكّد من أنّه سيعود حيّاً». حينها أدركت والدتي أنّني على حقّ.

- هذا صحيح تماماً! أنت على حقّ يا عزيزي. سيعود والدك إلينا حيّاً!

قبّلتني قبلة على جبهتي، وأخرى على خدّي، ورجعنا إلى الفصل يداً بيد.

كان الساحل الإسبانيّ مرئياً تماماً، وكان بإمكاني تحديد بقع بيض يجب أن تكون منازل. أصبح الساحل أكثر وضوحاً، تماماً على غرار تلك العطلات التي قضيناها عام ١٩١٧ في سان شاما، حيث أُرسل والدي للقيام بحراسة برميل البارود. لم تكن جروحه خطِرة للغاية، لكنّهم لم يكونوا قد استطاعوا إزالة الشظايا الدقيقة بعد. تمَّ تصنيفه كمساعد؛ لا مزيد من الخطوط الأماميّة بالنسبة إليه.

عدنا معاً مرّة أخرى، ممتلئين بالسعادة والفرح. كانت والدتي متألّقة: لقد خرجنا من هذه الحرب المروّعة. إنّما، بالنسبة إلى الآخرين، كان الأمر لا يزال مستمرّاً، وقالت لنا: «أعزائي، يجب ألّا تكونوا أنانيين وتقضوا كلَّ أيّامكم في الجري في الجوار وقطف العنّاب؛ يجب أن تخصّصوا ثلاث ساعات يوميّاً للتفكير في الآخرين».

ذهبنا مع والدتي إلى المستشفى، حيث كانت تعتني بالمرضى كلَّ صباح وهي ترسم البسمة والسعادة على وجوههم. كان على كلّ واحد منّا أن يفعل شيئاً مفيداً - دفع رجل مصاب بجروح بالغة على كرسيّه المتحرّك، أو قيادة مريض أعمى، أو وضع ضمادات ناعمة، أو كتابة رسائل، أو الاستماع إلى ما قاله الرجال المحبوسون في الفراش عن أُسرهم، ولا سيّما أطفالهم.

لمَّا كنَّا في طريقنا إلى المنزل في القطار، شعرت والدتي بمرض شديد. ذهبنا إلى منزل عمَّتي في لاناس، الذي يقع على بعد نحو ثلاثين كيلومتراً من أوبيناس - إلى تانت أنطوانيت، التي كانت تعمل أيضاً مدرّسة. لقد أُبعدنا عن والدتي، لأنَّ تشخيص الطبيب كان يقول إنَّه مرض معدٍ غير معروف، ويفترض أنَّه اكتُشف عندما كانت في الهند الصينيَّة في سانت شاما. ذهبت أختاي إلى مدرسة أوبيناس الثانويَّة، وأنا ذهبت إلى مدرسة البنين الداخليَّة.

يبدو أنَّ والدتي كانت تتحسَّن. إنَّما، على الرَّغم من كلّ شيء، كنت حزيناً، ورفضت يوماً الخروج في نزهة مع الآخرين. كنت وحدي أرمي السكّين نحو الشجرة، وأعيد رميه مراراً وتكراراً بلا كلل. أصبحت الساعة الخامسة، وبدأت الشمس تغرب. بدأ الأمر يزعجني الآن، أخذت أغيّر زاويتي. ثمَّ رأيت الموت يتقدَّم نحوي بصمت.

رُسل الموت، رؤوسهم منحنية، وجوههم مخبَّأة خلف حجاب كريب أسود على الأرض تقريباً: كنت أعرفهم جيّداً على الرغم من زخارفهم الجنائزيَّة - تانت أونتين وتانت أنطوانيت، والدة أبي، وخلفهنَّ الرجال، على الرّغم من أنَّهم كانوا يستخدمون النساء كشاشة. والدي منحنٍ بشكل نصفيّ، وجدّي، وجميعهم يرتدون ملابس سود.

لم أذهب نحوهم. لم أبدِ أيَّ حركة. كيف لي أن أتصرَّف؟ نشف دمي بالكامل، توقَّف قلبي، اغرورقت عيناي بالدموع، لكنَّهم لم يتمكَّنوا من إخراج دمعة واحدة. توقَّفوا مقابلي على بعد عشرة أمتار. هل كانوا خائفين - أو بالأحرى كانوا يشعرون بالخجل: كنت على يقين من أنَّهم يفضِّلون الموت في أقرب وقت من مواجهتي بما كنت أعرفه بالفعل، لأنَّه دون الحاجة إلى النطق بصوت عالٍ، قالت لي ملابسهم السود إنَّ والدتي قد توفيت، وقد ماتت وحيدة. لقد توفِّيت ودفنت دون أن تراني أو أن تقبّلني، وأنا كنت المفضّل لديها. أبي، كما في الحرب في الخندق، بالتأكيد، كان في المقدّمة. كان وجهه المسكين صورة لأشدّ معاناة يائسة. كانت دموعه تنهمر على وجهه بلا انقطاع. ما زلت جامداً في مكاني. لم يفتح لي ذراعيه. كان يعلم جيّداً أنّني لا أستطيع القيام بخطوة واحدة. وصل إليّ أخيراً وعانقني من دون أن ينبس ببنت شفة. ثمَّ، أخيراً بدأتُ أبكي عندما سمعت الكلمات: «لقد ماتت وهي تلفظُ اسمك».

المنزل الذي أتت إليه عمَّتي أنطوانيت لتتولّى المسؤوليَّة فيه من أمّي وأيضاً مسؤوليّة الصفّين. منزل جدَّتي وجدِّي العجوزين، ووالدَي أمِّي. المنزل الذي أُجبرت فيه على العودة خوفاً من تركي في المدرسة، في المنزل حيث يحاول رجل مسنٌّ وامرأتان منحي كلَّ أنواع العطف والحنان. المنزل حيث كلّ غرفة فيه كانت لي ملاذاً. المنزل الذي كان ممتلئاً بأشعَّة الشمس في نهاية هذا الصيف، بدا كئيباً ومظلماً وحزيناً ويائساً، حيث يتحدَّث جدّي عن والدي الذي سيأتي قريباً، والذي لا يأتي أبداً، المنزل حيث يزعجني كلّ شيء، أو كلّ شيء يؤلمني، الإيماءات والكلمات يمكن أن تكون لي، حتّى الصدق، فقط نتيجة معاكسة، المنزل لم يعد المنزل.

انتهت الحرب. عاد والدي إلى المنزل. نادى رجل لرؤيته، فأكلا الجبن وشربا بضع أكؤس من النبيذ الأحمر. أحصيا قتلى منطقتنا، ثمَّ قال الزائر شيئاً مروّعاً: «أمّا بالنظر إلينا، فقد خرجنا من هذه الحرب، حسناً، إيه، السيّد شاريير؟ وصهرك أيضاً. ربّما لم نفز بأيِّ شيء، لكن في الأقلّ لم نخسر شيئاً أيضاً».

خرجتُ قبل أن يغادر. حلَّ الليل. انتظرتُ أن يمرَّ الرجل ثمَّ رميت حجراً وضربته به على كامل مؤخّرة رأسه. ذهب إلى منزل أحد الجيران لتضميد جرحه - كان ينزف. لم يفهم من كان بإمكانه رمي الحجر عليه، أو لماذا. لم تكن لديه أيّ فكرة عن تعرُّضه للضرب، لأنّه نسي الضحيّة الأكثر أهمّيّة، الضحيّة التي لا يمكن تعويض خسارتها، في قائمته الخاصّة بقتلى الحرب. أمّي.

لا، لم نخرج من هذه الحرب اللعينة بخير.

في كلِّ عام، حينما يبدأ الفصل الدراسيّ الجديد، كنت أعود إلى المدرسة الثانويّة في كريست، في دروم، حيث كنت أستعدُّ لامتحان القبول للجامعة، وحيث كنت أودُّ دخول كليّة التصميم الصناعيّ والهندسة.

في المدرسة أصبحت قاسياً وعنيفاً للغاية. في لعبة الركبي، تعاملت بقوّة: لم أطلب خدمة من أحد، وبالتأكيد لم أعطِ شيئاً أيضاً لأحد.

ستّ سنوات حتّى الآن كنت متدرّباً في كريست، وستّ سنوات من كوني تلميذاً ممتازاً، ولا سيّما في الرياضيّات. إنّها، أيضاً ستّ سنوات من دون علامات على حسن السلوك. كانت ردّات فعلي سريعة للغاية. مرّة أو مرّتين في الشهر، دائماً في أيّام الخميس، كنت أتشاجر: الخميس هو اليوم الذي يأتي فيه آباء الأولاد لرؤيتهم.

تأتي الأمّهات لرؤية أبنائهنّ وتناول طعام الغداء معهم، وبعد ذلك، إذا كانت فترة ما بعد الظهيرة جيّدة، كنّ يتجولنَ مع أولادهنّ تحت أشجار الكستناء في ملعبنا. أقسمت كلّ أسبوع أنّني لن أنظر من نافذة المكتبة. إنّما، لم يكن الأمر في مقدوري. كان عليَّ فقط أن أستقرَّ في مكان يمكنني من خلاله رؤية كلّ شيء. ومن نافذتي اكتشفت أنَّ هناك نوعين من المواقف، وكلاهما أغضبني بشدَّة.

كان هناك بعض الأولاد الذين كانت أمّهاتهم عاديّات أو سيئات الملبس أو يشبهنَ الفلّاحات. فكان أصدقائي يخجلون منهنَّ! كنت أرى هذا الأمر بأمِّ عيني. بدلاً من الدوران حول الفناء أو المشي من طرف إلى آخر، كانوا يجلسون على مقعد في الزاوية ولا يتحرّكون أبداً. كان لدى الأوغاد بالفعل فكرة عن شكل الأشخاص المتعلّمين والمتميّزين، وأرادوا أن ينسوا أصولهم قبل أن يصبحوا أصلاً مهندسين.

لم يكن من الصعب اختيار مشاجرة من هذا النوع. إذا رأيت أحدهم يرسل والدته المحرجة بعيداً مبكراً ويدخل المكتبة، استقبلته في الحال، قائلاً: «قل لي يا بيرو، لماذا جعلت والدتك تذهب باكراً؟»

- إنّها في عجلة من أمرها. لديها أمور أخرى تنجزها.

- هذا ليس صحيحاً؛ والدتك تأخذ القطار إلى جاب في السابعة. سأخبرك لماذا طردتها: هذا لأنّك تخجل منها، وأنت لا تجرؤ على إخباري أنَّ هذا ليس صحيحاً، أيّها الأحمق!

في مثل هذه المشاجرات، كنت دائماً تقريباً أنا المنتصر. قاتلتُ كثيراً إلى درجة أنّني أصبحت جيّداً جدّاً بقبضتي. حتّى لمّا كان خصمني ينهال عليَّ

بضرباته أكثر ممّا كنت أضربه، لم أبالِ - لقد أحببت ذلك تقريباً. لكنّني لم أذهب قطّ إلى صبيٍّ أضعف منّي.

المواقف الأخرى التي كانت تثير غضبي، والتي دفعتني إلى قتال أصحابها بوحشيَّة، أولئك الذين أسميتهم بالمتبجِّحين. هؤلاء هم الرجال الذين لديهم أمَّهات جميلات ومتميّزات. حينما تبلغ من العمر ستَّة عشر أو سبعة عشر عاماً، تكون فخوراً بإظهار أمٍّ كهذه. كان واحدهم يتمايل في الفناء، ممسكاً بذراع أمّه ويتبختر، ما يدفعني إلى الجنون.

كلَّما تباهى أحدهم كثيراً، أو إذا كانت والدته لديها طريقة في المشي تذكّرني بوالدتي، أو إذا كانت ترتدي قفازات وتخلعها وتمسكها برشاقة في يد واحدة، فلا يمكنني تحمُّل ذلك، أفقد عقلي بغضب.

في اللحظة التي دخل فيها الجاني، ذهبت إليه قائلاً: «ليس عليك أن تستعرض هكذا، أيُّها القرد الكبير؛ ليس مع أمٍّ ترتدي أزياء العام الماضي. كانت والدتي أفضل مظهراً وأكثر إشراقاً وتميّزاً من والدتك. كانت جواهرها حقيقيَّة وليست زائفة على غرار جواهر والدتك. مثل القمامة! حتّى الشخص الذي لا يعرف شيئاً عن الأمر يمكنه رؤية ذلك على الفور».

بطبيعة الحال، لم ينتظر معظم الرجال حتَّى أنهي كلامي قبل أن يضربوني على وجهي. في بعض الأحيان، تكون الضربة الأولى من نصيب رأسي. قاتلت بعنف: نطحت، ركلت كالبغال، باستخدام مرفقي في الاقتتال الداخليّ؛ وكان الفرح يغمرني، كما لو كنت أسحق كلَّ الأمَّهات اللواتي تجرَّأنَ على أن يكنَّ جميلات ورائعات مثل أمّي.

أنا حقاً لا أستطيع السيطرة على ردَّات فعلي. منذ وفاة والدتي، عندما كنت في الحادية عشرة من عمري تقريباً، كنت أشعر بهذا الغضب الشديد في داخلي. لا يمكنك فهم الموت عندما تكون في الحادية عشرة من عمرك: لا يمكنك قبوله. ربَّما يموت كبار السنّ، لكنَّ والدتك الممتلئة بالشباب والجمال والصحَّة كيف تموت؟

تغيَّرت حياتي تماماً بسبب قتال من هذا النوع.

لا يمكن لهذا الشخص أن ينام مرتاح البال بعد المسرحيَّة الكوميديَّة التي قدَّمها بعد الظهر. كان الرجل أحمق مدّعياً، فخوراً بكونه في التاسعة عشرة من عمره، وفخوراً بنجاحه في الرياضيّات. إنّه طويل جدّاً لا يجيد الألعاب لأنّه كان يدرس طوال الوقت، لكنَّه قويّ جدّاً. في أحد الأيّام، لَمَّا كنّا ذاهبين في نزهة على الأقدام، رفع جذع شجرة ضخماً بمفرده كي نتمكَّن من الوصول إلى الحفرة التي كان يختبئ فيها فأر الحقل.

كان هذا الزميل قد جنى على نفسه في ذلك الخميس بالذات. أمٌّ طويلة ونحيلة، ترتدي فستاناً أبيض منقّطاً باللون الأزرق. لو كانت تحاول تقليد أحد فساتين والدتي لما كانت ستفعل بشكل أفضل. عينان كبيرتان سوداوان، قبَّعة صغيرة جميلة مزدانة بقماش من النول الأبيض.

كان هذا المهندس يتبختر في الفناء معها طوال فترة بعد ظهر ذلك اليوم، صعوداً وهبوطاً، ذهاباً وإياباً. في كثير من الأحيان كانا يقبِّل أحدهما الآخر. كانا تقريباً مثل عاشقين.

ما إن أصبح بمفرده، بدأت حديثي معه، قائلاً: «حسناً، أنت أعجوبة العالم، حسناً. أنت بارع في أداء أعمال السيرك كما تفعل في الرياضيّات. لم أكن أعلم أنّك كنت مثل...»

- ما خطبك يا هنري؟

- ما الخطأ لديَّ. مشكلتي معك أنَّني يجب أن أخبرك فقط أنَّك تظهر مع والدتك كما لو أنَّها دبٌّ في سيرك، لتذهل رفاقك. حسناً، افهم هذا: لست دَهشاً. لأنَّ والدتك لا تقارن بأيِّ شيء على الإطلاق: إنَّها تلاحق البهرجات التي رأيتها في أثناء الموسم في فالس ليه بان.

- اسحب كلامك هذا، أو سأفسد لك وجهك؛ وأنت تعلم أنَّني أضرب بقوَّة. أنت تعلم أنَّني أقوى منك.

- أنت تحاول الخروج من هذا المأزق، أليس كذلك؟ اسمع: أعلم أنَّك أقوى منّي. لذلك، لتحقيق التوازن بين الأشياء، سيكون لدينا مبارزة. إذا لم تكن قذراً، وإذا كنت تستطيع الدفاع عن نفسك، فسأنتظرك خلف المرحاض في غضون خمس دقائق.

- سأكون هناك.

بعد بضع دقائق نزل، ودفنت نقطة الفرجار الخاصَّة بي عميقاً تحت قلبه.

جاء أبي. إنَّه طويل، نحو مئة وثمانين سنتيمتراً، ثقيل بعض الشيء، كما يمكن أن يكون ابن مدرِّس وامرأة فلّاحة. لديه وجه مستدير، لطيف للغاية، عينان بنيتان فاتحتان متلألئتان كالذهب، نظرة ممتلئة بالأشياء، شبه طفوليَّة، ربَّما بسبب كلّ هؤلاء الطلّاب الذين ينظرون إلى بعضهم بعضاً في عينيه كما في المرآة. بالتأكيد، كانت عيناه تظهران شيئاً نقيّاً للغاية، غامضاً، لا يمتلكه سوى الطفل: سذاجة، طبيعيَّة.

بالنظر إليه، فإنَّ موت والدي ليس فقط خسارة فادحة.

كنت في السابعة عشرة من عمري عندما رأيت أنا وأبي قاضي التحقيق المسؤول عن قضيَّتي. أخبر والدي أنَّ الطريقة الوحيدة لوقف الإجراءات، هي إجباري على الانضمام إلى البحريَّة. وبقيت في مركز الدرك في أوبيناس مدَّة ثلاث سنوات.

لم يلمني والدي حقّاً على الشيء الجادّ الذي فعلته.

- إذا فهمتُ على نحو صحيح يا هنري، -يقول لي هنري عندما يقصد أن يكون شديداً - فأنا أعتقد أنَّك اقترحت القتال بسلاح لأنَّ خصمك كان أقوى منك؟

- نعم يا والدي.

- حسناً، لقد أخطأت. هذه هي الطريقة التي يقاتل بها الأشرار. وأنت لست شريراً، يا بني.

- لا.

- انظر إلى الفوضى التي أوقعت نفسك فيها. فكِّر في كيفيَّة إيذاء والدتك.

- لا أعتقد أنَّني آذيتها.

- لمَ لا، يا هنري؟

- لقد كانت هي التي أقاتل من أجلها.

- ماذا تقصد؟

- أعني أنَّني لا أستطيع تحمُّل رؤية الأولاد الآخرين يتباهون بأمَّهاتهم أمام عينيَّ.

- سأخبرك شيئاً، يا هنري: لم تكن والدتك راضية عن هذه المعركة، وكلّ ما حدث قبل ذلك. لم يكن ذلك بسبب الحبّ الحقيقيّ لها. السبب

أنَّك أنانيّ. لأنَّ القدر أخذ والدتك منك، فأنت تريد أن يكون الأمر نفسه لدى جميع الأولاد الآخرين.

إذا كنت حقاً انعكاساً لروح والدتك، فستكون سعيداً لسعادة الآخرين. انظر الآن، من أجل الخروج من هذا عليك الانضمام إلى البحريّة: ثلاث سنوات في الأقلّ، ولن تكون سهلة. سأعاقَب أيضاً، لأنَّ ابني سيكون بعيداً عنّي مدَّة ثلاث سنوات.

ثمَّ قال شيئاً ظلَّ دائماً محفوراً في قلبي: «أنت تعرف، يا ولدي العزيز، أنَّه يمكنك أن تصبح يتيماً في أيٍّ عمر. تذكَّر ذلك طوال حياتك».

... صافرة نابولي جعلتني أقفز. لقد قضت على ذلك الماضي البعيد، تلك الصور الخاصَّة بعامي الثامن عشر، عندما خرجت أنا وأبي من عند قوّات الدرك حيث كنت قد جُنّدت للتوّ. إنَّما، بعد ذلك مباشرة، ظهرت أكثر الذكريات تعاسة، اللحظة التي رأيته فيها للمرَّة الأخيرة.

كان في إحدى غرف الزيارة القائمة في سجن سانتي - كلّ واحد منّا في صندوق بقضبان يفصل بينها ممرّ بعرض متر. لقد أصابني الخجل والاشمئزاز لما كانت عليه حياتي، وما جلب والدي إلى هنا، إلى قفص الحيوانات البريَّة هذا.

لم يأتِ ليلومني لكوني مشبوهاً في عالم الجريمة. كان لديه الوجه المدمّر نفسه الذي رأيته في اليوم الذي أخبرني فيه بوفاة والدتي، وقد دخل هذا السجن من تلقاء نفسه لرؤية ولده مدَّة نصف ساعة، وليس لإدانة سلوكه السيّئ أو لجعله يفهم ما كان يعنيه هذا العمل لشرف أسرته وراحة البال، أو ليقول «أنت ابن سيّئ»، وإنَّما ليستغفر لي لأنَّه لم ينجح في تربيتي على نحو صحيح. ما قاله هو آخر شيء كان يجب أن أتوقَّعه، الشيء الوحيد الذي

يمكن أن يلمس قلبي بعمق أكثر من كلِّ اللوم في العالم: «أعتقد، يا ريري، أنَّك من خلال خطئي، أنت هنا. سامحني لأنّي أفسدتك كثيراً».

لا شيء يمكن أن يكون أكثر عدائيَّة من الانضباط الحديديّ للبحريَّة، عام ١٩٢٣. جرى تبويب التصنيفات في ستّ فئات، وفقاً لمستوى تعليمهم. كنت في القمَّة، في المستوى السادس. هذا الفتى البالغ من العمر سبعة عشر عاماً، الذي خرج للتوّ من الفصل الذي كان يستعدُّ لدراسة الهندسة، لم يستطع فهم أو تكييف نفسه مع الطاعة العمياء والفوريّة للأوامر التي يقدّمها مسؤولو الإمداد الذين ينتمون إلى أدنى مستوى فكريّ. في الأكثر، هم من الدرجة الثالثة في التعليم العامّ.

أنا في حربٍ حقيقيَّة. لم أستطع طاعة الأوامر التي ليس لها هدف أو سبب. لقد رفضت الالتحاق بأيِّ دورة تخصّصيَّة، وهو الشيء الطبيعيّ لرجل متعلّم مثلي أنا، وصُنّفت على الفور بين الأنواع «غير المتخصّصة»، غير المنضبطة، وغير الجيّدة.

كنَّا نحن من ينجز جميع الوظائف الأكثر شرّاً وبلاهةً وغباء. على غرار: تقشير البطاطس، تنظيف المراحيض، تلميع النحاس طوال اليوم، تجريف الفحم، ومسح السطح: كلّ هذه المهام كانت من نصيبنا نحن.

- لقد انتهينا من مسح سطح السفينة.

- هل هذا صحيح؟ حسناً، ابدأ من جديد، وهذه المرَّة امسحه من الخلف إلى الأمام. وإذا لم يكن الأمر أكثر نظافة هذه المرَّة، فسوف ترى ما لا يعجبك.

إنَّ مشهد البحَّار رائع وهو يرتدي قميصه ذا الياقة الزرقاء العريضة، وقبَّعته المائلة قليلاً، المسطَّحة كالفطيرة، والزيُّ الرسميُّ الذي يرتديه متناسق في شكل صحيح. إنَّما، لم يُسمح لنا، نحن الأثرياء، بإعادة ترتيب أشيائنا. كلَّما

كنّا نرتدي ملابس أسوأ وكان مظهرنا أكثر كآبة، كان هذا من دواعي سرورهم. في مثل هذه الأجواء المتمرّدة لا يتوقَّف المرء أبداً عن التفكير في الإساءات. في كلّ مرّة كنّا فيها إلى جانب الرصيف، في سبيل المثال، كنّا نترك الشاطئ ونمضي الليل في المدينة. أين نذهب؟ إلى بيوت الدعارة بالطبع. مع صديق أو اثنين، كنت أُهيِّئ الأشياء في أيِّ وقت من الأوقات على الإطلاق. على الفور، كلّ واحد منّا لديه عاهرة. ولم نمارس الحبَّ مجاناً فحسب، بل كنّا نحصل أيضاً على فاتورة أو اثنتين لشراب أو وجبة من نسائنا.

أصبحت العقوبات أكثر تواتراً. اعتقال لخمسة عشر يوماً؛ ثمَّ لثلاثين. رفض الطبَّاخ إعطاءنا قليلاً من اللحم وقطعة خبز بعد تقشير البطاطس، فسرقنا ساقاً كاملة من لحم الضأن. شويناها باستخدام خطّاف وزلقها فوق الموقد عندما أدار ظهره. أكلناها في قبو الفحم. النتيجة: خمسة وأربعون يوماً في السجن البحريّ؛ في منتصف الشتاء كنت عارياً تماماً في ساحة سجن تولون، مقابل مغسلة ذات حوض ضخم من المياه الجليديَّة، الذي اضطررنا إلى الغطس فيه.

لقد كانت قبَّعة بحَّار لا تساوي عشرة فرنكات، هي التي أحضرتني أمام مجلس التأديب. التّهمة: تدمير ممتلكات بحريَّة.

في البحريَّة، غيَّر الجميع شكل قبَّعته. ليس بشكل مدمّر - لقد كان من الممكن أن تكون مسألة جيّدة. لقد عملت على ترطيبها أوّلاً، ثمَّ شدَّها ثلاثة منّا بأقصى ما يمكن، بحيث حينما تضع قطعة من عظام الحوت في الداخل، فإنَّها تكون مسطَّحة مثل الفطيرة. قالت الفتيات: «إنَّه لأمر رائع، قبَّعة مسطَّحة عاديّة». جزئيّاً، غطاء مع كرة جميلة بلون الجزر، ومزيَّنة بعناية

بالمقصّ. عرفت جميع الفتيات في البلدة أنَّ من حسن الحظّ أن يلمسنَ كرة، وأنَّه كان عليها أن تدفع مقابل لمسها قبلة.

كان سيّد الذراعين وحشاً غليظ الرأس - لم يتركني كرهه للحيوانات الأليفة في سلام قطّ. ظلَّ ورائي ليلَ نهار، إلى درجة أنّني ذهبت ثلاث مرَّات. على الرّغم من ذلك، فإنَّ المدَّة لا تزيد عن خمسة أيّام وثلاث وعشرين ساعة، لأنَّه بحلول اليوم السادس يجري وصفك كهارب. هاجرت، وأوشكت أن أكون في نيس. قضيتُ الليلة مع فتاة رائعة، واستيقظت في وقت متأخّر. ساعة أخرى وأكون على القائمة. أسرعت وأنا أرتدي ملابسي، وغادرت هارباً بحثاً عن شرطيّ لأجعله يلقي القبض عليّ. رأيت أحدهم، وهرعت إليه وطلبت إليه إلقاء القبض عليَّ. لقد كان عجوزاً سميناً. «تعالَ الآن، يا فتى، لا تُؤخذ في حالة من الذعر. فقط عليك أن تعود بهدوء إلى سفينتك وتخبرهم جميعاً. لقد كنّا جميعاً صغاراً ذات مرّة».

أخبرته أنَّ بعد ساعة من الزمن سيعدُّونني هارباً؛ لكنَّه لم يستمع إليّ. لذا التقطت حجراً، والتفتُّ إلى نافذة متجر، وقلت للشرطيّ: «إذا لم تعتقلني، فسوف أحطِّم هذه النافذة في ثانية واحدة».

إنَّها، هذه المرّة، أرسلوني إلى الأقسام التأديبيَّة في كالفي، في كورسيكا. لا أحد يستطيع أن يشكَّ في أنَّ هذه كانت خطوتي الأولى نحو تسوية العقوبات.

كانوا يطلقون على القسم التأديبيّ اسم «لا كاميز»، وكان لدينا زيٌّ خاصّ. بمجرَّد وصولك إلى هناك، تذهب أمام لجنة استقبال، ويقرّرون ما إذا كنت ستصنّف ككاميز أصليّ أو لا. كان عليك إثبات أنَّك رجل من خلال القتال مع اثنين أو ثلاثة من كبار السنّ، واحداً تلو الآخر. من خلال

تدريبي في مدرسة كريست الثانويّة، أبليت بلاءً حسناً. في أثناء القتال الثاني، لَمّا انشقّت شفتايَ، وأخذ أنفي ينزف دماً، أوقف الكبار الاختبار. لقد جرى تصنيفي ككاميز أصليّ.

لا كاميز. عملت في مزارع الكروم لأحد أعضاء مجلس الشيوخ الكورسيكيّ، من شروق الشمس حتّى غروبها: لا استراحة مع القليل من الخدمات. لم نعد حتّى بحّارة: كنّا ننتمي إلى فوج المشاة ١٧٣ في باستيا. لا يزال بإمكاني رؤية تلك القلعة في كالفي، مشينا حوالي خمسة أمتار حتى وصلنا إلى كالينزانا، حيث كنّا نعمل ثمّ نعود في طريقنا إلى السجن. لقد تمرَّدنا؛ ولأنّني كنت أحد زعماء العصابة، فقد أُرسلتُ مع عشرات آخرين إلى معسكر تأديبيٍّ أكثر صرامةً في كورتي.

قلعة أعلى قمّة الجبل: ستمئة درجة صعوداً، ومثلها نزولاً، مرّتين في اليوم، للعمل على إنشاء ملعب للمجنَّدين بالقرب من المحطّة.

لَمّا كنت في ذلك الجحيم، مع هذا القطيع من المتوحّشين، وصلتني رسالة من أحد المدنيين من كورتي سرّاً: «عزيزي، إذا كنت تودُّ الخروج من هذا المكان الرهيب، فاقطع إبهامك. ينصُّ القانون على أنَّ فقدان الإبهام، مع أو من دون حفظ المشط، يؤدّي تلقائيّاً إلى نقلك إلى صفوف العناصر المساعدة؛ وإذا كانت هذه الإصابة ناجمة عن حادث في أثناء الخدمة، فإنّها تؤدّي إلى عجز دائم عن الخدمة المسلّحة، ومن ثَمَّ التسريح وفق قانون ١٨٣١، تعميم ٢٣ تكوز ١٨٨٣. أنا في انتظارك. كلارا. العنوان، الطاحونة الحمراء، تولون، شارع ريزيرفيه».

لم أتأخَّر. اشتمل عملنا على حفر نحو مترين مكعَّبين من الأرض كلَّ يوم ونقلها في عربات يدويَّة إلى مكان يبعد خمسين متراً، حيث تأخذ

الشاحنات كلَّ ما لم يكن ضروريّاً لتسوية الأرض. لقد عملنا في فريق مكوّن من شخصين. يجب ألّا أقطع إبهامي بأداة ذات حواف، عليَّ ألّا أشوّه نفسي، وهذا سيكلّفني خمس سنوات أخرى من الكاميز.

بدأت أنا وزميلي الكورسيكيّ، فرانكي، العمل في أسفل الجبل، وحفرنا فيه كهفاً بحجم معقول. ضربة أخرى وكلّ شيء أعلاه سيقع عليَّ. كان ضبّاط الصفّ المشرفون قساة: كان الرقيب ألبرتيني خلفنا على بعد مترين أو ثلاثة فقط. جعل هذا العمل صعباً، لكنَّ مزيّته الوحيدة تمثّلت في أنّه إذا سارت الأمور على ما يرام، فسيكون شاهداً محايداً.

وضع فرانكي حجراً كبيراً بحافة حادّة إلى حدٍّ ما تحت قطعة معلّقة؛ وضعت إبهامي الأيسر عليها، وحشوت منديلي في فمي حتّى لا أُخرج أقلَّ صوت. سيكون أمامنا خمس أو ستّ ثوانٍ لدفع الكتلة عليَّ. كان فرانكي سيحطّم إبهامي بحجر آخر يزن نحو عشرين رطلاً: لا يمكن أن يفشل. سيضطرُّون إلى بتره حتّى لو لم تنزعه الضربة بالكامل.

كان الرقيب على بعد ثلاثة أمتار منّا، وهو يزيل التراب عن حذائه. أمسك فرانكي الحجر ورفعه نحو الأعلى قدر ما استطاع، وأسقطه. غدا إبهامي في حالة من الفوضى الممزقة. امتزج صوت الضربة مع ضوضاء الفؤوس في كلِّ مكان، ولم يرَ الرقيب شيئاً. تأرجحت مع الكمّاشة ونزلت الكتلة فوقي. تركت نفسي لأدفنَ. خوار، صراخ طلباً للمساعدة: لقد حفروا من أجلي، وظهرت أخيراً مغطّى بالتراب وإبهامي محطّم. كنت أعاني، كأنَّ روحي تُشوى في نار جهنم. ومع ذلك، فقد تمكّنت من أن أقول للرقيب: «سيقولون إنّني فعلت ذلك عن قصد: كما ترى».

- لا، شاريير. رأيت الحادث: أنا شاهد. أنا صعب لكنّي عادل. سأخبرهم بما رأيته، ولا تخفْ أبداً.

بعد شهرين، خرجت مع معاش تقاعديّ وبإبهامي المدفون في كالفي، ونُقلت إلى المستودع رقم ٥ في تولون، وهناك سمحوا لي بالذهاب.

ذهبت لأقول شكراً لكلارا في مولان روج. كانت ترى أنّه لن يلاحظ أحد حتّى عدم وجود إبهام في يدي اليسرى، وأنّه يمكنني ممارسة الحبّ أيضاً بأربعة أصابع، كما هي الحال مع خمسة. هذا هو ما يهمُّ حقّاً.

- لقد تغيَّرتَ بطريقة ما يا ريري. لا أستطيع أن أقول تماماً كيف. آمل ألّا تكون الأشهر الثلاثة التي قضيتها مع أولئك غير المرغوب فيهم، قد تركت كثيراً من الآثار عليك أو في نفسك.

كنت هناك مع والدي في منزل طفولتي: لقد عدت بسرعة بعد خروجي. هل كان هناك بعض التغيير العميق في نفسي؟ «لا أستطيع أن أخبرك يا والدي: لا أعرف. أعتقد أنّني أكثر عنفاً وأقلّ رغبة في إطاعة قواعد الحياة التي علّمتني إيّاها عندما كنت طفلاً صغيراً. ربّما أنت على حقّ: لقد تغيَّر شيء ما في داخلي. أشعر بذلك، لوجودي هنا في هذا المنزل، حيث كنّا سعداء جدّاً بوالدتي وشقيقتي. لا بدَّ أنّني أصبحت أكثر صعوبة».

- ماذا ستفعل؟

- بمَ تنصحني؟

- ابحث عن وظيفة في أسرع وقت ممكن. أنت الآن في العشرين من عمرك، يا ولدي.

قدَّمت امتحانين؛ واحد في برايفاس إلى مكتب البريد؛ والآخر في أفينيون إلى وظيفة مدنيَّة في الإدارة العسكريَّة. ذهب جدّي تيري معي.

سارت الأمور على ما يرام تماماً بشأن الامتحانين، الكتابي والشفوي. كنت ألعب اللّعبة. لم يكن لديَّ أيُّ اعتراض على اتّباع نصيحة والدي - سأكون موظَّفاً حكوميّاً وسأعيش حياة كريمة لائقة. إنَّما، الآن، لا يسعني إلّا أن أتساءل إلى متى سيبقى الشابّ شاريير موظّفاً حكوميّاً مع كلّ ما كان يغلي في داخله؟

لمَّا وصل المنشور الصباحيّ مع نتائج الامتحان، قرَّر أبي المسرور أن يقيم حفلاً صغيراً على شرفي. كعكة ضخمة وزجاجة شمبانيا حقيقيَّة وابنة زميل مدعوّة إلى الاحتفال. «كانت ستكون زوجة طيّبة لابني». أوّل مرَّة منذ عشر سنوات، كان المنزل يغمره الفرح.

تجوَّلتُ في أرجاء الحديقة مع الفتاة التي كان بابا يحلم بها زوجة لابنه، فتاة قد تجعل ولده الصغير سعيداً. كانت جميلة، ونشأت نشأةً جيّدة، وذكيَّة للغاية.

بعد شهرين، انفجرت القنبلة المؤقَّتة! «نظراً لأنَّك لم تتمكَّن من تزويد مكتبنا المركزيّ بشهادة حسن السيرة والسلوك من البحريَّة، فإنَّنا نأسف لإبلاغك بأنَّه لا يمكنك الدخول في خدمتنا».

بعد أن وصلتِ الرسالةُ، حطَّمتْ كلَّ أوهامه، كان بابا حزيناً، فلم يقل الكثير. كان يعاني.

لماذا عليَّ الاستمرار في العيش في مثل هذا الوضع؟ ذهبت سريعاً وأحضرت حقيبة سفر وبعض الملابس: استفدت من اجتماع المعلّمين في أوبيناس، وانطلقت.

أمسكتني جدَّتي على الدرج. «إلى أين أنت ذاهب يا هنري؟»

- أنا ذاهب إلى مكان حيث لا يطلبون إليَّ شهادة حسن السلوك من البحريَّة. سأرى أحد الرجال الذين عرفتهم في الأقسام التأديبيَّة في كالفي، وسيعلّمني كيف أعيش خارج هذا المجتمع الذي كنت غبيّاً بما يكفي لأؤمن به - مجتمع يعرف جيّداً ولا يمكنني أن أتوقَّع شيئاً منه. أنا ذاهب إلى باريس، إلى مونمارتر، يا جدَّتي.

- ماذا ستفعل؟

- لا أعرف حتّى الآن، لكن بالتأكيد ليس جيّداً. وداعاً يا جدَّتي. امنحي بابا قبلة كبيرة منّي.

كنّا نقترب من اليابسة، ويمكننا الآن رؤية نوافذ المنازل. كنت أعود بعد رحلة طويلة جدّاً جدّاً لرؤية أهلي: لرؤيتهم بعد ستّة وعشرين عاماً.

بالنظر إليهم، كنت ميتاً. بالنظر إلى أطفالهم، لم أكن موجوداً من قبل - لم يُنطَق اسمي مطلقاً. أو ربَّما نطقوه مرَّات عدَّة عندما كانوا بمفردهم مع والدي. فقط، في غضون هذه السنوات الخمس الماضية، يجب أن يكونوا قد قدَّموا لأطفالهم، تدريجيّاً، فكرة عن الخال هنري، الذي عاش في فنزويلا.

لقد تقابلنا بعد خمس سنوات. إنَّما، مع ذلك، ألن يخافوا ممَّا قد يقوله الناس؟ ألن يشعروا بالتوتُّر أكثر من لقاء محكوم سابق هارب من إسبانيا؟

لم أكن أريدهم أن يخرجوا عن الواجب. كنت أريدهم أن يأتوا بقلوبهم الممتلئة بالمشاعر الحقيقيَّة نحوي.

آه، لكن إذا كانوا يعرفون فقط... إذا كانوا يعرفون فقط - كان الساحل يقترب ببطء الآن، لكن كيف ابتعد عنّي منذ ستّة وعشرين عاماً - إذا كانوا

يعرفون فقط كيف كنت معهم كلَّ الوقت في تلك السنوات الأربع عشرة من السجن!

لو تمكّنت شقيقتايَ فقط من رؤية كلّ رؤى طفولتنا التي صنعتها لنفسي في الزنزانات وأقفاص الوحوش البريَّة في العزلة!

لو كانتا تعرفان فقط كيف أبقيت نفسي أتواصل معهما ومع كلّ أولئك الذين شكّلوا أهلنا، مستمدّاً منهم القوّة للتغلّب على ما لا يُطاق، لإيجاد السلام وسط البأس، لنسيان كوني سجيناً، ورفض الانتحار- لو كانوا يعرفون فقط كيف امتلأت الأشهر والأيّام والساعات والدقائق والثواني من تلك السنوات من العزلة المطلقة والصمت المطلق لتفيض بأحداث طفولتنا الرائعة!

اقتربنا من الساحل. رأينا برشلونة: أوشكنا أن ندخل ميناءها. كانت لديَّ رغبة جامحة في رفع يدي والصراخ بكلِّ قوّتي، «مرحباً! إنّي قادم! تعالَ بأسرع ما يمكن!» تماماً كما كنت أصرخ عندما كنّا أطفالاً في حقول فابراس ووجدت بقعة كبيرة من البنفسج.

- ماذا تفعل هنا يا عزيزي؟ لقد كنت أبحث عنك في الساعة الماضية. حتّى إنَّني نزلت إلى السيَّارة.

من دون أن أنهض، وضعت ذراعي حول خصر رينا؛ انحنت وأعطتني قبلة صغيرة على وجنتي. حينها فقط أدركت أنَّه على الرَّغم من أنَّني كنت سأقابل أهلي الممتلئين بالتساؤلات عنّي، وبالأسئلة التي يجب طرحها أيضاً، فهناك بين ذراعيَّ أسرتي الخاصَّة، الأسرة التي أسَّستها، والتي أوصلتني إلى هذا الهدف. قلت: «عزيزتي، كنت أعيش في الماضي مرَّة أخرى وأنا أشاهد الأرض تقترب، الأرض التي تحتفظ برهطي، الأحياء والأموات».

برشلونة: سيَّارتنا اللامعة على الرصيف مع كلّ الأمتعة في صندوقها. لم ننم الليلة في المدينة العظيمة. نفد صبرنا من القيادة عبر الريف المضاء بنور الشمس باتجاه الحدود الفرنسيَّة. إنَّما، بعد ساعتين، تغلَّبت عليَّ مشاعري، لذا اضطررت إلى الانسحاب إلى جانب الطريق - لم أستطع المضي قدماً.

نزلتُ من السيَّارة: كانت عيناي منبهرتين بالنظر إلى هذا المنظر الطبيعيّ، هذه الحقول المحروثة، الأشجار الضخمة، القصب المرتعش، أسقف المزارع والبيوت الريفيَّة المصنوعة من القشّ أو القرميد، أشجار الحور تغنّي في الريح، المروج مع كلّ ظلّ محتمل من اللون الأخضر، والأبقار مع الأجراس ترنُّ في أثناء رعيها، والكروم - آه، الكروم بأوراقها التي لا يمكن أن تخفي كلَّ العنب. كانت قطعة كاتالونيا هذه تماماً مثل جميع المناظر الطبيعيَّة الفرنسيَّة التي تشبه الحديقة: كلّ هذا كان ملكيّاً، وكان ملكيّاً منذ ولادتي؛ كان بين هذه الألوان نفسها، الأشياء النامية نفسها، هذه المحاصيل نفسها التي كنت أتجوَّل فيها مع جدّي كانت من خلال حقول مثل هذه، حيث إنَّني حملت حقيبة ألعاب والدي عندما كنا نذهب للصيد، وعندما حثَّنا كلارا على ترويع أرنب أو طرد ذبابة من الحجل. حتّى الأسوار حول المزارع كانت كما كانت في المنزل! وقنوات الريّ الصغيرة بألواحها موضوعة هنا وهناك لتوجيه المياه إلى حقل أو آخر؛ لم أكن مضطرّاً إلى الذهاب إليهم لأعرف أنَّ هناك ضفادع يمكنني إخراجها، كما أريد، بخطَّاف مغطّى بقطعة قماش حمراء، كما كنت أفعل كثيراً عندما كنت طفلاً.

لقد نسيت تماماً أنَّ هذا السهل الشاسع كان إسبانياً، لذا كان بالضبط مثل وادي آرديش أو نهر الرون.

توقَّفنا في الفندق الأقرب إلى الحدود الفرنسيَّة. في اليوم التالي، استقلَّت ريتا القطار لجلب تانت جو من سان بيراي. كان يجب أن أذهب بنفسي، لكن لدى الشرطة الفرنسيَّة كنت لا أزال رجلاً هرب من غيانا. بينما كانت ريتا بعيدة، وجدت منزلاً رائعاً جدّاً في روساس، على حافة الشاطئ مباشرةً.

بضع دقائق أخرى من الانتظار، بابي، وبعد ذلك سترى تانت جو تخرج من القطار، المرأة التي أحبَّت والدك، والتي كتبت إليك مثل هذه الرسائل الجميلة، لتعيد إلى الحياة ذكرياتك عن أولئك الذين أحبُّوك. كنت محبوباً كثيراً.

كانت ريتا هي التي خرجت أولاً. لقد تصرَّفت كابنتها، ساعدت هذه المرأة طويلة القامة في الصعود إلى المنصَّة.

ثمَّ، أحاطتني بذراعيها الكبيرتين، وضغطتني إلى صدرها. كان ذراعاها ينقلان دفء الحياة وألف شيء لا يمكن التعبير عنه بالكلمات. وقد خرجت من المحطَّة بذراع واحدة حول ريتا والأخرى حول والدتي الثانية، متناسياً تماماً أنَّ الحقائب لا تأتي مع أصحابها إلَّا إذا حُملت.

كانت الساعة الحادية عشرة صباحاً عندما وصلتْ ريتا وتانت جو، وفي الساعة الثالثة من صباح اليوم التالي ذهبت تانت جو إلى غرفة نومها، وقد أرهقتها الرحلة وعمرها والعاطفة وستّ عشرة ساعة من تبادل الذكريات دون انقطاع.

سقطت على سريري، وذهبت إلى النوم مباشرة، منهكاً، دون أن أتنفَّس من الطاقة لإبقائي مستيقظاً. إنَّ اندلاع السعادة المُلحَّة محطم مثل أسوأ كارثة.

كانت السيّدتان قبالتي، وكانتا مَن أخرجتاني من نومي العميق لتخبراني أنَّ الساعة كانت الحادية عشرة صباحاً، وأنَّ الشمس كانت مشرقة، والسماء

زرقاء، والرمال دافئة، وكان الإفطار في انتظاري، وعليَّ أن أتناوله بسرعة كي أذهب إلى الحدود لإحضار أختي وأسرتها، الذين كان من المقرَّر أن يكونوا هناك في غضون ساعتين. قالت نانت جو: «جهّز نفسك بسرعة. كان عليك الاستيقاظ قبل ذلك، لأنَّ زوج أختك سيضطرّ الآن إلى القيادة بسرعة، لمنع الأسرة من التنمُّر عليه، فهم حريصون جدّاً على رؤيتك».

أوقفت سيّارة لينكولن إلى جوار مركز الحدود الإسبانيّة.

كانوا هناك! كانوا يسيرون، ثمَّ بدؤوا في الركض نحوي- لقد تخلَّوا عن صهري في سيَّارة سيتروين هناك في طابور الجمارك الفرنسيَّة.

أوّلاً، جاءت أختي هيلين، فاتحةً ذراعيها. ركضت عبر امتداد المنطقة المحرَّمة من مركز إلى آخر، من فرنسا إلى إسبانيا. ذهبتُ نحوها، وقلبي مفعم بالعاطفة. على بعد أربعة أمتار توقَّفنا لننظر إلى وجهَي بعضنا بعضاً. قالت أعيننا المملثة بالدموع: «إنَّها حقّاً هي، أختي نين» و«حقّاً هذا أنت أخي الصغير ريري، الذي لم أره منذ زمن بعيد». وألقينا بنفسينا، كلٌّ في حضن الآخر. غريب. بالنظر إليَّ، كانت هذه الأخت البالغة من العمر خمسين عاماً كما كانت دائماً. لم أرَ وجهها المتقدِّم في السنّ. لم أرَ شيئاً سوى أنَّ الضحكة الرائعة لعينيها كانت لا تزال كما هي، وأنَّ ملامحها لم تتغيَّر في نظري.

استمرَّ احتضاننا لفترة طويلة، ونسينا كلَّ شيء حولنا. كانت ريتا قد قبَّلت الأطفال بالفعل. سمعت «كم أنت جميلة يا خالتي!». استدرت، وتركت نين، وهي أخذت ريتا بين ذراعيها، قائلة: «أحبّها كثيراً، لأنَّها هي التي جلبتني إليك».

كانت بنات أختي الثلاث رائعات، وكان زوج أختي في حالة جيّدة. المفقود الوحيد هو ابنه الأكبر، جاك، الذي استدعي إلى الحرب في الجزائر.

غادرنا إلى روزاس. كانت السيّارة لينكولن في المقدِّمة، وأختي إلى جانبي. لن أنسى أبداً تلك الوجبة الأولى، ونحن جالسون جميعاً حول مائدة مستديرة. كانت هناك أوقات ارتجفت فيها ساقاي حتّى اضطررت إلى الإمساك بهما تحت القماش.

١٩٣٠ - ١٩٥٦. لقد حدثت أشياء كثيرة جدّاً، سواء لهم أم لي. لم أتحدَّث عن التسوية الجزائيّة في أثناء الوجبة. لقد سألت للتوّ زوج شقيقتي عمّا إذا كانت إدانتي قد تسبّب لهم قدراً كبيراً من المتاعب والبغضاء. طمأنني بلطف، لكنَّني شعرت بمدى معاناتهم.

لا، لم أقل شيئاً عن السجن، ولم أقل شيئاً عن محاكمتي. بالنظر إليهم، وأعتقد بصدق، إليَّ أيضاً، فإنَّ حياتي بدأت في اليوم الذي دفنتُ فيه، بفضل ريتا، نفسي القديمة، وانطلقتُ من جديد لإعادة هنري شاريير إلى الحياة، ابن معلّمَي مدرسة آرديش.

مرَّ شهر أغسطس على رمال شاطئ روزاس بسرعة كبيرة. اكتشفتُ صرخات طفولتي من جديد، والضحك بلا سبب، وانفجارات الفرح في أيّام شبابي على شاطئ بالافاس، حيث اعتدنا الذهاب مع والديّ.

شهر واحد: ثلاثون يوماً. كم الوقت طويل حين يكون الإنسان بمفرده مع نفسه، وكم مدى قصره على نحو رهيب حين يكون مع أشخاص يحبّهم، وبين أفراد أسرته. كنت في حالة سُكر بالمعنى الحرفيّ للكلمة، من السعادة. لم ألتقِ شقيقتي وزوجها فحسب، بل اكتشفت أيضاً أشخاصاً جدداً أحبّهم - بنات أختي، لم أكن أعرفهنَّ قبل ذلك اليوم، ومنذ الآن أصبحنَ بمنزلة بناتي.

كانت ريتا متألّقة بالفرح لرؤيتي سعيداً للغاية. لقد كان جمعنا معاً أخيراً بعيداً عن متناول رجال الشرطة الفرنسيَّة، هو أفضل هديَّة يمكن أن تقدِّمها إليَّ. استلقيت على الشاطئ. كان الوقت متأخِّراً جدّاً - ربَّما منتصف الليل. كانت ريتا متمدّدة أيضاً على الرمال ورأسها على فخذي؛ مسّدت شعرها. «جميعهم يرحلون غداً. كيف مرَّ الوقت سريعاً. لكن كم كان رائعاً! يجب على المرء ألَّا يطلب الكثير، يا عزيزتي، أعرف؛ لكن مع ذلك، أنا حزين لأنّني اضطررت إلى الانفصال عنهم. يعلم الله متى سيرى أحدنا الآخر مرَّة جديدة. رحلة مثل هذه تكلِّف الكثير».

- ثق بالمستقبل: أنا متأكِّدة من أنّنا سنراهم مرَّة أخرى، يوماً ما.

ذهبنا معهم حتَّى الحدود. كانوا يأخذون تانت جو في سيَّارتهم. افترقنا على بعد مئة متر من الحدود الفرنسيَّة. لم تكن هناك دموع، لأنّني أخبرتهم عن إيماني بالمستقبل - في غضون عامين، يجب ألَّا نقضي شهراً واحداً معاً بل شهرين.

- هل ما تقوله صحيح يا خالي؟

- بالطبع، يا أعزائي، بالطبع.

بعد أسبوع، هبطت أختي الأخرى في مطار برشلونة بمفردها. لم تكن قادرة على إحضار أسرتها. بين الأربعين راكباً الذين هبطوا من الطائرة، تعرَّفتُها على الفور، وبعد أن مرَّت عبر الجمارك، جاءت نحوي مباشرة من دون أدنى تردُّد.

ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ - كان بإمكانها قضاء بعض الوقت معنا فقط، بما أنّنا لا نريد أن نضيّع دقيقة واحدة، فقد كانت ثلاثة أيّام وثلاث ليالٍ من الذكريات دون توقُّف تقريباً. لقد أحبَّت هي وريتا إحداهما الأخرى، حتّى

إنَّنا تمكَّنا من إخبار بعضنا بكلِّ شيء- لقد أخبرتنا قصَّة حياتها كلّها، وأنا رويت لها كلَّ ما يمكن روايته.

بعد يومين، وصلت والدة ريتا من طنجة، ووضعت يديها اللطيفتين على خدّي، قبَّلتني بلا كلل، قائلةً: «ابني، أنا سعيدة جداً لأنَّك تحبّ ريتا وهي تحبّك». كان وجهها يتألَّق بجمال هادئ في هالة الشعر الأبيض.

بقينا في إسبانيا لفترة طويلة، وكانت سعادتنا عارمة في الأيَّام التي مرَّت. لم نتمكَّن من العودة بالقارب – ستَّة عشر يوماً كانت طويلة. عدنا بالطائرة، على أن يجري شحن لينكولن في وقتٍ لاحق على متن سفينة، لأنَّ عملنا كان في انتظارنا.

ومع ذلك، قمنا بجولة قصيرة في إسبانيا، جلنا في حدائق غرناطة المعلَّقة، إحدى عجائب الحضارة العربيَّة، قرأت هذه الكلمات لشاعرٍ، كانت قد حُفرت في الحجر عند سفح برج مارادور: أعطِه الصدقات يا امرأة، لأنَّه لا حزن في الحياة أعظم من كونك أعمى في غرناطة.

نعم، هناك شيء أسوأ من أن تكون أعمى في غرناطة، وهو أن تكون في الرابعة والعشرين، ممتلئاً بالصحَّة والثقة في الحياة، وغير منضبط، ربَّما، حتَّى قليل من عدم الأمانة، لكن ليس فاسداً حقّاً أو في الأقلّ ليس قاتلاً، وأن تسمع نفسك محكوماً بالسجن المؤبَّد لجريمة رجل آخر: حكم يعني التلاشي إلى الأبد من دون استئناف، دون أمل، محكومٌ عليك بالتعفُّن جسديّاً وذهنيّاً، دون فرصة واحدة لرفع رأسك، وأن تعود لتكون هذا الرجل مرَّة أخرى يوماً ما.

كم من الرجال الذين سحقهم نظام السجون، الذي لا يعرف الرحمة، ودمَّرهم شبراً شبراً، كانوا يفضِّلون أن يكونوا عُمياً في غرناطة!

الفصل الرابع عشر

النوادي الليليّة - الثورة

هبطت الطائرة التي استقللناها من مدريد برفق في مايكويتلا، مطار كاراكاس، وكانت هناك ابنتنا تنتظرنا مع بعض الأصدقاء. بعد عشرين دقيقة كنّا في المنزل. رحّبت الكلاب بنا بحماس، وكذلك خادمتنا الهنديّة، التي كانت واحدة من أفراد الأسرة، ولم تتوقّف عن السؤال: «وكيف حال أسرتك يا سيّد هنري؟ هنري، ما رأيك في والدة ريتا؟ كنت أخشى أنّك لن تعود أبداً بعد أن تلتقي هناك كلّ أولئك الناس الذين يحبّونك. الحمد لله، ها أنت ذا، لقد عدت سالماً».

استمرَّ الكفاح من أجل الحياة. بعنا المطعم: لقد بدأتُ أعدُّ الأطباق التالية: شرائح اللحم مع البطاطا المقليّة، البطّ مع البرتقال، والديك مع النبيذ. اشترينا مقهى ليليّاً يدعى باركاتي.

في كاراكاس، يوجد بار طوال الليل، هو مكان يكون فيه العملاء جميعاً من الرجال، وتكون فيه فتيات يرافقنَهم ويتحدَّثنَ إليهم، بل وأكثر من ذلك، يستمعنَ إليهم، ويشربنَ معهم، وإذا لم يكونوا كثيري العطش، يساعدنَهم قليلاً. إنّها حياة مختلفة تماماً عن تلك التي نعيشها اليوم، فهي أكثر كثافة بكثير، وليست سلميّة على الإطلاق؛ لكنّها مكان تكتشف فيه كلَّ ليلة شيئاً جديداً وممتعاً.

كان أعضاء مجلس الشيوخ والنوّاب والمصرفيّون والمحامون والضبّاط وكبار المسؤولين يسرعون إلى الحضور ليلاً للتخلّص من الزخم الذي تراكم في أثناء النهار، إذ كانوا يضطرّون إلى التمسُّك بأنفسهم والحفاظ على صورة السلوك الفاضل تماماً في وظائفهم المختلفة. وفي حانة كاتي، كان كلّ شخص يظهر على حقيقته بالفعل. لقد كان انفجاراً للنفاق الاجتماعيّ الذي أجبروا على مراعاته، ملاذاً من هموم العمل أو الأسرة.

في غضون هذه الساعات القليلة، يصبح كلّ منهم كأنّه طفل صغير. تقدّم لهم الكحول كأنّك تقدّم لهم يد المساعدة، يتخلّصون من قيودهم الاجتماعيّة ويبدؤون مباشرة حياةً تركتهم أحراراً في الصراخ والجدال واللعب مع أجمل الفتيات في الحانة. في مكاننا، لم تذهب الأمور إلى أبعد من ذلك، لأنَّ ريتا أدارت البار بصرامة شديدة، ولم يُسمح لأيِّ امرأة بالخروج في أثناء ساعات العمل. إلّا أنَّ جميع الرجال استمتعوا بحضور هؤلاء الفتيات اللواتي كنَّ لطيفات بما يكفي للاستماع عندما يتحدَّثنَ (لقد أحبُّوا ذلك) وملء ساعات الحريَّة بالجمال والشباب.

كم مرَّة رأيتهم عند الفجر، بمفردهم (لأنَّ الفتيات يكنَّ قد غادرن البار من الباب الآخر)، لكن مع ذلك كانوا سعداء وأذهانهم صافية. كان أحدهم رجل أعمال مهمّاً، كان دائماً وراء مكتبه في التاسعة؛ كان زبوناً منتظماً، وكنت أرافقه إلى أن يصل إلى سيّارته. كان يضع يده على كتفي، ويلوّح بذراعه الأخرى باتّجاه جبال كاراكاس، مشيراً إلى سماء الصباح الباكر، ويقول: «انتهى الليل يا إنريكي؛ ستشرق الشمس خلف أفيلا. لا أمل في الذهاب إلى أيِّ مكان آخر - كلّ شيء مغلق؛ ومع ضوء النهار

نواجه مسؤولياتنا وجهاً لوجه. العمل، المكتب، عبوديَّة كلّ يوم في انتظاري؛ لكن كيف يمكننا الاستمرار من دون هذه الليالي؟»

وسرعان ما كان لديَّ مكان آخر، مادريجال، ثمَّ مكان ثالث، نورماندي. جنباً إلى جنب مع غونزالو دوراند، الاشتراكيّ والمعارض للنظام، الذي كان على استعداد، ليلَ نهار، للدفاع عن مصالح أصحاب النوادي الليليَّة والحانات والمطاعم. شكَّلنا جمعيَّة لحماية الأماكن من هذا النوع. بعد ذلك بوقت قصير، جرى تعييني رئيساً، ودافعنا عن أعضائنا قدر الإمكان ضدَّ انتهاكات بعض المسؤولين.

لقد حوَّلت مادريجال إلى مطعم روسيّ أطلق عليه اسم نينوسكا؛ وعن طريق الإضافة إلى اللون المحليّ، أحضرت شخصاً من إسبانيا، كان يرتدي زياً إسبانياً من جزر الكناري مثل القوزاق، وامتطى متن حصان كنت أعرف أنّه هادئ بسبب تقدّمه في السنّ. كان يقف أمام باب المطعم لاستقبال المرتادين. لكنَّ العملاء بدؤوا في طلب مشروبات القوزاق - كان يشعر بالملل الشديد لقاء نصف دولار في السّاعة - والأسوأ من ذلك، أنَّهم لم يستهينوا بالحصان أيضاً. بالطبع، لم يستطع الحصان التخلُّص من كؤوس الويسكي، لكنّه أحبَّ بشدّة السكَّر المغمَّس في المسكرات، ولا سيَّما الكوميل. النتيجة: لمَّا كان الحصان العجوز في حالة سُكر، والقوزاق مشدوداً كطبل، كانوا يمزّقون شارعنا، أفينيدا ميراندا، وهو شريان مهمّ مزدحم بالمرور، يميناً ويساراً، حيث كان الحصان يجمح في الشارع، في حين الإسبانيّ يصرخ. يمكنك فقط أن تتخيَّل المشهد: المكابح تعطَّلت بشدَّة إلى درجة أنَّها كادت تمزِّق الإسفلت، السيَّارات تصطدم بعضها ببعض،

والسائقون يصرخون، والنوافذ تنفتح، وأصوات غاضبة تصرخ حول الضجيج في ذلك الوقت من الليل.

وفوق كلّ ذلك، على الرَّغم من أنَّني لم يكن لديَّ سوى موسيقيٍّ واحد، إلَّا أنَّه لم يكن من النوع العاديِّ. كان ألمانياً اسمه كورت لويندال. كانت لديه يدا ملاكم، ويعزف على آلة تشاتشا بحماس شديد، إلى درجة أنَّ الجدران كانت ترتعد حتَّى الطابق التاسع. أكاد لا أصدِّق ذلك، لكنَّ البوَّاب والمالك اصطحباني معهما ذات مساء لأرى هذا، ولم يبالغا.

جرى تجهيز النادي الليليّ الآخر، نورماندي، بشكل جميل حقّاً. لقد كان مقابل مقرِّ الشرطة؛ إلى جانب من الشارع الرعب، وإلى الجانب الآخر بهجة الحياة. لمرَّة واحدة كنت في الجانب الأيمن. لم يمنعني ذلك من جعل الأمور صعبة على نفسي: لقد فعلت أخطر شيء يمكنني فعله - عملت كمكتب بريد سرّيّ للسجناء السياسين والمجرمين.

١٩٥٨. منذ بضعة أشهر، كانت الأمور تسير على قدم وساق في فنزويلا: دكتاتوريَّة بيريز خيمينيز كانت تتعثَّر على نحو سيّئ. حتَّى الطبقات المتميّزة كانت تتسرَّب منه، وأنصاره الوحيدون هم الجيش وأجهزة الشرطة السياسيَّة الرهيبة، ورجال الأمن القوميّ، الذين كانوا ينفّذون المزيد والمزيد من الاعتقالات.

في هذه الأثناء، فشلت خطَّة وضعها أهمّ ثلاثة زعماء سياسيين، جميعهم في المنفى في نيويورك، للاستيلاء على السلطة، وهؤلاء هم: رافائيل كالديرا، جوفيتو فيلالبا ورومولو بيتانكورت. في الأوّل من كانون الثاني، حاول الجنرال في سلاح الجوّ، كاسترو ليون، إقناع رجاله

بالتمرّد، وألقت مجموعة صغيرة من الطيّارين بضع قنابل على كاراكاس، ولا سيَّما على قصر بيريز خيمينيز الرئاسيّ. فشلت العمليَّة، وفرَّ كاسترو ليون إلى كولومبيا.

إنَّما، في الساعة الثانية صباحاً، يوم ٢٣ كانون الثاني، حلَّقت طائرة فوق كاراكاس. لقد كان بيريز خيمينيز يسافر مع أسرته ومساعديه الأقرب وجزء من ثروته. شحنة ذات قيمة كبيرة، بما فيها من أشخاص وثروة، إلى درجة أنَّ الفنزويليين أطلقوا عليها اسم البقرة المقدَّسة. علم بيريز خيمينيز أنَّه خسر اللعبة – فقد تخلَّى الجيش عنه، بعد عشر سنوات من الديكتاتوريَّة. طارت طائرته مباشرة إلى سانتو دومينغو، حيث كان هناك ديكتاتور آخر، الجنرال تروجيلو، ولم يكن بإمكانه سوى استقبال زميله.

لمدَّة ثلاثة أسابيع تقريباً لم يكن هناك رجال شرطة في الشوارع. بالطبع، كان هناك نهب وعنف، لكن فقط ضدَّ أنصار بيريز خيمينيز. كانت الأمَّة تنفجر بعد أن جرى تكميمها مدَّة عشر سنوات. حصل هجوم على مقرِّ الأمن القوميّ، مقابل نورماندي، وقُتل معظم أعضائه.

في غضون الأيَّام الثلاثة التي أعقبت رحيل بيريز خيمينيز، كدت أفقد نتيجة اثني عشر عاماً من العمل. اتَّصل العديد من الأشخاص هاتفياً ليخبروني أنَّ جميع الحانات والنوادي الليليَّة والمطاعم الفاخرة والأماكن التي يرتادها كبار مؤيدي بيريز خيمينيز قد جرى اقتحامها وإقفالها. كانت لدينا شقّتنا على الأرض فوق حانة كاتي بار. كانت بنايتنا عبارة عن فيلا صغيرة في أسفل زقاق مسدود، وفيها بار على مستوى الشارع، ثمَّ مسكننا، ثمَّ سقف مسطَّح فوقه.

كنت مصمّماً على الدفاع عن منزلي وعملي وأهلي. حصلت على عشرين زجاجة من البنزين، وصنعت منها زجاجات مولوتوف، وصففتها بشكل أنيق على السطح. لم تتركني ريتا: كانت إلى جانبي وفي يدها قدّاحة.

ثمَّ جاؤوا! حشد من النهّابين - أكثر من مئة منهم. نظراً لأنَّ كاتي بار كان في زقاق مسدود، فإنَّ أيَّ شخص يمرُّ في هذا الزقاق يكون قادماً إلينا.

اقتربوا أكثر، وبين الصيحات التي سمعتها: «هذا هو أحد أماكن البيريز جيمينيين! فقال أحدهم: «اقتحموا»، وبدؤوا يركضون، ملوّحين بقضبان حديديّة ومجارف. أشعلت القدّاحة.

فجأةً توقّف الحشد. وقف أربعة رجال ومدُّوا أذرعهم إلى الأمام عبر الزقاق: أوقفوا الغوغاء وهدّؤوا من روع الإثارة. سمعتهم يقولون: «نحن عمّال، نحن ملك للشعب، ونحن ثوّار أيضاً. نحن نعرف هؤلاء الناس منذ سنوات. إنريكي، المدير، فرنسيّ، وهو صديق للشعب - لقد أثبت ذلك لنا مئات المرّات. اخرجوا، ليس هناك ما تفعلونه هنا».

بدؤوا يتجادلون، لكن بهدوء أكبر، وسمعت هؤلاء الرجال الرائعين يشرحون لماذا كانوا يدافعون عنّا. لقد استمرَّ هذا الحديث نحو عشرين دقيقة، وأنا وريتا ما زلنا على السطح، نحمل القدّاحة. لا بدَّ أنَّ الأربعة أقنعوهم بتركنا بسلام، وانسحبوا دون أيِّ تهديدات.

يا ربّ، كان هذا قريباً! قد أقول إنَّه قريب للعديد منهم أيضاً. لم يعد أيّ منهم.

هؤلاء الرجال الأربعة، المدافعون عنّا، عملوا في شركة مياه كاراكاس. وحدث أنَّ الباب الجانبيَّ لبار كاتي، أسفل الزقاق، كان إلى جوار مدخل

مستودع الشركة، البوَّابة التي تستخدمها الصهاريج عند الذهاب لإمداد الأماكن التي كانت تعاني من نقص المياه. غالباً ما كنَّا نعطي الرجال الذين يعملون هناك شيئاً ليأكلوه، وإذا ما جاؤوا لشراء زجاجة كوكاكولا، كنَّا لا نأخذ منهم ثمنها. بسبب الديكتاتوريَّة، لم يتحدَّثوا عن السياسة قطّ تقريباً، لكن في بعض الأحيان، حينما يحتسون أحد المشروبات الكحوليَّة، كان قليل منهم ينبس بكلمة غير حذرة - لقد سُمعت ونُقلت. ثمَّ سُجنوا أو طُردوا.

في كثير من الأحيان، تمكَّنت، أنا أو ريتا، من إقناع أحد عملائنا بالعفو عن الجاني وإعادته إلى وظيفته. في أيّ حال، بين أعضاء مجلس الشيوخ والنوّاب والمسؤولين المنتمين إلى النظام، كان عدد كبير منهم طيّبين وملتزمين. كان هناك القليل ممَّن لم يقدِّموا أيّ خدمة.

في ذلك اليوم، دفع رجال شركة المياه ديونهم لنا، وقد دفعوها بشجاعة كبيرة. والشيء الأكثر غرابةً هو أنَّ المعجزة نفسها حدثت لمكانين آخرين. في نينوتشكا لم يجرِ تحطيم أيِّ لوح زجاج. في نورماندي، لم يجرِ تدمير أيّ شيء على الإطلاق، ولا سرقة أيِّ شيء، المكان الذي يقع مباشرةً مقابل مكتب الأمن القوميّ، أهمّ بقعة في الثورة بأكملها، مع إطلاق نيران الرشَّاشات في جميع الاتِّجاهات وحرق الثوّار ونهبهم المتاجر يميناً ويساراً على طول شارع مكسيكو، في نورماندي.

تحت قيادة بيريز خيمينيز، لا أحد كان يتمكَّن من المجادلة. لم يفعل أحد أيَّ شيء سوى الطاعة. تمَّ تكميم أفواه الصحافة.

تحت قيادة خلفه، الأدميرال لارزابال، رقص الجميع، وغنّوا، وقاموا بكلّ ما يرضي قلوبهم، وتحدَّثوا أو كتبوا أيَّ شيء فكَّروا فيه. كانوا في حالة

من السُّكر من الفرح في قدرتهم على التخلُّص من الهراء بحريَّة تامَّة، دون أيّ موانع.

كان البحَّار شاعراً وفناناً في القلب، حسّاساً للموقف البائس وفقر الآلاف من الناس الذين تدفّقوا إلى كاراكاس، موجة في إثر موجة منهم، بمجرَّد سقوط الديكتاتور. لقد فكَّر في خطَّة الطوارئ، التي وزَّعت الملايين من الأموال الوطنيَّة على هؤلاء التعساء.

وعد بإجراء انتخابات. أكثر من الوفاء بكلمته، عاملهم على نحو عادل للغاية؛ لكن، على الرّغم من دخول الأدميرال كاراكاس، إلَّا أنَّ بيتانكورت هو الذي فاز في الانتخابات. كان على بيتانكورت أن يواجه موقفاً صعباً - لم يمرَّ يوم من دون حبكة مؤامرة، ولا يوم واحد من دون أن يضطرَّ إلى الفوز في معركة ضدَّ قوى الرجعيَّة.

كنت قد اشتريت للتوّ أكبر مقهى في كاراكاس، غراند كافيه في غران سابانا: يحوي أكثر من أربعمئة كرسيّ. كان هذا هو المقهى الذي قال فيه جولووينارد، حارس متجر ليفي للجواهر، إنَّه يجب أن نلتقي عندما كنَّا في ممرِّ طريق سانتي في عام ١٩٣١. «حافظ على معنوياتك مرتفعة! سنلتقي في غراند كافيه في كاراكاس». كنت هنا في الموعد، بعد ثمانية وعشرين عاماً، للتأكُّد، لكنَّني ما زلت هنا - وأنا أملكه. لكنَّ وينارد لم يحافظ على الوعد.

لم تجعل الحالة السياسيَّة للبلاد مهمَّة بيتانكورت سهلة. محاولة شرّيرة وجبانة لاغتياله أدَّت فجأة إلى زعزعة الديمقراطيَّة التي ما زالت شابَّة. تحت التحكّم عن بعد لتروجيلو، ديكتاتور سانتو دومينغو، انفجرت سيَّارة محشوّة بالمتفجِّرات أمام سيَّارة الرئيس، التي كان يستقلّها للذهاب إلى

حضور حفل رسميّ. قُتل ربّ الأسرة، وأصيب السائق بجروح بالغة. أصيب الجنرال لويز هنريكيز وزوجته بحروق مروّعة، وأصيب الرئيس نفسه بجروح مؤلمة بسبب النيران. وبعد أربع وعشرين ساعة خاطب الأمّة الفنزويليّة ويداه مغلقتان. بدا الأمر غير معقول إلى درجة أنَّ بعض الناس زعموا أنَّ الرجل الذي تحدَّث إليهم هو شبيهه.

في مثل هذا الجوّ، بدأت فنزويلا أيضاً، على الرَّغم من أنَّ الآلهة تنعم بها، تتعرَّض للهجوم من قبل فيروس العاطفة السياسيَّة. كان هناك رجال شرطة في كلِّ مكان، وبين المسؤولين، كان هناك من استخدم علاقاته السياسيَّة على نحو سيّئ.

جاء مسؤولون ينتمون إلى وزارات مختلفة وأزاحوني مرَّات عدَّة. ظهر مفتّشون من كلِّ نوع: مفتّشو المشروبات، ضرائب البلديَّة، من هذا وذاك. معظمهم لم يتلقَّ أيَّ تدريب، وشغلوا الوظيفة فقط لأنَّهم ينتمون إلى حزب سياسيّ أو آخر.

والأكثر من ذلك، بما أنَّ الحكومة كانت على علم بماضيَّ، وبما أنَّني كنت على اتّصال حتميّ بالعديد من المحتالين الذين مرُّوا من خلالهم، على الرَّغم من أنَّه لا علاقة لي بهم في مجال الأعمال التجاريَّة، ومنذ ذلك الحين حصلت على حقّ اللجوء. هنا، بينما كانت الإجراءات ضدّي لا تزال سارية في فرنسا، استغلَّ رجال الشرطة موقعي لابتزازي نوعاً ما. في سبيل المثال، بحثوا قضيَّة رجل فرنسيّ قُتل قبل عامين، التي لم يُعثَر على القاتل فيها. هل كنت أعرف أيَّ شيء عنها؟ لم أعرف شيئاً؟ ألم يكن من مصلحتي، بالنظر إلى موقفي، معرفة القليل؟

أوه، لقد بدأ هذا يكون حفلاً رائعاً. كان لديَّ ما يكفي من هؤلاء الأوغاد. قد لا يكون الأمر خطيراً جدّاً في الوقت الحالي، لكن إذا استمرَّ الأمر، وانفجرت الحالة، فإنَّ الله وحده يعلم ما سيحدث. لا، لم أستطع تفجير مجموعتي هنا، ليس في هذا البلد الذي أعطاني فرصتي في أن أصبح رجلاً حرّاً مرَّة أخرى، وأن يكون لي منزلي الخاص.

لم يكن هناك مجال للعودة. لقد بعت المقهى الكبير والنوادي الليليَّة الأخرى، وذهبت أنا وريتا إلى إسبانيا. ربَّما سأكون قادراً على بدء نوع من الأعمال هناك.

إلَّا أنِّي لم أستطع الذهاب. الدول الأوروبيَّة منظَّمة على نحو جيّد للغاية. في مدريد، لمَّا حصلت على أوّل ثلاثة عشر تصريحاً لفتح شركة، أخبروني بلطف أنَّني في حاجة إلى الترخيص الرابع عشر. بدا لي أنَّ هذا كان مجرَّد واحد أكثر من اللازم. وريتا، التي أدركت أنَّني غير قادر فعلياً على العيش بعيداً عن فنزويلا، وأنَّني أفتقد حتَّى لرجال الشرطة الذين كانوا يزعجونني، وافقت على أنَّه، على الرّغم من أنَّنا بعنا كلَّ شيء، يجب أن نعود إلى هناك.

الفصل الخامس عشر

كامارونيس

كاراكاس مرَّة أخرى. كان هذا عام ١٩٦١. مرَّ ستّة عشر عاماً على إلدو رادو. لقد تغيَّرت الحياة الليليَّة كثيراً في كاراكاس، وكان العثور على مكان مشترك نظيف وجذَّاب ومهمّ مثل غراند كافيه، أمراً مستحيلاً. قانون جديد مثير للسخرية ينصُّ على أنَّ الأشخاص الذين لديهم الحانات ويبيعون المشروبات الكحوليَّة يفسدون الأخلاق العامَّة - ما يعني جميع أنواع الإساءات والاستغلال من جانب بعض المسؤولين، ولم أرغب في العودة إلى هذا المجال على الإطلاق.

ثمَّة حاجة إلى شيء آخر. لم أكتشف منجماً للماس بل منجماً من الروبيان الكبير جدّاً، من النوع الذي يسمّى الكامارونات، حتّى الأنواع الأكبر التي تسمّى لانجوستينوس. وكلّ هذا يعود مرَّة أخرى إلى ماراكايبو.

استقررنا في شقَّة أنيقة: اشتريت قطعة من الشاطئ، وأسَّست شركة باسم القبطان شيكو، باسم المنطقة التي تضمّ شاطئي. المساهم الوحيد هنري شارير؛ المدير هنري شارير؛ مدير العمليّات هنري شارير؛ مساعد الرئيس ريتا.

وها نحن ذان انطلقنا في مغامرة غير عاديَّة. اشتريت ثمانية عشر قارب صيد. كانت حرفة كبيرة، كلّ منها بقدرة خمسين حصاناً، وشبكة بطول مئتين وخمسين ذراعاً. كان طاقم كلِّ قارب مؤلّف من خمسة صيَّادين. نظراً

لأنَّ القارب المجهَّز بالكامل كان يكلّف اثني عشر ألفاً وخمسمئة بوليفار، فإنَّ تكلفة ثمانية عشر قارباً كانت ستكون باهظة للغاية.

لقد غيَّرنا الحياة من حولنا. غيَّرنا القرى الصغيرة حول البحيرة، وتخلَّصنا من الفقر وكره العمل (لأنَّ العمل الذي قدّمته كان مقابل أجر جيّد) وخلقنا حياة جديدة بدلاً من الخمول القديم.

هؤلاء الفقراء لا يملكون شيئاً، لذلك من دون أيِّ ضمان منهم، قدَّمنا مجموعة كاملة من معدَّات الصيد لكلّ طاقم مكوَّن من خمسة أفراد. لقد كانوا يصطادون بالطريقة التي يختارونها، وكان التزامهم الوحيد هو بيعي الكامارون وسرطان البحر أقلّ بنصف بوليفار من سعر السوق، لأنّني دفعت ثمن جميع المعدَّات وصيانتها.

كان العمل يسير بوتيرة هائلة، وقد أدهشني ذلك. كانت لدينا ثلاث شاحنات مبرّدة لم تتوقَّف قطّ عن التنقّل على الشواطئ لالتقاط صيد القوارب الخاصَّة بي.

بنيت رصيفاً على البحيرة يبلغ طوله نحو ثلاثين متراً، ومنصَّة كبيرة مغطّاة. هنا تمكَّنت ريتا من إدارة فريق من مئة وعشرين إلى مئة وأربعين امرأة لقطع رؤوس الكامارون وسرطان البحر. بعد ذلك، يُغسل ويُغسل مرَّة أخرى في الماء المثلّج، ويُفرز حسب الحجم، ويصنّف حسب السعر بالجنيه الأمريكيّ. قد يكون العدد من عشرة إلى خمسة عشر، أو من عشرين إلى خمسة وعشرين، أو من خمسة وعشرين إلى ثلاثين. كلّ أسبوع كان الأمريكيّون يرسلون إليَّ ورقة خضراء توضِّح سعر السوق للكامارونات كلّ يوم ثلاثاء. كلّ يوم كانت في الأقلّ تقلع طائرة واحدة من طراز DC 8 متوجِّهة إلى ميامي، تحمل ٢٤٨٠٠ رطل من الكامارون.

كنت سأجني الكثير من المال، لو لم أكن أحمق وأوافق على أن يكون لي شريك يوماً ما. كان له وجه قمر، وكان يبدو لائقاً، غبياً ومستقيماً. لم يكن يتحدَّث الإسبانيّة ولا الفرنسيّة، ولأنّني لم أكن أتحدَّث الإنجليزيَّة، لم يكن في وسعنا أن نتشاجر.

لم يجلب هذا اليانكي أيَّ رأس مال، لكنَّه استأجر مجمّدات لعلامة تجاريّة مشهورة من الثلج تمَّ بيعها في جميع أنحاء ماراكايبو وفي الحيّ. نتيجة لذلك، تمَّ تجميد الكامارونات وسرطان البحر لدينا تماماً.

اضطررت إلى الإشراف على الصيد، والقوارب، وتحميل الصيد اليوميّ في شاحناتي المبرّدة الثلاث ودفع أجور الصيّادين: وكان عليَّ أن أدفع هذه المبالغ الكبيرة من جيبي الخاصّ. في بعض الأيّام، كنت أذهب إلى الشاطئ بثلاثين ألف بوليفار وأعود إلى المنزل مع سنت واحد.

كنَّا منظَّمين على نحو جيّد، لكن لا شيء يمكن أن يكون على أتمّ من دون عقبات. كنت أخوض حرباً مستمرّة مع المشترين القراصنة. كما قلت، وافق الصيّادون الذين استخدموا أجهزتي على أن أشتري صيدهم بأقلّ من سعر السوق بمعدَّل سعر الكيلو أقلّ بنصف بوليفار، وهو أمر عادل. لكنَّ المشترين القراصنة لم يخاطروا بأيِّ شيء. لم يكن لديهم قوارب، فقط شاحنة مبرّدة، كي يتمكّنوا من الذهاب إلى الشواطئ وشراء الكامارونات بسعر السوق بغضِّ النظر عن أيِّ شيء آخر. حصل قارب يحمل ثمانمئة كيلوغرام من الكامارون على أربعمئة بوليفار ببيع صيد يوميّ للمشترين القراصنة. يجب أن تكون قدّيساً لمقاومة إغراء من هذا القبيل. لذلك، كلَّما استطاعوا، أخذ الصيَّادون أموال القراصنة. هذا يعني أنّه كان عليَّ حماية مصالحي تقريباً ليلَ نهار؛ لكنّي أحببت المعركة - لقد منحتني ارتياحاً شديداً.

لمَّا أرسلنا الكامارونات الخاصَّة بنا وسرطان البحر إلى الولايات المتّحدة، تمَّ الدفع وفق خطاب اعتماد، بمجرَّد أن اطَّلع البنك على أوراق الشحن وشهادة تشير إلى فحص جودة البضائع والتجميد التامّ لها. دفع البنك ٨٥ في المئة من الإجماليّ، ثمَّ تلقّينا النسبة المتبقية البالغة ١٥ في المئة عندما وصلت الشحنة إلى ميامي على نحو جيّد، ووجدوا أنَّها موافقة لجميع المواصفات.

غالباً ما حدث أنَّه في أيّام السبت، حينما تكون هناك طائرتان محملتان بالكامارون، كان شريكي يسافر على متن طائرة واحدة لمرافقة الشحنة. في تلك الأيّام، كانت تكلفة الشحن أكثر من خمسمئة دولار، وبما أنَّ عمّال الشحن في ميامي لا يعملون أيّام السبت، كان على شخص ما أن يكون هناك على الفور لإخراج الشحنة وتحميلها على مقطورة مبرَّدة ونقلها إلى المشتري، إمَّا في ميامي نفسها وإمَّا في تامبا أو جاكسونفيل. نظراً لإغلاق البنوك يوم السبت، لم يكن ثمَّة طريقة لاستخدام خطابات الاعتماد؛ ولم يكن هناك أيّ وسيلة للتأمين. إنَّما، صباح الاثنين، تباع الشحنة في الولايات المتّحدة مقابل ١٠ أو ١٥ في المئة أكثر. لقد كان مشروعاً سليماً.

كانت الأمور تسير بسلاسة، وكنت سعيداً بالأعمال الجيّدة التي كان ينجزها شريكي في عطلة نهاية الأسبوع. حتّى اليوم الذي لم يعد فيه.

بسبب سوء الحظّ، حدث هذا في الموسم عندما كان هناك عدد قليل من الكامارونات في البحيرة. كنت قد استأجرت قارباً كبيراً في ميناء بونتو فيجو لجلب شحنة كاملة من جراد البحر الرائع من لوس روك. كنت سأعود محمّلاً ببضائع عالية الجودة؛ وقد تمَّ خلع رؤوسها هناك. لذلك، كانت لديَّ شحنة ثمينة للغاية، مكوَّنة بالكامل من ذيول جراد البحر الأفضل، وزن كلّ منها يتراوح بين رطل ونصف إلى رطل وثلاثة أرباع.

وفي ذلك السبت، أقلعت طائرتان من طراز DC-8 محملتان بذيل جراد البحر مع فتى الجوقة، واختفى في السحب.

حلَّ يوم الاثنين من دون أن تصل أيُّ أخبار. ولا حتّى يوم الثلاثاء. ذهبت إلى المصرف فأخبروني أنَّه لم يصل أيُّ شيء من ميامي. لم أرغب في تصديق ذلك، لكنَّني كنت أعرف بالفعل: لقد جرى خداعي. نظراً لأنَّ شريكي هو الذي تعامل مع خطابات الاعتماد، ولأنَّه لم يكن هناك تأمين يوم السبت، فقد باع الشحنة بأكملها لحظة وصوله إلى هناك، وهرب بهدوء مع المال.

كنت في حالة من الغضب الشديد، وذهبت للبحث عن هذا الوجه القمريّ، في أمريكا، مع تذكار له في جيبي. لم أجد صعوبة في تحديد أثره، لكن في كلِّ عنوان وجدت امرأة قالت إنَّه على الرَّغم من أنَّه زوجها الشرعيّ، إلَّا أنَّها لا تعرف مكانه. حدث الأمر نفسه ثلاث مرّات، في ثلاث مدن مختلفة! لم أجد شريكي الجديد قطّ.

شعرت بالانكسار. لقد فقدنا مئة وخمسين ألف دولار. ما زالت لدينا القوارب بالطبع، لكنَّها كانت في حالة سيّئة من الداخل، وكذلك من الخارج. وهذا العمل كان يتطلَّب أن يكون بحوزتي كثير من المال لدفعها يوميّاً، فلم نتمكّن من تحمُّل الخسارة، أو الوقوف على أقدامنا مرَّة أخرى. لقد خسرنا مجدَّداً، وبعنا كلَّ شيء. لم تشكُ ريتا من الأمر، ولم تلمني قطّ لكوني أمنح ثقة كبيرة للآخرين. رأس مالنا، مدَّخرات أربعة عشر عاماً من العمل الجادّ، وأكثر من عامين من التضحية غير المجدية والجهود المستمرّة - فقدنا كلَّ شيء؛ أو تقريباً كلَّ شيء.

امتلأت أعيننا بالدموع، وتركنا الأسرة الكبيرة من الصيّادين والعمّال الذين أنشأناهم. لقد أصيبوا بالفزع أيضاً. أخبرونا كيف حزنوا لرؤيتنا نرحل، وكم كانوا ممتنين لنا لأنَّ حيواتهم قد ازدهرت بفضلنا.

عدنا إلى كاراكاس. استقررنا في شقّة جميلة، على مقربة من غراند كافيه، وسط غراند سابانا.

- ماذا علينا أن نفعل؟

- ليس لدينا رأس مال لشراء شركة. علينا أن نجد شيئاً.

وهنا تبدأ القصَّة الأكثر جنوناً في حياتي.

بدأت أتواصل مع بعض المجموعات والشركات، وأشرح لهم أنَّني الرجل المناسب للوظيفة.

وبسرعة كبيرة، بعد الاتصالات الأولى، طلبت إليهم فتح خطابات الاعتماد، لأنَّه قبل أيِّ إجراء، يجب أن أتأكّد من أنَّه بمجرَّد اكتمال التدقيق، سيكون لديهم ملايين الدولارات المطلوبة للعمل. والدولارات تأتي بأسمائهم بالطبع.

تاجر كتالوني محترم جدّاً، يعمل زوج ابنته في شركة الكهرباء لديها أميال من الكابلات النحاسيَّة القديمة ذات الجهد العالي، التي تمَّ استبدالها بكابلات من معدن آخر. ووفقاً له، فإنَّها تحت تصرُّفي عندما أريد، وبسعر جيّد، على أن يكون الدفع نقداً.

يحتفظ كلُّ بائع بمصادره السريَّة، وغالباً ما يعمل فقط كوسيط لبائع آخر. أيضاً، على الرّغم من أنّه دائماً ما يكون حسن النيَّة، إلَّا أنَّه يعطيني فقط تفاصيل غامضة، ولا يتكلَّم ولا يذكر اسم بائعه أبداً. كلّ شيء مبني على الثقة. ثمَّة حواجز من الصمت.

كان الوضع خطيراً، لأنّني، لمدَّة عام، قضيت على كلِّ الأموال المتبقية معنا تقريباً، وكنت أقول لنفسي إنَّ المستقبل أكثر من مضمون.

الفصل السادس عشر

الغوريلا

كان ثمّة طرق على الباب (لم يكن الجرس يعمل) فذهبت لفتحه. كان صديقي، الكولونيل بولانو. كان هو وأفراد أسرته دائماً ما ينادونني بابيون. كانوا الوحيدين في فنزويلا الذين فعلوا ذلك. الجميع ينادونني باسم إنريكي أو دون إنريكي، وفقاً لما كنت أفعله في الوقت الحالي. لدى الفنزويليين شعور بذلك؛ يعرفون على الفور ما إذا كنت ناجحاً أو لا.

– مرحباً يا بابيون. لقد مرَّت ثلاث سنوات مُذ التقينا.

– هذا صحيح يا فرانسيسكو: ثلاث سنوات.

– لماذا لم تزرني في بيتي الجديد؟

– لم تطلب إليَّ ذلك.

– أنت لا تطلب هذا الأمر من صديق. يأتي عندما يشعر بذلك، لأنَّه إذا كان صديقه لديه منزل، فهو منزله أيضاً. دعوته ستكون إهانة.

لم أتفوَّه ببنت شفة لأنّي كنت أعلم أنَّه كان على حقٍّ.

قبَّل بولانو ريتا. جلس هناك ومرفقاه على المنضدة، وبدا مضطرباً؛ لقد خلع قبَّعة العقيد. أعطته ريتا فنجاناً من القهوة، وسألته: «كيف وجدت عنواني؟»

- هذا هو عملي. لماذا لم ترسله إليَّ؟

- قدر كبير من العمل، وقدر كبير من القلق.

- لديك مخاوف؟

- كلّ ما أريده.



- ثمَّ جئت في اللحظة الخطأ.

- لماذا؟

- جئت لأطلب إليك إقراضي خمسة آلاف بوليفار. أنا في مأزق.

- المستحيل، فرانسيسكو.

قالت ريتا: «لقد دمّرنا».

- لقد دمّرت كلّ شيء يا بابيون. هل هذا هو السبب في أنَّك لم تأتِ لرؤيتي حتَّى لا تخبرني بما يقلقك؟

- نعم.

- حسناً، دعني أخبرك أنَّك حمار. لأنَّه حينما يكون لديك صديق، يكون موجوداً حتَّى تتمكَّن من إخباره بمخاوفك، ومن ثَمَّ يمكنك الاعتماد عليه لفعل شيء لإخراجك من المأزق. أنت غبيٌّ لأنَّك لم تفكِّر فيَّ، صديقك، لدعمك وتقديم يد المساعدة إليك. سمعت عن الصعوبات التي تواجهها من أشخاص آخرين، ولهذا السبب أنا هنا لمساعدتك.

لقد تأثَّرت أنا وريتا كثيراً، ولم نكن نعرف أين كنَّا؛ لم نتمكَّن من قول كلمة واحدة، لقد تأثّرنا كثيراً. لم نطلب إلى أيِّ شخص قطّ أيَّ شيء، وكانت هذه حقيقة؛ لكن كان هناك كثير من الأشخاص الذين ساعدتهم

كثيراً، وبعضهم يدينون لي بوظائفهم، وعلى الرَّغم من أنَّهم كانوا يعرفون أنَّنا قد دمّرنا، لم يأتِ أحد لمساعدتنا على أيِّ نحو كان، على الإطلاق. كان معظمهم من الفرنسيين، بعضهم مستقيم وبعضهم الآخر ملتوٍ.

– ماذا تريدني أن أفعل لك، بابيون؟

– إنشاء شركة يمكننا العيش على أساسها سيكلِّف الكثير. حتَّى لو كان لديك المال، فلا يمكنك توفيره.

– اذهبي وارتدي ملابسك يا ريتا. سنذهب نحن الثلاثة لتناول الطعام في أفضل مطعم فرنسيّ في المدينة.

بحلول نهاية الوجبة، تمَّ الاتفاق على أنَّه يجب أن أبحث عن شركة وأخبره كم سيكلِّف الشراء. وقال بولاغنو: «إذا كان لديَّ المال، فلا مشكلة؛ وإذا لم يكن لديَّ ما يكفي، فسأستعير من إخوتي ومن شقيق زوجتي. لكنّي أعطيك كلامي وسأساعدك في كلّ ما تحتاج إليه».

في نهاية اليوم، تحدَّثت أنا وريتا عن تقديره الرائع. قلت لها: «لمَّا كان مجرَّد عريف في إلدو رادو، أعطاني بدلته المدنية الوحيدة كي أتمكَّن من المغادرة بملابس لائقة؛ والآن ها هو ذا هنا يقدِّم لنا يد المساعدة لبدء حياة جديدة».

لقد دفعنا إيجارنا المتأخّر، وانتقلنا إلى مطعم- مقهى لطيف يتمتَّع بموقع جيّد في أعلى شارع في لاس ديليسيا، ولا يزال في حيّ غراند سابانا. كان يطلق عليه اسم مطعم وبار غاب، وكان هذا هو المكان الذي كنّا فيه وقت وصول شارل الكبير.

وصل شارل ديغول، رئيس الجمهوريَّة آنذاك، في زيارة رسميَّة، بدعوة من راؤول ليوني، رئيس فنزويلا.

احتفلت كاراكاس وعموم فنزويلا بهذه المناسبة. كان الناس، الأشخاص الحقيقيّون، الأشخاص ذوو الأيدي الشرّيرة، والقبّعات المصنوعة من القشّ، والأحذية ذات النعال المصنوعة من الحبال، كلّ هؤلاء الأشخاص ذوي القلوب المنفتحة دون استثناء ينتظرون، ممتلئين بالعاطفة، ليهتفوا لشارل ديغول.

كان لدى غاب شرفة مغطّاة ساحرة، وكنت أجلس هناك بهدوء أشرب الباستيس مع رجل فرنسيّ. كان يشرح لي ألغاز معالجة مسحوق السمك. وأخبرني بصوت منخفض أيضاً عن اختراع كان يتقنه للتوّ - وهو اختراع سيجلب له الملايين بمجرَّد قبوله. كان الاكتشاف حقاً بمثابة اختراع بارز. همس وتنحَّى جانبياً ليبدو أكثر سريَّة، وأيضاً ليخبرني بمقدار الأموال التي يمكنني استثمارها في أبحاثه.

من الممتع دائماً الاستماع إلى خطط الرجل الذي يحاول خداعك. كان حديثه سلساً للغاية، وسحرني إلى درجة أنّني لم ألحظ أنَّ أحد الجيران قد أصاخ سمعه وأخذ يستمع إلى حديثنا- حتّى كشفت ملاحظة صغيرة من ريتا، التي كانت في مكتب الدفع النقديّ، وأرسلت الرسالة بتكتُّم مع أحد النادلين: «لا أعرف ما الذي تتحدَّث عنه، لكن لا شكَّ في أنَّ جارك مهتمّ جدّاً بمعرفة ما تقوله. يبدو كأنَّه استخباراتي».

للتخلُّص من المخترع، نصحته بشدَّة بالاستمرار في أبحاثه، وأخبرته أنّني متأكِّد جدّاً من أنَّه سينجح في النهاية، إلى درجة أنّني كان يجب أن أذهب معه بالتأكيد إذا كان لديَّ أيّ مدَّخرات، وهو ما لم أملكه، يا للأسف، لكنت بالفعل قد وضعتها في أبحاثه. ذهب بعيداً؛ نهضت واستدرت باتجاه الطاولة الواقعة وراء ظهري.

رأيت هناك رجلاً حسن البنية للغاية، يرتدي ملابس أنيقة فعلاً، بربطة عنق، وبذلة زرقاء؛ وهناك على المنضدة أمامه، الباستيس وعلبة من الفولواز. لا حاجة إلى الاستفسار عن مهنته أو جنسيّته على السواء.

- عذراً، هل تلك السجائر التي تدخّنها فرنسيَّة؟ سألتُ بالإسبانيَّة.

- نعم: أنا فرنسيّ.

- حقاً؟ أنا لا أعرفك. أخبرني، ألم تكن، لأجل الحظّ، من أعوان شارل الكبير؟

وقف الشابّ حسن البنية وقدَّم نفسه. «أنا المفوَّض بيليون، المسؤول عن أمن الجنرال».

- ممتنّ لمقابلتك.

- وماذا عنك؟ هل أنت فرنسيّ؟

- ابتعد عن هذه الأمور أيُّها المفوّض. أنت تعرف جيّداً من أكون؛ ليس من قبيل المصادفة أنَّك هنا على شرفة المقهى الخاصَّة بي.

- لكن...

- لا تصرّ. شيء واحد فقط في صالحك: لقد وضعت الإبريق على الطاولة ظاهرياً حتَّى أتمكَّن من التحدُّث إليك. أليس هذا صحيحاً؟

- حقاً.

- هل تريد احتساء كوب آخر من الباستيس؟

- لقد جئت لرؤيتك، لأنَّه بما أنَّني مسؤول عن أمن الرئيس، فإنَّني سأطلب إلى السفارة وضع قائمة بالأشخاص الذين قد يضطرُّون إلى

مغادرة كاراكاس قبل وصول الجنرال. ستعرض القائمة على وزير الداخليَّة، وسيتّخذ الخطوات اللازمة.

- أنا في القائمة؟

- ليس بعد.

- ماذا نعرف عنّي؟

- أعلم أنَّ لديك أسرة، وأنَّك تسير مستقيماً.

- ماذا بعد؟

- إنَّ أختك هي مدام X وهي تعيش في عنوان كذا وكذا في باريس، والأخرى هي مدام Y، التي تعيش في غرونوبل.

- ماذا بعد ذلك؟

- تنتهي الدعوى المرفوعة ضدَّك العام المقبل في حزيران ١٩٦٦.

- من قال لك؟

- كنت أعرف ذلك قبل مغادرتي باريس، لكن تمَّ إخطار القنصليَّة هنا أيضاً.

- لماذا لم يخبرني القنصل؟

- رسمياً لا يعرف عنوانك.

- حسناً، شكراً لأجل الأخبار السارّة. هل بمكنني الذهاب إلى القنصليَّة لأتبلَّغ رسميّاً؟

- متى شئت.

- لكن، أخبرني، أيّها المفوَّض، كيف تجلس على شرفة مطعمي هذا الصباح؟ لا يقتصر الأمر على إخباري بسقوط الإجراءات، أو إخباري أنَّ شقيقتيَّ لم تغيِّرا عنوانيهما، أليس كذلك؟

- هذا صحيح. كان من المفترض أن أراك. أن أرى بابيون.

- أنت تعرف بابيون واحداً فقط، الرجل في ملفّ شرطة باريس، كميَّة كبيرة من الأكاذيب، والتشويش والتقارير الملتوية حوله. ملفّ لم يصف حتّى الرجل الذي كنت عليه من قبل، ناهيك عن الرجل الذي أصبحت عليه.

- أنا أصدِّقك حقّاً، وأهنِّئك.

- لقد رأيتني الآن، هل تضعني على قائمة الأشخاص الذين سيُطردون في أثناء إقامة ديغول؟

- لا.

- حسناً، الآن، هل تريدني أن أخبرك لماذا أنت هنا، أيُّها المفوَّض؟

- هذا الأمر مثير للاهتمام.

- هذا لأنَّك قلت لنفسك، الرجل الهارب هو دائماً رجل يبحث عن المال؛ وعلى الرَّغم من أنَّ بابيون ربَّما أصبح مواطناً صالحاً، إلّا أنّه لا يزال طليقاً، ولا يزال مغامراً. قد يرفض مبلغاً كبيراً لقيامه بشيء ما ضدَّ ديغول نفسه؛ لكن فيما يتعلَّق بأخذ المال- ربَّما للتحضير لهجوم - فلماذا، هذا شيء آخر، مرَّة أخرى، وهو ممكن جدّاً.

- تابع.

- حسناً، لقد فهمت الأمر على النحو الخطأ، عزيزي المفوّض. في المقام الأوّل، لن أكون متداخلاً في أيِّ جريمة سياسيَّة، ولا حتَّى من أجل الثروة؛ لا أزال أقلّ واحد ضدّ ديغول. ثانياً، من الذي يمكن أن يكسب من مثل هذا الشيء في فنزويلا؟

- منظَّمة الدول الأمريكيَّة.

- حقّاً. هذا ليس ممكناً جدّاً فحسب، بل إنَّه محتمل جدّاً أيضاً. لقد عملوا على سحب الأشياء مرَّات عدَّة في فرنسا، إلى درجة أنَّه في بلد مثل فنزويلا، يكون الأمر صعباً.

- لماذا؟

- الطريقة التي يتمُّ بها تنظيمهم، لا يتعيّن على رجال منظمة الدول الأمريكيّة دخول فنزويلا عبر الطرق العاديَّة، الموانئ أو المطارات. الحدود البريَّة شاسعة - البرازيل وكولومبيا وغيانا البريطانيَّة - ناهيك عن خطّ ساحليّ يزيد عن ألفي كيلومتر. يمكنهم القدوم في الوقت الذي يريدون، في اليوم والوقت الذي يناسبهم، من دون أن يتمكَّن أيُّ شخص من فعل أيِّ شيء حيال ذلك. هذا هو خطؤك الأوّل، أيّها المفوَّض. إنَّما، هناك شيء آخر أيضاً.

- ما هو؟، سأل بيليون مبتسماً.

- إذا كان هؤلاء الرجال من منظَّمة الدول الأمريكيَّة حاذقين كما يقول الناس، فهذا يعني أنَّهم يحرصون على عدم الاتّصال بالفرنسيين الذين يعيشون هنا. لأنَّهم يعرفون أنَّ رجال الشرطة يتَّجهون مباشرة إلى الفرنسيين، يجب أن يكون احتياطهم الأوّل هو عدم الذهاب إلى أيِّ مكان

بالقرب من واحد منهم. ولا تنسوا أنّه لا يوجد رجل ذو نوايا شرّيرة سيبقى في فندق على الإطلاق. هناك المئات من الأشخاص هنا سيستأجرون غرفة، بغضِّ النظر، من دون التصريح لهم. لذلك، ترى أنَّه لا فائدة من البحث عن الأشخاص الذين قد يقومون بمحاولة اغتيال ديغول بين الفرنسيين هنا، سواء أكانوا محتالين أم لا.

حين مغادرته، طلب بيلبون أن آتي وأراه عندما أستطيع العودة إلى باريس؛ وأعطاني العنوان. على عكس بعض الفرنسيين الآخرين، لم أُطرد من كاراكاس في أثناء إقامة ديغول - وهي إقامة مرَّت من دون أيِّ مشكلة على الإطلاق.

مثل الأحمق، ذهبت مع ديغول وهتفت.

وكأحمق، بمجرَّد وجود هذا القائد العظيم الذي أنقذ شرف بلدي، نسيت أنَّ البلد نفسه قد أرسلني إلى حافة الهاوية مدى الحياة.

ومثل الأحمق، كنت سأصافحه، أو أن أكون في حفل استقبال السفارة الذي أقاموه على شرفه: حفل استقبال لم أُدعَ إليه بالطبع. إنَّما، بطريقة غير مباشرة، استطاع هذا الوسط الانتقام منّي، لأنَّ بعض قدامى العاهرات الفرنسيّات المتقاعدات انزلقن: لقد فتحنَ صفحة جديدة، كما قد تقول، من خلال إقامة زواج جيّد، وكنَّ هناك بأذرع ممتلئة بالزهور لزوجة ديغول المبتهجة.

ذهبت لمقابلة القنصل الفرنسيّ، وقرأ لي إخطاراً يفيد بانقضاء الإجراءات ضدّي في العام التالي. سنة أخرى وسيكون بإمكاني الذهاب إلى فرنسا.

تحسَّن وضعنا بسرعة، وعدت إلى العمل في الحانات طوال الليل، واشتريت نادي سكوتش في تشاكيتو، وسط كاراكاس. كان هذا عملاً غريباً، لأنّني ذهبت إليه في المقام الأوّل لإنقاذ مصفّف شعر فرنسيّ فقير كان بعض الأوغاد القبيحين يحاولون الفرار. في وقت لاحق، نجح روبن هود هذا في تحقيق نتائج جيّدة.

لذلك، كنت أعيش في الليل مرّة أخرى لسنوات عدّة. كانت الحياة الليليّة في كاراكاس تزداد ابتذالاً أكثر فأكثر، وفقدت تلك اللمسة البوهيميّة التي كانت مزيّة سحرها. لم يعد الرجال الذين عاشوها كما هم، وكان العملاء الجدد يفتقرون إلى الثقافة والأخلاق الحميدة.

بقيت في البار أقلّ ما يمكن، أعيش في الشارع طوال الوقت تقريباً، أتجوّل في الأحياء المجاورة. تعرّفت إلى أطفال كاراكاس، القنافذ التي تجوّلت طوال الليل بحثاً عن بضعة سنتات، والإبداع الرائع لهؤلاء الأطفال الذين عاش آباؤهم في أكواخ الأرانب. لم يكن هؤلاء أنموذجاً جيّداً للآباء على الدوام؛ لأنَّ هناك كثيرين جيّدين، وآخرين بسبب فقرهم، لم يتردّدوا في استغلال أطفالهم.

هؤلاء الأطفال أطلقوا أنفسهم بشجاعة في الليل لإحضار الكميَّة المطلوبة منهم إلى المنزل. كانوا ما بين الخامسة والثانية عشرة من العمر. بعضهم يعمل في تلميع الأحذية، وبعضهم الآخر ينتظر عند باب النادي الليليّ، وآخرون يعرضون على الزبائن حراسة سيّاراتهم في أثناء دخولهم، واندفع بعضهم الآخر إلى فتح باب السيّارة أمام البواب. ألف مراوغة، ألف وسيلة ذكيّة لإضافة بوليفار إلى بوليفار حتّى يكون لديهم

عشرة أو ما يقرب من ذلك، بحيث يمكنهم العودة إلى المنزل في الخامسة أو السادسة صباحاً.

في كثير من الأحيان، لمّا كان أحد العملاء الذين أعرفهم سيدخل سيّارته الكبيرة، كنت أحثّه على أن يكون كريماً، باستخدام هذه الصيغة: «كن وسيماً، الآن! فكّر في الأموال التي أنفقتها في هذا النادي - جزء من المئة ممّا رششته سيكون هبة من السماء لهذا الطفل الفقير». لقد نجحت تسع مرّات من كلّ عشر مرّات، فيعمد الزبون المستهتر إلى إعطاء الطفل ورقة من عشرة أو عشرين بوليفاراً.

كان صديقي المفضّل بابليتو صغيراً نحيلاً نوعاً ما، لكنّه كان صعباً، وقد حارب الأولاد الأكبر سنّاً كالأسد. لأنّ هناك اهتمامات متضاربة في هذا الصراع من أجل الحياة، وإذا لم يشر الزبون، على وجه التحديد، إلى صبيٍّ واحد لحراسة سيّارته، فحينما يخرج الرجل مرّة أخرى، يحصل الشخص الأسرع إليه على المال. هذا يعني معركة ضارية.

كان صديقي الصغير ذكيّاً، وقد تعلّم القراءة من الأوراق التي يبيعها بين الحين والآخر. لم يكن هناك أحد مثله في التفوّق على كلّ المنافسين عندما يحرس إحدى السيّارات؛ وكان الأسرع في أداء المهمّات الصغيرة - كان يُحضر الأشياء التي تنقصنا في البار، على غرار السندويشات أو السجائر.

كلّ ليلة، كان صغيري بابليتو يواصل الكفاح حتّى يتمكّن من مساعدة جدّته؛ كانت جدّة كبيرة جدّاً في السنّ، على ما يبدو، بشعر أبيض، وعينين زرقاوين باهتتين، ووضع الروماتيزم لديها سيّئ للغاية إلى درجة أنّها لم تستطع العمل على الإطلاق. كانت والدته في السجن لأنّها ضربت جاراً

بزجاجة عندما حاول سرقة جهاز المذياع الخاصّ بها. كان في التاسعة من عمره. لقد كان المعيل الوحيد في الأسرة. ولم يسمح لجدَّته أو أخيه الصغير أو أخته الصغيرة بالخروج إلى شوارع كاراكاس، سواء في النهار أم في الليل. كان هو رجل المنزل، وكان عليه أن يعتني بأهله ويحميهم.

لذلك، ساعدت بابليتو عندما كان يمرُّ بليلة سيّئة أو في حالات الطوارئ، بإعطائه النقود لشراء أدوية لجدَّته أو لدفعها لسيَّارة أجرة لأخذها لرؤية الطبيب في المستشفى المجانيّ.

- وجدَّتي، أيضاً تعاني من نوبات الربو. هل تدرك تكلفة ذلك، يا إنريكي؟

كان في كلِّ ليلة يقدِّم لي بابليتو تقريراً عن صحَّة جدَّته. ذات يوم، كان ثمَّة طلب مهمّ: كان في حاجة إلى أربعين بوليفاراً لشراء مرتبة مستعملة. لم تعد جدَّته قادرة على الاستلقاء في الأرجوحة الشبكيَّة، بسبب، إصابتها بالربو: قال الطبيب إنَّها تضغط على صدرها.

غالباً ما كان يجلس في سيَّارتي، وذات يوم كان الشرطيُّ الحارس يتحدَّث إليه، متَّكئاً على الباب ويلعب بمسدَّسه: دون أدنى نيَّة سيّئة، أطلق رصاصة في كتف بابليتو. نُقل إلى المستشفى وأُجريت له عمليَّة جراحيَّة. ذهبت لرؤيته في اليوم التالي. سألته عن مكان كوخه وكيفيَّة الوصول إليه؛ قال إنَّ من المستحيل العثور عليه من دون دليل، ولم يسمح له الطبيب بالنهوض في هذه الحالة.

في تلك الليلة، بحثت عن أصدقاء بابليتو، على أمل أن يأخذني أحدهم إلى جدَّته. شعرت حينها بتضامنهم الرائع: قالوا جميعاً إنَّهم لا يعرفون أين

يعيش. لم أصدِّق أيَّ كلمة منهم، ففي كلّ يوم كانت مجموعة كاملة منهم تنتظر عودة بعضهم بعضاً إلى المنزل معاً.

كنت مهتمّاً ومحتاراً، وطلبت إلى الممرِّضة الاتّصال بي عندما يكون لدى بابليتو زائر تعرف أنَّه أحد أفراد الأسرة أو أحد الجيران. بعد يومين اتصلتْ، وذهبتُ إلى المستشفى.

- حسناً، يا بابلينو، وكيف حالك الآن؟ أنت تبدو قلقاً.

- لا، يا إنريكي؛ فقط ظهري يؤلمني.

قالت زائرته: «كان يضحك قبل بضع دقائق فقط».

- هل أنت من أهله، يا سيّدتي؟

- لا. أنا جارة.

- كيف حال جدَّته والأطفال الصغار؟

- أيّ جدَّة؟

- ماذا، جدَّة بابليتو!

- لكنَّ بابليتو ليس لديه جدَّة.

أخذتُ المرأة جانباً. نعم، كانت لديه أخت صغيرة، ونعم، كان لديه أخ صغير، لكن ليس لديه جدَّة. ولم تكن والدته في السجن. كانت حطام امرأة قاتمة الذكاء.

هذا الطفل الرائع في شارع كاراكاس لا يريد أن يعرف صديقه إنريكي أنَّ والدته كانت نصف مجنونة، وقد اخترع قصَّة هذه الجدَّة الرائعة المصابة

بالربو، كي يخفّف صديقه الفرنسيّ، الذي يعطيه المال بسببها، من تعاسة والدته المسكينة وضيقها.

عدت إلى سرير صديقي الصغير: لقد كان يخجل من أن ينظر إلى وجهي. برفق رفعت ذقنه. كانت عيناه مغمضتين، لكن لمّا فتحهما أخيراً قلت له: «بابليتو، أنت رجل حقيقيّ».

لقد تركت له ورقة مئة بوليفار لأسرته وخرجت، وأنا فخور تماماً، وسعدت بنفسي لوجود مثل هذا الصديق.

الفصل السابع عشر

مونمارتر - محاكمتي

بحلول عام ١٩٦٧، كانت الإجراءات المتّخذة ضدّي قد سقطت. غادرت إلى فرنسا بنفسي. للحفاظ على سير العمل على نحو صحيح، يجب أن تتمتَّع بالسلطة والشجاعة والقدرة على جعل نفسك محترماً، وربتا فقط هي التي يمكنها فعل ذلك. قالت لي: «اذهب واحتضن أسرتك في بيوتهم؛ اذهب وصلِّ عند قبر والدك».

عدت إلى فرنسا عن طريق نيس. لماذا نيس؟ إلى جانب تأشيرتي، أعطتني القنصليَّة الفرنسيَّة في كاراكاس وثيقة تثبت انتهاء الإجراءات؛ لكن لمَّا سلَّمني القنصل الأوراق، قال لي: «انتظر حتَّى تصلني تعليمات من فرنسا حول الظروف التي يمكنك بموجبها العودة». لم يكونوا مضطرّين إلى توضيح ذلك. إذا عدت إلى القنصل وتلقَّى الردَّ من باريس، فسيخبرني أنَّني ممنوع من ممارسة الجنس مدى الحياة. إنَّما، كان لديَّ كلّ النيَّة للقيام برحلة إلى باريس.

بهذه الطريقة، تجنَّبت تلقّي الإخطار؛ وبما أنّني لم أتسلَّمه، ولم أوقّع عليه، فلن أرتكب أيَّ مخالفة ما لم يعلم القنصل أنّني غادرت وأخبر رجال الشرطة في مطار باريس بتسليمي الإخطار. ومن هنا محطّتي - يجب أن أصل إلى نيس كما لو كنت قادماً من إسبانيا.

١٩٣٠ - ١٩٦٧ : مرَّت سبعة وثلاثون عاماً.

ثلاثة عشر عاماً من الطريق إلى التعفُّن: اثنان وعشرون عاماً من الحريَّة، عشرون عاماً منها مع منزل، ما يعني أنّني أستطيع المضي قُدماً، وإعادة الاندماج في المجتمع.

عام ١٩٥٦، كان هناك شهر مع أسرتي في إسبانيا؛ ثمَّ فجوة من أحد عشر عاماً، على الرَّغم من أنَّه في غضون هذه السنوات الإحدى عشرة، أبقتني رسائلنا العديدة في اتّصال مع أسرتي.

عام ١٩٦٧، رأيتهم جيعاً. ذهبت إلى منازلهم، جلست إلى طاولاتهم، وكان أطفالهم على ركبتي، حتّى أكبرهم سنّاً. ذهبت إلى غرونوبل وليونز وكان وسان بريست، وأخيراً إلى سان بيراي حيث وجدت تانت جو في منزل والدي، لا تزال وفيّة في مكانها.

لقد استمعت إلى تانت جو وهي تخبرني لماذا مات والدي قبل أوانه. سقى حديقته بنفسه، وحمل العلب لساعات وساعات إلى مسافة تزيد على مئتي متر. «تخيَّل أنَّه، يا عزيزي، في مثل عمره كان بإمكانه شراء خرطوم مطاطيّ، لكن يا إلهي، كان عنيداً مثل البغل. وذات يوم، بينما كان يحمل هذه الأواني، خفق قلبه».

كان بإمكاني أن أرى والدي يسحب تلك العلب الثقيلة على طول الطريق حتّى يصل إلى الألواح الخشبيَّة حيث الخسّ والطماطم والفاصولياء. وكان بإمكاني رؤيته وهو يصرُّ بعناد على عدم الحصول على الخرطوم. استمرَّت زوجته تانت جو في التوسُّل إليه ليشتريه. كان بإمكاني رؤيته، مدير مدرسة ذلك البلد، وهو يتوقَّف لالتقاط الأنفاس ومسح جبهته، أو تقديم المشورة لأحد الجيران أو إعطاء درس في علم النبات لأحد أحفاده.

قبل أن أذهب لرؤية قبره في المقبرة، طلبت إلى تانت جو أن تذهب معي في نزهاته المفضَّلة. ذهبنا بالوتيرة عينها التي اعتاد السير وفقها، متبعَين المسارات الحجريَّة المملثة بالورد والخشخاش والأقحوان نفسها، وانتظرنا حتّى يجعل بعض النحل أو رحلة طائر، العمَّة جو تتذكَّر بعض الأحداث التي حدثت منذ فترة طويلة، التي لمستها. ثمَّ، بسعادة عارمة، استذكرت لي كيف أخبرها والدي عن تعرُّض حفيده للسعة دبّور. «هناك، يا هنري، هل ترى؟ كان يقف هناك تماماً».

لقد استمعت، مع أنَّني أحسست بأنَّ حنجرتي جافَّة، وأنّي متعطِّش للمزيد، المزيد من التفاصيل الصغيرة عن حياة والدي. قال لها والدي: «أتعلمين، يا جو، لمَّا كان ابني صغيراً جدّاً، في عمر خمسة أو ستّة أعوام في الأكثر، تعرَّض للسعة دبّور عندما كنّا في الخارج في نزهة - ليس مرَّة واحدة، مثل حفيدي، لكن مرّتين. حسناً، لم يبكِ على الإطلاق؛ وعلاوة على ذلك، واجهتنا صعوبة كبيرة في منعه من الذهاب للبحث عن عشِّ الدبابير لتدميره. أوه، كان ريري شجاعاً جدّاً!»

لم أسافر إلى آرديش؛ لم أذهب أبعد من سانت بيري. لعودتي إلى قريتي أردت أن تكون ريتا معي.

نزلت من القطار في محطَّة ليون، ووضعت حقائبي في خزانة في المحطَّة كي لا أضطرَّ إلى ملء استمارة التسجيل في الفندق. وبعد ذلك، مرّة أخرى، وطئت قدماي إسفلت باريس مرَّة أخرى.

إنَّما، هذا الإسفلت لم يكن إسفلتي، إلى أن كنت في منطقتي مونمارتر. ذهبت إلى هناك ليلاً، بالطبع. كانت الشمس الوحيدة التي عرفها بابيون في الثلاثينيّات هي تلك التي كانت من المصابيح الكهربائيَّة.

وها هي ذي مونمارتر: ساحة بيغال، ومقهى بيرو، وضوء القمر، وممرّ الإليزيه للفنون الجميلة، والمحتفلون والضحكات، والعاهرات والقوّادون الذين يمكن لأيِّ شخص تعرُّفهم على الفور. بالمناسبة، المقاهي الليليَّة والحانات مكتظّة بالناس، لكن كلّ هذا كان مجرَّد انطباعي الأوّل.

مرَّت سبعة وثلاثون عاماً، ولم ينظر إليَّ أحد. من كان سينظر إلى رجل يبلغ من العمر ستّين عاماً؟ كان باستطاعة العاهرات أن يطلبن إليَّ الصعود إلى الطابق العلويّ، وقد يكون الشبّان غير محترمين إلى درجة تجعلهم يطلبون إليَّ مغادرة البار.

مجرَّد شخص غريب آخر، عميل محتمل، صناعيّ إقليميّ - هذا ما يجب أن يكون عليه هذا الرجل الذي يرتدي ملابس أنيقة وربطة عنق؛ رجل من الطبقة الوسطى، وآخر ضلَّ طريقه في هذه الساعة المتأخّرة، في هذه الحانة المريبة. يمكنك أن ترى على الفور أنَّه لم يكن معتاداً هذه الأجواء؛ يمكن أن تشعر أنَّه كان غير مرتاح.

من المؤكَّد أنّني كنت غير مرتاح، وكان ذلك مفهوماً. لم يكونوا الأشخاص أنفسهم أو الوجوه أنفسها. عند النفحة الأولى يمكنك أن ندرك أنَّ كلَّ شيء كان مختلطاً الآن. رجال الشرطة، السحاقيّات، القوّادون المزيّفون، الشاذّون، السود والعرب؛ لم يكن هناك سوى عدد قليل من الشخصيّات من مرسيليا أو كورسيكا، يتحدَّثون بلهجة جنوبيّة، تذكِّرني بالعصور القديمة. لقد كان عالماً مختلفاً تماماً عن العالم الذي عرفته.

لم يكن هناك حتّى ما كان موجوداً على الدوام في جدول مواعيدي مع مجموعات من الشعراء أو الرسّامين أو الممثلين، بشعرهم الطويل الذي

تفوح منه رائحة بوهيميا، وعقلهم الطليعيّ. الآن، كلّ شخص سخيف يمكن أن يكون لديه شعر طويل.

كنت أتجوّل من حانة إلى أخرى مثل السائر في أثناء نومه، وصعدت السلالم لأرى ما إذا كانت طاولات البلياردو في شبابي لا تزال في الطابق الثاني، ورفضت بلطف عرض أحد المرشدين السياحيين ليعرّفني إلى مونمارتر. لكنّني سألته: «هل تعتقد أنّه منذ عام ١٩٣٠ فقدت مونمارتر الروح التي كانت لديها في تلك الأيّام؟»

شعرت كأنّني أصفعه للحصول على إجابة تهين بلدي مونمارتر: «أوه، لكن سيّدي، مونمارتر خالدة. لقد عشت هنا أربعين عاماً، أتيت عندما كنت في العاشرة من عمري، وصدّقني، إنّ ساحة بيغال، والساحة البيضاء، وساحة كليشي وجميع الشوارع التي تنطلق منها، هي نفسها وستظلّ دائماً كما هي إلى الأبد».

هربت من اللقيط الكئيب، ومشيت تحت الأشجار على الجزء المرتفع في منتصف الطريق. من هنا، نعم - طالما أنّك لم ترَ الأشخاص بوضوح، طالما رأيت أشكالهم فقط - من هنا، نعم، كانت مونمارتر لا تزال كما هي. اتجهت ببطء نحو المكان الذي زُعم أنّني أطلقت فيه النار على رولان لوغران ليلة ٢٥- ٢٦ آذار ١٩٣٠.

المقعد، في الأرجح المقعد عينه الذي تجري إعادة طلائه كلّ عام (المقعد العامّ يبقى في حالة جيّدة مدّة سبعة وثلاثين عاماً مع خشب بهذه السماكة)، كان المقعد موجوداً، وعمود الإنارة والبار الموجود على الطريق، والمصاريع نصف المغلقة في المنزل المقابل، كانت لا تزال هناك. لقد كانت الشهود

الحقيقين الأوائل والوحيدين على المأساة. كانت تعرف جيّداً أنَّ الرجل الذي أطلق النار في تلك الليلة ليس أنا. لماذا لم تقل ذلك؟

مرَّ الناس، غير مبالين، ولم يلاحظوا قطّ هذا الرجل البالغ من العمر ستّين عاماً متّكئاً على شجرة، الشجرة عينها التي كانت هناك عندما أطلقت الرصاصة.

كنت في الثالثة والعشرين من عمري عام ١٩٣٠، عندما كنت أركض في شارع ليبيك، ولا يزال بإمكاني السير في هذا الشارع بخفَّة. لقد عاد الشبح على الرّغم منكم جميعاً. لقد دفع القبر الذي دُفن فيه حيّاً. توقّفوا، توقَّفوا، أيّها الأشخاص أنصاف العميان المارّون أمامي! توقَّفوا وانظروا إلى رجل بريء أُدين بارتكاب جريمة قتل على هذه الأرض بالذات، أمام هذه الأشجار نفسها، وهذه الحجارة عينها - توقَّفوا واسألوا هؤلاء الشهود الأغبياء، واطلبوا إليهم التحدُّث علانيةً اليوم. وإذا ما اقتربتم، فستسمعونهم يتهامسون بصوت خافت قائلين: «لا، لم يكن هذا الرجل هنا في الساعة الثالثة والنصف، ليلة الخامس والعشرين- السادس والعشرين من آذار قبل سبعة وثلاثين عاماً».

«أين كنت إذاً؟» سيسأل المشكّكون. الأمر بسيط: كنت في بار أيريس، ربّما على بعد مئة متر من هنا. في حانة أيريس، عندما اقتحم سائق سيَّارة أجرة المكان وصرخ قائلاً: «ثمّة رصاصة في الخارج الآن».

قال رجال الشرطة: «هذا ليس صحيحاً». قال مدير الحانة والنادل، بدافع من رجال الشرطة: «الأمر ليس صحيحاً».

مرَّة أخرى رأيت التحقيق. رأيت المحاكمة: لم أستطع تجنُّب مواجهة الماضي وجهاً لوجه. هل تريد أن تعيش من خلاله مرَّة أخرى، يا رجل؟ لقد مرَّ ما يقرب من أربعين عاماً، ولا تزال تريد أن تمرَّ بهذا الكابوس مرَّة أخرى؟ ألست خائفاً أنَّ هذه العودة ستجعلك تتوق إلى الانتقام الذي تخلّيت عنه منذ زمن طويل؟ أنت متأكّد من نفسك بالطبع، متأكّد من أنّه عبر الانغماس في هذا الوحل، لن تنتظر أن يبزغ الفجر والمحالّ التجاريّة تفتح أبوابها لشراء صندوق وحشوه بالمتفجّرات، تصفّح الدليل للعثور على هاتف المدَّعي العام، بحثاً عمّا إذا كان غلوستان لا يزال في قيد الحياة؟

اجلس هناك، على المقعد الأخضر نفسه، الذي شهد عمليّة القتل التي حدثت مقابل شارع جيرمان-بيلون مباشرةً، هنا في بوليفار دي كليشي، إلى جوار كليشي بار تاباك، حيث بدأت المأساة بعد التحقيق.

إنَّها ليلة ٢٥- ٢٦ آذار: الساعة الثالثة والنصف صباحاً. يدخل رجل فندق لا كليشي ويقول لمدام نيني: «هذا أنا».

- لقد جرى إطلاق النار على رجلك. أصيب في بطنه. هيَّا؛ إنَّه في سيَّارة أجرة.

ركضت نيني وراء الرجل المجهول مع صديقتها. ركبتا سيَّارة الأجرة، حيث يجلس رولان لوغران على المقعد الخلفيّ. طلبت نيني من الرجل المجهول الحضور أيضاً. فيجيب قائلاً: «لا أستطيع» ويختفي.

- بسرعة، اذهب إلى مستشفى لاريبوازير!

فقط، في أثناء القيادة علم سائق التاكسي، وهو روسيّ، أنَّ الراكب أصيب بجروح: لم يلحظ أيَّ شيء من قبل. في اللحظة التي فرغت فيها

سيَّارة الأجرة في المستشفى، سارع إلى إخبار رجال الشرطة بما يعرفه: جرى إيقافه من قِبل رجلين أمام ١٧ بوليفار دي كليشي: دخل أحدهما فقط - رولان لوغران. قال له الآخر أن يقود سيَّارته إلى بار كليشي وتبعه سيراً على الأقدام. دخل هذا الرجل الحانة وخرج مع امرأتين. ثمَّ اختفى. أخبرته المرأتان أن يقود سيّارته إلى مستشفى لاريبوازير: «في أثناء الرحلة علمت أنَّ الرجل مصاب».

كتب رجال الشرطة كلَّ هذا بعناية، كما دوَّنوا إعلان نيني أنَّ صديقها لعب الورق طوال تلك الليلة في الحانة نفسها مع رجل مجهول؛ لعب النرد وتناول شراباً في الحانة مع بعض الرجال، وما زالوا جميعاً غير معروفين؛ غادر رولان بعد الآخرين وحده. لم يكن هناك شيء في تصريح نيني يشير إلى أنَّ أيَّ شخص قد جاء لجلبه. لقد خرج من تلقاء نفسه، بعد أن غادر الآخرون، المجهولون.

استجوب المفوّض والشرطيّ، العميد جيراردين والمفتش جريمالدي، رولان لوغران المحتضر بحضور والدته. أخبرتهما الممرِّضات أنَّ حالته ميئوس منها. هذا ما جاء في تقريرهما. لقد نُشر في كتاب كُتب لأجل هدمي وتدميري، مع مقدّمة، ومن ثَمَّ ضمان من قبل مفوض التقسيم، بول رومان. ها هو ذا. رجلان من الشرطة يستجوبان لو غران:

- أنت إلى جانب مفوّض الشرطة ووالدتك، أقدس علاقة في العالم. قل الحقيقة. من أطلق عليك النار؟

أجاب قائلاً: «بابيون روجر».

- نطلب إليك أن تقسم بأنَّك تقول الحقيقة.

- نعم يا سيدي، لقد أخبرتك بالحقيقة.

انسحبنا تاركَين الأمّ إلى جانب ابنها.

إذاً، ما حدث ليلة ٢٥ آذار من عام ١٩٣٠ كان واضحاً وصريحاً: الرجل الذي أطلق النار كان بابيون روجر.

كان رولان لوغران جزّاراً للحم الخنزير وقوّاداً، وضع صديقته نيني للعمل معه: عاش معها في ٤ شارع إليزيه للفنون الجميلة. لم يكن حقّاً شخصاً من هذا الوسط، لكن، مثل كلّ أولئك الذين يتسكّعون حول مونمارتر وجميع المحتالين الحقيقيين، كان يعرف العديد من بابيون. ولأنّه كان يخشى أن يعتقلوا بابيون آخر بدلاً من الشخص الذي قتله، فقد كان دقيقاً بشأن الاسم المسيحيّ. لأنّه على الرغم من أنّه كان مولعاً بالعيش خارج القانون، إلّا أنّه مثل الجميع أراد أيضاً أن تعاقب الشرطة عدوّه. بابيون، بالتأكيد، لكن بابيون روجر.

كلّ شيء عاد إليّ في هذا المكان اللعين. لا بدَّ أنّني مررت بهذا الملفّ في رأسي ألف مرَّة. كنت أحفظه عن ظهر قلب في زنزانتي، مثل الكتاب المقدَّس، لأنَّ المحامين أعطوني إيَّاه، وكان لديَّ الوقت لأنقشه في ذهني قبل المحاكمة.

هذا كان تصريح لوغران قبل وفاته؛ وإعلان زوجته نيني. لم يلقّبني أيٌّ منهما بالقاتل.

(١) إذا كان الجريح في الواقع رولان لوغران؛

(٢) ما هي حالته.

أُخبر رجال الشرطة على الفور، وبدؤوا البحث. بما أنَّ هؤلاء الرجال لا ينتمون إلى هذا الوسط، ولم يخفوا أنفسهم، فقد جاؤوا سيراً على الأقدام وغادروا سيراً على الأقدام. تمَّ القبض عليهم حين كانوا يسيرون في شارع روششوارت، وظلّوا رهن الاحتجاز في المحطّة في الدائرة الثامنة عشرة.

لقد كانوا:

جورج غولدشتاين، ٢٤ عاماً؛ روجر دورم، ٢٤ عاماً؛ روجر جورمار، ٢١ عاماً؛ إميل كيب، البالغ من العمر ثمانية عشر عاماً.

لقد أدلوا بأقوالهم أمام مفوّض الدائرة الثامنة عشرة في يوم الجريمة عينه. ذكر غولدشتاين أنَّه في تجمُّع للناس قيل له إنَّ رجلاً يُدعى لوغران أصيب - أطلقت عليه ثلاث رصاصات من مسدَّس. معتقداً أنَّه صديقه رولان لوغران، الذي كان غالباً في تلك المنطقة، فذهب إلى المستشفى للاطمئنان عليه. في الطريق التقى دورين ثمَّ الاثنين الآخرين، وطلب إليهم الذهاب معه. لا يعرف الآخرون شيئاً عمّا حدث، ولم يعرفوا الضحيَّة.

سأل المفوّض غولدشتاين: «هل تعرف بابيون؟»

- نعم، قليلاً. لقد التقيته بين الحين والآخر. كان يعرف لوغران. هذا كلّ ما يمكنني إخبارك به.

فماذا يعني ذلك؟ ماذا يعني هذا بابيون؟ كان هناك خمسة أو ستّة منهم في مونمارتر!

تصريح دورين: طلب إليه غولدشتاين الذهاب إلى مستشفى لاريبوازير للاستفسار عن حالة صديقه. ذهب إلى المستشفى معه؛ وسأل غولدشتاين عمّا إذا كان لوغران الذي تمَّ إحضاره مصاباً بجروح خطِرة.

سأل المفوّض قائلاً: «هل تعرف لوغران؟ هل تتذكّر بابيون روجر؟»

- أنا لا أعرف لوغران، سواء بالاسم أم بالمظهر. أنا أعرف رجلاً يُدعى بابيون، أسمع عنه في الشارع. إنَّه مشهور للغاية، ويقولون إنَّه مرعب. لا أعرف أكثر من ذلك.

الرجل الثالث الذي استجوب، جورمار، قال إنَّه لَمَّا خرج غولدشتاين من المستشفى، بعد أن دخل بمفرده مع دورين، قال: «إنَّه بالتأكيد صديقي».

لذا، قبل أن يدخل، لم يكن متأكِّداً من ذلك، أليس كذلك؟

قال المفوض: «هل تعرف بابيون روجر ورجلاً ذكر اسمه لوغران؟»

- أعرف رجلاً يُدعى بابيون يتسكَّع حول بيغال. آخر مرَّة رأيته فيها كانت قبل نحو ثلاثة أشهر.

الشيء نفسه مع الشخص الرابع. لم يكن يعرف لوغران. بابيون، نعم، لكن فقط بالشكل.

وأكَّدت الأمّ في تصريحها الأوّل أنَّ ابنها قال بابيون روجر.

حتَّى الآن، كان كلّ شيء واضحاً ودقيقاً. أدلى جميع الشهود الرئيسيين بشهاداتهم بحريَّة تامَّة أمام مفوَّض الحيّ دون أن يواجهوا أيَّ تهديد.

باختصار، كان رولان في بار كليشي قبل المأساة، وكان جميع الأشخاص الموجودين غير معروفين. ربَّما كانوا يلعبون الورق أو النرد، ما يعني أنَّهم كانوا من معارف رولان، لكنَّهم ما زالوا غير معروفين. الشيء الغريب والمقلق حقّاً هو أنَّهم ظلُّوا مجهولين حتَّى النهاية.

النقطة الثانية: كان رولان لوغران هو آخر من غادر البار، وحيداً، حسب تصريحات زوجته. لم يأتِ أحد لأخذه. بعد فترة وجيزة من خروجه، أصيب بجروح على يد رجل حدَّده على نحو واضح على فراش الموت باسم بابيون روجر. الرجل الذي جاء ليخبر نيني كان مجهولاً آخر. وكان عليه أن يظلَّ كذلك. ومع هذا، كان هو الشخص الذي ساعد لوغران في ركوب سيَّارة الأجرة مباشرة بعد إطلاق النار - رجل مجهول سار مع سيَّارة الأجرة حتَّى البار حيث كان ينوي تحذير نبني. وكان هذا الشاهد الأساسيّ، لكنَّه ظلَّ مجهولاً، على الرَّغم من أنَّ كلَّ ما فعله للتوّ أثبت أنَّه ينتمي إلى هذا المجتمع، إلى مونمارتر، وتالياً كان معروفاً لدى رجال الشرطة. هذا أمر غريب.

النقطة الثالثة: غولدشتاين، الذي كان من المقرّر أن يكون الشاهد الرئيس للادّعاء، لم يعرف من الذي أصيب، وذهب إلى مستشفى لاريبوازيير لمعرفة ما إذا كان صديقه لوغران.

كانت الدلائل الوحيدة على هذا البابيون أنَّه كان يطلق عليه روجر، وقيل عنه إنَّه مرعب.

هل كنت مخيفاً يا بابي وأنت في الثالثة والعشرين من عمرك؟ هل كنت خطِراً؟ لا، لكن ربَّما كنت في طريقي لأن أصبح كليهما. من المؤكَّد أنَّني كنت رجلاً قاسياً، «غير مرغوب فيه» حينها؛ لكن من المؤكَّد أيضاً أنَّه في الثالثة والعشرين فقط لم يكن بإمكاني أن أصبح إلى الأبد نوعاً معيَّناً من الرجال. من المؤكَّد أيضاً أنَّه في ذلك العمر، بعد أن أمضيت عامين فقط في مونمارتر، لم يكن بإمكاني أن أكون رئيساً لعصابة أو مرعباً في بيغال. بالتأكيد لقد أزعجت النظام العامّ. وبالتأكيد كنت مشتبهاً في أنَّني شاركت في أعمال

كبيرة، لكن لم يتمَّ إثبات أيِّ شيء ضدّي. بالتأكيد، لقد جرى استجوابي مرَّات عدَّة، ووشوا بي بشدَّة في ٣٦ رصيف دي أورفير، لكن دون الحصول على أيِّ شيء منّي، سواء كان اعترافاً أم اسماً. بالتأكيد، بعد مأساة طفولتي، وبعد الفترة التي أمضيتها في البحريَّة، وبعد أن رفضتني الحكومة في مهنة ثابتة، قرَّرت أن أعيش خارج مجتمع المهرِّجين هذا، وأن أعلمهم بذلك. بالتأكيد، في كلِّ مرَّة يجري فيها اصطحابي واستجوابي في رصيف دي أورفير من أجل وظيفة مهمَّة، اعتقدوا أنَّني غارق فيها، أهنت معذبي بكلِّ طريقة ممكنة، حتّى أخبرتهم أنَّني سأكون في يوم من الأيَّام في مكانهم، القاذورات، وسيكونون تحت رحمتي. لذلك بالطبع، رجال الشرطة، الذين تعرَّضوا للإذلال، ربَّما قالوا لأنفسهم: «بابيون هذا، علينا قصّ جناحيه في أول فرصة تسنح لنا».

لكن، مع ذلك، كنت في الثالثة والعشرين فقط! لم تكن حياتي مجرَّد استياء وحقد ضدَّ المجتمع والساحات التي أطاعت قواعده الحمقاء: لقد كانت أيضاً ذاتيَّة، تبعث وابلاً من الشرِّ. صحيح أنَّني قمت ببعض الهراء الجادّ. نعم، لكنَّه لم يكن هراء شرّيراً. علاوة على ذلك، لمَّا نُقلت، لم يكن هناك سوى إدانة واحدة في ملفّي: أربعة أشهر مع وقف التنفيذ لتلقّي بضائع مسروقة. هل كنت أستحقّ أن أُمحى من على وجه الأرض، لمجرّد أنَّني أذلُّ رجال الشرطة، ولمجرَّد أنَّني قد أتحوَّل إلى خطر في يوم من الأيَّام؟

بدأ كلُّ شيء عندما تولَّت الشرطة الجنائيَّة العمل. انتشروا حول مونمارتر. كانوا يبحثون عن كلِّ بابيون - بابيون الصغير، بوسيني بابيون، بابيون ترومبي لا مورت، بابيون روجر، إلخ.

بالنظر إليّ، كنت مجرَّد بابيون عاديّ؛ أو في بعض الأحيان، لتجنُّب الالتباس، بابيون واحد. لكن لم يكن جزءاً من طريقتي في الحياة أن أعيش مع رجال الشرطة، وقد تحرَّكت بسرعة: نعم، كان هذا صحيحاً. هربت مسرعاً.

ولماذا فعلتَ ذلك يا بابي مع أنَّه لم تكن أنت؟

الآن تطرح هذا السؤال؟ وأنت في الستين من العمر؟ هل نسيت أنَّك عندما بلغت الثالثة والعشرين من عمرك كنت قد تعرَّضت بالفعل للتعذيب مرَّات عدَّة في رصيف دي أورفير؟ لم تكن قطُّ مغرماً بالتعرُّض للضرب، أو لكلّ تلك العذابات من قبل رجال الشرطة: الطريقة التي كانوا يدافعون بها، هي وضع رأسك تحت الماء حتَّى تهلك بسبب نقص الهواء، ولم تكن تعرف ما إذا كنت ميتاً أو حيّاً؛ رجال الشرطة الذين يعطونك خمس أو ستّ جولات على كراتك ويتركونها منتفخة، إلى درجة أنَّك تمشي لأسابيع متتالية مثل الغاوتشو الأرجنتيني؛ الطريقة التي يسحقون بها أظافرك في مكبس ورقيّ حتَّى ينزل الدّم، ويخلعون أظافرك؛ الطريقة التي يضربونك بها بهراوة مطاطيّة تصيب رئتيك، فينسكب الدّم من فمك؛ والطريقة التي يقفز بها هؤلاء، الذين يبلغ وزن واحدهم ما بين ثمانين إلى مئة كيلوغرام، على أعلى وأسفل بطنك كما لو كان ترامبولين. ما عمركَ يا بابي؟ أم أنَّك فقدتَ ذاكرتكَ؟ كان هناك مئة سبب للهروب على الفور. لقد كانت هناك استراحة لا تبعد كثيراً؛ بما أنَّك لست مذنباً، فلا داعي للسفر إلى الخارج، مجرَّد مخبأ صغير بالقرب من باريس سيكون كافياً. وسرعان ما سيحصلون على بابيون روجر المعني، أو في الأقلّ

يتعرَّفونه؛ وبعد ذلك، ستركب سيَّارة أجرة وتعود إلى باريس. لا مزيد من الخطر على الكرات أو أظافرك أو البقيَّة.

فقط هذا البابيون روجر لم يتمَّ تعرُّفه قطّ. لم يكن ثمَّة مذنب.

ثمَّ، تمَّ إنتاج رجل مطلوب مرَّة واحدة مثل السحر. هذا بابيون روجر؟ الأمر بسيط: لقد قضيت على روجر وحصلت على بابيون البسيط، الذي لقّب بهنري شارير. جرى تنفيذ الحيلة: كلّ ما تبقَّى هو تجميع الأدلَّة. لم يعد تحقيقاً صادقاً ونزيهاً في الحقيقة، بل التلفيق التامّ للمذنب.

رجال الشرطة في حاجة إلى حلّ قضيَّة القتل كي يستحقّوا الترقية في حيواتهم المهنيّة النبيلة والصادقة للغاية. الآن هذا بابيون لديه كلّ شيء يسير بالنسبة إليه كمذنب. إنَّه شابّ، وهناك شيء من القوّاد عنه... سنقول إنَّ فتاته عاهرة. إنَّه لصّ وقد واجه مشكلات مع الشرطة مرَّات عدَّة. لكنَّه إمَّا أنَّه خرج بتهمة مرفوضة وإمَّا تمَّت تبرئته.

ومن ثمَّ، في الصفقة، يكون الرجل لقيطاً صعباً؛ يقودنا إلى الجحيم عندما نعتقله، ويسخر منّا ويهيننا، ويطلق على كلبه اسم قائد الشرطة لدينا، وفي بعض الأحيان يقول: «يُنصح أن تستوي برفق أكثر، إذا كنت تريد بلوغ سنّ التقاعد». هذه التهديدات بمعاقبتنا ذات يوم على أساليبنا «الحديثة» و«الشاملة» في الاستجواب تقلقنا.

- تفضَّل يا رجل. نحن محميّون من جميع الجوانب.

كانت تلك البداية الشرّيرة لكلِّ شيء، بابي. كنت في الثالثة والعشرين، عندما طردك هذان الرجلان الرديئان من سانت كلاود في ١٠ نيسان، حين كنت تأكل الحلزون.

أوه، لقد ذهبوا إلى الأمام، حسناً! يا له من دافع، يا لها من حماسة، يا له من ثبات، يا له من شغف، ما الذي استغرقه الأمر من مكر شيطانيٍّ للوصول بك إلى قفص الاتِّهام ذات يوم، وإلى المحكمة لتوجيه تلك الضربة التي أطاحت بك مدَّة ثلاثة عشر عاماً!

لم يكن من السهل تحويلك إلى رجل مذنب يا بابي. إلَّا أنَّ المفتّش المسؤول عن الوظيفة، ميزود، المتخصّص في مونمارتر، كان حريصاً جدّاً على إرسالك إلى الأسفل، إلى درجة أنَّها كانت حرباً مفتوحة له مع محاميك حتَّى في المحكمة، مع الإهانات والشكاوى والضربات البغيضة؛ وإلى جانب ميزود كان غولدشتاين الصغير ممتلئ الجسم، أحد هؤلاء الأوغاد المزيفين الذين يلعقون أقدام العالم السفليّ على أمل أن يتمَّ قبولهم.

هذا غولدشتاين اللطيف! قال ميزود إنَّه قابله ربَّما مئات المرَّات مصادفةً في أثناء التحقيق. صرَّح هذا الشاهد الثمين في اليوم الأول للقتل أنَّه سمع بين حشد من الناس أنَّ شخصاً يدعى رولان أصيب بثلاث رصاصات في بطنه، ثمَّ ذهب إلى المستشفى ليسأل عن هويَّة الضحيَّة بالضبط. بعد أكثر من ثلاثة أسابيع، في ١٨ نيسان، بعد العديد من الاتّصالات مع ميزود، غيَّر غولدشتاين نفسُه قصَّته: في ليلة ٢٥- ٢٦ آذار، قبل القتل، قابلني ومعي رجلان مجهولان. سألته عن مكان لوغران. قال غولدشتاين: «في كليشي». ما إن تركته، ذهب غولدشتاين ليحذّر لوغران. بينما كان يتحدَّث إلى لوغران، طلب أحد رفاق بابيون إلى لوغران أن يخرج. ذهب غولدشتاين نفسه بعد ذلك بقليل، ورأى بابيون ولوغران يتحدَّثان بهدوء؛ لكنَّه لم يتباطأ. في وقت لاحق، عاد إلى ساحة بيغال، والتقى مرَّة أخرى بابيون،

الذي أخبره أنَّه أطلق النار للتوّ على لوغران، وطلب إليه الذهاب إلى مستشفى لاريبوازير ومعرفة الحالة التي كان عليها لوغران، وتحذيره لإبقاء فمه مغلقاً.

بالطبع، أنا مَن وصفته المحكمة بالمرعب، عضو في هذا المجتمع أكثر خطورة بسبب ذكائي ومكري؛ بالطبع كنت أتجوَّل في ساحة بيغال، مباشرة في المكان الذي أطلقت فيه النار على رجل، حتَّى جاء غولدشتاين بهذه الطريقة مرَّة أخرى. هل أقف هناك مثل علامة إرشاديَّة على ممرٍّ صغير في آرديش، بحيث لا يضطرُّ رجال الشرطة إلَّا للمشي مباشرة نحوي ليسألوني ما أفعل؟

لم يكن غولدشتاين هذا أحمق على هذا النحو؛ في اليوم التالي لسماع إفادته، جرى نقله إلى إنجلترا.

في هذه الأثناء، دافعت عن نفسي بقوَّة. «غولدشتاين؟ لا تعرفه. ربَّما أكون قد رأيته. ربَّما تبادلت معه بضع كلمات، كما تفعل مع الأشخاص الموجودين دائماً في المنطقة نفسها، دون معرفة من تتحدَّث إليه». أنا حقّاً لم أتمكَّن من تحديد ملامح شخص يحمل هذا الاسم؛ إلى درجة أنَّني فقط عندما التقينا وجهاً لوجه نجحت في تعرُّفه. وقد فوجئت جدّاً أنَّ شخصاً صغيراً لم أكن أعرفه يجب أن يوجِّه مثل هذه التهمة المفصَّلة ضدّي، إلى درجة أنَّني تساءلت عن الجريمة التي كان يمكن أن يرتكبها - لا شيء مؤكَّد، لقد كان مثل هذا الجنون الكئيب- رجال الشرطة لديهم مثل هذا الدليل. لا أزال أتساءل. الجرائم الجنسيَّة؟ كوكايين؟

والآن، ظهر شيء بدا للوهلة الأولى معجزة، لكنَّه تبيَّن لاحقاً أنَّه شديد الخطورة - في الواقع قاتل. مؤامرة بوليسيَّة شيطانيَّة، فخّ مروّع

وقعت فيه أنا ومحاميَّ في البداية. اعتقدت أنَّها تعني الأمان، لكنَّها كانت كارثة. لأنَّه لم يكن هناك شيء قويّ في الملفّ: كانت الأدلَّة المتتالية لغولدشتاين كلّها بعيدة الاحتمال. كان الملفّ يحتوي القليل جدّاً من الأمور الملموسة، إلى درجة أنَّ قتلي المزعوم يفتقر حتَّى إلى الدَّافع. نظراً لأنَّه لم يكن لديَّ سبب لأكره الضحيَّة، ولأنَّني لم أكن أشعر بالجنون، فقد كنت في غير مكان، مثل شعرة في الحساء؛ وأيّ هيئة محلّفين على الإطلاق، حتَّى لو كانت مكوَّنة من أبطأ الحمقى على وجه الأرض، تكاد لا يمكن أن تفشل في إدراك ذلك.

لذلك، ابتكرتِ الشرطةُ دافعاً. والشخص الذي قدَّمه كان خنزيراً، يعمل في مونمارتر طوال السنوات العشر الماضية، المفتش مازيلييه.

أحد محاميَّ، مايتري إيفي، كان يحبّ التجوّل في مونمارتر في أوقات فراغه. التقى هذا الأحق، الذي أخبره أنَّه يعرف ما حدث بالفعل ليلة ٢٥-٢٦ آذار، وأنَّه مستعدّ للإبلاغ - ما يعني أنَّ ما سيقوله سيكون في مصلحتي. قلنا لأنفسنا، إمَّا أنَّه مدفوع بالأمانة المهنيَّة وإمَّا غير ذلك - وهو الأرجح - هناك بعض التنافس بينه وميزود.

ودعيناه كشاهد. نحن مَن فعل ذلك.

إنَّما، ما قاله مازيلييه لم يكن على الإطلاق ما توقَّعناه. قال إنَّه يعرفني جيّداً، وإنَّني قدَّمت له فوائد كثيرة. ثمَّ أضاف: «بفضل المعلومات التي قدَّمها شارير، تمكَّنت من تنفيذ اعتقالات عدَّة. أمَّا بالنظر إلى الظروف المتعلّقة بجريمة القتل، فلم أعرف عنها شيئاً. لكنَّني سمعت أنَّه قال: «يا رب، كم من الأشخاص «سمعت ذلك» قالوا لنا في أثناء محاكمتي! إنَّ

شاربير كان موضع نيّة سيّئة من جانب أشخاص مجهولين لم يوافقوا على علاقته بالشرطة».

كان هناك سبب للقتل! لقد قتلت رولان الكبير في أثناء مشاجرة في مونمارتر، لأنّه قال إنّني كنت مخبراً.

متى صدر هذا التصريح للمفتش مازيلييه؟ ١٤ نيسان، ومتى قدّم غولدشتاين خطابه الذي يناقض أقواله في يوم القتل؟ ١٨ نيسان، بعد أربعة أيّام من عرض مازيلييه.

لمّا قُدِّمت إلى المحكمة الابتدائيّة، كان لديهم هذا الدليل المرن، هذا الكمّ الهائل من الشائعات والأكاذيب والأقوال المحفّزة، شعروا أنّ هناك شيئاً مريباً في الأمر برمّته. لأنّه على الرّغم من أنّك غالباً ما تضعهم جميعاً في الحقيبة نفسها، فإنّك، يا بابي، كما أنّ القضاة ورجال الشرطة والمحلّفين والقانون وإدارة السجن كلّهم كانوا جزءاً من المؤامرة عينها، يجب أن تعترف بوجود بعض القضاة النزيهين للغاية.

ونتيجة لذلك، رفضت المحكمة الأولى إرسالي أمام المحقّقين بهذا الملفّ المزيّف، وأعادت جميع الأدلّة إلى قاضي التحقيق، مصرّة على إجراء مزيد من التحقيق.

كان رجال الشرطة غاضبين للغاية. وجدوا شهوداً في كلّ مكان – في السجن، أو أوشكوا أن يُسمح لهم بالخروج، أو سُمح لهم بالخروج. إلّا أنّ التحقيق الإضافيّ لم ينتج شيئاً، لا شيء على الإطلاق، ولا أدنى دليل أو أقلّ اقتراح بدليل جديد وجادّ.

في النهاية، من دون أيِّ شيء طازج - لا يزال حساءً سيّئاً مصنوعاً من جميع الأسماك الخطأ - سُمح أخيراً بإرسال الملفّ.

والآن، جاء دويّ الرعد. حدث شيء لم يسبق له مثيل تقريباً في عالم القانون: المدَّعي العامّ، الرجل الذي تتمثَّل مهمّته في حماية المجتمع من خلال وضع أكبر عدد ممكن من المتَّهمين خلف القضبان - المدَّعي العامّ الذي حصل على مذكّرة للعمل ضدّي، أخذها بأطراف أصابعه، كما لو كان يمسكها بملقط، ثمَّ وضعها مرَّة أخرى على المنضدة، قائلاً: «لن أتصرَّف في هذه الحالة. رائحتها مريبة ومسبقة الصنع: أعطِها إلى شخص آخر».

كم كان رائعاً هذا اليوم عندما أتى المحامي ريمون هوبرت ليخبرني بهذه الأخبار الرائعة في كونسيرجوري! «هل يمكنك تخيّل ذلك يا شاريير! ملفّك غير مقنع للغاية، فقد رفض المدَّعي العام أن يكون له أيّ علاقة به، وطلب تقديم المذكّرة إلى شخص آخر!».

... كان الجوّ بارداً تلك الليلة على المقعد في بوليفارد دي كليشي. مشيت تحت ظلال الأشجار. لم أرغب في دخول النور خوفاً من مقاطعة الفانوس السحريّ الذي عرض هذه الصور منذ سبعة وثلاثين عاماً. رفعت ياقة معطفي، ودفعت قبَّعتي إلى الخلف قليلاً، لتهوية رأسي. جلست مرَّة أخرى، وسحبت معطفي على ساقي، وبعد ذلك، أدرت بظهري إلى الشارع، وانزلقت ساقي على المقعد وجلست في الاتجاه المعاكس، ذراعايَ متكئتان على الظهر كما كانتا متكئتين على قضيب قفص الاتّهام في أثناء محاكمتي الأولى في تموز ١٩٣١.

لم تكن ثمَّة محاكمة واحدة فقط لديَّ. كانت هناك اثنتان. الأولى في تموز والأخرى في شهر تشرين الأول.

سارت الأمور على ما يرام يا بابي! لم تكن المحكمة ملطَّخة بالدّماء مثل المسلخ. كان الأمر أشبه بدوار هائل. في ضوء الفيضان، في ذلك اليوم الرائع من شهر تموز، كان الشنق والسجّاد وأردية القضاة شبه زهريَّة شاحبة. وفي هذه المحكمة، قاضٍ مبتسم، لطيف، متشكّك إلى حدٍّ ما، غير مقتنع بما قرأه في الملفّ، حتَّى إنَّه فتح المحاكمة بالقول: «شاريير هنري، بما أنّ لائحة الاتّهام لا تتوافق تماماً مع ما كان يجب أن نراه فيها، فهل ستشرح قضيتك للمحكمة وهيئة المحلّفين بنفسك؟»

رئيس محكمة الجنايات يطلب إلى المتَّهم فتح ملفّه! هل تتذكَّر شهر تموز المملوء بالشمس وهؤلاء القضاة الرائعين؟ كان من الجيّد جدّاً أن تستمرَّ، بابي. لقد أجرى هؤلاء القضاة الإجراءات بمثل هذا الحياد، وكان الرئيس يبحث بهدوء وصدق عن الحقيقة، ويطرح أسئلة محرجة على رجال الشرطة، ويقلق غولدشتاين، ويشير إلى تناقضاته، ويسمح لي وللمحامين بطرح أسئلة محرجة عليه - لقد كان رائعاً جدّاً؛ كانت عدالة مضاءة بنور الشمس، محاكمة يجريها القضاة لصالحك.

كانت الأمُّ الشاهدة المهمّة الأولى، التي جرى استدعاؤها بالفعل من قبل رجال الشرطة. لا أعتقد أنَّه كان بسبب سوء نيَّة أنَّها تبنَّت تلميحات الشرطة. لقد فعلت ذلك حقّاً من دون وعي.

لم تعد الأمّ تقول إنَّها والمفوّض سمعا «بابيون روجر». الآن صرَّحت أنَّ ما سمعته كان، «إنَّه بابيون. غولدشتاين يعرفه». لقد نسيت روجر، وأضافت: «غولدشتاين يعرفه»، وهي الكلمات التي لم يسمعها كلّ من

كوميسير جيراردين والمفتّش جريمالدي. من الغريب ألّا يكتب المفوّض شيئاً مهمّاً مثل هذا، ألا تعتقد ذلك؟

أراد مايتر غوترات، المحامي الذي ظهر مع الأسرة، أن أطلب إلى والدة الضحيّة أن تسامحني. قلت لها: «سيّدتي، يجب ألّا أستغفرك لأنّني لم أقتل ابنك. أعبّر عن حزني بسبب حزنك. هذا كلّ ما يمكنني فعله».

إلّا أنّ المفوّض جيراردين والمفتّش جريمالدي لم يغيّرا شيئاً من بيانهما الأول: قال لوغراند: «كان بابيون روجر، هذا كلّ شيء».

الآن، جاء الشاهد الرئيس: غولدشتاين. باستخدام آلة تسجيل في ٣٦ رصيف دي أورفير، أدلى هذا الشاهد بخمسة أو ستّة أقوال، استُخدم ثلاثة منها. كلّ واحد اتّهمني. لا يهمّ ما إذا كانت متناقضة - لكن في كلّ مرّة يتمّ إحضار قطعة خشب جديدة إلى سقالات الشرطة. جلست على المقعد بعد ستّة وثلاثين عاماً، كنت أرى غولدشتاين كما لو كان أمامي تماماً. تحدّث بصوت خفيض: نادراً ما رفع يده عندما أقسم اليمين.

لمّا أنهى شهادته، ذهب إليه السيّد بيفي. «غولدشتاين، كم مرّة قابلت المفتّش ميزود «مصادفة»؟ هو نفسه يذكر أنّه التقاك وتحدّث إليك عن هذه الحالة «مصادفة» مرّات عدّة. هذا غريب يا غولدشتاين. قلت في أول شهادة لك إنّك لا تعرف شيئاً عن هذه القضيّة؛ ثمّ تعرّفت إلى بابيون. بعد ذلك، قلت إنّك قابلته ليلة الجريمة قبل ارتكابها. ثمّ يخبرك بالذهاب إلى لاريبوازير ورأيت لوغران. كيف تفسّر كلّ هذه العبارات المتباينة؟»

كان ردّ غولدشتاين الوحيد هو التكرار، «كنت خائفاً لأنّ بابيون خطير للغاية في مونمارتر».

لقد قدَّمت بادرة احتجاج، ووقتها قال لي الرئيس: «أيُّها المدَّعى عليه، هل لديك أي أسئلة لتسأل الشاهد؟»

«نعم سيّدي الرئيس». نظرت مباشرة إلى غولدشتاين. «غولدشتاين، انعطف بهذه الطريقة وانظر في وجهي. ما الذي يجعلك تكذب وتتهمني زوراً؟ ما جريمة ميزود التي تعرف عنها؟ ما الجريمة التي تدفع ثمنها بهذه التصريحات الكاذبة؟»

ارتجف وهو ينظر في وجهي، لكنَّه نجح في إخراج الكلمات «أنا أقول الحقيقة» بوضوح تام.

كان بإمكاني قتل رجال الشرطة! التفت نحو المحكمة. «أيّها السّادة في المحكمة، أيّها السّادة المحلّفون، المدَّعي العامّ يقول إنَّني شخصيّة ذكيّة وواعية؛ لكنَّ أدلَّة الشاهد تبيِّن لي أنَّني أحمق، وسأثبت ذلك لكم. الاعتراف بشيء مهمّ مثل هذا، إخبار رجل لا تعرفه على الإطلاق أنَّك قتلت صديقه للتوّ، هو فعل سخيف تماماً. ومع ذلك، أنا لا أعرف غولدشتاين». وتوجَّهت نحو غولدشتاين، وواصلت القول: «غولدشتاين، يرجى تسمية شخص واحد في باريس أو في كلّ أنحاء فرنسا يمكنه القول إنَّه رآنا نتحدَّث معاً ولو مرَّة واحدة».

– لا أعرف أيَّ شخص يمكن أن يشهد على ذلك.

– حقّاً. يرجى تسمية بار أو مطعم أو مكان لتناول الطعام في مونمارتر أو باريس أو في أيّ مكان في فرنسا حيث تناولنا الطعام أو شربنا معاً ولو مرَّة واحدة.

– لم آكل أو أشرب معك قطّ.

- ممتاز. أنت تقول في المرّة الأولى التي قابلتني فيها، في تلك الليلة الاستثنائيّة، كان معي رجلان. من هما؟

- أنا لا أعرفهما.

- ولا أنا. قل لي من فضلك، وبسرعة، ومن دون تردُّد، أين طلبتُ إليك أن تقابلني لأخذي إلى المستشفى، وقل ما إذا كنت قد ذكرت هذا المكان للرجال الذين ذهبوا معك. ولماذا لم تذكره لهم؟

ما من ردّ.

- ردَّ يا غولدشتاين. لماذا لا تجيب؟

- لم أكن أعرف أين أجدك.

قال المحامي ريموند هوبرت: «لذلك، يرسلك موكلي في مهمّة كهذه - يرسلك لمعرفة حالة رولان لوغران، وأنت لا تعرف أين عليك مقابلته لإجابته عن حالة رولان؟ إنّه أمر سخيف بقدر ما هو لا يصدَّق!»

نعم، كان أمراً لا يُصدَّق، حسناً؛ لكن كان من غير المعقول، بدرجة أكبر، أنَّ لائحة الاتّهام بأكملها قد بُنيت على الاتّهامات المتتالية لهذا الحقير الذي، على الرَّغم من تدريبه بعناية من قبل رجال الشرطة، إلّا أنَّه لم يكن لديه ما يكفي من الذكاء لتقديم إجابة سريعة.

قال الرئيس: «شاريير، الشرطة تدَّعي أنَّك قتلت لوغران لأنَّه وصفك بالمخبر. ماذا لديك لتقوله حول ذلك؟»

- لقد تعاملت مع الشرطة ستّ مرّات، وفي كلِّ مرّة كنت أخرج فيها بريئاً من التهمة، باستثناء عقوبة السجن مدَّة أربعة أشهر مع وقف التنفيذ.

لم يتمَّ القبض عليَّ مع رجل آخر. لم يسبق لي أن اعتقلت مع رجل آخر. ليس من المنطقيِّ أنَّه حينما أكون في أيدي رجال الشرطة أن أظلَّ صامتاً، وحينما أكون متمتّعاً بالحريَّة أبلغ أصدقائي.

- يقول أحد المفتّشين إنَّك مخبر. أدخل المفتّش مازيلييه.

- أصرِّح أنَّ شاريير كان مخبراً، مكَّنني من القبض على العديد من الأشخاص الخطرين، وهذا معروف في مونمارتر. فيما يتعلَّق بقضيَّة لوغران، لا أعرف شيئاً عنها.

- ماذا لديك لتقول في ذلك يا شاريير؟

- بناءً على نصيحة السيّد بيفي، طلبت استدعاء هذا المفتّش في التحقيق؛ أخبرني المحامي بيفي أنَّ مازيلييه كان يعرف الحقيقة بشأن مقتل لوغران. والآن، أرى أنّني ومشورتي وقعت في فخٍّ رهيب. المفتّش مازيلييه، لمَّا نصح المحامي بيفي بالاتصال به، قال إنَّه يعرف كلَّ شيء عن القتل؛ صدَّقه محاميَّ، وكذلك فعلتُ أنا. تخيَّلنا أنَّه إمَّا شرطيّ نزيه وإمَّا أنَّ هناك بعض التنافس بينه وبين ميزود ما دفعه إلى الإدلاء بشهادته على الجريمة. إنَّما، الآن، كما ترى، يقول إنَّه لا يعرف شيئاً عن ذلك.

من ناحية أخرى، من الواضح أنَّ تصريحات المفتّش قدَّمت أخيراً الدافع المفقود لجريمتي المزعومة. هذا البيان، الذي جاء من شرطيّ، كان هبة من السماء: لقد حافظ على إطار الاتّهام، وأعطى بعض الصدقيَّة والأمانة للائحة الاتهام التي لم تكن متماسكة. لأنَّه، لا شكَّ في أنَّه لولا المساعدة التي قدَّمها مازيلييه، لكانت لائحة الاتّهام قد سقطت، على

الرَّغم من كلِّ جهود المفتّش ميزود. المراوغة واضحة، إلى درجة أنَّ من المدهش أنَّ النيابة العامّة يجب أن تستخدمها.

قاتلت، وقلت: «أيُّها السّادة في المحكمة، أيُّها السّادة المحلّفون، لو كنت مخبراً للشرطة، لكان أحد شيئين: إمّا أنّني لم أكن لأقتل رولان لوغران لأنّه دعاني بالسخيف- لأنَّ شخصيّة منحطّة مثل هذه تأخذ مثل هذه الإهانة دون أن يرفَّ لها جفن - وإمّا أنّني لم أكن لأقتله على الإطلاق! أو، لو كنت قد أطلقت النار عليه، لكانت الشرطة ستلعب اللعبة: لن يلاحقوا أبداً دمي بكلِّ هذه الحماسة وكلِّ هذه الحماقات، لو كنت مفيداً لهم. أكثر من ذلك، كانوا قد أغلقوا أعينهم أو أقاموا بعض الحيل لجعل الأمر يبدو كما لو كان دفاعاً مشروعاً عن النفس. يمكن الاستشهاد بالكثير من السوابق من هذا النوع؛ لكن لحسن الحظّ، بالنظر إليَّ، هذا الأمر لا ينطبق. سيّدي الرئيس، هل لي أن أطرح سؤالاً على الشاهد؟»

- نعم.

بمعرفة ما كنت أوشك أن أفعله، طلب المحامي ريمون هوبرت إلى المحكمة تحرير المفتّش مازيليه من سرّيته المهنيّة، وإلّا فلن يتمكّن من الردّ.

الرئيس: «المحكمة، بسلطاتها التقديريّة، تعفي المفتّش مازيليه من سرّيته المهنيّة، وتطالبه، من أجل الحقيقة والعدالة، بالإجابة عن السؤال الذي يوشك المتّهم أن يطرحه عليه».

- مازيليه، اذكر اسماً واحداً في فرنسا، في المستعمرات أو في الخارج، اعتقلته بسبب معلوماتي.

- لا أستطيع الردَّ.

- أنت كاذب أيّها المفتّش! لا يمكنك الردّ، لأنّه لم يكن هناك واحد من قبل!

قال الرئيس: «شارير، انتبه إلى ألفاظك».

- سيّدي الرئيس، أنا أدافع عن شيئين هنا، حياتي وشرفي.

لكنَّ الأمر لم يذهب أبعد من ذلك. انسحب مازيلييه.

جاء الشهود الآخرون وهم يستعرضون! كانت ثيابهم مصنوعة من القماش نفسه.

ونفسيرك الأخير، بابي، ألا تتذكَّر ذلك؟ الأخير والأكثر منطقيَّة بينها جميعاً. لا يزال بإمكاني سماع ذلك. «أيّها السّادة، هذا الرجل، على الرّغم من كلّ الدوافع، تحدَّث إليَّ واتَّهمني بأنّني كنت خائفاً وقد أطلقت رصاصة واحدة على لوغران. أُطلقت النار عليه مرَّة واحدة فقط. ظلَّ واقفاً على قدميه، وخرج حيّاً، وسمح له بركوب سيّارة أجرة. أي أنَّ الرجل الذي أطلق عليه النار لم يرغب في قتله؛ وإلّا لكان قد أطلق أربع أو خمس أو ستّ طلقات. أي شخص يعرف مونمارتر يعرف ذلك».

افترض أنّني كنت أنا، وافترض أنّني أعترف وأقول: «أيّها السّادة، هذا الرجل، لسبب ما، سواء كان صواباً أم خطأ، قد تشاجر معي أو اتّهمني بشيء؛ لقد وضع يده في جيبه، ولأنّه من عالم الجريمة مثلي، كنت خائفاً، لذلك أطلقت رصاصة واحدة فقط للدفاع عن نفسي. إذا قلت ذلك، في الوقت نفسه، كنت سأثبت أنّني لم أفعل. بما أنَّ المفتّش يقول إنّني مفيد جدّاً للشرطة، أطلب إليك قبول اعترافي والتعامل مع العمل على أنّه قتل غير متعمَّد».

استمعت المحكمة في صمت: بدا لي أنّه مدروس. تابعت بالقول: «عشر مرّات، مئة مرّة، سأل كلّ من المحامي ريموند هوبرنو مايتري بيفي، «هل أنت من أطلق النار؟ إذا كنت أنت، فقل ذلك. ستقضي خمس سنوات في الخارج، وربما أقلّ. ستظلّ صغيراً جدّاً عندما تخرج. لكن، أيّها السادة في المحكمة، والسادة المحلّفون، لا يمكنني أن أسلك هذا الطريق، ولا حتّى لأنقذ نفسي من المقصلة أو العبوديّة الجنائيّة، لأنّني بريء وقد تمّ تدبير القضيّة من قبل الشرطة».

كلّ هذا في قاعة المحكمة المشمسة؛ حيث سمحوا لي بشرح الأمور على النحو الصحيح. طفل مسكين ساذج، ألا ترى أنّ من الجيّد جدّاً أن تعترف؟

كانت هذه هي النقطة التي سرعان ما فكّر فيها ميزود في وسيلة للتحايل. خشي أن ينخفض جهده لمدّة خمسة عشر شهراً إلى لا شيء، فعل ما كان ممنوعاً. إبّان فترة توقّف في جلسة الاستماع، جاء لرؤيتي في الغرفة التي كان يراقبني فيها الحرس الجمهوريّ، والتي لم يكن له الحقّ في دخولها. لقد جاء إليّ وكانت لديه الجرأة ليقول: «لماذا لا تقول إنّه روجر الكورسيكيّ؟»

لقد فوجئت تماماً، وقلت: «لكنّني لا أعرف من هو روجر الكورسيكي!».

تحدّث للحظة، وخرج سريعاً، وذهب إلى محامي الادّعاء، وقال له: «لقد اعترف لي بابيون للتوّ أنّه روجر الكورسيكيّ.»

والآن، حدث ما أراد ميزود اللعين أن يحدث. توقّفت المحاكمة على الرّغم من اعتراضاتي. ومع ذلك، ما زلت أقاتل، وقلت: «على مدار الثمانية عشر شهراً الماضية، كان المفتّش ميزود يقول إنّ هناك بابيون واحداً فقط في

هذه الحالة وهو أنا؛ المفتّش ميزود يقول ليس ثمّة شكّ في أنّني قاتل لوغران. يقول المفتّش ميزود إنّه أحضر شهوداً صادقين، غير قابلين للمساءلة، أثبتوا ذنبي من دون أدنى شكّ. بما أنّ رجال الشرطة عثروا على جميع الشهود والأدلّة اللازمة ضدّي، فلماذا ينهار إطارهم بالكامل؟ إذاً، أليست هذه المجموعة الكاملة من الأدلّة مجموعة من الأكاذيب؟ وهل طُرح اسم جديد على الساحة على نحو كافٍ حتّى يبدو غير مؤكّد بعد الآن أنّ بابيون مذنب؟ بما أنّك تقول إنّك حصلت على جميع الأدلّة على ذنبي، فهل الأمر يتعلّق فقط بوجود روجر كورسيكيّ وهميّ، وأنّ المحاكمة يجب أن تتوقّف وتبدأ من جديد؟ فقط بسبب روجر الكورسيكيّ الخياليّ، فكّر فيه ميزود إذا كنت تصدّقني، أو فكّرت فيه، إذا كنت تثق به مرّة أخرى؟ إنّه مستحيل: أطالب بأن تستمرّ الإجراءات: أطالب بأن أُحاكم. أتوسّل إليكم، يا سادة هيئة المحلّفين والسيّد لو بريزيدنت!».

كنت ستفوز، يا بابي، أوشكت أن تفوز؛ كان صدق محامي الادّعاء هو الذي جعلك تخسر. لأنّ هذا الرجل، كاساجناو، وقف وقال: «أيّها السّادة المحلّفون، أيّها السّادة في المحكمة، لا يمكنني المضي قدماً - ... لم أعد أعرف. - يجب شطب الحادث... - أطلب إلى هيئة المحكمة تأجيل المحاكمة وأن تأمر بإجراء المزيد من التحقيق».

هذا فقط، يا بابي، هذه العبارات الثلاث للمحامي كاساجناو تثبت أنّك أدنت بتهمة فاسدة. لأنّه لو كان هذا المحامي المستقيم يحمل بين يديه شيئاً واضحاً ومباشراً وغير قابل للمساءلة، لما قال: «أوقفوا المحاكمة. لم يعد بإمكاني المضي قدماً».

كان سيقول: «واحد فقط من اختراعات شاريير: المدَّعى عليه يريد أن يضلّلنا مع روجر الكورسيكيّ. نحن لا نصدّق كلمة منه أيّها السادة. هنا لديَّ كلّ ما هو مطلوب لإثبات أنّ شاريير مذنب، ولن أفشل في فعل ذلك».

لكنَّه لم يقل ذلك، ولم لا؟ لأنَّه في ضميره لم يؤمن تماماً بموجزه، ولأنَّه لا بدَّ أنَّه بدأ يطرح على نفسه أسئلة حول مصداقيَّة رجال الشرطة.

وأوقفت المحاكمة، وأمروا بإجراء تحقيق تكميليّ ثانٍ في هذه القضيَّة.

قالت إحدى الصحف: «مثل هذا الافتقار إلى القناعة، هو أمر غير عاديّ للغاية».

بالطبع، لم يقدِّم التحقيق التكميليّ أيّ حقائق جديدة على الإطلاق. روجر الكورسيكيّ؟ بالطبع، لم يُعثَر عليه. في أثناء هذا الاستفسار الإضافيّ، لعب الحرس الجمهوريّ الأمر على نحو صحيح؛ لمَّا سُئلوا عن الحادث الذي وقع في شهر تموز، قدَّموا أدلَّة ضدَّ ميزود. في أيِّ حال، كيف يمكن لرجل أعلن براءته، وأثبت ذلك منطقيّاً، وشعر أنَّ المحكمة تميل نحوه إيجابيّاً، كيف يمكن لهذا الرجل أن يرمي الأمر برمَّته ويقول فجأة: «كنت هناك، لكنّي لم أكن من أطلق النار. هل كان روجر الكورسيكيّ؟»

وماذا عن المحاكمة الأخرى يا بابي؟ كانت آخر جلسة استماع حاسمة: هناك، حيث بدأت المقصلة الجافَّة تعمل، وهناك، حيث تتلقّى سنوات شبابك الأربع والعشرون، إيمانك بالحياة تلقّى الضربة القاضية بإصدار الحكم بالسجن مدى الحياة؛ حيث اعتذر ميزود، الذي كان واثقاً من نفسه مرّة أخرى، لمحامي النيابة واعترف بارتكاب خطأ في تموز؛ حيث صرخت

فيه: «سأمزّق قناعك كرجل شريف يا ميزود!»... هل تريد حقّاً أن تتخلّص من كلّ ذلك مرّة أخرى؟»

هل تريد حقّاً رؤية قاعة المحكمة مرّة أخرى، وذلك اليوم الرماديّ غير السعيد؟ كم مرّة يجب أن أخبرك أنَّ ستة وثلاثين عاماً قد مرّت منذ ذلك الحين؟ هل تريد أن تشعر بتلك الضربة الوحشيّة على فكّك مرّة أخرى، الضربة التي أجبرتك على الكفاح مدّة ستة وثلاثين عاماً لتكون قادراً على الجلوس على هذا المقعد في رصيف دو كليشي، في مونمارتر، الخاصّ بك؟ نعم، فعلاً. أريد أن أنزل تلك الخطوات الأولى من السلّم، التي أوصلتني إلى أسفل حفرة التدهور البشريّ، أريد أن أنزلها واحدة تلو الأخرى مرّة أخرى، حتّى تكون لديّ فكرة أفضل عن الطريق الذي سافرت عبره.

كم كان الأمر مختلفاً عندما دخلت قاعة المحكمة الثانية، فتى حسن المظهر يرتدي بذلة مزدوجة الصدر مقطوعة تماماً. في المقام الأوّل، كانت السماء قاتمة جدّاً وممطرة، وكان عليهم إضاءة الثريّات. هذه المرّة كان كلُّ شيء ملفوفاً باللون الأحمر، الأحمر الدمويّ. السجّاد، والمشانق، وأردية القضاة - كأنّها غُمست جميعها في السلّة التي تحمل رؤوس رجال قصت رؤوسهم بالمقصلة. هذه المرّة لم يكن القضاة قد أوشكوا أن يخرجوا لقضاء إجازاتهم. لقد عادوا للتوّ منها. لم يكن الأمر كما كان في شهر تموز.

إنَّ الأيادي القديمة للمحاكم، والنوّاب والقضاة، وما إلى ذلك، تعرف أكثر من أيّ شخص آخر كيف الطقس، ووقت السنة، وشخصيّة

رئيس المحكمة، ومزاجه في ذلك اليوم، ومزاج محامي النيابة، وهيئة المحلّفين، ولياقة المتّهم ومحاميه - أشكالهم - يمكن أن تؤثّر في بعض الأحيان في ميزان العدالة.

هذه المرّة لم يثنِ الرئيس عليَّ ويطالبني بشرح حالتي بنفسي. كان راضياً تماماً عن الصوت الرتيب لكاتب المحكمة وهو يقرأ لائحة الاتّهام.

الاثنا عشر وغداً الذين شكّلوا هيئة المحلّفين، كانت أدمغتهم رطبة وكئيبة مثل الطقس. يمكنك أن ترى ذلك في عيونهم الرطبة الباهتة والرائعة. لقد أفسدوا هراء لائحة الاتّهام.

لم يكن هناك شيء بشريّ على الإطلاق في محامي الادّعاء.

شعرت بكلِّ هذا في اللحظة التي ألقيت فيها نظرة سريعة على المحكمة. حدَّدت حجمها بالضبط. في غضون اليومين اللذين استغرقتهما المحاكمة، نادراً ما سمحوا لي بالتحدُّث على الإطلاق.

والآن، جاءت التصريحات نفسها، الأدلَّة عينها، كما في شهر تموز. لا جدوى من التفكير في التفاصيل. كان الحفل نفسه يبدأ من جديد مع اختلاف واحد، إذا شعرت بالغضب، وإذا انفجرت أحياناً، فإنَّهم يخرسونني في الحال.

كانت هناك حقيقة واحدة جديدة حقّاً، وهي ظهور سائق التاكسي ليلو فرناند، الذي لم يكن لديه الوقت للإدلاء بشهادته قبل التأجيل في شهر تموز - الشاهد الوحيد الذي لم يتمكَّن رجال الشرطة من العثور عليه مطلقاً: أسطورة بالنظر إليهم.

ومع ذلك، كان شاهداً أساسيّاً لديَّ، لأنَّه ذكر أنَّه لمَّا ذهب إلى بار آيرس قائلاً: «لقد كانت هناك رصاصة واحدة فقط»، كنت هناك.

اتَّهموه بأنَّه شاهد زور.

هنا، على المقعد الأخضر، بعد ستّة وثلاثين عاماً، سيطر عليَّ الغضب مرَّة أخرى؛ لم أشعر بالبرد ولا بالرذاذ الذي بدأ يتساقط.

مرَّة أخرى، رأيت مدير بار آيرس يدخل قفص الشهود، ويصرِّح أنَّني لم أكن في باره عندما جاء ليلو فرناند ليقول إنَّ هناك رصاصة في الخارج، لأنَّه منعني قبل أسبوعين من دخول البار. هذا يعني أنَّني كنت أحمق دمويّاً إلى درجة أنَّني في وضع خطِر مثل هذا، يهدِّد حريَّتي، وربَّما حياتي، ويضعهما على المحكّ. تضمَّنت الحجَّة التي قدَّمتها مكاناً لم يُسمح لي بالذهاب إليه! وأكَّد النادل شهادته. بطبيعة الحال، نسيا أن يضيفا أنَّ الإذن ببقاء البار مفتوحاً حتَّى الساعة الخامسة صباحاً كان بمنزلة خدمة ممنوحة من جهاز الشرطة، وأنَّهما إذا ما قالا الحقيقة، فسيجري إرجاع موعد الإغلاق إلى السّاعة الثانية. كان المدير يدافع عن عمله، والنادل عن المال الذي يعطونه إيَّاه.

فعل المحامي ريموند هوبرت كلَّ ما في وسعه، وكذلك فعل بيفي - وها هو ذا بيفي يشعر بالاشمئزاز، إلى درجة أنَّه وصل إلى نقطة الحرب المفتوحة مع ميزود، الذي حاول، في تقارير سريَّة للشرطة، الإضرار بمكانته كمحام من خلال تقديم تفاصيل عن الأمور الجنسيَّة التي لا علاقة لها بالقضيَّة.

الآن كانت النهاية، كنت آخر من يتحدَّث. ماذا عسايَ أقول؟ «أنا بريء. لقد جرى اتِّهامي من قبل جهاز الشرطة. هذا كلُّ شيء».

انسحبت هيئة المحلّفين. بعد ساعة عادوا، ووقفت ريثما استقرّوا في أماكنهم. ثمَّ أدّى الرئيس دوره: أوشك أن يقرأ الجملة؛ «أيُّها السجين، قف».

وهكذا، اعتقدت بحزم أنّني كنت في المحكمة، هناك تحت الأشجار في رصيف دي كليشي، قفزت على قدمي، متناسياً أنَّ ساقي كانت مثبتة إلى ظهر المقعد، ما جعلني أسقط على مؤخّرتي.

لذلك، كان الجلوس وليس الوقوف كما كان ينبغي أن أكون. هناك تحت أشجار الرصيف، عام ١٩٦٧، سمعت صوت الرئيس الخالي من النغمات، الذي نطق بهذه الجملة في أكتوبر ١٩٣١: «أنت محكوم بالسخرة مدى الحياة. أيُّها الحرّاس خذوا السجين».

أوشكت أن أمدَّ يدي؛ لكن لم يكن هناك من يضعها في القيد. لم يكن هناك أعضاء الحرس الجمهوريّ إلى جانبي. لم يكن هناك أحد باستثناء امرأة مسنَّة فقيرة ملتفَّة في أقصى نهاية المقعد، مع الصحف على رأسها لحمايتها من البرد والمطر.

فككتُ رجلي. أخيراً، تركتهم يتغلَّبون على قساوتهم. ثمَّ رفعت الأوراق، ووضعت ورقة نقديَّة بقيمة مئة فرنك في يد هذه المرأة العجوز، المحكوم عليها بالفقر المدقع مدى الحياة. بالنظر إليَّ، فإنَّ «الحياة» قد تسارعت بثلاثة عشر عاماً فقط.

ولا تزال الأشجار تزيّن وسط بوليفارد دي كليشي. مشيت على طول ساحة بلانش، ملاحقاً الصورة الأخيرة لتلك المحاكمة - أنا أقف لتلقّي الضربة التي لا تصدَّق، التي قضت على مونمارتر، بلدي مونمارتر، من أجل ما يقرب من أربعين سنة.

استطعت الوصول إلى تلك الساحة الرائعة قبل أن ينطفئ المصباح السحريّ، وكلّ ما رأيته كان بضعة متشرّدين يجلسون هناك عند مخرج المترو، يجلسون على ركبهم ورؤوسهم على ركبهم، وهم نائمون.

سرعان ما قمت بجولة مستقلاً سيّارة أجرة. لم يكن هناك شيء يجذبني هنا، لا ظلّ الأشجار التي أخفت وهج الضوء الاصطناعيّ ولا تألّق الساحة، مع مولان روج، الذي كان يتألّق بعيداً عن كلّ ما يستحقّه. ذكّرني أحدهما كثيراً بماضيّ، وقال الآخر: «أنت لا تنتمي إلى هنا بعد الآن». كلّ شيء، نعم، كلّ شيء تغيّر. اخرج بسرعة إذا كنت لا تريد أن ترى أنّ ذكريات العشرينات من عمرك ماتت ودفنت.

- مهلاً! من فضلك أريد الذهاب إلى محطّة ليون.

في قطار الضواحي، الذي أعادني إلى ابن أختي، تذكّرت جميع المقالات الصحفيّة التي أعطاني إيّاها المحامي ريموند هوبرت لقراءتها بعد إدانتي. لم يستطع أحد منها أن يتجنّب الحديث عن الشكّ الذي خيّم على القضيّة بأكملها. أعطته «لو جورنال» العنوان الرئيس «قضيّة مشكوك فيها».

لقد جمعت هذه الأوراق لاحقاً.

يستحقُّ مقال من صحيفة «لو ماتان» في ٢٨ تشرين الأول أن يُقبس بإسهاب.

شاريير- بابيون شدَّد على عقوبة الإعدام

لأجل الحياة

على الرَّغم من استمرار الشكّ في هويّة بابيون الحقيقيّ، أدانت هيئة المحلّفين في نهر السين شاريير بكونه بابيون الذي قيل إنّه قتل رولاند لو غراند في ليلة من ليالي شهر آذار.

في بداية جلسة أمس، أدلى الشاهد غولدشتاين، الذي استندت التهمة بأكملها إلى أقواله، بشهادته. هذا الشاهد، الذي ظلَّ في اتِّصال مستمرّ بجهاز الشرطة، والذي قال المفتش ميزود إنَّه شاهده أكثر من مئة مرَّة منذ المأساة، أدلى بأقواله في ثلاث مناسبات منفصلة، كلّ إفادة كانت أكثر خطورة من سابقتها. من الواضح أنَّ هذا الشاهد هو مساعد مخلص للشرطة الجنائيَّة.

بينما كان الشاهد يلفظ اتّهاماته، كان شاريير يستمع عن كثب. لمَّا انتهى غولدشتاين، صرخ شاريير قائلاً: «أنا لا أفهم، أنا لا أفهم غولدشتاين هذا: لم أؤذِه قطّ، ومع ذلك يأتي إلى هنا ويصبُّ أكاذيب هدفها الوحيد هو إرسالي إلى عقوبة العبوديَّة».

استدعي المفتش ميزود. هذه المرَّة ادَّعى أنَّ أدلَّة غولدشتاين كانت عفويَّة. إنَّما، شوهدت الابتسامات المتشكّكة في المحكمة.

بالنظر إلى الادّعاء، ألقى سيرامي خطاباً ختامياً متجوّلاً لاحظ فيه وجود العديد من بابيون في مونمارتر، حتَّى في أماكن أخرى. ومع ذلك فقد طلب الإدانة، وإن لم يكن دقيقاً فيما يتعلَّق بالحكم الذي تركه لهيئة المحلّفين.

المحامي جوترات، الذي يمثّل الأسرة، عدَّ على نحو هزليّ عقوبة السجن كمدرسة «للتحسين الأخلاقيّ»، ثمَّ طلب إرسال شاريير إلى هناك من أجل مصلحته، حتَّى يصبح «رجلاً أميناً».

دافع محاميا الدفاع، مايتريس بيفلي وريموند هوبرت، عن براءتي. لم ينتج عن ذلك، بما أنَّه لم يُعثَر على روجر الكورسيكيّ، أو بابيون، إلّا أنَّ شاريير، أي بابيون، كان مذنباً.

إنَّها، بعد تقاعس طويل، عادت هيئة المحلّفين، وأصدرت حكم الإدانة، وحكمت المحكمة على هنري شاربير بالسجن مدى الحياة، ومنحت الأسرة تعويضاً قدره فرنكاً واحداً.

لسنوات وسنوات، كنت أطرح على نفسي هذا السؤال: لماذا خرجت الشرطة بكلّ ما في وسعها لتدمير محتال صغير قالوا هم أنفسهم إنَّه أحد أفضل مساعديهم؟ لقد وجدت إجابة واحدة، الجواب المنطقيّ الوحيد: لقد كانوا يتستَّرون على شخص آخر، وكان هذا الشخص الآخر مخبراً حقيقيّاً.

في اليوم التالي، عدت إلى مونمارتر تحت أشعَّة الشمس الحارقة. وجدت أماكني القديمة مرَّة أخرى، شارع ثولوز وشارع دورانتين؛ والسوق في شارع ليبيك.

ذهبت إلى ٢٦ شارع ثولوز لرؤية البوَّاب، متظاهراً أنَّني أبحث عن شخص ما. لقد اختفت البوَّابة التي أعرفها حيث كانت هناك امرأة كبيرة بدينة لديها ثؤلول مشعر على خدِّها، وقد حلَّت مكانها امرأة من بريتاني.

لم يسرقوا مونمارتر التي عرفتها في شبابي؛ لا، كلّ شيء كان هناك، كلّ شيء على الإطلاق؛ لكن كلّ شيء تغيَّر. تحوَّل مكان منتجات الألبان إلى مصبغة، وتحوَّلت الحانة المحليَّة إلى صيدليَّة، ومتجر الفاكهة إلى مكان للخدمة الذاتيَّة.

كان بار بانديفيس، الواقع في زاوية شارع ثولوز وشارع دورانتين، مكاناً لاجتماع النساء من مكتب البريد في ساحة آبيسيس. جئنَ وشربنَ كؤوسهنَّ الصغيرة من بلانك كاسيس، ولجعلهنَّ يخرجنَ من المكان، وبَّخناهنَّ رسميّاً

لأنهنَّ كنَّ في حالة سُكر أعمى، في حين كان أزواجهنَّ الفقراء يعملون. حسناً، كان البار لا يزال موجوداً؛ لكن نُقل الشريط إلى الجانب الآخر، ولم تعد الطاولتان في مكانيهما الصحيح. علاوة على ذلك، كان صاحب البار من الجزائر، وكان المرتادون من العرب أو الإسبان أو البرتغاليين. أين يمكن أن يختفي المدير القديم؟

صعدت الدرجات المؤدِّية من شارع ثولوز إلى طاحونة لا غاليت. في الأقلِّ لم يتغيّر الدرابزين؛ لا يزال ينتهي بنهاية خطرة أكثر من أيِّ وقت مضى. هنا التقطت رجلاً هرماً صغير الحجم مسكيناً سقط على أنفه، إذ لم يكن يرى جيّداً بما يكفي لإدراك أنَّ السكَّة توقَّفت قريباً. لقد ضربت السكَّة الحديديَّة: رأيت المشهد مرَّة أخرى، وسمعت الرجل الهرم يشكرني: «أيُّها الشابّ، أنت حقّاً طيّب ولطيف للغاية. أهنِّئك على ذلك، وأشكرك». أزعجتني هذه الكلمات البسيطة، إلى درجة أنَّني لم أكن أعرف كيف ألتقط مسدَّسي الذي سقط وأنا أنحني نحوه لمساعدته؛ لم أكن أريده أن يرى أنَّ الشابَّ الطيّب ربَّما لم يكن لطيفاً على هذا النحو.

نعم، لقد كانت مونمارتر الخاصَّة بي لا تزال على ما يرام. لم تُسرق منّي – لقد سرقوا الناس.

في ذلك المساء، ذهبت إلى إحدى الحانات. اخترت الأكبر بين جميع الرجال المسنّين هناك، وقلت له: «معذرة، لكن هل تعرف فلان؟»

– نعم.

– أين هو؟

– في الداخل.

- وهذا وذاك؟

- في ذمَّة الله تعالى.

- وفلان؟

- لا أعرفه. غير أنَّك تسأل كثيراً من الأسئلة. من أنت؟

رفع صوته قليلاً عن قصد لجذب انتباه الآخرين. شخص مجهول دخل للتوّ حانةً للرجال بهذه الطريقة من دون تقديم نفسه أو الحصول على صديق
- عليك معرفة ما يسعى إليه.

- اسمي هنري. أنا من أفينيون، وكنت في كولومبيا. هذا هو السبب في أنَّك لا تعرفني.

لا أريد أن أتأخَّر، فأسرعت للحاق بقطاري، لذلك سأكون على يقين من أن أنام خارج منطقة نهر السين. لم أكن أريدهم أن يخطروني بأيِّ ثمن بأنَّني ممنوع من أن أُوجد هناك.

لكنّي كنت في باريس. كنت هناك. ذهبت ورقصت في الأماكن الصغيرة حول الباستيل. في بوكاستيل وبالا جو. أرجعتُ قبَّعتي إلى الخلف، وخلعت ربطة عنقي. حتَّى إنَّني كانت لديَّ الجرأة لأطلب من الراقصة أن ترقص مثلما كنت أفعل عندما كنت في العشرين، وبالطريقة نفسها. وبينما كنَّا نرقص على صوت أكورديون تقريباً مثل صوت ميميلفاشير عندما كنت صغيراً، سألتني عمَّا أفعله من أجل لقمة العيش، وأخبرتها أنَّني احتفظت بمنزل في المقاطعات: لذلك نُظِر إليَّ على نحو رائع، وباحترام كبير.

ذهبت وتناولت الغداء في لا كوبول، وكما لو كنت قد عدت من عالم آخر، كنت بسيط الذهن بما يكفي لأسأل النادل عمّا إذا كان بإمكاننا لعب الورق على السطح. لقد كان في الخامسة والعشرين من عمره، لكنَّ سؤالي أذهله تماماً.

في لا روتوند، بحثت عن ركن الرسّام فوجيا، لكن دون جدوى: حدَّقت عيناي بشكل يائس إلى الأثاث وتصميم الطاولات والبار، بحثاً عن شيء ينتمي إلى الماضي: شعرت بالاشمئزاز من رؤية كلِّ شيء قد انقلب رأساً على عقب، وأنَّهم دمَّروا كلَّ ما كنت أعرفه وأحبُّه. خرجت مباشرة، وقد نسيت أن أدفع. أمسك النادل بذراعي عند مدخل مترو فافين، إلى جواره مباشرة، وبما أنَّ الأخلاق قد نُسيت في فرنسا، فقد صرخ بمبلغ الفاتورة في وجهي، وقال لي أن أدفع بسرعة، وإذا لم أرغب في ذلك، فسيستدعي شرطيّاً. بالطبع دفعت، لكنَّني أعطيته نصيحة تافهة إلى درجة أنَّه عندما غادر ألقى بها في وجهي: «يمكنك الاحتفاظ بذلك من أجل حماتك. فهي في حاجة إليها أكثر منّي!».

إلَّا أنَّ باريس هي باريس. وبصفتي نشيطاً كشابّ، سرت مباشرة أعلى شارع الشانزليزيه ثمَّ نزولاً مرَّة أخرى. كان الشانزليزيه مضاءً بآلاف الأضواء، مع ضوء باريس الذي يدفئك، ومن خلاله يلقي تعويذته الرائعة، ما يجعلك تشعر بسعادة غامرة. آه، الحياة حلوة في باريس!

لم يكن لديَّ أدنى إثارة مفرطة، ليس أقلّها شوقاً للعنف، حيث وقفت هناك في ميناء سانت دونيز أو أمام مكتب صحيفة الأونو القديم في ضاحية مونمارتر، حيث ريغولو، بطل العالم آنذاك، رفع لفَّة ضخمة

من ورق الصحف. كنت أشعر بهدوء كبير عندما مررت أمام الدائرة حيث كنت ألعب القمار مع ستافيسكي؛ وذهبت لمشاهدة عرض ليدو بمفردي وبهدوء تامّ.

مكثت ثمانية أيّام في باريس. عدت إلى مكان الحادث ثماني مرَّات.

ضربت الشجرة ثماني مرَّات، ثمَّ جلست على المقعد.

ثماني مرَّات، بعينين مغلقتين، جمعت كلَّ ما أعرفه عن التحقيق ومحاكمتي.

ثماني مرَّات رأيت الوجوه القبيحة لكلِّ رجال الشرطة هؤلاء الذين صنعوا تهمتي.

همست ثماني مرَّات: «هذا هو المكان الذي بدأ فيه كلُّ شيء، سرقة تلك الأعوام الثلاثة عشر من شبابك».

كرَّرت ثماني مرَّات: «لقد تخلَّيت عن الانتقام؛ هذا جيّد؛ لكنَّك لن تكون قادراً على التسامح أبداً».

ثماني مرَّات طلبت من الله مكافأة على أن تخلّيَّ عن الانتقام لا ينبغي أن يحدث لأيِّ شخص آخر.

ثماني مرَّات سألت المحكمة عمّا إذا كان شاهد الزور ورجال الشرطة الماكرون قد طبخوا بيانهم التالي في هذا المكان بالذات.

غادرت ثماني مرَّات، وانحنيت أقلّ فأقلّ، حتَّى إنَّ آخر مرَّة مشيت فيها مستقيماً مثل شاب، كنت أهمس في نفسي قائلاً: «لقد فزت بعد كلِّ شيء، يا رجل، لأنَّك هنا، حرّ، لائق أيُّها الحبيب، وسيّد مستقبلك. لا

تحاول اكتشاف ما حدث للآخرين - فهم ينتمون إلى ماضيك. أنت هنا. ويمكنك التأكُّد من أنَّك الأسعد بين جميع الأشخاص المشاركين في هذا العمل».

الفصل الثامن عشر

بانكو

ويخرج أوّل القنّاصين من خندقهم، في هذه الحالة. الشخص الذي يحمل مدفعاً رشّاشاً ليس أكثر ولا أقلّ من جاك لوران بوست، وصديقه، صاحب البندقيّة الطويلة ذات الرؤية التلسكوبيّة، سيرج لافوري.

لقد كان لديَّ الوقت فقط لوضع حقيبتي في القاعة، ثمَّ جلسنا إلى الطاولة لتناول غداء سريع؛ حيث علمت أنَّ هذين السيّدين الودودين هما مبعوثا صحيفة «لو نوفيل أوبسيرفاتور»، اللذان حدَّثني عنهما كاستيلناو.

الخطوة الأولى المعقَّدة التي لم أقلها، هي أنّني لم أكن أعرف حتّى الآن بوجود «لو نوفيل أوبسيرفاتور»، باستثناء أنَّ جان بيير قد شرح لي ونحن في الطريق أنّها صحيفة مهمّة للغاية.

هذان الرّجلان اللذان استقبلاني حين وصولي من رحلة مدّتها أربع عشرة ساعة، ولم أنم، بعد تغيير كامل للوقت والمناخ وكلّ شيء، هل تعمّدا رؤيتي وأنا في هذه الحالة؟ من الممكن تماماً، لأنَّ بوست ملأ كأسي بسخاء، قائلاً إنّني في حاجة إلى هذا الشراب بعد هذه الرحلة الطويلة.

لقد تعاطفا معي فقط. لأنّه لا يوجد شيء أفضل من أن تكون مخادعاً وخطيراً ومتشكّكاً للغاية. ثلاث زجاجات من الويسكي كانت لها نتيجة

واحدة فقط لجعل بوست ولافوري أكثر هجوماً: «هل هذا صحيح؟ أليس هذا صحيحاً؟ بعض الشيء؟ قليلاً؟ ليس كثيراً؟»

هذان الكيانان، اللذان جعلاني أخضع لهذا الاستجواب الجديد بالمكتب الفيدراليّ، عكسا الأسئلة على نحو ميكانيكيّ بحيث، على الرَّغم من أنَّهما متماثلان، يبدو أنَّهما مختلفان بالطريقة التي يدرسان فيها الشخص الذي أمامهما.

في نهاية الاستجواب، كان من دواعي سروري أن اصطحبهما إلى سيَّارتهما مع الانطباع بأنَّهما كانا أكثر تعباً منّي. هل يمكن أن يصمدا مع الويسكي أقلَّ منّي؟

افترقنا سعداء. قال لي جان بيير: «مستحيل. للتغلُّب على هذا، دعنا نذهب لاحتساء شراب في حانة الحي».

في ضجيج الموسيقا، يميل نحوي ذات مرَّة ويقول: «بابي، أعتقد أنَّه فاز، يمكنني الشعور به».

في تمام السَّاعة الثالثة صباحاً، ذهبنا إلى منزله. سأنام هنا، في غرفة جان، ابنه. ينام بين ذراعيه ويذهب ليضعه على الأريكة في غرفة المعيشة مع وسادة وبطانيَّة.

لم يكن هناك من وجبة غداء أتناولها دون أن يكون هناك كثير من الصحافيين حولي. كانت إحدى الوجبات مع بولنيفيغليز (من صحيفة فرانس سوار) التي نزلت من نوميا، ودون المرور عبر شقَّتها، عادت ومعها ميكروفون صغير. كانت المقابلة في كافيتير في شارع مزارين. الشخصيّة، الرقَّة، الذكاء، نبرة صوتها الناعمة، المسجِّل الذي لا يعمل، لكن هذه النظرة

الواضحة والمباشرة التي تغمرني بتعاطف حقيقيّ، كانت توقظني تماماً، لكنَّها لا تلبث أن تعطيني بعض اللكمات. كنت أتحدَّث بفرح وصدق. أفرغت كلَّ ما في جعبتي بحساسية مفرطة وحقيقيَّة.

كنت أدخِّن وأدخِّن، وأوقِّع وأتحدَّث وأستمع إلى أسئلة الصحافيين، وأجيب عن جميع الأسئلة. بقي هذا الأمر لأيّام وليالٍ في المكاتب والشوارع والمقاهي والمطاعم وعلى مقعد ساحة البيغال ومقعد في الشانزليزيه.

أرسلت برقيَّة إلى ريتا: «كلّ شيء يسير على ما يرام، نجاح كبير، أحبّك». في اليوم التالي، تلقَّيت برقيَّة: «لقد نشرت مطبعة كاراكاس أخبار النجاح. برافو».

كلّ يوم كنت أرى الصحف والمجلَّات، وقد خصَّصت مجلَّة «لو نوفيل أوبسيرفاتور» سبع صفحات لهذا المجال.

وبعد أن نُشرت الكتب، كنَّا نبيع نحو ثلاثة آلاف إلى خمسة آلاف نسخة يومياً.

لقد تعرَّفت إلى أهمِّ مشاهير المسرح والسينما. وقد تناولت الغداء لدى أصدقائي آرميل وصوفي إيزارتيل مع أكبر الشخصيَّات العالميَّة. وقد وضع الرسَّام المليونير، فانسان رو، صديق المحامي اللامع بول لومبارد، شقَّته تحت تصرّفي، وهي واحدة من أرقى الشقق في باريس.

إلَّا أنَّ كلَّ هذه التكريمات لم تمسَّ نفسي الداخليَّة. لقد رأيت الكثير في حياتي، الأسوأ والأفضل، كي لا أعتقد أنَّ هذا العالم اللامع لطيف معي الآن، لأنَّني شخصيَّة اللحظة. إنَّما، بعد ذلك، هل سيجري الانتقال إلى شخص آخر أو موضوع آخر؟

عدت سريعاً في ٦ حزيران يونيو إلى كاراكاس، مرهقاً لكن سعيداً، تاركاً ورائي كاستيلناو وفرانسواز ليبرت منهكين تقريباً.

حين الوصول، كانت محطّة التلفزة في انتظاري في المطار.

عدت إلى فرنسا في شهر آب. وعاد الوضع إلى ما كان عليه.

ثمانية أشهر من دون توقُّف.

ثمانية أشهر، انتقلت في أثنائها من ظاهرة النبأ إلى رتبة كاتب، ثمَّ إلى مرتبة النجوميَّة الخطرة.

ثمانية أشهر، بعت في أثنائها أكثر من ٨٠٠ ألف نسخة.

ثمَّ بدأت الرحلات في البلدان التي صدرت فيها ترجمة كتابي: إيطاليا، إسبانيا، ألمانيا، إنجلترا، بلجيكا، الولايات المتّحدة، اليونان. وفي كلّ مكان، الإذاعة والتلفزة والصحف. إنَّما، في كلّ مكان أيضاً لاقيت ترحيباً كبيراً.

عدت إلى كاراكاس. في شقَّتنا، كما كانت قبل الزلزال الذي وقع في منطقة تشاكيتو، التي تقطنها نصف الطبقة العاملة، على المنضدة الحديديَّة حيث كتبتُ بابيون، عانقتُ الكنوز التي جمعتها في هذه المغامرة الرائعة.



في شهر أيار من عام ١٩٦٩، صدر كتاب بابيون - الفراشة -، الذي يتحدث عن مجرم سابق مجهول. كانت القصة غير عادية لكفاح الرجل لانتزاع نفسه من جحيم السجن. واحدة من أكثر القنابل إثارة للدهشة في النسخة الفرنسية منذ خمسين عاماً.

تم بيع أكثر من مليون نسخة في فرنسا، وترجم إلى ثلاث وعشرين لغة في أصقاع العالم. كما تم إنتاج فيلم بعنوان «بابيون».

بعد ثلاث سنوات صدر كتاب بانكو، الذي تحدث فيه عن استمرار مغامرته.

كان هناك علامات استفهام كثيرة حول بابيون.

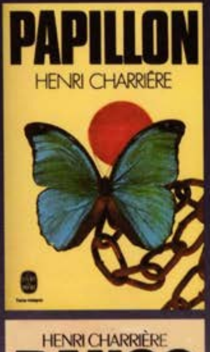
من أين أتى؟ أين كان قبل أن يدخل السجن؟ ماذا فعل بعد ذلك؟

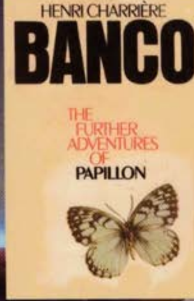
في بانكو، يروي بابيون القصة، ويجيب من خلال قصته عن جميع الأسئلة المطروحة.

إنها قصة مضطربة، قاسية، رقيقة وعنيفة. مغامرات، نجاحات، إخفاقات، طفولة، إدانة. في كتابه الأول بابيون قال كل ما لديه ليقوله.

القصة رائعة لرجل انتزع من قلب سجن في المناطق الاستوائية. عرف هذا الرجل في حياته المكر والسذاجة والحب والشجاعة والضحك.










ISBN 978-9933-38-317-6
9 789933 383176